T
31A

" جـــورج ٠ ن ٠ عطيـــــه "

نشـــــوء فكـــــرة
ســـــوريـــــا الكبـــــرى
وتطـــورهـــا

وهي اطروحة مقدمة لدائرة التاريخ في
الجامعة الاميركية في بيروت لنيل شهادة
استاذ علوم في التاريخ العربي ٠ —

1950?

المحتويات

١ - مقدمة

٢ - نشوء الفكرة السورية وتطورها

١ - الفترة الاولى ١٨٠٠ - ١٨٧٠ . اثر المصريين . في الادارة في الحقوق الدستورية ، في القضايا القومية . الارساليات التبشيرية . ناصيف اليازجي . بطرس البستاني . الجمعيات العلمية واثرها . اثر النهضة من . ١٨٧ ،

٢ - الفترة الثانية ١٨٧٠ - ١٩٠٨ . الصراع من اجل الاستقلال . الصراع الفكري . العثمانية ، الجامعة الاسلامية . سوريون وعرب .

٣ - اعلان الدستور

١ - الجمعيات والاحزاب السرية . جمعية الاخاء العربي . المنتدب الادبي ، الجمعية القحطانية ، حزب اللامركزية في مصر ، جمعية النهضة اللبنانية ، الاتفاقات الاجنبية .

٤ - العهد الفيصلي

١ - الاحتلال الاجنبي والتقسيم . المساعي والحركات السياسية . قيام المؤتمر السوري العام . لجنة الاستفتاء الاميركية . معركة ميلسون ونتائجها . القضية اللبنانية . التيارات الفكرية والسياسية المعاصرة . العمل السياسي للوحدة العربية .

الجزء الثاني

مشاريع توحيد سوريا

١ - الحزب السوري القومي الاجتماعي

نشأة الحزب ، تحديد القومية والقومية السورية . موقف القومية السورية من الشرق والغرب . من الادب السوري ، المبادىء الاصلاحية . برنامج الحزب السياسي واعماله .

المصـــــادر والمراجـع العربـيـة

ابن الحسين ، عبدالله ،	مذكراتي	عمّان ١٩٤٥
ابن حوقل ،	كتاب صورة الارض	ليدن ، ط . ثانية ١٩٣٨
ابن خلـدون ،	مقدمة كتاب العبر	بيروت ١٨٩٢
ابن العبرى	تاريخ مختصر الدول	بيروت ط. الاب صالحاني ١٩١٢
ابو عز الدين ، سليمان	ابراهيم باشا في سوريا	بيروت ١٩٢٩
احد اعضاء الجمعيات السرية	ثورة العرب	القاهـرة ١٩١٦
اديب ، اوغست	لبنان بعد الحرب	مصـر ١٩١٩
ارمله ، اسحـق	الملكيون	بيروت ١٩٢٦
ارنولد وغيره	تراث الاسلام	مصـر ١٩٣٦
اسحق اديب	الدرر	بيروت ١٩٠٩
الاصبهاني ، ابو خرج	الاغاني	مصر - مطبعة التقدم بدون تاريخ
الايام ، جـريـده	الوثائق والمعاهدات	دمشق ، ١٩٢٦
البخـاري	صحيح البخـاري	القاهرة ١٢٩٦ هـ.
برستد ، هـ.ج	العصور القديمة	بيروت ١٩٣٠
برصـوم ، اغناطيوس افرام الاول	اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية	حمص ١٩٤٣
بروكلمان ، كارل	تاريخ الشعوب الاسلامية	بيروت ١٩٤٩ - ١٩٥٠
البلاذري	فتوح البلدان	ليـدن ده غويه ١٨٦٦
بولس مسعد	لبنان والدستور العثماني	مصـر ١٩٠٩
بيشون ، جـان	بواعث الحـرب العالمية في الشرق الادنى	بيروت ١٩٤٦

بيهم ، محمد جميل — قوافل العروبة ومواكبها — ج ٢ بيروت ١٩٤٩

التوراة والانجيل — الطبعة الكاثوليكية والاميركية

جمال باشا ، احمد — ايضاحات عن المسائل السياسية — اسطنبول ١٩١٦

جمال باشا ، احمد — مذكرات جمال باشا — مصر ١٩٢٢

حتي ، فيليب — تاريخ العرب ترجمة عربية — بيروت ١٩٤٩

" " — سوريا والسوريون من نافذة التاريخ — نيويورك ١٩٢٦

" " — اللغات السامية المحكية في سوريا ولبنان — بيروت ١٩٢٢

حبيب كاتبة — الناطقون بالضاد في اميركا ترجمة عربية ، القدس ١٩٤٦

الحداد ، نجيب — المختارات — الاسكندرية ١٩٠٣

الحزب القومي — القضية الفلسطينية — بيروت ١٩٤٥

" " — مشروع سوريا الكبرى — بيروت ١٩٤٦

الحصري ، ساطع — يوم ميلسون — بيروت ١٩٤٧

الحكومة الاردنية — الوثائق القومية في الوحدة السورية الطبيعية — عمّان ١٩٤٧

الحكومة اللبنانية — قضية الحزب القومي — بيروت ١٩٤٩

الخازن ، فيليب وفريد — المحررات السياسية والمفاوضات الدولية من سنة ١٨٤٠ - ١٩١٠

الخالدي ، الشيخ احمد بن محمد — تاريخ الامير فخر الدين المعني — بيروت ١٩٣٦

خباز ، حنا — سوريا وفرنسا جزآن — مصر ١٩٢٨

الخطيب ، محب الدين — كتاب المؤتمر العربي الاول — القاهر ١٩١٣

دريان ، الطران يوسف — نبذة تاريخية في اصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان من قديم الدهر الى الان . — مصر ١٩١٦

رستم ، اسد — الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي — بيروت ١٩٣٠

فريق من شباب العرب — كلمة السوريين والعرب في مشروع سوريا الكبرى — دمشق ١٩٤٧

القرآن

قلعجي ، قدري — مدحت باشا — بيروت ١٩٤٨

كاتبه ، حبيب — عظات وطنيه — نيويرك ١٩٢٢

الكواكبي ، عبد الرحمن — ام القرى — مصر ١٩٣١

الماوردي — الاحكام السلطانية — مصر ١٣٢٨ هـ

مفرّج ، فؤاد خليل — المؤتمر العربي القومي في بلودان — دمشق ١٩٣٧

المقدسي ، شمس الدين — احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ط. ثانية ده غويه — ليدن ١٩٠٦

المقدسي ، انيس — العوامل الفعاله في الادب العربي — بيروت ١٩٣٩

المكتب الدائم للمؤتمر القومي الاردني — على هامش الكتاب الابيض — عمّان بدون تاريخ

نعيمه ، مخائيل — المراحل — بيروت ١٩٣٣

الهاشمي ، طه — مفصّل جغرافيه العراق — بغداد ١٩٣٠

وافي ، الدكتور على عبد الواحد — فقه اللغه — مصر ١٩٤٤

ياقوت الحموى — معجم البلدان ، ليبزغ ، وستنفيلد — ١٨٦٨

اليعقوبي ، ابن واضح — تاريخ اليعقوبي ط. هوتسما — ليدن ١٨٨٣

جرائد ومجلات ومعاجم

البشير	بيروت	النظام الجديد	بيروت
البيرق	بيروت	النشرة الرسمية للحركة القومية الاجتماعية	بيروت
بيروت ـ المساء	بيروت	نشرة عمدة الثقافة في الحزب القومي	بيروت
الف باء	دمشق	نشرة عمدة الاذاعة في الحزب القومي	بيروت
السمير	نيويورك	النهار	بيروت
الجمهور	بيروت	المجلة	بيروت
الدنيا	دمشق	كل شيء	بيروت
الهلال	القاهرة		

الحضارة	القاهرة
لواء الاستقلال	بغداد
مجلة المجمع العلمي العربي	دمشق
محاضرات الندوة	بيروت
سومر	بغداد
الرسالة	القاهرة
الصباح	بيروت سنة ١٨٨١
لسان الحال	بيروت سنة ١٨٨١
المنار	القاهرة السنة الثانية
المباحث	القاهرة المجلد الثاني
البرق	بيروت
الجريدة	سان باولو
المقتطف	القاهرة
المشرق	بيروت
تاج العروس	للزبيدي

مقدمـــــــة

في هذا الظرف الذى تثار فيه قضية ذات اهمية كبرى با لنسبة لحياة البلاد السورية ويتوقف على حلها مستقبل هذه البلاد واتجاهها في الحياة ، رأيت ان دراسة الحركات التي تسعى لتوحيدها وتعيين سير اتجاهها في الحياة من الامور الضرورية لتفهم المصير الذى قد تقودها اليه هذه الحركات .

وقد عالجت الموضوع من عدة نواح . فدرست النهضة الحديثة واصولها ، واهتممت بناحية خاصة ، هي ناحية الافكار والحركات التي مهدت السبيل الى الحركات الحديثة الساعية لتوحيد البلاد السورية ، وختمت الاطروحة بدراسة عن واقع البلاد السورية من الناحية الجغرافية والتاريخية والفكرية لنرى ان كان هناك من مبرر للقول بوجود امة سورية .

وفي دراستي ، وجدت صعوبة عظيمة من ناحية المصادر والمراجع . فالموضوع لم يكتب عنه احد ، وما كتب عنه كان مكتوبا اما لغاية سياسية بحته او لم يكن منزها عن بعض الغايات الدينية او السياسية او غيرها من الغايات .

وقد اضطررت الى استعمال بعض الاصطلاحات استعمالا تحكميا كسورية الطبيعية لتعني الهلال الخصيب ، بدلا من سوريا الجغرافية التي تعني الشام .

وفي النهاية لا يمكنني الا ان اقدم شكرى لكل من ساعدني في اخراج هذه الدراسة البسيطة الى حيز الوجود . اخص منهم بالذكر الدكتور نبيه فارس الذى اخذت عنه في سنوات دراستي عليه ، روح البحث المجردة ، وان لم اتمكن من المحافظة عليها كثيرا ، والدكتور انيس فريحه الذى كان لتوجيهاته اثر كبير في تفهمي تاريخ هذه البلاد .

جورج عطيـــــه

الجزء الاول

نشوء الفكرة السورية وتطورهـــــا

اول القرن التاسع عشر الـــــى ١٩١٨

الفترة الاولى : ١٨٠٠ ــ ١٨٧٠ ــ

لا بد لنا في هذه الفترة العصيبة التي خرجت بها فكرة الدولة السورية الموحدة من طورها المثالي الى طورها العملي من ان نبحث في القضية التي آليت الجهد ان تظهر حقيقتها . ما لها وما عليها دون اعتبار الان لمفهومها الا قبل ان كانت تعني الهلال الخصيب او سوريا الجغرافية بمعناها المتعارف عليه . فالامر المهم امامنا في اساس الموضوع هو ان نتتبع نشوء هذه الفكرة ، اى فكرة توحيد الارض السورية في دولة سياسية واحدة ، ووعيها لنفسها ولكيانها القومي ، منذ تطور البلاد الحديث وبدء شعورها بالحاجة الملحة الى الاستقلال والتكتل والوعي للمصير . وطبيعة هذا الموضوع تضاعيفها حصوبتين . فالمشكلة في حد ذاتها ليست مشكلة جغرافية او تاريخية سياسية فحسب، بل هي ابعد من ذلك ، هي مشكلة حياة وتراث وميزات وخصائص ومصالح ، وهي امور كثيرا ما تضرب صفحا عن الحدود الجغرافية والحدود السياسية اذ انها بطبيعتها امور نفسيه تتجاوز الاصطلاحات والمفاهيم الحسيه ، مما يجعلنا في سياق درسنا الا نعتبر الواقع الجغرافي وحده او الواقع التاريخي وحده ، بل اثرهما بعضهما في بعض، واثر المشاكل الحياتية الاخرى في الشعوب التي سكنت هذه البقعة من الارض.

والصعوبة الاخرى هي الغموض والابهام والبلبله التي رافقت حركة الوعي القومي في البلاد السورية ، وهي لا تزال فاعلة فعلها فيها . ويؤلف وجودها المشكلة القومية بحد ذاتها ، اى فهم حقيقة انفسنا وحقيقة بلادنا هل نحن عرب او سوريون ام لبنانيون . واذا كنا احد هؤلاء فلماذا نحن كذلك وماذا يمثل كل واحد منها ؟ ولماذا وجدت هذه المشكلة التي يندر وجودها في بلاد اخرى؟ فهي كما نرى قضية جد خطيرة يتوقف عليها ولاء الفرد لامته وعلى هذا الولاء يتوقف مصير الشعوب ذات العلاقة المباشرة . فامام هاتين الصعوبتين نرى انفسنا مضطرين للسير بحذر والى البحث على جميع العوامل التي تدفع المرء لان يتخذ قرارا معينا تجاه هذا الامر خصوصا وان العاطفة تقود خطانا دون وعينا او ارادتنا ودون تاملنا في الحقيقة المجردة . ولهذا يجدر بنا العودة الى اوائل القرن الماضي عندما بدأت تباشير اليقظة الحديثة تلوح لنا حاملة على اكفها مواعيد الخير والبركة والسعادة والعزة والكرامـــــة .

اول الغيـــــث :

وقصة هذه اليقظة تبتدئ منذ اول تفتح على معنى الحياة الشعبية في منتصف القرن الماضي فالقومية لم تكن طوال الحكم العثماني موجودة او ذات اثر او كان احد يفكر فيها او يحلم بان ينتفض شعب على شعب ، وامة على امة فتحارب الامة كشعب وليست كامير او اقطاعي . فالحكم العثماني في اول امره سلم زمام الامور في البلاد الى الرؤساء الاقطاعيين ونصب فوقهم قوة عسكريـــة تهزلهم السيف كلما حاول احد هم ان يتطلع الى غير ما عيّن له التطلع اليه . ولكن بعد ثورة الغزالي (١٥١٨) الذى نصبوه واليا على سوريا الطبيعية بكاملها ، فاخضع من ثاروا على السلطة العثمانية في البقاع وفلسطين ورتب الدوائر وجمع الجباية ، ثم هيأ ثورة ليستقل بالبلاد لنفسه (١) تغيرت الحال فجأة وقسمت البلاد الى ولايات تحكم مباشرة من حكام تعينهم القسطنطينية على دمشق وحلب وطرابلس وتركت امر الاماكن الجبلية الوعرة المسالك الى حكامها الوطنيين (٢) على ان يؤدوا لها الجزية . وبهذه الخطوة وضعت الحكومة العثمانية اسفين الشقاق الاول في تاريخ سوريا ، واصبح هذا التاريخ يمثل مظهرين من مظاهر التاريخ السورى بالنسبة لوقوع الولاية من الحكم السلطاني وحسب نفوذ الامراء الاقطاعيين وسطوتهم وشخصيتهم وامكانيتهم من تحدى السلطة . والامر البالغ الاهمية في هذا التدبير هو ابتداء شعور اللبنانيين بشخصيتهم المنفردة وبالميزه الخاصة التي لهم من جراء موقع الجبال اللبنانية وصعوبة الوصول اليها . ومع ان هذه الجبال لا تنفرد بين الجبال السورية بميزة الصعوبة ، اذ ان جبال العلوية وجبال اللكام والدروز منيعة حصينة ، لكن وجود اكثرية مسيحية مارونية فيها جعلها تنكمش على نفسها وتطلب استقلالها . وفي نظرى ان هذه الميزة التي اعطيت لهذه الجبال في ذلك الحين ، هي التي ادت اليوم الى شيوع روح انفصالية عند قسم من اللبنانيين لان جذورها واضحة كل الوضوح واسسها بينة المعالـــم .

وما يجب الا يغرب عن بالنا انه خلال العصر العثماني حدثت حركات انفصالية او استقلالية ولم تكن في حقيقتها حركات شعبية جامعة ، فالحركات الاستقلالية كظهور الامير فخر الدين الثاني ومحاولته ومحاولته التخلص من الحكم التركي لم تكن لرغبة في استقلال لبنان ولا حبا بالمجد والعزة القومية ، فالعصر الذى ظهر فيه الامير هو عصر اقطاعي ، كانت تتنافس فيه العائلات على الحكم ولم يكن الشعب يهتم فيمن يحكمه الا بقدر ما يؤمن له من اسباب اللين والرخاء . ففي هذا العصر لا نجد ان هناك اى مفهوم

---

(١) راجع R. Thoumin جزء Histoire de la Syrie p. 252

(٢) Delegation of Power يعبر عن المعنى اكثر من العربية

قومي بين الشعب او بين الحكام ، ومن يراجع ما وصلنا من كتابات في ذلك العصر يرى ان الشعب يسمي نفسه "اولاد عرب" (١) وهو يستعمل هذا اللفظ للتفريق بين سكان البلاد والاتراك ، ولكن ليس للشعب من ولاء الا ولائه لحاكمه او سيده الاقطاعي ، وتخلو كتب الادب والتاريخ من الامور التي توضح لنا الطريق او تنير لنا السبيل . فتارة نرى ان اسم الشام يطلق على البلاد بكليتها ، وطورا على ايالة الشام وحدها او على مدينة دمشق التي اصبحت تسمى باسم البلاد . هكذا يعرفها الشعب ولا يعرف ان اسم البلاد الحقيقي هو سوريا وقد بقي يجهل او لا يستعمل هذه التسمية حتى اوائل القرن التاسع عشر ، فقلولني في رحلته الى هذه البلاد يذكر ان السكان لا يستعملون الاسم اليوناني "سوريا" وانهم ليجهلونه او قد اقتبسوا الاسم الذي دعاها به العرب "بر الشام" (٢) بيد ان اسم البلاد الاصلي لا يضيع ، فكثيرا من اسماء المدن السورية تغيّر في العصر اليوناني والروماني ثم عاد الى اصله السامي ، فحلب مثلا وهو اسم المدينة السامي Halebo انقلب الى Beroea ثم عاد الى اصله ، ومنبج اسمها السامي Mabbog اصبح في العصر اليوناني Hierapolis ثم عاد الى اصله ، وكذلك بعلبك وغيرها من المدن والاسماء . وهذه ظاهرة طبيعية يمكن تعليلها بصعوبة نسيان الاسماء الاولى اذ انها تظهر للوجود بين الشعب بعد طمسها حالما تسمح لها الظروف .

والواقع ان العصر الذي سبق حملة المصريين على سوريا كان اظلم عصور التاريخ السوري من حيث النفوذ السياسي والحركة العلمية والادبية ومستوى اللغة والحياة التجارية والصناعية ، فالنفوذ القليل الذي كان لسوريا في عصر المماليك خسرته لتركيا ، واللغة العربية التي كان العلماء يعنون بسبكها وابرازها بحلة قشيبة فقدت روعتها واخذت في الانحطاط واجبر الشعب على استعمال التركية في معاملاته الرسمية ، كما اضحت التجارة مع الاوروبيين مخاطرة كبيرة بالنسبة لهم فقد لوا معها من قدومهم للتجارة فانحطت ثروة البلاد وبارت الارض واختفى كثير من الغابات والمدن ، وضاعت بذلك معالم العزة القومية ، وساد الخمول عقول الشعب واصبح كثيرهم يرضى ببلغة العيش ولو انتته مغموسة بالدم . وانقلبت القوة العسكرية الى صراع داخلي بين البيوتات الاقطاعية تتنازع فيه السلطة وتتخاطف فيه المصالح والمنافع الفردية .

---

(١) الخالدي ، الشيخ احمد بن محمد — تاريخ الامير فخر الدين المعني . بيروت في عدة اماكن

(٢) راجع : F. Volney - Travels in Syria & Egypt الترجمة الانكليزية — لندن سنة ١٨٠٢ — ج ١ — ص ٢٠١

وجاء المصريون فاتحين سنة ١٨٣٠ وكانوا كاهل البلاد يدعون سوريا بالشام او بر الشام ، ولم يكن يعرفها باسمها الاصلي الا الاجانب الذين كان اهتمامهم بالارض المقدسة يتزايد ورغبتهم في تقصي تاريخ البلاد واحوالها بتكاثر . فبقاء الاسم العربي دليل واضح على عقلية اهل البلاد حينذاك وتقيدهم بالمعنى الديني للاسم ، وقد حاولت تتبع اسم سوريا في كتابات القرنين السابع عشر والثامن عشر العربية فلم اجد له اثرا يذكر ولم يبرز ثانية للوجود الا بعد قدوم الارساليات التبشيرية في اوائل القرن التاسع عشر اذ قد ذكر بيريه ان السكان يدعون البلاد باسم الشام او بر سوريا الشام (١)

اثـــر المصريـــــن :

ان قدوم الارساليات التبشيرية وقدوم المصريين الى سوريا يشكلان تحولا خطيرا في تاريخ البلاد . فالمصريون تركوا اثرهم الفكري والاداري والاجتماعي كما سنرى كما تركتها الارساليات الاجنبية . فمن هذه الناحية يزداد اهتمامنا بهم اكثر من ازدياده بالناحية السياسية التي لم تكن الا تنفيذ مطامع وسد حاجة .

فعدا عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية المتاخرة ، لم يكن قبل دخول المصريين في لغة البلاد العامية او الفصحى ما يعبر عن معنى القومية او الوطنية (٢) اى ان الشعور بوجود وطن معين تربط الجماعة به صلات روحية كان مفقودا . وهذه الناحية الشعورية يعبر عنها الادب اكثر من غيره وادب سوريا حينذاك خلا من اى تلميح لهذه الناحية الا من بعض الكره الذى اخذوا يبدونه تجاه الترك ووجود الوعي الظاهر بالفرق بين الاثنين على الرغم من الامره والسيطره والغطرسة التي كان يبديها التركي ويقبلها السورى .

ولا شك ان لانعدام وجود الشعور الوطني سببين رئيسيين ، فالرابطة الدينية وهي رابطة متينـــه كانت هي الوحيدة التي تجمع بين انسان وانسان . وقدمها وتغلغلها في نفس الشعب وعقليته في البلاد السورية ، لم تكن لتترك مجالا لروابط اخرى ان تظهر او تفعل في الحياة الاجتماعية . فالمؤمن اخو المؤمن وليس ما يمنعه عنه حائل تاريخي او اجتماعي او مصلحي لان هذه العلاقة بينهما علاقة من صنع القدرة الكلية وليست من صنع الناس . فعلاقة المؤمن بغيره من المؤمنين يجب ان تختلف بطبيعتها ومداها عن غيرها من العلاقات والروابط . ولما كان العثمانيون من المؤمنين منهم اقرب واجب الى نفوس السوريين المسلمين من السوريين النصارى رغم كره اولئك للاتراك .

لم يكن النصراني يتمتع بامتيازات المواطن مطلقا اذ انه من (الرعايا) وكون الانسان من الرعية تعني حضارته وتعني عدم تمكنه من لباس اى لون يختاره من الثياب ومنعه من امتطاء اى نوع من الدواب يحلو له

---

(١) راجع M. F. Perrier — La Syrie sous le Gouvernement de Mehemet-ali
وقد ورد في النص Louria ولا شك في ان ال ل هي خطاء مطبعي بدلا عن ال ك ص: ا وراجع ايضا الاصول العربية — ج٥: ص ٢٧٨ و ٤٠٤ و ١٨٤

(٢) Perrier — ص ١٢٢

امتطاؤه وضرورة خدمه النعل امام بعض الجوامع المقدسة وعدم منحه شرف رد السلام على الوالي في الطرقات (١) وفرض الجزية عليه . وهذه العادات ادخل بعضها في عصر عمر بن عبد العزيز وبعضها في ايام المتوكل فبقيت فاعلة في العصور التي تلتها خصوصا بين العامة على الرغم من تولي العديد من النصارى مراكز بالغة الاهميـــــة .

وعقلية من هذا النوع هي ضد القومية كما انها ضد اعتبار الانسان بحد ذاته وضد الانطلاق الاجتماعي والفكري فالاجنبي الذي كان يريد السياحة في البلاد لم يكن يجرؤ على السير وحده في الطرقات ولم يكن ليجوز له لباس ثوبه الافرنجي وبرنيطته ليس لانه اجنبي بقدر ما يمثله لباسه من تنكر للطقوس الدينية (٢) وقد اضطر السائح بركهرت Burckhardt ان يرتدي الملابس الوطنية ويتخذ لنفسه اسم "الشيخ ابراهيم" ليتمكن من التجوال في البلاد (٣)

والسبب الثاني وهو الى حد ما نتيجة الاول لعدم وصول الافكار الاوروبية الجديدة الى هذه البلاد فالثورة الافرنسية وما حملته من افكار ديمقراطية من حرية واخاء ومساواة ، ومن نقل الحكم الى الشعب وتوليته امر نفسه لم تكن قد وجدت بعد طريقها الى هذه البلاد ولما كانت الديمقراطية والقومية ميزتين عقليتين اي انهما نتيجة تغير في التفكير والنظرة الى الحياة والانسان وصفته الاجتماعية ومقدرته الانسانية على مصارعة الكون . فالعقلية المسلمة بنظرتها الجبرية الى الامور وقبولها فكرة القضاء والقدر قبولا يكاد يكون اعمى في العصور المتاخرة خصوصا ، لم يكن من السهل تغييرها دون ثورة فكرية جديدة تقلب الاوضاع العقليـــة اولا واخرا .

متى عرفنا هذين السببين يمكننا ان نرى مدى الاثر المصري واثر الارساليات التبشيرية فاذا جردنا الحملة المصرية من مساوئها المباشرة ومعاملتها القاسية الاستثمارية للشعب وزرعها روح التعصب الطائفي لا مباشرة وجدنا انها تركت حسا في الحياة الاجتماعية بعيد الاثر في امور ثلاثة على الاقل (١) في الادارة (٢) في الحقوق الدستورية (٣) في القضايا القومية .

في الادارة :

كانت ادارة البلاد في العهد العثماني متروكة في يد الاقطاعيين يقومون بالاعمال الرئيسية في البلاد ان كانوا كفأ لها او لم يكونوا مستوحين قواعدهم من الشريعة الاسلامية فحاول ابراهيم باشا ان يستبدل

---

(١) راجع Perrier ص. ٢٠٨ (٢) رفض المسلمون لبس البرنيطه لانها في حال لبسها تمنع الراس من الوصول الى الارض عند الصلاة . (٣) ابو عز الدين ـ سليمان ـ ابراهيم باشا في سورية ص ٣١٥

هذه العادات شبه القانونية بقانون مدني عادل يتساوى امامه الجميع . ومع انه لم يفلح في ذلك لانه لم يتمكن من احقاق الحق في احيان كثيرة ، لكن فكرة التساوى امام القانون بحد ذاتها غرست في نفوس الشعب واصبحت غاية يسعى لها المصلحون . والقانون المدني المستمد من صلب العدالة والحياة — الاجتماعية وليس من الشريعة هو اكبر خطوة كان يمكن ان يقوم بها مصلح لتقديم خطى القومية وبث روحها في الشعب .

وثمة امر اخر كان له اثره هو فكرة المركزية في حكم البلاد . فقد كان يحكم البلاد السورية ولاة — ومتصرفون مسؤولون مباشرة امام باب العالي نظريا وامام انفسهم عمليا وليس امام حاكم عام او وال عام لكل البلاد السورية هو وحده المسؤول عن ادارتها . فلم يكن ثمة رجل واحد لسلطة على كل البلاد سوى سرعسكر (برية الشام) اوقائد الجيوش العام ومركزه دمشق . ومع عدى ذلك فالبلاد مقسمة الى ولايات لها شبه استقلال داخلي . فكانت غاية محمد علي ان يجمع هذه الولايات تحت سلطة موحدة تدير دفة البلاد من مركز واحد . فعين حاكما عاما هو شريف باشا واطلق عليه اللقب الفخم " حكمدار عربستان " وهو الاسم الذى كانت تعرف به سوريا عند الاتراك . وانشأ لكل مدينة وضواحيها متسلما له صلاحيات الحاكم والمحافظ تقريبا يعاونه في الادارة وجمع الضرائب المباشر (١) واوجد في كل مدينة يربو عدد سكانها على الالفين ديوانا للشورى من ابناء المدن نفسها لادارة بعض شؤونهم يتمثل لاول مرة فيها المسلمون والمسيحيون وفق عددهم ولهذه المجالس صفة استشارية وادارية يتعود بها ابناء البلاد على ادارة دفة الحكم .

وان لم ينجح ابراهيم باشا او والده في تنفيذ مشاريع الاصلاح الادارية هذه لكبر الخطوة التي اعتزماها ، فمما لا شك فيه انهما نجحا في اقرار نصاب الامن والقضاء على قاطعي الطرق الذين كانوا يعيثون الفساد على الشاطئ وعلى الطرقات العامة ، فانزل بمن القى القبض عليهم العقابات الصارمة والقى على عواتق رؤساء القبائل وشيوخ القرى تبعة ما يقع في دوائرهم من الجنايات والسرقات التي لا يكشف مقترفوها (٢) فساد الاطمئنان البلاد في بادئ عهده وارتدع قاطعوا الطرق والقبائل عن مهاجمة المدن ، ويقال ان قبائل عنزه " التي كانت تقتحم بين الفينة والاخرى سهول حماه وحلب للنهب والسلب لم تجرؤ على هذه المخاطرة في عهده سوى مرتين (٣)

في الحقوق الدستوريـــــــة :

واعني بها الحقوق الطبيعية للانسان كانسان التي امنتها له الثورة الفرنسية من حرية دينية واستقلال

---

(١) Perrier - ص ٥٦ - ٥٧ (٢) ابو عز الدين ص : ٣١٩ الى ٣٢٠

(٣) Perrier - ص ١١٤

ذاتي ومساواة وسنوح فرصة للعمل . فلقد عرفت مصر اول من عرفت بين الامم العربية اثر الثورة الفرنسية بما نقله معه نابليون في حملته عليها من علوم ومعارف ومن تجديد في اساليب الحكم والادارة . وقد تاثر بهذا كله محمد علي كما تاثر به ولده ابراهيم باشا فاراد اتطبيقه في بلادهما وفي البلاد السورية . فكان اول ما عمله محمد علي هو تسليم زمام امور دولته الى عدد كبير من الاوروبيين كسليمان باشا الفرنساوي وكلوت بك وغيرهما . ولما قدم ابرهيم باشا الى سوريا ازال الفروقات القائمة بين الطوائف الدستورية ، واجرى بعض المساواة بين الرعايا لا فرق بين مسلميهم ومسيحييهم في الحقوق ودفع الضرائب ولم يفرق بينهم في شيء سوى تكليف المسيحيين دفع الجزية دون المسلمين الذين كلفوا القيام بالخدمة العسكرية (١)

ان اعطاء الحقوق هذه للمسيحيين كان معناه السماح للبعثات التبشيرية بالقدوم وفتح المدارس وازدياد العلوم ، وبالتالي احداث الثورة الفكرية الضرورية لظهور الوطنية والقومية . وليس هذا كل ما في الامر فقد فكر ابراهيم باشا بانشاء المدارس الابتدائية في كل البلاد وجعل التعليم الاولي الزاميا . ولانشغاله في الحروب لم يستطع ان يحقق الا الجزء اليسير من فكرته هذه بانشاء عدد قليل من المدارس في بعض المدن الكبرى ، فاعطت هذه الخطوة الدافع القوى للنهضة العلمية الادبية التي تلت عهده وحققت فوق ذلك للبلاد رجالا مستنيرين قديرين على ادارة دفة الحكم في البلاد وعلى القيام بالاعمال القضائية والمالية . ولم تكن محاولة ابراهيم باشا للضرب على يد الاقطاعيين لاعطاء الشعب حقوقه بالامر اليسير ، لعدم تمكنه من تسديد الضربة لمعرفته بان بقائه في سورية يتوقف على رضى البيوتات الكبيرة وعلى تعاونها معه ، اذ انها هي صاحبة الامر الفعلي في البلاد . لكنه كان يدرك ان القضاء عليها هو الخطوة الاولى في احلال الاستقرار في البلاد وتوحيدها واركانها الى حكمه ، فلم يتوان في الظروف التي سنحت له من القضاء على نفوذ بعض العائلات وتحطيم مراكزهم .

في القضايا القوميـــــة :

لما كنا نبحث في اطروحتنا هذه اصول الفكرة السورية ، فلا بد لنا من الرجوع الى ما صدر عن هذه البلاد من تفكير فيها وعمل لها . وقد عرفنا ان الشعب كان يسمي نفسه "اولاد عرب" وكان يطلق اسم بر الشام او برية الشام على سورية ، كما ان كلمة "عربستان" كانت شائعة عند الاتراك وقد استعملها السكان في كتابهم الى السلطان سنة ١٨٤٠ الذى يطلبون به العودة تحت حكمه (٢) وكما اشرنا انه بعد قدوم البعثات التبشيرية عاد اسم سوريا للظهور والانتشار وقد استعمل في الالقاب الرسمية بدل كلمة الشام

---

(١) Perrier ، ص ٨٠.

(٢) اسد رستم — الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي — ص ٢٤٨ جزء ٥ .

فهناك عدة مناشير اصدرها القائد العسكرى التركي مذيلة بتوقيع سرعسكر " برية سورية " (١) . وكل هذه تدلنا على امر واحد هو عدم وضوح فكرة قومية معينه ولكن الذى لا شك فيه هو انه كان هناك خلاف مستحكم بين العثمانيين والسوريين ، وان السوريين بجميع مللهم كانوا يكرهون الاتراك للحيف الذى الحقه بهم هؤلاء . (٢)

ويتفق المؤرخون على ان محمد علي وولده ابرهيم كانا يرغبان في قيام امبراطورية عربية . وقد ذكر بيريه انه سمع شيئا من هذا القبيل عن محمد علي وولده ابرهيم ولكنه يستغرب قيامه بعمل من هذا النوع في بلدان لم تفقه معنى الوطنية بعد ،(٣) . والحقيقة ان محمد علي كان يرغب فعلا في مد سيطرته على الاقطار المتكلمة باللعربية بينما كان ولده ابرهيم يرغب في امبراطورية عربية وبنهضة عربية معا كان يتكلم عنها دائما ويشجعها وينشرها ويحاول ان يقنع الشعب انه بمجيء محمد علي اشرق عصر ذهبي جديد . وقد كان يذكر الجيش في بياناته بامجاد العرب وبتاريخهم المجيد ولا يألوا جهدا في دعم نظرته هذه بالبرهان العملي . (٤) . وقد راينا كيف اوجد الكثير من الاصلاحات في جميع الحقول الادارية والاجتماعية برهانا على مقاصده وفتح المدارس التي دفعت التعليم الوطني في طريقه ، خصوصا بين المسلمين الذين كان يقصد ان يوقظ فيهم الاعتزاز بالامجاد العربية . (٥) .

لقد فشل ابراهيم باشا في محاولته هذه ويرجع ذلك الى اسباب عديده منها تدخل الدول الاجنبية وانعدام الوعي القومي لا العربي منه ولا السورى ، والعقلية الطائفية المسيطرة ولما قام به من اعمال سياسية لا تتفق والروح الجديده التي حملها . وما زاده من ضرائب وتجنيد اجبارى لم يتمكن حتى مسيحيو لبنان الذين ساعدوه على فتح البلاد من تحمله . فقاموا عليه في اواخر عهده كما قامت عليه البلاد في اكثر المناطق ، لا كرها به ولا حبا بالاتراك ، انما رغبة في التخلص من كاهل الضرائب الفادحة ومن رزء المعاملة القاسية التي عامل بها الشعب .

وهكذا نرى ، اذا جرينا حملة المصريين على سوريا من مساوئها الخاصة ، انها كانت بالنسبة لسوريا ما كانته الحملة الافرنسية بالنسبة لمصر ، فقد حملت معها بزور المفاهيم الجديده والحياة الجديده ورمتها على صخر وعلى تراب فمنها ما اثمر ومنها ما لم يثمر ، لكنها على الاجمال مهدت الطريق باعمالها

---

(١) المصدر نفسه — ص ٢٠٤ و ١٨٤ ، وبيان الكومودور نابيير الانكليزى يستعمل الكلمتين (يا اهالي بر الشام اى سوريا ص ١٥٨ . (٢) جورج انطونيوس يقظة العرب ص ٣٣ (٣) راجع Perrier, p. 123 و c/f A. Rustum - The origin of the Egyptian expedition to Syria p. 91-96

(٤) انطونيوس ، ص ٢٨

(٥) المصدر نفسه ص ٤٠

باعمالها هذه للوعي القومي وجعلت الشعب يتلمس بنفسه بعض طريقه وسط الظلمة الحالكة .

الارساليات التبشيريـــــة :

والامر الثاني الذى اثمر ودعم البناء الجديد دعامة كبرى ، الارساليات الاجنبية الدينية . فلهذه الارساليات تاريخ يسبق عهد محمد علي بفترة قصيرة ، اقتصرت فيه اعمالها على مدينة بيروت وضواحيها . فكان اثرها ضئيلاجدا في بادىء امره .

واهمية الارساليات قائمة في نوع عملها اى فتح المدارس، الامر الاساسي في قيام النهضات . فليس من نهضة حقيقية وليس من وعي شعبي لامر من الامور خصوصا بالقضايا الوطنية الا ويجب ان تحمل عبئه المدارس وتقود خطاه . ففي هذه المدارس نمت بذور الفكرة الوطنية وتعشبت عن نظرة الى هذه الفكرة وافترقت وخرج منها خليط عجيب من المفاهيم للقومية والوطنية .

ولما كنا نحن لا نؤرخ لهذه الارساليات وانما لتوجيهاتها التي كان من شانها تنمية الوطنية وبث الفكرة الامة السورية بين طلابها فيجدر بنا ان ننظر في اعمالها وفي ادبها وفي برامجها التدريسية . فلقد وفدت الارساليات الدينية الى سوريا اول ما وفدت في منتصف القرن الثامن عشر فتأسست بعض المدارس الدينية كمدرسة عين ورقة عام ١٧٨٩ ، وتاسس بعدها عدد قليل من المدارس وجلها من المدارس الوطنية التي اسسها الموارنة لتنشأة الكهنة والرهبان ، ولم تزدد عددا وتتشعب غاية الا بعد قدوم الارساليات الاميركية والافرنسية في القرن التاسع عشر . فانشاء الاباء العازاريون مدرسة عينطوره سنة ١٨٣٤ واليسوعيون مدرسة غزير سنة ١٨٤٦ التي كانت في اول امرها متخصصة في العلوم الدينية Seminar ، ثم تحولت الى كلية سنة ١٨٥٥ ،(١) . وانشاء الاميركي وليم طمبسون مدرسة في بيروت عام ١٨٣٥ وتعطلت ١٨٤٠ ومن ثم انشاء كرنيليوس فانديك مدرسة في عبيه بعد قدومه الى هذه البلاد ولمسه الحاجة الماسة الى المدارس والمعلمين . وهي اول مدرسة عالية نشأت في البلاد ، كانت مقدمة لنشوء الجامعة الاميركية في بيروت . فاخذت بتدريس العلوم الفيزيائية والرياضية وعلم الهيئة واللغة العربية والجغرافية وكان اهتمامها الزائد يتوجه لتدريس الكتاب المقدس والامور الدينية (٢) . ومهمتها الاساسية تدريب الاساتذة . وقد علم فيها رائدا العصر الشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني وهم اكبر شخصيتين ادبيتين قبل الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وقد اعطت هذه المدرسة وهياة للبلاد عددا لا باس به من العلماء والاساتذة في بناء النهضة ولو راجعنا . برنامج هذه المدرسة لوجدنا انها كانت تدرس الجغرافية والتاريخ لتلاميذتها

---

(١) راجع : Cinquantaine de l'université st joseph, p. 13

(٢) راجع : D. Bliss - Reminiscenses, pp 111-112

ومن مراجعة الكتاب الذى وضعه فانديك تحت عنوان " المرآة الوضية في الكرة الارضية " نرى ان الفصل الذى يتكلم فيه عن " بلاد الترك في اسيا " يأتي على ذكر الشام او سوريا ويحددها بالحدود المتعارف عليها وينوه بانها كانت قسمين ، سوريا وفلسطين ولكن اطلق اسم سوريا على الاثنين منذ اضافتهما الى المملكة الرومانية (١).

وعلى كل فان هذه الدراسة الاولية لجغرافية البلاد ترينا وضع الوعي لكيان البلاد حتى ذلك الحين . وهي لا تختلف عن ما جاء به الجغرافيون العرب ، ولا عن المتعارف عليه . والحقيقة انه في ذلك التاريخ لم يكن هناك ثمة حاجة لقضية الوحدة السورية من حيث الوضع السياسي لان الجبل اللبناني لم يكن يعتبر خارج هذه الوحدة ، وان كان يحكمه اقطاعيون لبنانيون حكما وراثيا منذ الفتح العثماني . انما الشيء الخطير الذى اخذ يهدد هذه الوحدة هو انتعاش الشعور الطائفي القوى ، والماساة التي مثلتها اصلاحات ابراهيم باشا وبذوغ فجر الروح الوطنية . والخطورة تكمن في ان هذه الاصلاحات المدنية والروح القومية التي تلتها والتي هي بطبيعتها روح جامعة ، نشأت في زمن كان ولاء الشعب فيه للطائفة وللدين وليس للبلاد او للملك او للحاكم العام في البلاد الذى كان يمكن ان يكون رمزا جامعا لها كما حدث في اوروبا غداة ابتداء عصر النهضة . فالحقوق التي اعطيت للنصارى في زمن الحكم المصرى والتي لم تكن قضية جدل قبلهم لم يعد باستطاعة النصارى التنازل عنها بعد ذهاب المصريين والعودة الى الوراء . فنشأت نزاعات بينهم ادت الى قسمة الجبل اللبناني الى قائمقاميتين وادت الى الخوف الذى سيطر على المسيحيين من الاكثرية المسلمة . فكان من اثر هذه الروح الديمقراطية والروح القومية انها زادت في الشقة بين الاثنين او انها نبهت الطائفيين الى التمسك بحقوقهم العلية " اكثر من تمسكهم بروحهم الوطنية .

وهنا كان اثر الارساليات الاميركية كبيرة ، فالروح الدينية التي راحوا يبثونها كانت تحمل في تضاعيفها نظرة الاخوة في الانسان للانسان ونظرة التجاوز عن حدود الطائفة وانتقال ولاء الافراد الى شيء اوسع وابعد من الطائفة . فلقد كان الحكيم كرنيليون فانديك يحاول دائما ان يغرس في شباب البلاد روح علمية وفكرية جديدة ، ان بمحادثاته او بتعليمه او بكتبه التي نشرها . وبهذه الطريقة جعل الكثيرين من الشباب يدركون ويقدرون قيمة العلوم الطبيعية واثرها الفعال في الحياة اليومية . وعلاوة عن ذلك بعث فيهم حركة تحررية في الفكر ونظرة انسانية الغاية . فقد اوضح لهم ان الروح الدينية الحقيقية بعيدة عن الروح الطائفية وعن الحماسة للدين وعن صحة النظريات الدينية . فهي رغبة وعمل لتحسين احوال غيرى من الناس بقيامي بالحق ومحبتي بغيرى وبتواضعي ذلك التواضع الذى يجعلني احترم نفسي (٢).

---

(١) كرنيليوس فانديك المراة الوضية في الكرة الارضية ص: ١٢٢

(٢) ISIS عدد ٧٣ مجلد ٢٧ ايار سنة ١٩٣٧ بقلم لطفي السيد ص ٣٥

وفضلا عن هذه الروح فما نشره فانديك من كتب عربية كان له ابعد الاثر في تنبيه روح الشباب الى اهمية العلوم والامكانيات اللغة العربية في التعبير عن الاصطلاحات الحديثة المتكاثرة والمتراكمة . والذين حملوا هذه الروح وبشروا بها كثيرون . ولا يمكننا ان نتمثل باحسن من اثنين منهما هما الشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني ليس فقط لانهما عبرا عن التفكير اللاطائفي بل لانهما كانت تكمن الاتجاهات الحديثة للتعبير عن النهضة القومية المنبثقة .

ناصيف اليازجـــــي:

اننا سنتناول هذين الكاتبين دون غيرهما لانهما يمثلان بدء الحركة القومية كما انهما يمثلان بدء التبلبل بالنظرة الى الامة . واكبرهما ناصيف اليازجي بعد ان انهى دروسه الابتدائية التقليدية ولم يشبع نهمه الفكري راح يفتش في الاديرة وفي المكاتب الخاصة عن الكتب التي تعينه على التوصل الى معرفة اكبر وادراك اعم . فقاده ذلك الى الوقوف على العديد من الكتب الادب العربية اخذ في نقلها او حفظها ، الامر الذي فتح امام عينيه جمال اللغة العربية فاتقنها واجادها واخذ في تقليدها ونشرها . فخرج ادبه لفظيا يقوم على جودة المبنى وجماله وليس عن ما يحمله من معان وافكار . واكثر قصائده هي من هذا النوع ولا تحمل اي روح وطنية او قومية ، وكلها وقف على المديح والرثاء وبعض الوصف . ولم يكن هذا الامر بالغريب في عصر اليازجي لان الشعور الوطني لم يكن قد تفتح بعد والمشكلة كانت بالنسبة له هي مشكلة انخراط المسلمين والمسيحيين في بعث الادب العربي القديم واللغة العربية (١) وليست مشكلة استقلال الامة او وحدتها .

لم تجل في خاطر اليازجي قضيت الاستقلال عن الاتراك ولا قضية الوطن او البلاد السورية . ولكن لدخوله في "الجمعية السورية لاكتساب العلوم والفنون" دليل على رغبته ورغبة العديدين مثله في رفع المستوى العلمي والثقافي وايمانهم انه لا يمكن الاصلاح الا بهذا الوعي العلمي . ووقف اليازجي حياته على خدمة اللغة العربية وصلة هذه اللغة الوثيقة بالدين تعني امر خطيرا بالنسبة لعقلية بعض الناس فهؤلاء يعتبرون ان اللغة وحدها هي العامل الاول في تكوين الامم او انها العلم الاساسي من بين العلوم ، ولانها رابطة التفاهم فيجب ان تكون الرابطة الاساسية في مصائر الشعوب بعضها مع بعض . ومع ان حب اليازجي للغته العربية لم يكن لتفكير من هذا النوع ، انما لايمانه بان النهضة لا تتم ولا تصير الا ببعث الاداب العربية ، نشأ عند الكثيرين مفهوم ضيق للنهضة هو مفهوم تجديد ذكرى الشنفرى والاعشى وامرئ القيس وغيرهم من اوائل الجاهليين . واصبح مصير الامة يتوقف على مقدار معرفتها باشعار هؤلاء

زكي

---

(١) انطونيوس ص ٤٧ .

ومقدار تذكرها لتراثهم واصبح بالتالي الادب العربي وحده هو ادب سوري ، وفقد غيره من الانتاج الادبي القديم المجهول عند العامة اية قيمة او معنى . ومن هنا ابتداء التشعب في النظرة الى الامة فالبلاد بالنسبة لهؤلاء الكتاب والى عامة الشعب هي البلاد السورية ولكن الادب والثقافة والعلم وما انتجه ((الاجداد)) هو ادب فيه للسوريين نصيب ولكن ليس ادبهم وليس ما يعبر عن نفسيتهم وحقيقتهم ، فاضحى فيذلك اجداد العرب اجداد السوريين وتراثهم تراث السوريين .

هذا معنى تجديد اليازجي على نهضة اللغة العربية وهذا نتيجة ما كان يحاول بثه بين صفوف المعجبين به والملتفين حوله من حب لهذه اللغة كاساس اول في الحضارة . ومن هذا الحب العميق لهذه اللغة دون اعتبار او ادراك لحقيقة الامة ، ومن الاكثار من التغني بادبها نشأت هذه النظرة الى ادب اللغة العربية على انه ادب سوريا والعامل الاول في قوميتها وفي حضارتها .

بطرس البستانـــــي :

للبستاني في نظرنا اهمية كبرى للدور العظيم الذى لعبه في تاريخ النهضة الحديثة في سوريا ، اذ انه بلا منازع محور النهضة الحديثة ، ففيه نجد كل اصولها واتجاهاتها . وهو يختلف عن اليازجي اختلافا بينا في انه كان وسيع المعارف ، طليق المدى ، متمكنا من لغات عديده ، منفتحا على الغرب نجد في كتاباته الروح الوطنية الصافية في اول ظهور لها في تاريخ البلاد السورية .

ولد البستاني في قرية الدبيه قرب صيدا سنة ١٨١٩ وتلقى علومه على يد كاهن القرية ثم ارسل لنباهته الى مدرسة عين ورقه وكانت في عصرها اهم المدارس واعلاها فتعلم فيها واتقن التاريخ والجغرافية والحساب واللغات السريانية واللاتينية والايطالية ودرس المنطق والفلسفة واللاهوت الادبي والنظرى واصول الحق المدني (١) واتصل بالانكليز يوم قدم هؤلاء باسطولهم باخراج ابراهيم باشا من سوريا . فاتخذوه ترجمانا ثم تعرف على المرسلين الامريكان فازدادت بذلك معارفه باللغة الانكليزية واتفق معهم على ان يعلمهم العربية ويترجم لهم الكتب . وفي سنة ١٨٦٣ اسس مدرسته الوطنية وهي الاولى من نوعها في البلاد . فبعد ان شاهد ما ادت اليه المنازعات والمشاحنات بين الطوائف المختلفة ، ابتداء بنشر جريدته بين "نفير سوريا" وهي جريدة صغيرة ذات صفحتين جعلها على شكل رسائل دعا ابناء البلاد بها الى الاتحاد والوئام . وقد بلغت اعدادها الثلاثة عشر كان يسميها بالنفير الاول ، النفير الثاني بدلا من العدد الاول ... (٢) وهي اول صحيفة سياسية تصدر في ارض الوطن السورى اوقفها على الدعوة للاتحاد بين الطوائف المختلفة . وللاتحاد في طلب العلم لان العلم وحده يقود الى المعرفة والمعرفة الى موت

(١) فواد افرام البستاني الرائع جزء ٢٢ ص ج من المقدمة
(٢) الكونت فيليب ده طرازى تاريخ الصحافة العربية ص ٦٤

التعصب الطائفي وولادة المثل العليا الواحدة التي تجمع بين ابناء البلاد الواحدة وليدعم دعوته هذه بالعمل ، ورأى الحاجة لوجود مدرسة تغرس في نفوس الطلبة روح الدين الحقيقية ، وروح الوطنية الصحيحة ، فاسس المدرسة الوطنية جمع فيها بين ابناء كل الطوائف ، وتولى رئاستها بحزم ، وكان يخطب في التلامذة مرتين في الاسبوع يحثهم على التقوى والفضيلة ومكارم الاخلاق ، وكان نهار الاحاد والاعياد يرسل كل فئة من التلامذة مع معلم الى كنيسته (١) فنالت المدرسة شهرة واسعة خصوصا وقد كان يعلم العربية فيها ناصيف اليازجي ، واعطت للبلاد عددا كبيرا من قادة الفكر والسياسة . وعدا عن اعماله هذه فقد اشترك في تاسيس مجلة " الجنان " سنة ١٨٧٠ وهي مجلة تجمع بين السياسة والعلم ، جعل شعارها " محبة الوطن من الايمان " واصدر صحيفة الجنة في نفس السنة ايضا وهي سياسية تجارية ادبية . واصدر سنة ١٨٧١ جريده سياسية يومية "الجنينه" ولم تعش طويلا .

ولنفهم افكار البستاني بوضوح اكثر ، علينا ان نرجع الى بعض ما كتبه في القضايا الاجتماعية والوطنية والعلمية ، وهذه لكثرتها نختار منها ثلاثة مواضيع تمثل الى حد ما تفكيره .

فالبستاني اول من لاحظ ان النهضة الحقيقية لا تقوم على الرجال وحدهم وان المرأة كعضو في المجتمع يجب ان تنال نصيبها من الحياة كما يناله الرجل ، فالقى في احدى جلسات الجمعية السورية سنة ١٨٤٩ خطبة هي الاولى من نوعها في البلاد فبعد ان ابان قصده من ضرورة تعليم النساء والفوائد الجمه من ورائه ، اتى على موقف اعداء العلم من الرجال الذين يعتقدون ان من شأن العلم ان يولد الكفر في الايمان والزندقة في الاديان ، ووصف حال النساء في الامم البربرية والوثنية واتى على وصف حالها في بلادنا وعلى المركز الحقير الذى تشغله ، وفي القسم الثاني من موضوعه تكلم عن وجوب تعليم النساء وحق المرأة في التعليم لتقوم بواجباتها وبيّن الفرق بين تركيبها الجسماني وتركيب الرجل . وخلُص الى القول ان للمرأة اختصاصات ليس للرجل حظ منها ، وبالعكس وهي لذلك يجب ان تاخذ من العلم ما يتناسب وواجباتها الخصوصية كالديانة واللغة والقراءة والكتابة وتربية الاولاد والاعتناء بالبيت والتاريخ والجغرافية والحساب ، ومن ثم اتى على الفوائد التي تنتج من ذلك بالنسبة للمرأة نفسها ولزوجها ولاولادها وللوطن وللعالم والاضرار التي تحدث اذا لم تتعلم (٢)

ومعنى هذه الخطبة في العصر الذى القيت فيه خطيرة جدا ، فالمرأة المتاع الحقير يجب الا يدخل العلم الى رأسها ، فهي ليست جزءا يستحق الذكر من المجتمع وقيمتها لا تتوقف على معرفتها امور الدنيا

---

(١) الروائع - ص من المقدمة

(٢) ملخص هذه المحاضرة منشور في الروائع عدد ٢٢ ص ١ - ٢٤

انما على طاعتها لبعلها وقيامها على خدمته ، فوضح البستاني بخطبته هذه الحجر الاول في سبيل نهضة المرأة في بلادنا ، بعد الدكتور عالي سمث الذي اسس اول مدرسة للبنات في بيروت (١)

والموضوع الثاني الذي يمثل تفكيره وبعض نظرته القومية هو خطاب القاه سنة ١٨٥٩ في الجمعية العلمية السورية وهي بنت الجمعية السورية المار ذكرها يبحث في اداب العرب "بمعنى الفنون والعلوم والاداب ، اذ ان الكلمة تعني له هذه الامور مجتمعة ، فبعد ان يقدم الموضوع ، يضع للعلم شروطا : منها النمو والتدرج ومنها ان العقل البشري انما يحصل العلوم بواسطة الحواس على سبيل التعلم والاستقراء و منها انه لا بد للعقل من وسائل مساعدة خارجة عنه لاكتساب العلوم . وهذه الشروط تشبه الى حد ما اوانها مستمدة من نظريات باكون وتمثل اول اصطدام منظم في بلادنا بين النقل والفكر ، اى بين قبول العلم كما وصلنا عن الاوائل وبين الاختبار والتجربة واستعمال العقل في العلم .

وينقل البستاني الى ان التفاخر بما اعطاه الحدود لا يفيد ، ثم يبتدئ بالعلوم في الجاهلية وندورتها وينتقل الى حالة العلوم بعد الاسلام وكيف اخذ النفور من الامور العلمية يتناقص بالتدريج حتى توصلوا ليس الى النقل بل الى اختراع اشياء جديدة في كل انواع العلوم ويعدد وصفات العلوم عند العرب . وما يكاد ينتهي من هذا الموضوع حتى ينتقل بنا الى مشكلة اللغة العربية وكيف تطورت مع هذه العلوم في تلك الايام وكيف انها اليوم جامدة لا تتحرك ، فاعتقاد الكثيرين ان لكثرة مترادفاتها شأنا كبيرا خطاء لان لا اهمية البتة ولذلك يجب اصلاحها بالنقل عن الغربيين كما نقلوا هم عنا ثم ينتقل بنا الى انحطاط الاداب وابتداء النهضة بفضل المرسلين ومحمد علي ، ويصف حالة الاداب في عصره وقلتها والاكتفاء بالتقليد والنقل ويبين الحاجة الى الابداع والخلق .

وهذه المحاضرة تظهر لنا الموقف الحكيم من الاخذ عن الافرنج وتدل على العقلية المتحررة المتفتحة التي اخذت تباشيرها تظهر واخذ مفعولها يسري في عقول الشباب وفي قلوبهم .

والقضية الثالثة وهي التي تهمنا مباشرة هي موقفه من الامور الوطنية وهذه لا تظهر في مقالة معينة انما تظهر في شخصيته وفي اعماله جميعها وفي كل ما كتبه ، فالبستاني وقف حياته كلها على خدمة بلاده بالطريقة المثلى اى التعليم اذ انه كان يعتقد ان العلم وحده يزيل الغشاوة عن اعين الشعب ويجمع بينه وكان في كل ما يعمله يستوحي خدمة الوطن . فمن صرخاته في الاصلاح الاجتماعي الى صرخاته في "نفير سوريا" للاتحاد الى شعاره العظيم "حب الوطن من الايمان" نرى توقد الوطني المخلص وقلقه على بلاده وشعبه ورغبته الملحة في عزة ورفعته . بيد ان البستاني كغيره في العصر الذي عاش فيه لم يكن قد وعى

---

(١) القطف ج ٧ ص انطونيوس — ص ٣٧

مفهوم الوطنية والقومية الوعي الكامل او بالاحرى لم يكن هذا الوعي قد انتشر اوعم الشعب ، بل بقي بين النخبة من المثقفين القلائل مجرد حب ورغبة في النهوض والتمدن واللحاق بالامم الغربية . فمن كتاباته المختلفة نراه مرة ينظر الى سورية او بر الشام كبلاده (١) وفي الكثير من مقالاته نتأكد من هذه النظرة ومن هذا الشعور ، ففي " الجنان " يتكلم عن " سوريا بلادنا " (٢) وكذلك في عدة اماكن ، ولكنه في الوقت نفسه يخلط بين تسميتنا عربا او تسميتنا سوريين ، ففي خطابه عن اداب العرب ، يقرر بان عرب هذه الايام هم من نسل العرب القدماء (٣) وفي مقال له في الجنان تحت عنوان " من نحن " ؟ يقول " نحن ذرية قوم افاضل قد اشتهروا قديما بالمعارف والصنائع والتجارة والحماسة والشجاعة والفتوحات والفصاحة . فمنا من ينتسب الى العرب ... ومنا من ينتسب الى السريان والكلدان ... ومنا من ينتسب الى اليونان ... ومنا من هم اخلاط متسلسلون من امتزاج تلك الشعوب العظيمة بعضها مع بعض " . وفي نفس المقال يقابل بين الافرنج وبيننا ويدعونا بالعرب . ومن هذا نفهم ان هذا الخلط ناتج عن عدم وضوح الفكرة الوطنية في بدء ظهورها او على انها عصبية دموية اكثر منها اى عصبية اخرى ، وهكذا يمكننا تفسير قوله ، ان دمنا عربي ، ومقاله هذا واضح فيه انه يعني السوريين دون غيرهم ، وان السوريين بالنسبة له عرب لان اجدادهم عرب وان سوريه هي بلاده ووطنه فاول شعوره عند وقوع حرب الستين هو ان ينفخ في " نفير سوريا " الى الوحدة والى حل المشكلة التي ابتدأت واقعيا تلك السنة ولم تنته حتى الان .

الجمعيات العلمية واثرها السياسي :

ان المعنى الكبير لقيام الجمعيات هو في تحول الذهنية الى العمل الجماعي او بالاحرى التعاون الشعبي ، وانتقال امر الاصلاح من يد الامراء او الحكومات الى يد الشعب نفسه ، ومع ان اثر هذه الجمعيات من حيث الانتشار كان ضئيلا اذ لم يتجاوز عدد اعضائها المائتين ، انما في قيامها وتكوينها نشأت بذور الاحزاب السياسية المنظمة ومنها انطلقت الشرارة الاولى في الحركة الوطنية (٤)

لم يكن لهذه الجمعيات في بادىء امرها غاية سياسية ، بل بالعكس اذ اننا نرى في دستور الجمعية السورية . وهي اولى هاته الجمعيات نص صريح بعدم التعرض للامور الدينية والسياسية (٥) ولكن عمل هذه الجمعيات واهدافها كان يرمي الى بعث تراث ، وفي ذلك ما فيه من عزة قومية وفخر ، وكان لا بد لها من الوصول يوما ما الى التعرض مباشرة للحقل السياسي .

---

(١) تعليم النساء الروائع ص ٦ — ٤٠ (٢) الجنان — مجلد ٢ ص ١٧ و — ١٦٠

(٣) الروائع — ص ٤٠ عدد ٢٢ (٤) انطونيوس ص ٦٠

(٥) ZDMG مجلد ٢ — ص ٣٧٩ — دستور الجمعية المادة (٢)

فالحركات العلمية التي سبقت بدء حركة الوعي القومي كانت ضرورية ، وجد لازمة لانه بدونها لا قيام لاى وعي عام ، ففي بادئ الامر لم يكن بين العلماء من يتعرض لقضية الاستقلال عن السلطة العثمانية مباشرة ، بل كان الجميع يقبل الاستعمار عن رضى وقبول ، بالامر الواقع وهو ما اعتاده الشعب منذ اجيال ولم تقم اية حركات تحررية بالمعنى السياسي الواسع في اى منطقة من البلاد السورية ، انما كان الكره للاتراك شديدا حتى بين المسلمين ، فقد ورد في تقرير قنصل انكلترا العام في حلب السيد اليسون (٣١ تموز سنة ١٨٥٨) " مما يجدر بالذكر ان كره ابناء العنصر العربي في هذه الجهة من البلاد السورية للضباط الاتراك وجنودهم عموما وهم يعدونهم من خوارج المسلمين ليس باقل شدة من تعصبهم ضد المسيحيين ... وزيادة عما تقدم ربما كان للثوار تنظيم عسكري لانه يقال ان بقايا الانكشارية الذين كان يبلغ عددهم المنخرطين معهم من حلب ٢٥ الفا حين الغي هذا السلك في سنة ١٨٢٦ ، وقد حفظوا اتحادا سويا فيما بينهم . فالحوادث الاخيرة التي بسطناها قد ولدت كثيرا من الاشاعات في هذا الشان كما انه يظهر ان المسلمين سكان سورية يعللون امالهم بالانفصال عن جسم السلطنة العثمانية وتاليف دولة عربية جديدة تحت سيادة شرفاء مكه (١)

وهذه الفقرة ترينا شيئين على الاقل : بدء التفكير في التنظيم السري السياسي واتجاه المسلمين في حركتهم القومية نحو مكه ، وترينا ايضا الفرق الواضح بين مفاهيم الجمعيات الادبية في بيروت ومفاهيمها في حلب .

والجمعيات التي يهمنا امرها الان هي ثلاثة — اولاها "الجمعية السورية" التي تالفت سنة ١٨٤٧ والتي لا اثر سياسي يذكر لها سوى غامض طريقة تنظيمها وفي دستورها الديمقراطي وفي رغبتها بنشر العلم وبثه (٢)

والجمعية الثانية " المشرقيه "التي اسسها الاباء اليسوعيون ربما لمحاربة البروتسنت ، لم يكن لها ايضا ثمة اثر سياسي يذكر سوى اعتنائها بالتاريخ السوري ، ففي جدول اعمالها نرى ان اكثر محاضراتها كانت تاريخية وانها تشعر اكثر من غيرها بضرورة معالجة هذا الموضوع فقد افتتح اول اجتماعاتها رئيسها الشيخ الياس الدحداح بخطاب عن تواريخ سورية (٣) واردفه بخطاب اخر في نفس الموضوع ، ومن ثم تكلم الخواجا راجي اده شارحا عن الوقائع التي حصلت بشمالي سورية ، وكانت بقية الخطب تاريخية دينية عن بنـــي

---

(١) المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ — ١٩١٠ المجلد الاول تعريب فيليب وفريد الخازن ، جونيه ١٩١٠ ص ٣٢٥ — ٣٢٦ (٢) راجع دستور الجمعية واعمالها في ZDMG مجلد ٢ ص ٣٧٩ — ٣٨٢

(٣) المشرق — مجلد ١٢ ص ٣٧

اسرائيل ، وهذه تدلنا على الاتجاه الديني في معالجتها للقضايا والتفاتها الى سورية بالذات وليس الى خارجها في وعيها القومي .

واما الجمعية الثالثة فهي الجمعية العلمية السورية التي قامت على اعتاب الجمعية السورية الاولى انما اختلفت عنها في انها ضمت بين اعضائها المائة والخمسين عددا من مختلف الطوائف لاول مرة في تاريخ البلاد الحديث ويقوم يتعاونون في سبيل رفعها ورقيها والاثر السياسي الذي لعبته هذه الجمعية كبير من حيث مدلوله التعاوني والمكانية اتفاق المسلمين والمسيحيين امام الشؤون القومية ، ومن حيث الشعور لاول مرة بالرغبة في الاستقلال عن الحكومة العثمانية ومن حيث تناولها مباشرة قضايا الساعة — السياسية وفيها القى ابراهيم اليازجي قصيدته النارية الشهيرة

تنبهو واستفيقوا ايها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

فيم التعلل بالامال تخدعكم وانتم بين راحات الفلا سلـــب

لا دولة لكم يشتد ازركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب (١)

فعدا ما في هذه القصيدة من روح حماسية ضد الاتراك ، وطلب للاستقلال بحد السيف ، المطالبة بايجاد دوله للعرب، وهو مطلب قل نظيره في ذلك الحين لتعلق الاكثرية ((بالعثمانية)) اولان فكرة الانفصال لم تكن قد تبلورت في عقول مريدى الاستقلال بعد . وهذه هي المرة الاولى التي تظهر فيها مثل هذه الرغبة ، وقد انتشرت هذه القصيدة وتناقلتها الالسن حتى هذا العصر ولاهميتها توج جورج انطونيوس كتابه " يقظة العرب " بصدر بيتها الاول .

اثر النهضة حتى سنة ١٨٧٠ :

لا بد لنا قبل ان ننتقل الى القسم الثاني من هذا لعصر ان نرى خلاصة اثر هذه النهضة الحديثة ففي سنة ١٨٥٥ اصدر السلطان عبد المجيد خطا شريفا يمنح فيه جميع الرعايا حقوق المواطنين ، والتساوى في الضرائب والتوظيف بين كل المواطنين (٢) وهذا ما كان ابرهيم باشا قد اعطاه للرعايا قبله ، والغته الحكومة التركية بعد خروج المصريين من سوريا ، فتثبت بذلك حق المسيحيين وارتفعت معنوياتهم ولذلك حاربوا في سنة الستين حربا ضروسا كان من نتيجتها التدخل الافرنسي لحمايتهم ، وكان اعطاء لبنان الجبل ادارة خاصة وحكما ذاتيا ودستورا مدنيا وشبه انفصال عن سوريا وابتداء لمشكلة

---

(١) القسم الاكبر من هذه القصيدة منشور في كتاب " سر مملكه " لسليم سركيس ص ٧٣ — ٧٤ ، بيروت

(٢) La syrie - Lammens - ص. ١٨٠ ، ج ٢

الوحدة السورية السياسية والاستقلال عن السلطة العثمانية فقد القت مذابح الستين الرعب في قلوب المسيحيين وجعلتهم يشعرون بان كيانهم مهدد وان مصيرهم للدمار ان لم يستقلوا بانفسهم ويبتعدوا قدر استطاعتهم عن المسلمين . والحقيقة ان سنة الستين لم تكن سببا بل نتيجة . فهي ليست وحدها المسؤولة عن هذا التجافي والتباعد ، فالروح التعصبية كانت موجودة بقوة قبل ذلك ولكن المشكلة لم تبرز للوجود لقبول المسيحيين بما قدر لهم ، الا بعد ان اعطوا حقوقهم ، وبعد ان ابتدأت الافكار العربية تتسرب الى عقولهم قبل غيرهم ، وان تتبلور في نفوس البعض روحا وطنية متأججة تريد التوحيد وفي البعض الاخر روحا تعصبية تريد التفريق ، فالروح الجديدة التي مسحت بيدها راس سوريا الكليم ، حملت في اعطافها سر قوة البلاد وسر ضعفها .

وكان من اثر هذه النهضة زيادة عدد المدارس زيادة محسوسة ، فانتشرت المدارس الاميركية خارج بيروت ، وكذلك الدول المدارس اليسوعية وغيرها ، وزاد بذلك عدد المتعلمين واصبح منذ ذلك الحين بامكان البلاد ان تعتمد على الاشخاص الاكفاء لتولي الادارات المختلفة ولتمثيلها والنطق بلسانها ، ان في الاستانه او في غيرها من الاماكن ، ومما لا شك فيه ان الاهتمام بالامور السياسية والوطنية زاد زيادة مباشرة واخذت كلمة الوطنية تبرز للوجود في اشعار الشعراء وكتابات الكتاب ، وانطلقت الشرارة الاولى في هذا المضمار ، ومقابل هذه الحركة اشتد ساعد "العثمانية" وهي دعوة لتوحيد الاملاك العثمانية في بوتقة وطن واحد تكون فيه جميع هذه البلدان على قدم المساواة مع تركيا وقد لاقت هذه الفكرة اقبالا عند البعض وقوى ساعد ساعدها في العصر الذي تلا كما سنرى .

وثمة ميزة خاصة لهذه الفترة في النهضة هو تعريف الوطنية بالدم ، وهو تعريف لا واعي وجد بدائي ولكنه كان محاولة خروج عن الرابطة الدينية ، وهذا التعريف هو قبلي اذ ان الرابطة بين القبائل كانت الرابطة الدموية اورابطة القربى ، ولذلك كان هذا التبلبل في تفهم الوطنية او العلاقة التي تربط المجتمع بعضه مع بعض ، ولا يزال لهذه التعريف اثر عند عامة الشعب ويأخذ به العديدون .

ظهـــــور الفكـــــرة السوريـــــة

الفترة الثانية : ١٨٧٠ — ١٩٠٨ :

كانت حوادث سنة الستين ضربة كبرى بالنسبة للنهضة الحديثة وبدء الوعي السوري ، اخذ معها رجال البلاد المفكر يحارب اسبابها ويحارب وجودها ، وكانت المدرسة الوطنية للبستاني اول الحركات التي سعت في هذا المضمار ، وكانت الجمعية السورية العلمية التي ضمت اليها المسلمين والمسيحيين على السواء ، متوليا رئاستها درزي ، ومسؤولياتها اعضاء من كل الطوائف قد اوجدت التوجيه الصحيح لسير الحركة القومية من الوجهة الاجتماعية على الاقل . لكن بجانب هذه الحركة للتعاون ، نشأت حركة طائفية قوية — فالمدارس التي نشأت بعد الستين كانت باجمعها مدارس طائفية كالمدرسة البطريركية للكاثوليك ، والثلاثة اقمار للارثوذكس ومدرسة الحكمة للموارنة والمدرسة الوطنية الاسرائيلية لليهود . ومن راجع اسماء بقية المدارس التي تكاثرت بسرعة في البلاد يرى انها كانت جميعا مدارس طائفية (١) قوية السيطرة وانها كانت في بادىء الامر في يد المسيحيين ولم يكن لها شبيه بين مدارس المسلمين التي كانت كتاتيب مقتصرة على تعليم القران ورواية الحديث ، وكان الازهر في مصر وحده المدرسة التي يمكن للمسلم ان يتزود منها بعلوم اللغة والقرآن والفقه والتاريخ الاسلامي .

وكان اثر هذا التوجيه في العدد الكبير من التلامذة ، ان زاد الاختلاف بين الطائفتين الرئيسيتين زيادة كبيرة ، على الرغم من ان المدارس العاليه كالكلية الانجيلية السورية وكلية اليسوعيين كانت تضمان عددا من المسلمين كان من اثره خبت الروح الطائفية في عدد من قادة الفكر ، كذلك كان اثر المدرسة الوطنية فعالا في بث هذه الروح فتخرّج منها عدد من المسلمين كحسين بيهم وغيره .

ولمجاراة هذه الحركة العلمية عند المسيحيين نشأت حركة مماثلة عند المسلمين ، فانشئت المدرسة الرشدية وهي اقدم مدارسهم الحديثة (٢) ووضعت الحكومة التركية عددا من الصعوبات في وجه الارساليات خصوصا ، ومنعت المسلمين من ارسال اولادهم الى مدارس المسيحيين (٣) ليس حبا بالدين قدر رغبتها عن تيقظ الشعور القومي عند التلامذة . ولهذا السبب اسس السلطان المدرسة الرشدية ومدرسة دار المعلمين ، وكانتا تتبعان نظاما حديثا من حيث تعليم العلوم الطبيعية وغيرها ، ولكنهما كانتا تتقيدان من الجهة الثانية بالنزعة الطائفية ويتحبب التلامذة بالسلطان العثماني والسلطنة العثمانية ، وبالتالي كبت

---

(١) الهلال — مجلد ٩ ص ٢٢٤ وما يليها ، ايضا المقتطف ، مجلد ٧ والصفحات ٣٨٥ و٤٦٥ و٥٢٩ و٦٦٥ وما يليها .

(٢) الهلال — نفس الصفحة ج ٩ ص ٢٣٤

(٣) راجع : N. Azoury - le Reveil de la nation arabe . ص ٢١٦

الروح القومية فيها . ولذلك نرى في بادىء الامر ان اكثر الحركات الوطنية والقومية كان يتزعمها المسيحيون ولم انتقل قيادة هذه الحركات الى يد المسلمين الى بعد ان ثبت امر المدارس الارسالية وامها العدد الكبير من المسلمين بالرغم من محاولات الترك العديدة لمنعهم عن ذلك .(١)

وبالاجمال نرى ان اثر المدارس والارساليات كان كبيرا من جهة نشر المعارف والعلوم وايقاظ الروح الاستقلالية وتنبيه المعلمين الى قيمة الانسان وحقوقه والقانون ومعناه ، ولكنها في الوقت نفسه زادت في حدة الحواجز الطائفية وارهفت الحس الطائفي في بلد لا يمنع تقدمه القومي سوى وجود هذه الروح فيه(٢). بيد انه يمكننا ان نلاحظ انه في هذه الفترة اقتصرت الحياة السياسية على الصراع للاستقلال عن الحكم التركي ونشأت في الجهة الثانية حركة نهوض اسلامي (الجامعة الاسلامية) ابتداء بها الافغاني واستغلها عبد الحميد . وظهر في الوقت نفسه محاولات اولى لتحديد المطالب السياسية ولدراسات علمية عن القومية والامة . وقد تميزت هذه الفكرة بانتقال الحركة السياسية من سوريا الى خارجها ، مما انشاء سابقة رافقت الحركات السياسية السورية ، فانتقلت الحركات هذه الى مصر وفرنسا والولايات المتحدة وانكلترا . ففي مصر بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ انزاح كابوس الاتراك وظلمهم عن كاهل المفكرين والعاملين في السياسة واصبح بامكانهم التنفس وابداء الراي في الشؤون الوطنية والعمل للاستقلال والحرية بحرية ظاهرة وبانطلاق فكري اوسع . فاخذت تتوضح للشعب المطالب الاصلاحية الحقيقية من تامين الحقوق الدستورية وادخال الاساليب الحديثة ان بالتعليم او بالحياة الاجتماعية او النظام الصناعي او الاقتصادي .

١ــ الصراع من اجل الاستقلال :

لا يجهل احدنا ما لازم حكم عبد الحميد الثاني من ظلم واحتقار للحركات الوطنية ومحاربة لها وللتحرر الاجتماعي بكل صوره . فعصر عبد الحميد الثاني هو عصر صراع عنيف بين المفاهيم الحديثة والمفاهيم القديمة وبكلمة اخرى هو صراع بين الحكم الاستبدادي وبين اساليب الحكم الديموقراطية المنبثقة عن الشعب والتي تعمل له . فالروح القومية التي ابتدأت تتغلغل في صفوف الطبقة المتعلمة ، والحاجة الملحة لمقاومة الطيار الاستعمار الاوروبي باساليب العقلية الجديدة ، والرغبة في الوصول الى درجة من الثقافة والقوة تقاوم الغرب وتقاوم الاستعباد دفعت الى بالشعب الى العمل في سبيل الاستقلال السياسي عن الاتراك .

وكان مجيء عبد الحميد الثاني الى العرش بالنسبة لجميع الشعوب الواقعة تحت الحكم العثماني بمثابة

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٦
(٢) انطونيوس ص ٩٣

بدء عهد جديد يرفل بالبحبوحة والحرية . فمقتل السلطان عبد العزيز وتنصيب خلفه مراد ثم خلعه بعد اشهر لظهور عوارض الجنون عليه كما يقال ، وشعور العثمانيين بحاجة لحل المسالة الشرقية حلا مبنيا على اصلاح السلطنة العثمانية نفسها باعطائها الدستور والقضاء على الحكم المطلق وتحديد صلاحية الوزراء وضمان المساواة التامة بين جميع سكان الولايات العثمانية والعمل بيد واحد في سبيل الاصلاح (٢) ، دفع الامكانيات السياسية وحركها الى الامام .

ففي الوقت الذى تولى عبد الحميد فيه ، كانت الدول الاجنبية تشدد مطالبة بالاصلاح في السلطنة العثمانية ، وكانت سوريا تهدد بالحرب ، وزاد هذه المشاكل تعقيدا مطالبة اهل الولايات بالمساواة بالحكم والواجبات واعطاء المسيحيين الحقوق نفسها التي للمسلمين بادخالهم في المدارس الحربية وتعيينهم ولاة في المقاطعات ، الامر الذى كان يحرم عليهم سابقا ، (٢) .

حاول عبد الحميد ان يؤخر من اعلان الدستور او ان يقيده بادىء ذى بدء بضمان حقوق السلطان (٣) لكن انعقاد المؤتمر الاوروبي لتعجيل الاصلاحات الداخلية جعله يعلن هذا الدستور يوم انعقاد المؤتمر بالذات اى في ٢٤ ك١ سنة ١٨٧٦ ، اذ تلا سعيد باشا الباشكاتب في حفلة رسمية فرمان الاعلان في حضور الصدر الاعظم مدحت باشا واضع الدستور ورجال الدولة والعلماء ، وبوشر بانتخاب نواب لمجلس (المبعوثان) عن كل الولايات . ومع ان هذا المجلس لم يضمن اكثرية لغير الاتراك لكن مجرد وضعه موضع التنفيذ كان دليلا على الرغبة في الاصلاح ، وقد تقبله الجميع بالابتهاج والامل . والحقيقة ان رغبة الانفصال التام عن جسم الدولة العثمانية لم تكن واضحة ، فقد كانت تبدوا حلما بعيد التحقيق ، او بالاحرى لم يكن هناك من يحلم بها الا فريق من الشباب المثقف الذى اخذ يعي معنى العزة القومية والاستقلال . والحركات الوطنية بطبيعتها حركات شباب تكمن فيها دائما النزعة الى العنف والاعتداد بالراى الضروريين لتسيير مثل هذه الحركات ودفعها الى الامام في ظروف الظلم والاستبداد .

وفي هذه الفترة التي اخذت بها البلاد السورية تستيقظ على نفسها عم الفرح اكثر القلوب واعتبر دعاة الوطنية والاصلاح اعلان الدستور بداية العصر الجديد يسعون اليه . فذهب ممثلوا سوريا الى المجلس وبينهم خليل غانم اول ممثل للبلاد يحمل في نفسه روحا قويا وميلا متعصبا للاستقلال والتحرر ، ولكنه مابقي طويلا حتى اضطر لترك البلاد والسفر الى فرنسا حيث اخذ يعمل للاستقلال هناك بعد ان اوقف الدستور وحل مجلس النواب وكان يعمل في الوقت نفسه لتحرير الدولة العثمانية من نير الاستعباد ، فقد حمل على الحكومة

---

(١) انظر التقرير الذى وجهه مدحت باشا الى عبد الحميد الثاني في كتاب مدحت باشا لقدرى قلعجي ص٧٢

(٢) كان اهل الذمة منذ عهد عمر بن الخطاب لا يكلفون بسوى دفع الجزية مقابل حمايتهم باعتبار انهم لا يتمتعون بنفس الواجبات والحقوق التي للمسلمين . (٣) راجع كارل بروكلمن تاريخ الشعوب الاسلامية الطبعة الانكليزية ص ٣٧٦ .

لنفيها مدحت باشا خصوصا وانه كان قد عهد اليه مجلس المبعوثان ان يدرس مع اكوب باشا قوانين حكومات الغرب الدستورية ويأخذ منها ما يلائم حالة الدولة ، (١) . اقام غانم بعد تركه القسطنطينية في باريس مدة طويلة حيث وضع كتابا (عن سلاطين بني عثمان) واسس سنة ١٨٩٥ (الجمعية الوطنية العربية) من السوريين المقيمين في باريس ، . وقد اخذت تنظم القيام بدعوة ثورية ضد الحكم التركي (٢) اذ ان غايتها الاساسية كانت السعي لتحرير الامم العربية من النير التركي المباشر . وقد قيل فيه عند وفاته انه اذا كانت سوريا لم تعطي لقضية الحرية سوى خليل غانم فكفاها بذلك فخرا (٣) وهو قول فيه شيء من الصحة لصفات الصراحة والاخلاص التي كان يتحل بهما .

وبالغاء الدستور ابتدأ عصر من الظلم والاستبداد لم تشهد القرون الوسطى وغيرها له مثيلا . و وبابتدائه ، في زمن اخذ الوعي القومي يظهر فيه ، كان لا بد له من ان يصطدم بعقبات المفكرين والاحرار الذين يأبون على نفوسهم العبودية . فاخذوا ينزحون الى مصر والى فرنسا وانكلترا او ايطاليا ، وهناك اخذوا يعملون بكتاباتهم على تهديم البناء الحميدي . فانشاوا الجرائد في مصر وفرنسا ، وبدأ عبد الحميد في الوقت نفسه حملة منظمة للقضاء على الروح الوطنية الناشئة ومحاربتها بجميع الوسائل من اغراء ومن قتل وسفك دماء ، فمنع الجرائد السورية الصادرة في مصر والتي تهاجم حكمه من الدخول كما منع الكتب التي تتعرض لقضية الحرية ومحاربة الاستبداد ككتاب الكواكبي عن طبائع الاستبداد . واخذ يتهم الاحرار بالكفر والتعصب والتفرنج (٤) ويدكهم في السجون او ينفيهم خارج السلطنه . وساعد على نشر فكرة الجامعة الاسلامية لتنفيذ برنامجه هذا وتقوية سلطته بالتلاعب على عواطف عامة الشعب . وقد قتل من الاحرار الاتراك مدحت باشا واعوانه ونفى مراد الداغستاني الذى انشاء (الميزان) في مصر وسويسرا وفضح فيها جرائم القصر .

ومن الذين حاربوه من السوريين وتركوا البلاد خوفا منه رزق الله حسون الحلبي الذى تركها في ايام عبد العزيز الى اوروبا ، واخذ يندد بالحكم الفردى التركي وباستبداده ، واصدر جريدته في لندن سنة ١٨٧٩ وكانت تصدر مرة كل اسبوعين تحت عنوان (حل المسألتين الشرقية والمصرية) وهي اول مجلة شعرية لانها كانت تصدر كقصائد تبحث هذه المواضيع (٥)

ومنهم فتح الله مراش الذى سافر ايضا الى لندن واخذ يندد بالحكم التركي . وقد قال الدكتور نمر عنه وعن رزق الله حسون في خطبة له عن النهضة الدستورية (فهذان الحران الحلبيان اللذان فاقا

---

(١) الهلال مجلد ١٢ ص ٦٦ (٢) الاعظمي القضية العربية ص ٤٨

(٣) راجع K. Khairallah - La syrie p. 120

(٤) ولي الدين يكن المعلوم والمجهول جزء اول ص ٨٩

(٥) زيدان مشاهير الشرق جزء ٢ ص ١٢٩

الاقران بحب الحرية كما فا قا الاقران بمعا نيهما السحرية ومبانيهما العصمجدية ، قضيا ردحا من الزمن يرسلان شعاع الحرية الى ابناء سوريا من قلب اعظم عاصمتين اشتهرتا في اوروبا بالحرية وا لنظامات الدستورية ولكنهما مزجا بلاغتهما بعلقم التفريق بين الترك والعرب ، فا صابا بايقاظ النفوس لطلب الحرية واخطاءا بتمزيق الجامعة العثمانية) (١) فالدكتور نمر كان كالكثيرين غيره يؤدون الحفاظ على الجامعة العثمانية للحفاظ على الامر الواقع، يحسب وعيهما لحقيقتهما خطأ ، وهو لكذلك بالنسبة للكثير من السياسيين في ذلك العصر وهذا العصر .

ومن الذين برزوا بالنقمة على تركيا وعملوا للتخلص منها سليم سركيس صاحب مجلة سركيس وهو بيروتي الاصل نزح الى مصر مع من نزح من الاحرار وانشاء هناك جريدته (المشير) التي اوقفت نفسها على صب نيران العداوة على الاتراك و سياسة عبد الحميد الظالمة . ولقد عانت من مطاردة الحكومة المستبدة ما لا يصير عليه سواه ، فبعث وراءه عبد الحميد من يغتاله قتلا ، ولكنه نجا باعجوبة فطلبته الحكومة التركية من الحكومة المصرية لكن تلك امتنعت عن تسليمه (٢). ولم يختلف سركيس عن غيره من الصحافيين في فضح اسرار الجرائم الحميدية . فنشر كتابه "سر مملكة" في مصر ١٨٩٩ يبين فيه اسباب موت السلطان عبد العزيز وجنون مراد ومحاكمة مدحت باشا ويأتي فيه على حوادث سوريا في ايام مدحت.وفي الكتاب قصيدة له مشهورة مطلعها :

يا اهل سوريا القساور من كل مفخوروفاخر

وقد حبس سركيس من اجل افكاره مرتين (٣) فكان من اوائل الذين اضطهدوا في سوريا من اجل حركاتهم الوطنية . وقد كان اثره بالغا في الشباب الذين كانوا يسعون وراء مقالاته وكتاباته بلهف ورغبة .

والحقيقة ان تاريخ الحركة الفكرية السياسية التي قامت لمحاربة الاستبداد التركي هي اهم ما قامت به الحركة الاستقلالية . وكانت مقدمة لوعي الشعب وتحسسه لحاجاته القومية . وقد اشترك فيها العديدون منهم الكواكبي ومحمد قدري والصابونجي والاميرامين ارسلان والدكتور خليل سعاده وقد اصدروا صحفا عديده لتحمل افكارهم كالمشير والمقطم ولسان العرب ومرآة الاحوال و المجلة (٤).وقد انتشروا في كل الاصقاع. في اميركا حيث اسسوا عددا من المجلات والجرائد كالكواكب ومرآة الغرب . وفي فرنسا حيث ظهرت البصير وتركيا الفتاة في باريس والمرصاد في مرسيليا . وفي مصر حيث ظهرت الاهرام والمقطم والحقوق والفلاح والمحاكم و ابو الهول . وفي ايطاليا حيث اسس يوسف باخوس المستقل . وكل هذه الجرائد كانت تحمل

---

(١) المقتطف ، مجلد ٣٦ ص ٢٥٨ (٢) ولي الدين يكن المعلوم وا لمجهول جزء ١ ص ٦٨

(٣) المصدر نفسه ، جزء ١ ص ٦٨ (٤) انيس المقدسي ، العوامل الفعالة في الادب العربي ص ١٢ .—

رسالة التحرر والاستقلال والمطالبة باللامركزية (١) .

وامر الصراع من اجل الاستقلال لم يقتصر فعلا على كتابات المفكرين ورجال الاقلام في الصحف الصادرة خارج نطاق السلطنه ، بل قام في قلب البلاد حركات سياسية ترمي الى طلب الاستقلال . ومن هذه الحركات (الجمعية السرية) التي كتب عنها اول من كتب جورج انطونيوس في كتابه يقظة العرب . واكثر معلوماتنا عن هذه الجمعية نستقيها منه الا بعض المعلومات القليلة التي وجدتها في الجرائد الصادرة انذاك في بيروت . وقد تألفت هذه الجمعية سنة ١٨٧٥ اى قبل تولي عبد الحميد العرش بسنة، من خمسة شبان من طلاب الكلية السورية الانجيلية المسيحيين (٢) وقد انضم اليهم عدد من المسلمين والدروز حتى بلغ عدد اعضائها اثنين وعشرين عضوا مركزهم بيروت ولهم فروع في الشام وطرابلس وصيدا . ومن المعتقد ان كان لهذه الجمعية فروع في حماه ونابلس لان مناشيرها ظهرت في هاتين المدينتين ايضا ، (٣) . وقد كانت غايتها ولا شك ثورية ولذلك بقيت اعمالها سرية لا يعرف بها احد . انما كان اعضائها يحاولون بث افكارهم بواسطة الاحاديث والاذاعات الفردية . ويظهر ان الجمعية وجدت ان عملها ليس بذى اثر كبير فقررت ان تخرج عن نطاق اعضائها والتوجه الى الشعب مباشرة . فوجدت الفرصة مؤاتية عند قدوم مدحت باشا من منفاه كوالٍ لسوريا وقد عرف بشدة تعصبه لحرية الفكر ولحرية العمل السياسي . فقررت ان تتبع الطريق الوحيدة الممكن لها اتباعها في ذلك الحين ، وهي ان تلصق في الشوارع مناشير ثورية تندد بها بالحكم التركي وتطلب فيها الاستقلال . وكلف الاعضاء الشباب بالصاق هذه المناشير ليلا واخذت عليهم العهود والمواثيق ان يقتلوا انفسهم حال القبض عليهم لئلا يضعفوا وينطقوا بالاسرار . ويصفوا لنا احد هؤلاء الاعضاء كيفية اتمام العملية في نصف الليل (اذ اخذ الاعلانات واسفنجة ووضع في جيبه مسدس الطلقات وخرج الى الشارع يترصد سكونها وخلوها من الناس . فكان يلصق الاعلانات في كل مكان يمكن الانفراد فيه حتى الساعة الرابعة صباحا ، حتى اذا ما بقي معه منشور واحد الصقه على العطفة الكائنة بين العصرونية والجامع الاموى وما فرغ من ذلك حتى رأى البوليس فوضع يديه في جيبه احترازا ، لكن البوليس تركه بعد ان بيّن له انه كان عند احد اصدقائه مودعا) (٤)

كانت هذه المناشير تكتب بخطوط مختلفة لئلا تدل على صاحبها وكانت الجماهير كل صباح تقراء ما فيها وتتناقلها الالسنة سرا في كل مجتمع وحديث . وما كاد يظهر بعضها في بيروت حتى نرى ان غيرها ظهر في

---

(١) ر : R. Khairallah - La Syrie P. 98 H.

(٢) يقول الدكتور اسد رستم ان اعضاء هذه الجمعية الاول هم سليم عمون ، ابراهيم الحوراني ، فانديك ابراهيم اليازجي ، فارس نمر ، وانضم اليهم حسن بيهم ، وان اول من فكر بها سليم عمون اذ كان يقراء رواية ديماس عن الفرسان الثلاثة وكان يسكن مع فارس نمر في نفس الغرفة فقال له والى متى سنبقى عبيدا للاتراك واخذت الفكرة تختمر في رؤسهم (٣) راجع المصباح في عددها ١٥٤ و١٥٥ في ١٤ نيسان ١٨٨١ ولسان الحال عدد ٣٥٥ في نفس التاريخ (٤) سر مملكة ص ٧٩ الى ٨٠ .

في دمشق او في غيرها من المدن السورية . وينفي انطونيوس ان يكون لمدحت باشا علاقة بهذه الجمعية (١) بالرغم من ان سركيس في روايته يبيّن انه كان هو واخصائه كاحمد مهدى الايوبي وحسن فائز مكتوبجي ولاية بيروت قد سعوا لتأليف هذه الجمعية وانضم اليهم عدد من الشباب الذين طلبوا من المؤلف ان لا يذكر اسمهم لجس نبض السوريين فيما اذا كانوا يرغبون بالاستقلال تحت حكم مدحت باشا وقيام دولة سورية تشبه الدولة المصرية . ولكن الارجح ان نظرية انطونيوس هي الاصح لان قضية استقلال مدحت باشا بسوريا لم تكن سوى شائعة او رجاء البعض ان يتم هذا الامر ، ولأن الجمعية تالفت قبل مجيء مدحت باشا .

لم تذكر الجرائد الصادرة في ذلك الحين شيئا عن هذه المناشير اذ ان المراقبة لا بد ان تكون قد منعتها ، لكن عندما استفحل امرها وانتقلت اخبارها الى الجرائد الاجنبية كان لا بد من القيام بعمل ما ، خصوصا وامور سوريا كانت حساسة بالنسبة للمسئلة الشرقية . وقد نشرت جريدة الـ Morning Post الانكليزية اخبار هذه المناشير وحاول مراسلها ان يقلل من اهميتها اذ ان جريدة المصباح ترجمة رسالته التي جاء فيها ان احدا من الناس لم يلتفت الى هذه المناشير لان غايتها الشغب ويقوم بها افراد قلائل وان الشعب قد رفع عرضحال الى والي سوريا مذيل بامضاءات كثيرة من اعيان البلاد ورؤساء المذاهب ليبلغه الى السلطان المعظم ومضمونه اظهارا خضوع السوريين التام لعظمته وتعلقهم الشديد بحكومته وتصريحهم بالاسف من جرى ما ساء وقعه وشط وضعه من نشر الاعلانات المذكورة (٢)

والحقيقة ان وقع هذه المناشير كان عظيما اذ اهتز له السلطان وارسل العديد من الجواسيس للحد من نشاط هذه الجمعية . وحملت الصحف التركية على اعمالها حملات شعواء منها جريدة "الحقيقة" التي اتهمت البلاد السورية بالنزاعات الطائفية وبالانحراف عن طاعة الدولة العلية (٣) . فانبرت للرد عليها المصباح وغيرها من الجرائد بلهجة المستضعف نظرا لما كان يشعر به بعض من السوريين من الخوف نتيجة لوقع هذه المناشير . وقد كانت هذه المناشير في بادئ امرها قصائد حماسية كقصيدة ابراهيم اليازجي (٤) التي القاها في الاجتماع السري للجمعية العلمية السورية . والقصيدة السينية التي نشروها وعليها كلمة (الموت) ومن حولها سيفان وتبتدئ (٥)

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس

ومنهـــا والشر كل الشر في اهل العمائم والقلانس

والخير كل الخير في هدم الجوامع والكنائس

---

(١) انطونيوس ص ٨١ (٢) المصباح ، عدد ١٤٨ ٢٤ اذار سنة ١٨٨١

(٣) المصباح ، عدد ١٥٤ و ١٥٥ (٤) يقول انطونيوس ان المناشير كانت تنتهي دائما ببيت من قصيدة اليازجي المذكورة ص ٨٤ (٥) سر مملكه ص ٦٤ .—

والمهم لنا من هذه المناشير هو مضمونها السياسي . وقد تمكن انطونيوس من الوقوف على ثلاث منها في (مكتب المحفوظات العام) في لندن تبيّن ما كانت تتضمنه . فالاول منها يوبخ السوريين لتحملهم ظلم الاتراك ويطلب منهم ترك نزاعاتهم الطائفية التي تجعل منهم فريسة للمطامع الاوروبية ، ويشدّد على اهمية الاتحاد . والثاني يندد بالاتراك ويتهمهم بالتقصير في تنفيذ الاصلاحات التي كانوا يعيدون بها الشعب منذ سنة الستين ، ويطلب نظاما لامركزيا لسوريا او استقلالا تاما ، وينتهي باظهار تصميم الاعضاء على حمل قضية بلادهم الى النهاية مهما كان الثمن . واما الثالث فانه يندد ايضا بالحكم التركي وبمحاولته القضاء على اللغة العربية ويتهم السلطان باغتصاب الخلافة التي هي من حق العرب، ويضع برنامجا للتنفيذ بقوة السلاح اذا اضطر الامر ليتخلص فيه :

١ــ في منح سوريا استقلالها بالاتحاد مع لبنان

٢ــ بالاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد

٣ــ الغاء المراقبة وغيرها من التضييقات على حرية الفكر والنشر

٤ــ عدم السماح باستخدام الوحدات العسكرية المحلية الا ضمن الاراضي المحلية

وكما نرى من هذا المنشور انه يؤلف اول برنامج سياسي (١) معين في الحركة الاستقلالية الحديثة يظهر رغبات شعبية واضحة وهو ينطوي على المطالبة بتوحيد سوريا الجغرافية بما فيها لبنان الذي نال نظامه الخاص سنة ١٨٦٤ واصبح بحكم الواقع مستقلا سياسيا واداريا . فكأنه وحدة قائمة بنفسها . فطلب الوحدة السياسية هذه يمكننا ان نعتبره اول حجر وضع في مشروع المطالبة بالوحدة السورية والاستقلال السوري . واذا كانت هذه الظاهرة هي الغرسة الاولى في تقريب الشعب الى العمل السياسي الايجابي فقد كانت تعبّر عن المفهوم الدفين اللاواعي في الروح القومية المتفتحة وعن الشعور بالسورية المتأصلة عند بعض المتنورين .

الصراع الفكري : العثمانيـــــة :

واذا اردنا ان نجد في هذا العصر محاولة في فهم الامة بمعناها العلمي فانه من الصعب جدا ان نتوصل الى نتيجة واضحة الخطوط ، كما اننا لن نجد وضوحا في تعيين شخصية البلاد السورية . لان المفهوم القومي للامة لم يكن قد توضح بالمرة . فالكتاب والعاملون في حقل السياسة لم تكن لهم برامج واضحة ومطالب معينة ولم يكن يهم اكثرهم الاستقلال عن الاتراك قدر اهتمامهم بالاصلاحات التي حصروها بمنح الشعب حرية التفكير والعمل السياسي ونشر المعرفة ، ثم جعل اللغة العربية لغة رسمية . ففي ذلك الوقت كانت الفكرة القومية تتجه عند الكثيرين نحو العثمانية ، اي ان المتكلمين بالعربية والاتراك يؤلفون شعبا واحدا طالما هم حكومة

---

(١) انطونيوس ص ٨٤

واحدة، وبالرغم من الشعور بالاختلاف بين الاثنين. ففي كتابات مشاهير الكتاب والشعراء كابراهيم الاحدب ويوسف الاسير وبطرس كرامه وعبد الباقي العمري وناصيف اليازجي وفرح انطون وجرجي زيدان ، نزعة الى اعتبار الامة العثمانية واحدة (١) مدينون لها بالولاء والاحترام ، مع ان مفهوم الامة كما هو ظاهر من مجرد القول بالعثمانية غير واضح لهؤلاء الكتاب فان اكثرهم كان يطالب بالاصلاح والمساواة في الحقوق والواجبات بين الشعوب العربية وبين الاتراك على اساس الامة الواحدة ، وكان بعضهم يصارع اساليب الحكم التركي كفرح انطون مثلاً الذي ترجم رواية (عهد الارهاب لديماس) ونشرها سلسلة في مجلته (الجامعة العثمانية) واخذ يحتال لارسالها الى سوريا خوفاً من وقوعها تحت الرقابة العثمانية التي كانت تتبع اخبار وصولها الى سوريا بيقظة وتنبه (٢) ولكنه في الوقت نفسه ينشىء مجلته باسم الجامعة العثمانية ويقصد بها وقوف الشرق معا في السراء والضراء لكي يستطيع الشرقيون ان يسيروا مع التيار الغربي فلا يدوسه . واشار في مقدمة العدد الاول من مجلته الى انه يجب قيام مدارس جديده يكون اساس تعليمها حب الوطن والامة وتعليم ما هو الوطن وما هي الامة ، وان تسير هذه المدارس على طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة وان يدخل اليها عناصر الامة كلها فتربى فيها على مقاعد واحدة وتتلقى دروسا واحدة ومبادىء واحدة حتى تخرج الى العالم بقلوب واحدة وافكار واحدة لتقوية جدار الوطنية العثمانية (٣)

ومن القائلين بافكار من هذا النوع متقاربة في مجموعها اديب اسحاق وهو من اصحاب يوسف المؤيد ومحمد عبده وغيرهم في مصر من القائلين بالعثمانية لاسباب دينية كما سنرى . والذي يهمنا منه بالاكثر هو انه من اول المحددين لمعنى الامة والوطن والوطنية في اللغة العربية . وفي تحديده للامة يقول (انها الجماعة من الناس تتجنس جنسا واحدا اي تتسم بسمة واحدة على اختلاف اصولها ولغاتها وتتعارف بأسم تنتسب اليه وتدافع عنه)(٤) ويريد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاء (٥) الى جنس واحد يتوالدون فيه ويتسمون به وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق بين الانساب كما ان اللغة ليست ضرورية لوحدة الامة . وفي هذا التحديد تعسف ومحاولة سياسية لجعل السلطنة العثمانية امة واحدة يتم باتفاقنا على الاعتزاء بالجنس العثماني كأن الامة امر اصطناعي يتم وضعها حال جلوسنا وراء طاولة واتفاقنا على وضع حدود معينة لها وتسمية انفسنا بها .

ولكن هذا التحديد هو بداية دخول مفهوم الامة والقومية الى البلاد السورية وبدء محاولة فهمها فهما علميا وان كانت المحاولة بحد ذاتها ليست منزهة عن الغايات السياسية وعن الواقع والحقيقة ، ولن كانت

(١) المقدسي ، العوامل الفعالة ص ٨

(٢) راجع مقدمته لهذه الرواية (٣) فرح انطون ، ملحق مجلة السيدات والرجال سنة ١٩٢٣ ص ١٤ (٤) اديب اسحق : الدرر ص ١٠٠ الى ١٠٣ (٥) جاء في محيط المحيط اعتزى اليه وله اعتزاء انتمى له صدقا او كذبا وانتسب .

وان كانت متأثرة بالنزعة السائدة في ذلك العصر ، فلايمنعنا ذلك عن رؤية الحاجة التي اخذت تشرأب الى المعرفة المطلقة .

الجامعة الاسلامية :

لم يقف القول بالعثمانية عند حد وقوف الشرق ضد الغرب والاخذ عنه لمقاومته انما رافق ذلك شعور ديني طائفي ، فالسياسة الاوروبية تجاه المسألة الشرقية كانت سياسة متسترة بحجج طائفية وهي حماية الاقليات المسيحية مما ادى الى تدخل فرنسا وانكلترا وروسيا وايطاليا في شؤون السلطنة العثمانية . فكان لا بد من بدء تفكير المسلمين بتوحيد انفسهم ضد الهجمات الاوروبية عليهم خصوصا بعد اندحار العثمانيين وامضاء معاهدة كوتشوك كاينرجي (١) .

وكان اول من اوضح فكرة هذه الوحدة ودعى اليها جمال الدين الافغاني وهو ايراني الاصل ، يدّعي السلالة النبوية كما يدل نعته بالسيد . وكان قد ترك الافغان لاسباب سياسية فطاف في اوروبا وروسيا وفي مصر حيث استقر لمدة طويلة تعرّف خلالها على محمد عبده وتعاونا معا في باريس على اصدار مجلة "العروة الوثقى" التي اوقفت نفسها على الدعوة للوحدة الاسلامية .

والاسلام نفسه كدين يدعوا لمثل هذه الوحدة . فبالنسبة للقرآن (المؤمنون اخوة) كتابهم واحد لغته واحدة وجميع تعاليمه تلقى في تلك اللغة مما اوجد اتصالا بين ابعد الامم الاسلامية كما اوجد الاتصال نفسه الحاج الى مكه كل سنة يقوم به الوف من الهند ومراكش وفارس ومصر وسوريا .

فعوامل الوحدة الاسلامية قائمة في تعاليم وعادات الاسلام ورابطته قوية لكن كلمة المسلمين لم تجتمع منذ مصرع عثمان ولم تهتف الدول الاسلامية عن محاربة بعضها البعض لاسباب قومية وغير قومية . وبالواقع فان للاسلام رابطة ظاهرية هي الخلافة التي سببت اول انشقاق بين المسلمين، والتي منذ ان كسف مجد العباسيين لم يعد لها اهمية سياسية كبيرة وحتى اهميتها الدينية ضعفت بالرغم من ان الكثيرين من العلماء بقوا حتى في عصورها المتأخرة يدرسون شروطها واسسها كالماوردي في كتابه (الاحكام السلطانية) الذي جاء فيه ان من شروط الخلافة (العدالة على شروطها الجامعة وان يكون الخليفة من قريش، والشجاعة والنجدة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو)(٢) وهذه النقطة الاخيرة من الاهمية بمكان لانها تتطلب من الخليفة المقدرة على محاربة العدو اى ان يكون قويا وصاحب سلطة ليتمكن من القيام بهذه الحرب .

ولم يكن سلاطين ال عثمان في اول امرهم بحاجة الى لقب الخلافة لتقوية نفوذهم لما كان لهم من السيطرة والقوة لدرجة عظيمة اغنتهم عن الالتجاء الى العاطفة الدينية ، لكن ما ان ذر القرن الثامن عشر قرنه حتى وجدوا ان سلطتهم اخذت ترزح تحت اعباء لا مقدورة لهم عليها ولا قبل لهم بها ، فاخذوا يعتمدون على

(١) بروكلمن ، الطبعة الانكليزية ص ٣٤١ — ٣٤٢

(٢) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ٤ .

هذا اللقب لتقوية النفوذ المتزعزع والسلطان المشرف على المغيب وذلك بعد ان دحرتهم روسيا واحتلت النمسا بوكوفينا ، ففي نهاية القرن الثامن عشر تحولت تركيا من دولة مهاجمة بيدها المبادرة الى دولة مدافعة لا تملك من القوة ما يقيها سطوة اعدائها ٠ (١)

كان عبد الحميد الثاني الذى اهتم في جعل الخلافة مطمح انظار اصحاب هذه الفكرة الجديده ٠ فعاضدها وساندها بالمال والمبشرين وجعل لها جرائد تنطق بلسانها وتقيم لها الدعاية حتى اصبح في مفهوم الناس ان للخليفة الحق في التدخل في شؤون المسلمين اينما كانوا (٢) وامتد اثرها الى الهند وجافا واقيمت لها جمعيات في كل البلدان الاسلامية حتى لندن نفسها ٠

كانت الخطة التي تقوم عليها الدعوة الى الجامعة الاسلامية هو ان تطالب القوة الحاكمة بالاصلاح السياسي (٣) وان تجتمع هذه القوة في يد الخليفه لاصلاح امور المسلمين الدنيوية والدينية لان الغاية من هذه الجامعة ليس فقط اصلاح ذات البين بين الطوائف الاسلامية انما الدعوة الى اتحاد الحكومات الاسلامية والى العناية بامر القوة الحربية (٤) وفي هذه الدعوة الى الاتحاد السياسي كانت تكمن قوة ارتكاز الدعوة الى ما بعدها من دعوات للاتحاد ٠ وكانت ترتكز الدعوة على توحيد عقائد المسلمين وتعاليمه والى امانة البدع واحياء السنن ومطالبة الملوك والامراء ولا سيما المختلفين في المذاهب فأهل السنه والشيعه الى الاتحاد والاتفاق وان لا يجعلوا الخلاف الفرعي في الدين من اسباب التفرق والانقسام (٥) ولما كانت هذه الدعوة ذات صبغة دينيه بحته في اساسها ،لكنها سياسية في مضمونها وطبيعتها لعدم انفصال الامور الدينية عن الامور السياسية في الاسلام ، وان الحركة هذه كانت ترفض رفضا باتا الدعوة الى فصل الدين عن الدولة وتعدها مفسدة للعقيدة ومحاولة لنسف بناء الدين الاسلامي (٦) اذ ان الدعوة هذه بحد ذاتها دعوة سياسية دينية (٧)

وقد نشأت هذه الدعوة كقضية جديده عند بعض السوريين القائلين بها ولم تنشأ عند المصريين لسببين : الاول ان المصريين لم يكونوا عند ابتداء عصر القومية من ابناء السلطنة العثمانية مباشرة مع تعلقهم الشديد بالسلطنه العثمانية لتمكنهم منذ الاحتلال البريطاني من السير في سياسة مصرية مستقلة خالصه ، والثاني لانه لم تكن عندهم مشكلة التعدد الطائفي بالدرجة الموجودة عند السوريين ٠ فكان بامكانهم ان يدعوا الى اصلاح اسلامي بحت .وبالفعل قد دعوا الى مثل هذا الامر واستغلوه للدفاع عن قضية

---

(١) بروكلمان ٣٤٢ (٢) Kohn: ٤٦ الاحكام السلطانية (مصر ٣٢٢) ص ٤ (٣) المنار ــ السنة الثانية ص ٣٤١ (٤) المنار السنة الثانية ص ٣٤٤ ــ ٣٤٥ (٥) نفس المصدر ــ ص ــ ٣٣٨

(٦) المنار ــ السنة الثانية ــ ص ٣٤٤

(٧) اى سياسية دينيـــــة ٠

استقلالهم التي لم يكونوا يفرقون بينها وبين قضية الاسلام . كما فعل وكان يدعو اليه مصطفى كامل الذى كثيرا ما كان يدافع عن السلطان ويعرف كيف يستغل قضية الجامعة الاسلامية لمصالح بلاده السياسية (١)

دخلت مشكلة الجامعة الاسلامية الى سوريا في عصر كان المسلمون كالمسيحيين قد اخذوا يطلون على القضايا القومية ، وقد برز منهم عدد لا بأس به من المفكرين ، وكانوا يشعرون اكثر من المصريين بظلم الحكم التركي وبفداحته فلم يأل بعضهم جهدا عن محاربته وعن اللحاق بالكثير من الوطنيين الذين تركوا البلاد الى الخارج خوفا من عسف السلطان وجواسيسه المنتشرين في كل صقع ودار .

ومن بين هؤلاء الذين تركوا ديارهم وحاولوا الاصلاح السياسي والديني عبد الرحمن الكواكبي الحلبي النشأة الذى كان لوقت ما رئيسا لبلدية حلب وعمل فيها كمحام ومدافع عن حقوق الفقراء والمساكين ، وانشاء فيها عددا من الجرائد كانت تغلق الواحدة بعد الاخرى لما فيها من جرأة ومن انتقاد ومن تفكير علمي صحيح ، والذى يهمنا منه الان هو كتابه "ام القرى" الذى نشره تحت اسم السيد الفراتي وجعله على شكل ضبط جلسة لمؤتمر من علماء المسلمين اتوا من كل اصقاع الارض واجتمعوا في مكة لدرس احسن طرق النهضة الاسلامية والكتاب يبحث في اسباب فتور المسلمين وتخاذلهم في جلسات متتالية وينتهي باقتراح قيام جمعية غايتها النهوض بالمسلمين دعاها "جمعية تعليم الموحدين" ووضع لها قانونا جاء فيه ان المسلمين في حالة فتور مستحكم عام وانه يجب تدارك هذا الفتور سريعا والا فتضمحل عصبيتهم كليا، ويأتي على سبب الفتور فيقول انه تهاون الحكام ثم العلماء ثم الامراء وان جرثومة الداء هي الجهل المطلق خصوصا الجهل في الدين . فللقضاء على هذه الحالة الشاذة يجب علينا ان ننور الافكار بالتعليم ونوجد الشوق للترقي في رؤوس الناشئة والوسيلة الوحيدة لذلك هي الجمعيات التعليمية القانونية وتكليف الحكماء ونجباء الامة من السراة والعلماء بها . وبما ان الكفاءة لازالة الفتور موجودة في العرب خاصة فيجب اذا تكليف العرب القيام بهذه المهمة (٢) ولذلك يقترح بعد ان بحثت الجمعية في احوال وخصال جميع الاقوام المسلمين الموجودين وخصائص مواقعهم والظروف المحيطة بهم ، ان حفظ الحياة الدينية متعينه عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقا (٣) لاسباب عديده منها ان الجزيرة هي مشرق النور الاسلامي ولموقعها الجغرافي المتوسط ولان عرب الجزيرة اعلم المسلمين بقواعد الدين ولا يزال عندهم الدين حنيفا بعيدا عن التشويش ولانهم اقوى المسلمين عصبية واشدهم انفة لما فيهم من خصائص البدوية ولان العرب عموما لغتهم اغنى لغات المسلمين

---

(١) المنار المجلد الثاني مج ٢ ص ٣٤٥ - ٣٥٨ - ١٨٩

(٢) راجع قانون الجمعية في كتاب "ام القرى" (مصر ١٩٣١) ص ١٦٨

(٣) الكتاب نفسه — ص ١٩٢ .

في المعارف ومصونه بالقرآن الكريم وهي اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين ، ولان العرب اعرق الامم في اصول الشورى واهدى الامم لاصول المعيشة الاشتراكية (١)

فنحن نرى في دعوة الكواكبي رغبة الى النهوض بالمسلمين والى نزع الخلافات بينهم وتقوية عصبيتهم ، لكنه لا يبغي ان يتم هذا الاصلاح على يد القوة الحاكمة ولا عن يد غير العرب، بل ان يتم بالتعليم وبالتوجه نحو الشعب نفسه ، لان الاسلام يدعو للشورى وهي تساوي بمعناها الحكم الديمقراطي .

ودعوة الكواكبي هذه تبدو فيها ولا شك نزعة قومية ظاهرة وهي تسليم زمام هذه القضية الى العرب وان كان الاصلاح لن يقتصر عليهم وحدهم وما ذلك الا تعبيرا عن الروح القومية التي بدأت تظهر بين المسلمين كما ظهرت بين المسيحيين ، ولكن بينما نرى المسيحيين ينظرون الى سوريا كوطنهم القومي وحدها ، نرى المسلمين ينظرون الى العرب (دون تحديد للبلاد) كجنس كانهم قومهم .

ونحن نرى هنا الفرق بين دعوته ودعوة جمال الدين الافغاني الذي كان لا يهمه من امر الخليفة الا ان يكون قادرا على الحرب، ودعوة الكواكبي لان يكون الخليفة خليفة بالفعل ، اي ان يكون قريشيا وان يهتم بامور المسلمين الدينية (٢) وبامور جماعة المؤمنين .

وثمة امر اخر لم يكن لانسان غير سوري ان يبحثه وهو قضية التسوية الطائفية بين المسلمين والمسيحيين فالمشكلة بحد ذاتها محلية تختص بسوريا تقريبا نتيجة لوضعها الاجتماعي الخاص، ويتنبه لها السوري اكثر من غيره لوجودها في حياته الاجتماعية . فحركة الجامعة الاسلامية لم تعالج هذه القضية معالجة جدية وان اتت عليها فهي بالنسبة لها قضية عارضه فالمسيحيون لا يشكلون الا جزءا يسيرا في هذا المحيط الواسع وهم بطبيعة وضعهم ينظرون الى اوروبا المسيحية لنجدتهم ومساعدتهم والحركة الاسلامية حركة قائمة على معارضة الاوروبيين سياسيا وفكريا وان لم يكن علميا ولكن الكواكبي تعرض لهذه القضية في حياته وفي كتاباته وان لم يكن بمقدورة ان يجاهر بارائه في هذا الموضوع كثيرا ، وانه كان يجتمع دائما الى غير المسلمين اي المسيحيين ويعتبرهم اخوانا له في الوطنية ،فالوطنية بالنسبة له فوق الاختلافات المذهبية (٣) ومن الممكن جدا ان الكواكبي دعا الى ابعد من ذلك اي الى فصل الدين عن الدولة ، وهو امر لم يجرؤا عليه قبله احد غيره ،وهو نفسه لا يذكر عنه شيئا انما اتى على ذكره السيد رشيد رضا في المنار عند وفاة الكواكبي (٤) وقد رد رشيد رضا على مقالة "لمفكر مسلم حر" نشرت في المقطم واظن انها للكواكبي لانه الوحيد الذي دعا الى مثل هذا الامر (٥) يرفض فيها رفضا باتا التفكير في هذه القضية .

---

(١) المصدر نفسه — ص ١٩٣ — ١٩٤ (٢) انطونيوس — ص ٩٨ (٣) انطونيوس ص ٩٦ (٤) الطباخ ، اعلام النبلاء — (حلب ١٩٢٦) ص ٥١٧ مجلد ٧ والترجمة ماخوذة عن ترجمة رشيد رضا في المنار سنة ١٣٢٠ مجلد ٥ ص ٢٣٧ و٢٧٦

(٥) المنار — المجلد الثاني — ص ٣٤٤ .

ان ظهور مثل هذا التفكير عن مفكر سوري مسلم ، كان يدل على امر انتقال ادقيادة الفكرية الى المسلمين كما انه يدل على ان فكر السوريين المسلمين قابل للاخذ بالافكار التقدمية وتبنيها وتطبيقها في حياتهم وليس القول بها فقط .

سوريون وعـــرب :

اقتصر الصراع الاستقلالي والفكري كما راينا على بعض المحاولات المحدودة الفاعلية في البلاد ، وعلى هذه الجرائد المنتشرة خارج سوريا والتي لم تكن كلها استقلالية بالنسبة للبلاد السورية ، لان فيها من كان ينطق بلسان فرنسا او انكلترا (١) ولم تقم احزاباو جمعيات سياسية الاالجمعية السرية في بيروت التي قد كان بالامكان ان يكون اثرها بعيدا ، لكنه لم يـ ثمراو يعط ما كانت تتوخاه هذه الجمعية من اهداف كبيرة وبعيدة في عصر السلطان عبد الحميد الثاني .

وقد راينا ان الاتجاه القومي كان يتوخى اما القول باننا امة واحدة مع العثمانيين او قيام جامعةاسلامية سياسية مركزها مقر الخلافه . واخيرا اتت نظرة الكواكبي التي هي تعبير عن كراهية الجنس العربي للاتراك والتي يمكن ان نعدها بدء الدعوة للوحدة العربية اذ انها تقليص الوحدة الاسلامية الشاملة الى وحدة عربية اسلامية .

وبجانب هذه الدعوات ، اخذت تظهر بوادر تفهم ، ووعي للقضية السورية ، فالبلاد هي البلاد السورية تختلف عن غيرها من البلدان ولا تبغي الاتحاد السياسي مع غيرها وان كانت تشترك مع هذا الغيـــر في العمل ضد الاتراك ، وبالاحرى انها لم تكن تفكر بهذا الاتحاد كما يظهر لنا برنامج الجمعية السرية ولم تكن تفكر في مثل هذه الوحدة السياسية الا في عصرنا المتاخر هذا اذ انه كان هناك تمييز لا واع بين الجنسرا لعربي وبين البلاد كبلاد فعدم وضوح التاريخ السوري جعل الاكثرية تعتقد ان اجدادنا هم العرب كما جاء في خطاب السيد بطرس البستاني عن اداب العرب(٢) اذ يقول "اننا كثيرا ما نسمع ابناء العرب يتباهون متفاخرين بكون اجدادهم الاقدمين هم الذين انعموا على العالم ..." وكلمة ابناء عرب هذه تدل على القرابة الدموية وعلى وقف مفهوم القومية في ذلك الحين على هذه العلاقة الجنسية ، وهذا الاستعمال لا يزال شائعا عندنا حتى الان بين العامة فنقول للسوري ابن عرب ونقول للبدوي عرب والفرق بين الاثنين هو في اعتبار اجدادنا من العرب، وقد استعملت العامة كلمة "ابناء عرب" للتفريق بينها وبين الاتراك . لان لغتنا عربية ولان الاعتقاد السالف الذكر عن اجدادنا كان سائدا . وقد ساعد انتشار الكتابات على تقوية هذه التسمية فقصيدة اليازجي تنبهوا واستيقظوا ايها العرب ... وكتاب نوفل نوفل عنوانه "صناجة العرب في علوم العرب" كلها دلائل على هذا المفهوم للجنس العربي وليس للبلاد العربية اذ ان هذه الكلمة لم

---

(١) راجع ولي الدين يكن في كتابه المعلوم والمجهول عن اتجاهات هذه الجرائد وكذلك خير الله خير الله في كتابه La Syrie

(٢) الروائع عدد ٢٢ : ص ٢٧

هذه الكلمة لم تستعمل مطلقا ، انما كانوا يستعملون كلمة العرب للدلالة على الجنس ولم يدع احد لوحدة عربية سياسية او قومية .

وبينما نرى ان هذه التسمية هي الشائعة بين السوريين ، نرى ان عملهم السياسي يقتصر على تحرير سوريا وحدها باعتبارها وطنهم ونرى ان هناك محاولات جديده لدراسة التاريخ السوري ادت الى التساؤل عن اصل السوريين ، فظهر في هذه المدة عدد من كتب التاريخ السورية منها كتاب العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية لالياس ديب مطر ظهر سنة ١٨٧٤ في بيروت وهو كتاب هزيل في معلوماته لكنه يشكل المحاولة الاولى في تفهم اصل السوريين وتاريخهم القديم . وتلاه سنة ١٨٨١ كتاب جرجي يني "تاريخ سوريا" وهو اول تاريخ جامع لسوريا تقريبا وقد اعتمد فيه مؤلفه على عدد من المصادر الاجنبية كهيرودوتس وبليني وبطليموس وغيرهم من الجغرافيين والمؤرخين ، ولم يقتصر يني على هذا الكتاب بل اصدر مجلته "المباحث" سنة ١٨٠٩ (ولدرج فيها عددا من الدراسات التاريخية عن سوريا وظهر سنة ١٨٩٣) وادرج فيها عددا من الدراسات التاريخية عن سوريا ، وظهر سنة ١٨٩٣ تاريخ المطران الدبس وهو اكبر تاريخ مطول كتب عن سوريا حتى الان اذ انه في سبعة اجزاء كبيرة وفيه تظهر للمؤلف بتعابير واضحة الحاجة الى تاريخ الوطن السوري لعدم ظهور الا القليل من الكتابات في اللغة العربية عن هذا الموضوع المهم (١) ولكن الكتابين الاخيرين يعتمدان على الثوراة والكتب الدينية كثيرا ويمثلان الاتجاه الى السورية والدعوة الى قضيتها بعيدا عن اية قضية اخرى والذي يظهر من درس التاريخ السوري هذا ، ان هناك مسحة مسيحية عليه ، فالذين يقومون عليه مسيحيون من اصحاب المدرسة اليسوعية فالدبس مطران بيروت للطائفة المارونية ، واليسوعيون هم مرسلون الى سورية يقولون بالبلاد السورية فقط م (٢) فلا غرابة ان وجدنا ان هذه الدعوة الوطنية لا تقوم على اساس قومي خالص انما على دعوة دينية باعتبار سورية مهد الدين المسيحي كما يعتبر المسلمون بلاد الحجاز .

والظاهر ان الامر لم يقتصر عند هذا الحد ، ففي عدد كبير من الرسائل الواردة الى الهلال (٣) في اوائل ظهوره اسئلة عن اصل السوريين المسيحيين باعتبار ان المسلمين من اصل اخر ، ومع ان هذه الاسئلة بحد ذاتها تدل على جهالة تاريخية لكنها في الوقت نفسه تدل على الشعور الطائفي المستأصل عند المسيحيين والمسلمين ، ولكثرة هذه الاسئلة والبحوث الكثيرة في الصحف في اوائل القرن العشرين ، كتب الهلال (٤) مقالة ترد فيها على هذه الاسئلة تحت عنوان هل السوريون عرب ؟ فبينت ان ما يراد بالسوريين هم اهل الشام والعراق وما بين النهرين وفلسطين ، واتت على ان اصول السوريين الرئيسية القديمة هي

---

(١) راجع مقدمة الكتاب (٢) راجع مقدمة الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس المطبوع سنة ١٨٧٩ في بيروت (٣) الهلال — المجلد الرابع ص ٦١٧

(٤) المجلد السابع عشر : ص ٤٢٥ - الهلال

هي السامية اى الارامية وان كان اختلط فيها الرومان واليونان ، وقد بقوا كذلك حتى مجيء العرب المسلمين الذين دخل في دينهم عدد من السوريين المسيحيين وعلى الاجمال فان اكثرية مسلمي سورية يرجعون بنسبهم الى العرب ومن خالطهم من الترك والجركس والاكراد والفرس، واما المسيحيين فاكثرهم من الاصل الارامي وان كان بعضهم من العرب الغساسنة الذين بقوا وحدهم على نصرانيتهم من عرب سوريا . فيستنتج بالتالي على ان السوريين ليسوا عربا من حيث النسب وان كان فيهم شيء من الدم العربي بل هم اخلاط من امم شتى ولكنهم يعدون عربا لانهم يتكلمون العربية وقد توالدوا في بلاد عربية وتخلقوا باخلاق العرب . فسوريا اصبحت بعد الفتح الاسلامي عربية لنزول العرب المسلمين فيها واتخاذها وطنا لهم وقد نشروا فيها لسانهم وعاداتهم وادابهم فسكانها يعدون عربا وان لم يرجعوا بانسابهم الى قبائل العرب وعلى هذا الاساس يكون العرب ثلاث طبقات (١) اهل البادية (٢) العرب المسلمون وهم سكان المدن السورية والمصرية وتجمعهم اللغة العربية والدين الاسلامي (٣) العرب المولودون وهم المسيحيون من سكان هذه البلاد فانهم يعدون عربا باعتبار لغتهم وعاداتهم وادابهم لا من حيث انسابهم .

وهذا التعريف يحتاج بلاشك الى مناقشة ستكون ضمن نقاشنا الاخير للموضوع من اساسه لكنه يبين لنا نزعة جديدة في تحديد القومية تختلف عن نزعة اديباسحق القائمة على الاعتزاء ومن تلاه اذ ان العرب ليسوا عربا بالنسبة لاصلهم فقط بل بالنسبة للغتهم وعاداتهم وادابهم .

وفي رأي ان قد ساعد على الشعور بالسورية عدا هذه المباحثات الكلامية والتاريخية واضطرها الى الظهور حادثان يمكننا ان نعدهما امثالين لمشاكل السوريين في الخارج . فقد نزح عن سوريا في العصر الحميدي عدد كبير من العائلات الى مصر والى اميركا . وفي مصر برز السوريون في الحياة العامة والادبية بروزا جعل من المصريين ينظرون اليهم شزرا وبالتالي يعتبرونهم كدخلاء اجانب خصوصا وقد بدأ منهم عطف على الانكليز . ومن يعرف تطور الحركة القومية في مصر منذ الاحتلال البريطاني ويرافق حركة عرابي بانشاء حركة مصطفى كامل لا يعجب لهذا الشعور يختلج في صدور المصريين ، فالمصريون منذ اول اقبالهم على الحياة القومية عملوا من اجل مصر وحدها وادركوا شخصيتهم القومية قبل غيرهم من الامم العربية . فبينما كان السوريون عند التفريق بينهم وبين الاتراك يتصفون بالعرب او بابناء العرب ، كان المصريون يفرقون بينهما بالمصريين والترك اذ ان كلمة عربي او فلاح كانت تحقيرا بالنسبة للمصري (١) وهكذا كان عرابي باشا اول من دعى نفسه بالمصري ونادى "بمصر للمصريين" (٢) وقد اصدر في هذا المعنى سليم نقاش السوري الاصل

---

(١) Kohn — ص ١٨٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٩

(٣) شيخو اداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٣٤

صاحب مجلة المحروسة كتابا حول هذه القضية المصرية دعاه "مصر للمصريين" وقد اقتبس مصطفى كامل شعار عرابي باشا هذا واتخذه خطة ومنهجا له في حياته السياسية فكان لا يهاب احدا ولا يراعي خليلا ، فتعرض للنزلاء والدخلاء ويعني بهم السوريين لانهم يخالفون مصلحة مصر ، وعندما سئل عن تصريحه هذا لم ينكر بل قال انه لا يقصد به كل السوريين (١). وتصريح مصطفى كامل هذا كان يمثل رأي المصريين في السوريين فحملوا عليهم حملة عنيفة في الجرائد والحياة حتى تصدى لهم حافظ ابرهيم و دافع عن السوريين دفاعا مجيدا فاكرمه السوريون في حفلة كبرى على شرفه ودعا للاكتتاب بها سليم سركيس صاحب مجلة سركيس واقيمت في فندق شبرد في الرابع والعشرين من اذار سنة ١٩٠٨ تكلم فيها من السوريين سليمان البستاني ونقولا رزق الله وشكيب ارسلان ورفيق العظم والقى فيها حافظ قصيدته المشهورة .

لمصر ام الربوع الشام تنتسب — هنا العلى وهناك المجد والحسب
وكنان للشرق لا زالت ربوعهما — قلب الهلال عليها خافقا يجب (٢)

وهذا الشعور تجاه السوريين يفسره امر واحد هو ادراك المصريين لقوميتهم الحقيقية وتحسسهم بالفرق بينهم وبين السوريين مما جعل هؤلاء بدورهم يتكتلون ويتحسسون بقوميتهم ايضا على الرغم من انهم كانوا يطالبون بالجنسية المصرية ويريدون ان يعتبروا انفسهم مصريين جنسية ، نظراً للتسهيلات العديدة التي تضفيها عليهم هذه الجنسية ، وعلى اعتبار انهم لن يعودوا الى سوريا (٣) بعد ان قضوا في مصر زمنا يخولهم حق التجنس بالمصرية .

وبالفعل ان هذه النظرة الى السوريين لم تختف عند المصريين حتى الان ، فهم ينظرون الى غير المصريين كأجانب يدل على هذا المعاملة التي يلقاها الفنانون السوريون ، وتدل على هذه المعاملة ايضا التي يلقاها هذه الحادثة البسيطة الاهمية الكبيرة الدلالة ، التي حدثت في السنة الماضية لفريق من الطلبة السوريين في جامعة فواد الاول اذ امتنع الطلبة المصريون عن السماح لهم بمرافقتهم الى الاقصر في رحلة مدرسية لانهم اجانب لا يمتون لهم بصلة (٤) وهذه الحادثة وقعت بعد حوادث فلسطين فلا مشاحة ان ما ظهر من المصريين هو عوده الى شعور قديم مستأصل في نفوسهم .

والحادثة الثانية التي كان لها اثرها ايضا هو انه على اثر هجرة السوريين الكبيرة الى اميركا حظرت الحكومة الاميركية على السوريين التجنس بجنسيتها لانهم من السلالة الصفراء ، فنهضت الصحف السورية ترد عن ابناء البلاد هذه التهمة وانبرت تعارض الحكومة الاميركية بشجاعة الليث الجريح فياخذها في ذلك جمعية

---

(١) الهلال مجلد ١٦ ص ٣٣٠ (٣) الهلال مجلد ١٦ ص ٤٣٢ الى ٤٣٤
(٢) نجيب الحداد ـ المختارات ص ٢١٦ (٤) اخر ساعة عدد ٧٤٧ ص ١٢

الاتحاد السوري وقد تاثرت البلاد لهذه المعاملة وانبرت الصحف المحلية بدورها تكتب في هذا الموضوع وتحاول برهنة اصل السوريين السامي والاري اذ انها اعتبرت مقابلة السوريين بالصفر اهانة للجنس السوري مما اضطرها الى الرجوع الى التاريخ والى النظر في امور كانت منسية ، ومن الذين كتبوا في هذا الموضوع جرجي يني في مجلته المباحث وقد اتى ببراهين علمية ماخوذة عن باتون وسايس ورولنسون ورينان ومسبرو ، على ان اكثرية السوريين هم من الساميين والاريين ، وكلا الجنسين لا يمتان للجنس الاصفر بصله . وانتهى الى القول ان "الامة السورية خليط من قبائل شتى كما هو مؤدى كلمة امه Nation وليست شعبا People ولكن كل اجزاء هذه الامة من الجنس الابيض"(١). وهذه اول مرة ينظر فيها الى سوريا نظرا فيه شيء من العلم على انها امة وان كان الجميع ينظرون اليها على انها وطن وعلى انها وحدة جغرافية تقليدية . وقد نبهت هذه النظرة السوريين الى طبيعة جنسهم الخاصة وجعلت الكثيرين يتساءلون فيما اذا كان الواجب لا يمنعهم من ترك جنسيتهم السورية وقد رددت صدى تساؤ لهم الجرائد والمجلات كالهلال والمقتطف والمباحث وغيرها .

من الممكن ان هاتين الحادثتين تفسران لنا لماذا حافظ السوريون في الخارج على اسمهم "السوري" في مصر وفي الولايات المتحدة حيث لا يزالون الى اليوم يدعون بالسوريين ومن الممكن ايضا ان تفسر ان لنا الاسباب التي ادت الى هذه المحاولة للفصل بين مفهومي العرب والسوريين او بالاحرى الى بدء الوعي عند السوريين لا الادراك حقيقة ذاتيتهم المنفصلة عن غيرها من الحقائق . فقد رأينا ان اكثر القائمين على الدعوة السورية كانوا من المسيحيين واكثر الممهاجرين هم كذلك ، ومن الذين تتلمذوا في المدارس الافرنسية التحريرية والديمقراطية ، ولكن هذا التاثر لم يؤ خر او يمنع ادراكهم حقيقتهم بل بالعكس ، اذ ان الافكار الديمقراطية الانسانية التي زرعها المبشرون الاميركانيون والافرنسيون في نفوس الناشئة السورية مكنت هذه الناشئة من ادراك هذه الحقيقة والتعلق بها ، اذ انها بلورتها نسبيا امام ناظريهم ، فقد ظهرت في سنة ١٩٠٨ نشرة سرية وزعت في بيروت تحت عنوان (المشكلة الاجتماعية والعلمية في سورية) "تعارض الفكرة العثمانية والذوبان فيها ، كما انها تعارض كل تدخل اجنبي ، خصوصا الافرنسي وتطالب ببقاء الثقافة السورية . فتقول النشرة "نعم " اننا نحب فرنسا ، ولكن هذا الحب لن يجعلنا نفنى انفسنا . وانه لن صالح البلدين معا فرنسا وسوريا ان يحافظ اهل البلاد على صبغتهم القومية وعلى شخصيتهم الخاصة مع استمداد افكارهم التحررية من فرنسا . اننا نفضل الثقافة الفرنسية لانها تثقف اكثر من غيرها مع عقليتنا ومع مقاصدنا ، ولكننا لن نسمح لحضارتنا الخاصة ان تفنى . اننا سنكد ونجاهد ونضحي باخر ذرة من قوانا ومن صحتنا ومن شبابنا ومن

---

(١) المباحث — السنة الاولى المجلد الثاني : ص ١٠٦٠ — ١٠٦٧ وقد وردت في الاصل كلمة People بدل من Nation وهي غلطبه مطبعية كما يدل تفسير الكلمة بالعربية .

روحنا ومن دمنا اذا لزم الامر ولن نترك ثقافتنا تموت او ان تشرق الشمس على بقايا لوطننا السوري" (١) والظاهر من هذه النشرة انها من صنع احد المسيحيين ومن اولئك الذين تثقفوا عند الفرنسيين، و من الذين يحاولون ان يوفقوا بين مطامح فرنسا في سوريا وبين العزة القومية والفخر بحضارة البلاد والتعلق بها على انها تراث يجب الا يموت والا يفنى بل يبقى في النفوس الى ابد الدهر ولو كلف ذلك دماء تجرى وشبابا يذوى .

ويجدر بنا ان نلاحظ انه في نفس الظرف الذى اخذت تتبلور فيه فكرة الامة السورية والحضارة السورية عند عدد من المفكرين والكتاب اخذت ايضا فكرة الدولة العربية الموحدة تظهر في افكار بعض الكتاب السوريين ومنهم نجيب العازورى الذى كان قد درس في فرنسا واضطر ان يترك الارض العثمانية الى باريس بعد أن كان معاونا لحاكم القدس سنة ١٩٠٤ تحت ضغط الحكومة التركية ، فاسس هناك "عصبة الوطن العربي " ووضع لها نظاما ودستورا مع ان اعمالها لم تتسع ، ثم كتب بالافرنسية كتابا لاقى دعاه "يقظة الامة العربية في اسيا التركية "ومن ثم تبعه يعاونه يوجين يونغ الفرنسي بجريدة "الاستقلال العربي" (٢) التي توقفت عن الصدور حال اعلان الدستور العثماني ، الذى اعتبره بمثابة محجة الجهاد السياسي ، فاعلن انه بناء على اعلان الدستور ، اصبح من الواجب ان ينفذ العهد الذى قطعه على نفسه لاعضاء تركيا الفتاة الاحرار من انه عند اعلان الدستور سيرمي سلاحه ويتعاون معهم ، وانه حالما يبرهن البرلمان الجديد على اهليته وتحرره سيترك نشاطه الخاص ويعمل ضمن نطاق الدستور لاعلان اللامركزية لبلاده (٣)

ولكن المهم في تفكير العازورى هو كتابه الذى اصدره بالفرنسية ايضا سنة ١٩٠٥ في ٢٥٧ صفحة متوسطة الحجم يبحث فيه عن فلسطين والصهيونية بحثا مطولا هو الاول من نوعه ويبحث فيه سياسة الدول الاوروبية في الشرق ودعايتها الدينية والطائفية وسياسة الاتراك فيندد بسياسة عبد الحميد تنديدا فظيعا ويكشف عن العديد من جرائمه وينتهي في الفصل الاخير بالكلام عن العرب وعن نهضتهم القديمة والحديثة وعن مشروع "عصبة الوطن العربي "التي تريد ان تفصل بين الدين والدولة وذلك لمصلحة الامة ولمصلحة الاسلام ، وان تؤلف امبراطورية عربية ممتدة من الدجلة و الفرات الى قناة السويس ومن البحر المتوسط الى بحر عمان ، يكون عليها سلطان مقيد بالدستور القائم على حرية الاديان ومساواة كل المواطنين امام القانون وكانت فكرة الجمعية اولا ان تقوم دولتان واحدة في الحجاز يكون سلطانها خليفة المسلمين، واخرى في الهلال الخصيب ، ولكنها ارضاء للسوريين والعراقيين حوّرت مبادئها وطلبت ان يكون هناك اتحاد بينهما

---

(١) KOHN — ص ٢٧١

(٢) L'independance Arabe ولا يزال محفوظا منها في دار الكتب الوطنية في باريس ١٥ عددا من نيسان ١٩٠٧ الى حزيران ١٩٠٨

(٣) Kohn ص ٢٧٤

وليس وحدة (١) وانها تقدم تاج هذه السلطنة الى امير مصري يكون مستعدا ان يقدم مصلحتها على مصلحة مصر وان العصبة ترفض ان توحد مصر مع الامبراطورية العربية لان المصريين ليسوا من الجنس العربي (٢)

وفكرة الكتاب هذا مبنية على المنشور الذي وجهته الجمعية الوطنية العربية التي كان من منشيئها خليل غانم كما عرفنا ،وكانت من اول الجمعيات التي فكرت بدولة عربية واحدة تضم سكان اسيا الغربية المتكلمين بالعربية (٣) الى الدول العظمى سنة ١٩٠٠ وبينت فيه وجهة نظرها السياسية ولكن المؤسف عالج الموضوع ليس من ناحيته السياسية فقط انما ايضا من ناحيتيه الاقتصادية والاجتماعية وقد جاء في هذا المنشور "ان في المملكة التركية انقلابا فكريا سلبيا يوشك ان يبين . ذلك ان الامة العربية التي قسمها الترك طوائف ومذاهب حتى تم لهم بان يسوموها سوء العذاب وقد انتبهت من غفلتها فعرفت ان لها قومية وطنية تاريخية جنسية فهي تحاول ان تنفصل عن تلك الشجرة التركية النخرة وتنشئ لها ملكا عربيا مستقلا ولهذه الدولة حدود طبيعية تبتدئ من دجله والفرات الى برزخ السويس ومن البحر المتوسط الى بحر عمان ، وتكون هذه الدولة سلطنة دستورية حرة يتولى امرها سلطان عربي ومن ثم يتوجب المنشور الى العرب فيلفت نظرهم الى ما يلقاه العربي من منزلة وما وصلت اليه البلاد من بؤس ومن جهل بعد ان كانت امة حرة فتحت العالم ونشرت العلم وغدت ضعيفة ذليلة منذ انتشبت فيها مخالب ابناء "ارطغول" واغتصبت منها الخلافة (٤)

وهذا التحديد خطير جدا في تاريخ "القضية العربية" فالاثر الذي تركته هذه الجمعية في الحياة السياسية العملية كبير جدا، فكما وضعت الجمعية السرية في بيروت تحديدها للمطالب السياسية السورية يمكن ان نعتبر هذا التحديد كاول حجر وضع في اساس الدعوة الى حكومة عربية موحدة فان كانت افكار الكواكبي نقلت مركز الثقل في الدعوة من العثمانية الى العربية فان هذه الافكار وضعت الخطوط الرئيسية للسياسة العملية التي يجب ان تتبعها افكار الكواكبي . فعلى هذا الاساس قامت الثورة العربية ١٩١٦ وعلى هذا الاساس ايضا عمل اكثر القائلين بالعروبة في بادئ امرهم

وهكذا يمكننا من هذا العرض السريع لقضية ان نرى ان الاعمال السياسية والفكرية انتقلت من البلاد الى خارجها الى مصر وفرنسا وانكلترا وان الصراع هذا كان يتحد فيه الاحرار كلهم ضد الاستمار التركي لا فرق بين نصرانيهم ومسلمهم وانه في هذه الفترة بدات تتوضح قليلا جدا فكرة الامة السورية والامة العربية للعاملين بالقضايا السياسية والفكرية وان جل العاملين في هذه القضايا من السوريين الذين قد تحرر بعضهم فكريا واختلط الامر على البعض الاخر ،او ادراك البعض ان طريق الاصلاح الحقيقي هو العلم والتحرر الفكري والروحي ونبذ الروح الطائفية .

---

(١) راجع Eugène Jung - La Renaître arabe Vol. I p. 14

(٢) راجع N. Azoury - Le Reveil de la nation arabe - p. 245-46

(٣) جان بيشون بواعث الحرب العالمية الاولى في الشرق الادنى ترجمة عن التركية محمد عزة دروزه ص ١٢٣

(٤) الاعظمس ص ٤٨ — ٥٠

اعلان الدستور ١٩٠٨ :

راينا في عجالتنا عن تطور التفكير السياسي القومي ان العمل الاكثر اهمية كان بالنسبة للسياسيين وللمفكرين ، نيل الحرية الدستورية والمساواة بين "العرب" والترك في الحقوق والواجبات ، واحلال اللغة العربية درجة اللغة الرسمية وابقاء وحدات الجيش المحلية في مواطنها، ورأينا ان المفكرين قد بدأوا يميزون بين النظرة السورية والعربية وان لم يبلغ هذا التمييز درجة التبلور الخالص ووضع النظريات والاسس، وان يطلب بعضهم الانفصال السياسي او اللامركزي عن الحكومة التركية وقيام دولة اما سورية او عربية .

وفاتنا ان نذكر ان الكثيرين من هؤلاء الاحرار عملوا مع احرار من الترك كانت غايتهم من التحرر الدستوري لا تختلف عن غاية السوريين ، فالفوا جبهة واحدة تقاوم النظام الحميدي خارج السلطنة العثمانية وداخلها . ولقد رأينا ان هذه الحرب الخارجية كانت مقصورة على الكتابات في الجرائد وتأليف الكتب التي تفضح جرائم العهد الحميدي ككتاب "سر مملكة" لسليم سركيس، و"ما هنالك" ، لابراهيم المويلجي ولم ينشر تحت اسمه ، ويقظة الامة العربية في اسيا التركية وغيرها من الكتب .

في سنة ١٨٨٩ تألفت " جمعية الاتحاد والترقي " السرية وبقيت كذلك مدة خمس سنوات الى ان انكشف امرها. وكان من اهدافها طلب الاصلاحات الدستورية والمساواة بين اصناف الرعية وحرية القول والعمل وضمانة الارواح والاموال وتقييد السلطان بالدستور (١) فأنتشرت في بادئ امرها بقوة ثم ضعف شأنها الى ان فر الداماد محمود باشا واولاده الى فرنسا تهربًا من ظلم السلطان . فكان اول ما فكر فيه احياء الجمعية فجمع اعضاءها المشتتين واحيا فيها الامل حتى وفاته سنة ١٩٠٣ وتولى قيادة الحركة من بعده ولده الامير صباح الدين وتفرغ لتنشيطها ، فعقد اجتماعا لاعضائها في اوروبا ووضح برامجها ثم حث على انشاء شعب لها في البلاد التركية ، كان من اقواها فرقة من العسكريين والمدنيين في سلونيكا حيث انتقل مركز الجمعية وحيث كان اشهر زعمائها كطلعت باشا ومدحت شكري باشا ونيازي بك الضابط في الجيش اول من اعلن الثورة عندما وجد ان السلطان اخذ ينكل باعضاء الجمعية ويقضي عليهم الواحد بعد الاخر ، فقد الف عصابة واعتزل في مناستر وكتب الى السلطات يعلمها بثورته ، فارسل السلطان ضده حملة عسكرية لم تنجح لمصرع قائدها على يد احد الفدائيين. عندئذ اذعن عبد الحميد لمطالب الجمعية فاعلن الدستور وولاها الحكم في ٢٤ تموز سنة ١٩٠٨ فعمّ الفرح القلوب وخرجت الناس الى الشوارع ترقص ابتهاجا وتآخى الجميع امام هذا الحادث الجلل وودوت الخطب ورنت القصائد وتنفس القوم الصعداء بعد ان اذيح كابوس الظلم عن اعناقهم وانطلقت قلوبهم تشكر وعيونهم تدمع وقد هزهم الفرح كما لم يهزهم شيء اخر . فالقلوب المتعطشة للحرية ارتوت والنفوس الظمأى للانطلاق وجدت منفسحا .

---

(١) الاعظمي ص ٥٧ — ٥٨

ولم يمض طويل وقت حتى تغيرت الحال فقد برهن اصحاب العهد الجديد على انهم ليسوا اقل ظلما وتعسفا ان لم يفوقوه في انتهاج سياسة لم يدركوا معها مبلغ خطورتها. فالدستور الذي استيقظ بعد اغفاءة دامت ثلاثة وثلاثين عاما تغيرت فيها الاحوال تغيرًا كبيرًا وبرزت الى الوجود الفكرة الانفصالية بروزا اصبح من المتعذر معه القبول بفكرة الجامعة العثمانية او الامة العثمانية وعلاوة عن ذلك فقد اتبعت الحكومة سياسة مركزية شديدة الوطأة نفّرت منها السوريين وخيبت املهم في الحرية الجديدة التي ليس لها من الحرية الا اسمها. ونشأت على اثر ذلك ظاهرة جديدة بليغة الاهمية لما تحمله من تغير في العقلية ومن نظر جديد الى معالجة الامور ومن تفضيل لمصلحة الوطن على المصلحة الفردية، اعني نشوء الاحزاب والجمعيات السياسية. وهذه الظاهرة لم تكن جديدة بالنسبة للبلاد، فقد رأينا ان جمعيات التي سبقتها واكثرها علمية تهيء الطريق، ولكن الجديد في هذه الظاهرة هو كثرة الاحزاب والجمعيات وتقديمها برامج سياسية معينة، وانتشارها بين مجموع اكبر من الشعب وانضمام الكثيرين اليها، وسنأتي على بعض من اعمالها واهدافها لنرى كيفية تشعب الفكرة القومية وتطورها في هذا الظرف الحاسم.

والذي يمكننا ان نلاحظه في هذا العدد الكبير من الجمعيات، نزعتها الى النظرة العربية وان كانت مختلفة في حد ذاتها، وذلك لأن قيادتها انتقلت من يد المسيحيين الى يد المسلمين ولان الحوادث السياسية اثّرت على هذه النظرة خصوصًا حوادث البلقان وقيامها ضد الدولة العثمانية في حرب ضروس كانت تبغي فيه الانفصال التام عن جسم الدولة، فدول البلقان، اول من استيقظ فيها الحس بالجنس، بنت نهضتها على هذا الاحساس الجديد وراحت تسعى للتخلص من النير التركي على هذا الاساس تماما، كما سعى الجنس العربي الى التخلص من النير التركي وقد تأثر السوريون بهذه النظرة وسعوا الى النهوض والانفصال عن الجسم التركي لاسباب قريبة ان لم تكن مماثلة. فمن تصريح الزهراوي — رئيس المؤتمر العربي في باريس — في حديثه الى احد محرري جريدة الطان الفرنسية قبل انعقاد المؤتمر العربي الاول تلميح الى هذه الحقيقة فيقول "ان ما حدث في ولايات الدولة العثمانية باوروبا من الحوادث الخطيرة دعانا الى التفكير وامعان النظر في الحالة الجديدة التي دخلنا فيها واتخاذ الوسائل الضرورية لاتقاء نتائجها"(١). ومن هذا التصريح نعلم مدى التأثر بما حدث في البلقان، كما نلمس الرغبة في البقاء ضمن نطاق الدولة العثمانية.

لقد اعتقد الناس ان في اعطاء الدستور الرغبة في تنفيذ الاصلاح المنشود، ولكن عندما اصطدم املهم هذا بحائط القومية التركية الصاعدة وبسياسة المركزية الشديدة، لم يفت الامر من ساعدهم بل سعوا الى التكتل والتنظيم والتضحية في سبيل الوصول الى الاستقلال، فقد راوا ما افاد هذا التكتل وهذا التحسس

---

(١) اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر — كتاب المؤتمر العربي الاول جمعه محي الدين الخطيب سنة ١٩١٣ القاهرة ص ١٧ راجع كذلك كتاب "ثورة العرب" لاحد اعضاء الجمعيات السرية صدر ١٩١٦ وفيه دراسة مفصلة عن علاقة المسالة العربية بالمسالة الشرقية.

بالوطنية الامم البلقانية ، فقد انفصلت عن الدولة بلغاريا حال اعلان الدستور وا بتلعت النمسا البوسنه والهرسك ، ولم تمض سوى سنتان حتى ابتلعت ايطاليا ليبيا ، واعلنت بقية الدول البلقانية الحرب على الدولة العلية ولم تخرج منها باقل من استقلال تام ناجز .

ولم تقتصر حركات التكتل هذه على الامم البلقانية ، فالأرمن والروم والشركس والارناووط اخذوا في عقد الاجتماعات للنظر فيما يجب عليهم عمله ، فألفوا الجمعيات و الاحزاب وراحوا يطالبون بحقوقهم القومية وبمساواتهم في "المواطنيه" مما جعل السوريين يحتذون بهم ويسعون الى تأليف احزاب قوية شبه منظمة .

الاحزاب والجمعيات :

كان اول حزب او جمعية ظهرت للوجود بعد اعلان الدستور :

١. جمعية الاخاء العربي العثماني التي انشأت لها ناد في الاستانه وضمت عددا من رجال السياسة ذلك الحين. والحقيقة انه لم يكن لهذه الجمعية من اثر كبير ولم تسر في حياتها وفق مبادئ صحيحة لان مؤسسيها كانوا يقصدون من ورائها المحافظة على مناصبهم (١) فدفعوا عددا من الشباب المتحمس لادارتها وتسترا بهم . وقد كان من اهدافها المحافظة على الدستور وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب واعلان شأن الامة العربية باتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر انوار العلوم والمعارف بين ابنائها (٢) وقد اصدرت الجمعية جريده "الاخاء العثماني" لترويج افكارها هذه واظهار امالها ، وقد تاسس لها شعبات كثيرة في سورية والعراق واستمرت في عملها الى ٣١ اذار ١٩٠٩ اذ حلتها الحكومة والغت جريدتها ، وكانت هي على وشك الانحلال لازم مؤسسيها مناصب المحافظة على مراكزهم والدفاع عنها اكثر من اهتمامهم وانشغالهم بالقضية الوطنية (٣)

٢ــ المنتدى الادبي : على اثر انحلال جمعية " الاخاء العثماني" ، راى العاملون في حقل السياسة والطلاب ان هناك حاجة ملحة لوجود جمعية او ناد يجتمع بها هؤلاء للتداول في شؤون السياسة . وفي بحث الامور العارضة ، وقد لاقت هذه الفكرة نجاحا وتاييدا كبيرا فجمعت لها الدراهم لتمثيل رواية ، كما ان العديدين من الاثرياء مدّوا لها يد المساعدات المادية فاستؤجر ناد وانشئت مكتبه وتأسس للجمعية فروع في لبنان والشام والعراق وبلغ عدد اعضائها الالوف . وكان يلقى في ناديها محاضرات تاريخية يلقن فيها تاريخ البلاد للطلبة بشكل يبعث فيهم التفكير بطلب الاستقلال كما ان الجرائد الصادرة عبر الحدود

(١) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ج ١ ــ ص ٧ مصر ١٩٣٤

(٢) نفس المصدر ــ راجع عنها ايضا كتاب ايضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل في عاليه الذي اصدرته الحكومة التركية سنة ١٩١٦ لتبرير شنقها الشهداء ص ٨

(٣) القضية العربية ــ مقالات ظهرت في جرائد مختلفة جمعها اسد رستم لمكتبه الجامعة ، مقاله رقم واحد ص ٢ بقلم عصام ظهرت في جريدة البرق .

كانت تصل الى النادى فيطلع عليها الاعضاء ، وفيها الكثير من المقالات المحرضة على الاستقلال والمظهرة لمساوىء الحكم الترك ، وقد ساعدت هذه العوامل جميعاً على استفزاز الطلاب للتساؤل وللتحديد وللدرس عن اصل العنصرية والقومية (١) ولسوء الحظ انه لم يصلنا عن هذه المباحثات شيئا لانها لم تدون ، لكن صداها انعكس في بعض المقالات على صفحات الجرائد والمجلات ، ويظهر انها اقتصرت حول اللغة والوظائف ، فكون اللغة اداة للتعبير عن مطامح ورغبات المتكلمين بها وكونها ذات قيمة معنوية بالنسبة لاهلها . فكل اصلاح او نهضة في الدولة العثمانية يجب ان يقوم على حفظ اللغة العربية وحق العرب الذين اعطوا للاتراك دينهم وشريعتهم واداب لغتهم ، والذين كان لهم ماض عريق يشهد به تاريخهم وعلومهم ، فاعطاء متكلميها نفس الحقوق التي للاتراك هو الامر الثاني الضروري للاصلاح (٢).

وقد علق على هذه القضية ابرهيم ثابت في المقتطف وفي كتاب بالافرنسية طبع في بيروت ١٩٠٩ تحت عنوان "الحل العملي للمسالة الشرقية" اقترح فيه جعل اللغتين رسميتين في الدولة فتتقارب بالتمادى لما هناك من تقارب بينهما واقترح جعل الوظائف الملكية والعسكرية متساوية بين جميع العناصر ، فوضع تصميما لدستور على هذا الاساس يعتقد بصلاحيته ، ولكن لم يفد اقتراحه هذا شيئا لان حله لم يكن عمليا بمعنى انه لم يقدر العوامل الوطنية التي اخذت تفعل بقوة في ذلك الحين ، ولانه لم يقترب من الموضوع الا بروح التسوية التي تحل الامور حلا وقتيا دون ان تتعرض الى جوهره وروحه .

وبرزت في الوقت نفسه قضية تحديد "العربي" مع انه لم يكن هناك دراسات موافية حول الموضوع ، لكننا نلمح ان اكثر الذين حددوا العربي لم ياخذوا بعين الاعتبار قضية الوحدة الاجتماعية او الوطن او غيرها من الامور الاساسية في تحديد قومية الانسان بل اكتفوا باعتبار العربي من يتكلم العربية (٣) وسنرى فيما بعد كيف اشتد هذا الجدال وبلغ ذروته في زمننا الحاضر .

وقد بقي المنتدى الادبي الى سنة ١٩١٥ حتى اغلقته الحكومة التركية ، ولكن في فترة بقائه برز للوجود عدد من الجمعيات والاحزاب كحزب اللامركزية في مصر ١٩١٢ والجمعية الاصلاحية في بيروت ١٩١٣ وحزب الاتحاد اللبناني في مصر ١٩٠٨ وجمعية النهضة اللبنانية وجمعية الفتاة السرية ١٩١١ وجمعية الجامعة العربية ١٩١٠ اسسها في مصر رشيد رضا مقابل الجامعة الاسلامية، والجمعية القحطانية ١٩٠٩ الفها عزيز علي المصرى وجمعية العهد السرية الفها ايضا عزيز علي المصرى ١٩١٣ ولم تضم سوى الضباط من سوريين وعراقيين ، وجمعية العلم الاخضر والوروور في بغداد ١٩١٢ وجمعية البصره الاصلاحية ١٩١٤ وهناك عدد

---

(١) ايضاحات ص ١٢ (٢) المقتطف — مجلد ٣٥ سنة ١٩٠٩ ص ٧٨٥ (٣) المقتطف سنة ١٩١٢ ص ٥٦٩ مقالة لعارف النكدى يعتبر فيها "ان اللغة العربية كافية وحدها لان تجمع الناطقين بالضاد جمعا لا انفكاك له في مقاله تحت عنوان العرب والمتعربون" وراجع ايضا سعيد امين — الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٣٦ في خطاب الشيخ احمد طباره في الاستانه بعد انتهاء المؤتمر العربي في باريس حيث يقول "واعني (نحن) العرب واعني بالعرب كل ناطق بالضاد لافرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم ."

غيرها من الجمعيات التي لا اهمية لها ، ولكننا لن نهتم بكل هذه الجمعيات واعمالها السياسية قدر اهتمامنا بنظرة اهمها الى مفاهيم القومية و السياسية والدولة والى مدى عملها بحد ذاته ومدلوله بالنسبة للقضية التي نعالجها .

٣- كانت الجمعية القحطانية تسعى لاستقلال البلاد العربية وتأسيس الخلافة العربية (١) وهذه الجمعية وجمعية العهد والجمعية الثورية لا تختلف كثيرا عن بعضها لان الكثيرين من اعضائها كانوا من مؤسسي الجمعيات الثلاث هذه والعاملين بها - على ان اسمها القحطانية والنداءات التي كانت توجهها الى "العرب بني قحطان" دلالة على الروح العنصرية التي كانت تميزها على الرغم من دعوتها الى الاتحاد بين الطوائف ، وكان من خطتها في الاصلاح ليس السير على مبداء اللامركزية بل على مبداء الاستقلال التام وتاليف دولة عربية لا مركزية تعيد سالف المجد الغابر وتحكم البلاد بالحكم الذاتي في كل مقاطعه بما يليق بها (٢) ولكن المعروف عن عزيز علي المصري انه كان يعمل للامركزية العثمانية اي قيام دولتين عربية وتركية يكون السلطان العثماني سلطانا على الاثنين معا كما هو ملك النمسا وهنغاريا وذلك يشك فيما جاء في كتاب جمال باشا .

ولكن ان صح هذا القول فانه يكون اول دعوة صريحة للاستقلال التام عن الدولة العثمانية . وفي نظرة القحطانية الى اللامركزية بين الامم العربية دليل على ان تاليف دولة عربية واحدة كان امرا غير ممكن نظرا للتفاوت بين هذه الامم والاختلاف الثقافي والاجتماعي القائم بينها وهذه النظرية تمشى عليها حزب اللامركزية اقوى الاحزاب واوسعها انتشارا واكثرها خطورة .

٤- حزب اللامركزية (٣) في مصر

كان تأسيس هذا الحزب في مصر سنة ١٩١٢ على يد الجالية السورية هناك ، وقد تنبه فيهم بعد ما اصاب الدولة العثمانية ما اصابها من تفكك اجزائها واحتلال ايطاليا لليبيا شعورا بخطر مماثل تستهدف له سورية من غارة تغيرها عليها فرنسا التي كانت تطمع منذ البعيد الى احتلال هذه البلاد واستعمارها ، فزار وفد منهم المفوض العثماني في مصر ، وطلبوا اليه التوصية باتخاذ الاهبة والتدابير للدفاع عن سوريا ، واقترحوا انشاء مستودعات للاسلحة توزع على الاهلين عند الغارة فيسرعون الى الدفاع والنضال (٤) ثم اتفقوا على انشاء حزب سياسي مهمه اهدافه ان تتولى كل بلاد ادارة شؤونها الداخلية ، فوضعوا للحزب برنامجا وقانونا ونظموا فروعه في كل المدن السورية والعراقية فكان له فروع في حماه وحمص وبعلبك وجنين ونابلس والبقاع

---

(١) ايضاحات ص ١٧ (٢) نفس المصدر - ص ٢٩ (٣) اسمه الكامل حزب اللامركزية الادارية العثمانية

(٤) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ج ١ - ص ١٤

ويافا ووادى العجم والموصل وبغداد والبصره (١) وكان له لجنة عليا مؤلفة من ٢٠ عضوا مركزها القاهرة ولجنة تنفيذية مؤلفة من ستة اشخاص ، وكان الحزب على اتصال دائم بالمنتدى الادبي في استنمبول يرسل له مناشيره ومطبوعاته ويتعاونان على انتهاج الخطط السياسية .

ولقد اجتمع في الحزب اعضاء من الطوائف المختلفة فكان رئيسه رفيق العظم ونائب الرئيس اسكندر عمون وقد تعاون الاعضاء على احسن ما يمكن التعاون لتنظيم الحزب وانجاحه وان لم تكن افكارهم وعقائدهم تتفق تمام الاتفاق .

والنقطة الاساسية في عمل هذا الحزب كان تأسيس دولة سورية موحدة بالرغم من قولهم باننا عرب ومن توجيه خطاباتهم الى الامة العربية التي لم تكن ذات معنى واضح معين البتة . ففي رسالة لمسيو بمبار سفير فرنسا في الاستانه مؤرخه في الخامس عشر من ك٢ سنة ٩١٣ الى وزارة الخارجية الفرنسية بعد زيارة شفيق المؤيد مبعوث دمشق له ورد فيها انهما بحثا موقف فرنسا تجاه سوريا والسوريين وتجاه الاصلاح الواجب تنفيذه في اصول ادارة سورية ، وعن اللامركزية وعن قلب ولايات سورية الثلاث الى امارة وعن عدم قبول الاتراك في الوظائف العمومية (٢)

وهذه الرغبة في جعل سورية امارة واحدة ظهرت كقرار في اجتماع عقد في القاهرة في بيت اسكندر عمون نائب رئيس الحزب في شهر اذار ١٩١٣ تقرر فيه " قلب سورية الى امارة ممتازة تحت حماية فرنسا تدار من قبل امير مسلم ينتخبه الاهلون بكمال الحرية (٣) وقد اختلفوا في من يكون هذا الامير ، هل سيكون سوريا، وقد رشح رفيق العظم قريبة شفيق المؤيد لهذا المنصب ، ام غير سوري لان كل من السوريين لا يرضى للاخر حق التقدم عليه ، بل يرون انفسهم جميعا متساويين ، ولهذا فهم يريدون الامير من الاسرة الخديوية وفكرة الامير غير السوري قديمة ، فقد راينا نجيب عازوري يقترحها من قبل .

ومع اننا لن نبحث عن اعمال هذا الحزب السياسية ومبلغ الاخلاص فيها ولا عن تنظيمه ، نرى ان هناك شبه التفاف حوله ، ونرى ان هناك شبه اتفاق على النقطة الاساسية وهي تحرر سورية من الغير التركي واستقلالها التام او تحت حماية فرنسية او انكليزية .

واهم ما قام به الحزب هذا من عمل كان له اثر كبير في القضية الاستقلالية تبنية مشروع مؤتمر عام هو المؤتمر العربي الاول المنعقد في باريس ، والذى اشترك فيه الحزب كما اشتركت فيه الجمعية الاصلاحية في بيروت . فقد وضع فكرة هذا المؤتمر خمسة من الشباب السوريين في باريس وفاوضوا بامرها شكرى غانم وندره

---

(١) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ١٤ (٢) ايضاحات - ص ٦٥

(٣) ايضاحات ص ٥٤

مطران وهما من اعيان الجالية السورية في فرنسا ، فلاقت الفكرة عندهما استحسانا وتنشيطا ،وجرى انتخاب لجنة من الجالية لمخابرة الزعماء ولاعداد عدة المؤتمر ثم ارتبطت هذه اللجنة بحزب اللامركزية في مصر التي تبنت ادارته .

كانت فكرة المؤتمر ان تجتمع فيه وفود من البلدان الاميركية والاوربية والعربية واخصها سورية وان تدور مباحثه حول (١) الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال (٢) حقوق العرب في المملكة العثمانية (٣) ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية (٤) المهاجرة من سورية واليها ، وان يعهد بهذه المواضيع الى خطباء يبحثون فيها بحثا مدققا (١)

عقد المؤتمر في قاعة الجمعية الجغرافية في كنان جرمن في باريس ودام من يوم الاربعاء ١٨ حزيران ١٩١٣ الى يوم الاثنين ٢٣ منه وتكلم فيه عدد من الخطباء، منهم عبد الغني العريسي وندره مطران ونجيب دياب واسكندر عمون وغيرهم وقد كان لا بد لهؤلاء الخطباء من التطرق لمواضيع هي من روح المشكلة التي نبحثها ، والذي يلاحظه الانسان ان كل الذين خطبوا وجادلوا لم يكن يبدو عند احدهم رغبة في الانفصال التام عن جسم السلطنة العثمانية ، بل كانوا يرغبون في المساواة في ادارة الدولة مع الترك واخذ نصيبهم الحقوق التي لهم . وخطبة العريسي تظهر لنا هذه الناحية (٢) فهو يبحث اول ما يبحث عن حق الجماعة في "التكوين السياسي "اي قيام دوله لهم . فيخلص الى القول ان للعرب حق في ذلك لان هناك لغة تجمعهم ووحدة عنصر ووحدة تاريخ ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسي ، وهذا على رأي العلماء الالمان والطليان والفرنسيين ما تحتاجه الجماعة لتقرر مصيرها . ثم يبين كيف ان العرب حافظوا على خصائصهم ولم يذوبوا في غيرهم من الفاتحين ، ولذلك لهم الحق في الوجود السياسي ، ولهم الحق في امور رئيسية ثلاثة تتعلق :
(١) بالسلطنه (٢) وبالقوة التشريعية (٣) وبالقوة الاجرائية . اما الحق بالسلطنه فلا تفكير انفصالي فيه ما دامت الحقوق فيه مرعية . اما في القوة التشريعية وهي مجلسا النواب والاعيان فحقوق العرب مهضومة ،وكذلك حقوقهم مغصوبة في القوة الاجرائية لعدم مساواتهم في الوزارات والوظائف بالاتراك (٣)

ودارت خطبة ندره مطران حول "حفظ الحياة الوطنية في البلاد العربية العثمانية " فاستهل خطبته ببحث تاريخي دلل فيه على خطأ القائلين بان السوريين لم يحكموا انفسهم منذ عهد الرومان ، لان من ينظر الى التاريخ على ظواهره ولا يمعن النظر فيه يرى ان الذين حكموا السوريين هم من اصل غير سوري

---

(١) المؤتمر العربي الاول — ص ٣ — ٧

(٢) الخطبة تحت عنوان "حقوق العرب في المملكة العثمانية

(٣) نفس المصدر ص ٤٢ — ٥٤

وهو ان هذه الحقيقة لم تعد صحيحة منذ الفتح الاسلامي بمدة قليلة لانها اصبحت عربية محضة بلسانها وعوائدها واخلاقها وذلك بفضل اقتدار العرب على استغراق الامم المغزوه وتحويلها الى لسانها وتقاليدها . وبعد ان يتكلم عن التعاون الاسلامي بين العرب، ياتي على مظاهر التضامن الاجتماعي بين مسلمي العرب ومسيحييهم فيذكر تعاون الغساسنة المسيحيين مع اخوانهم في الجنس ويدلل به على ان العرب متحمسون بالجنس قبل الدين ، ثم يأتي على قضية الساعة وهي ان هذه العصبية العربية لا تعني التنازل عن الارتباط بالدولة العثمانية ، ثم ينفي عزم فرنسا والامم الاوروبية على احتلال سوريا قائلا ان كل ما يتمناه ساسة اوروبا هو ان يتمكن العثمانيون من تدبير شؤون دولتهم ليتلافوا بذلك خطرا عظيما على السلم العام "وانتهى الى القول ان مصالح فرنسا في سوريا لا تعني رغبتها في احتلال البلاد ، انما سوريا للسوريين وكل ما يتمناه هو ان تخول الدولة العثمانية سوريا اصلاحات يطلبها السوريون لسوريا والعرب للبلاد العربية (١) وهنا يفرّق بين سوريا وبلاد العرب تفريقا لا يترك معه مجالا للشك في انه كان يحاول في اول امره ان يرضي فريقا من المستمعه ، ولكنه عند الوصول الى المطالب الاستقلالية بحد ذاتها لم يتمكن من الجمع بين الاثنين بل فرق بينهما تفريقا بينا .

وكانت خطبة الشيخ احمد طباره تدور حول الهجرة من سوريا والى سوريا فبعد ان حدد سوريا وبين مساحتها وعدد سكانها في عهد الرومان والعرب و هذا العهد اتى الى درس اسباب الهجرة السورية وصفة السوري ، وعدم سنوح الفرصة له للعمل دورهام في الحياة السياسية ، وهذا ما يطلبه من الاصلاح ومن ثم تكلم عن الهجرة الى سوريا فحبذها اذا قامت على شروط.وانتهى الى ان لسوريا الحق بالاصلاح وان طريق الاصلاح هي اللامركزية .

وتكلم اسكندر عمون عن "الاصلاح على قاعدة اللامركزية "وطالب بحكومة عثمانية لا عربية ولا تركية يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق ولا يحرم فريق من حق من الحقوق لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين ، عربيا كان او تركيا ، ارمنيا او كرديا ، مسلما او مسيحيا او اسرائيليا او درزيا .(٢)

وقبل انتهاء المؤتمر اتخذ المؤتمرون عدة قرارات منها :

١ــ ان يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا .

٢ــ ان تنشاء في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها .

٣ــ اعتبار اللغة العربية رسمية في الولايات العربية .

---

(١) نفس المصدر ــ ص ٥٤ ــ ٦٤

(٢) نفس المصدر ــ ص ١٠٤

٤ — تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف الاستثنائية .

وقد اهتمت القسطنطينية لهذه المقررات.واتى وفد من قبل الحكومة التركية يفاوض المؤتمرين على قواعد الاصلاح ، وقد اتفقوا على تنفيذ بعضها وانفرط عقد المؤتمر وذهب وفد منه الى الاستانه حيث اجتمعوا باركان الحكومة وانتظروا تحقيق مطالبهم بكاملها ، لكن دون جدوى .

وهكذا نرى انه لم يكن في هذا المؤتمر اى نظرة خاصة معينة للقضايا القومية بحد ذاتها ، انما خليط من الافكار والمطالب للتمثيل والادارة ولمشاركة الاتراك في الحكم — وكل ما يمكننا ان نقوله ان اشتراك المسيحيين والمسلمين في هذا المؤتمر دل على روح التعاون التي كان يرغب فيها المخلصون من الطرفين وان لم يكن هذا التعاون مبني قائم على اتفاق في النظرة الى القضية .

ومن الجمعيات التي لعبت دورا كبيرا في السياسة خصوصا اثناء الحرب جمعية "العربية الفتاة" المستمد اسمها من تركيا الفتاة ، وقد عملت سريا طوال الحرب، واتصلت بفيصل وبوالده ، ولن نأخذها بالتفصيل لانها لم تكن تختلف عن غيرها من الجمعيات في نظرتها الى القضية القومية ، انما هي اول من فكر باستمداد المعونة من الجزيرة العربية وصبغ الدعوة بالاسلامية، واعتباراً منها للاقبال الذى تلاقيه على هذا الاساس.

٥ — جمعية النهضة اللبنانيـــــة :

ولا يسعنا في كلامنا عن هذه الجمعيات ترك جمعية النهضة اللبنانية او حزب الاتحاد اللبناني ليس لانها ذات اهمية سياسية او لانها لعبت دورا في تقرير انفصال لبنان عن بقية اجزاء سوريا قدر ما يهمنا منها نظرتها الخاصة الى هذه المشاكل او علاقتها الروحية بسوريا وبفرنسا وموقف سكان جبل لبنان من قضية الاستقلال والقومية اجمالا .

ولنتمكن من فهم هذه القضية علينا ان ننظر الى نشوء المسألة اللبنانية في التاريخ وتطورها والنفسية التي تحرك هذه المسألة وتدفعها .

في نظرى ان القضية اللبنانية هي قضية الطائفة المارونية ليسرا ، وبعض المسيحيين، ولذلك يجدر بنا ان نفرق بين قضية هؤلاء وبين قضية بقية اللبنانيين اليوم الذين لا يقرون بقومية لبنانية مهما اختلفت نظريتهم الى هذه القضية .

والواقع انه حتى هذا اليوم لا يزال مفكروهم ومؤرخوهم يحاولون ان يصبغوا لبنان بالصبغة المارونية الصرفة ، ففؤاد افرام البستاني وهو خير من يمثل الفكرة اللبنانية يعتبرهم "امة خاصة مستقلة صهرت كل ما دخل فيها من العناصر في كيان واحد ومذهب واحد" وجعلت من "المارونية بنت لبنان ولبنان في الكثير من مزاياه وخصائصه صنع المارونية(١)"

---

(١) محاضرات الندوة — السنة الثالثة — النشرتان الخامسة والسادسة ٢١ حزيران ١٩٤٨ تحت عنوان "مار مارون" ص ١٦٧ — ١٦٨

والكيان اللبناني اليوم لا يقوم على ميثاق ١٩٤٣ قدر ما يقوم على هذه النقطة الاساسية من التفكير اي حفظ الطائفة المارونية وبالتالي المسيحية من اكثرية مسلمه يمكن ان تطغى عليها في الوظائف والتمثيل النيابي ، ويمكن ان تضطهدها كما كانت تفعل في احيان كثيرة من التاريخ فتحرمها حق الحياة والحرية .

ولهذا الخوف اسبابه ونفسيته الخاصة ، وعلينا ان نرجع بالتاريخ الى الوراء لنرى ان هذه النفسية هي نتيجة اسباب طائفية وصراع طائفي لم تنته فصوله الدموية حتى اليوم .

لقد كانت سوريا منذ القديم الى اليوم مكانا تصطرع فيه العقائد الدينية . فالعقائد المسيحية من ارثوذكسية ومونوفيزية ونسطوريه كانت ميدانا لصراع جدلي بين شعبيها قبل الفتح الاسلامي . وما ان اطل القرن السابع حتى دخل العرب بديانتهم الاسلامية الجديده يبغون الغنم والتنعم كما يبغون نشر الديانه الاسلامية . وكانت معاملتهم للمسيحيين واهل الذمة اجمالا في بادىء الامر معاملة حسنة لا يشوبها شائبة مستمدة من الاسلام الذي يقف بعقائده موقفا ايجابيا من اهل الذمة (١) ولم تكن العصبية الطائفية قد فعلت فعلها بعد خصوصا في العهد الاموي حيث اديرت الدولة بسواعد السوريين المسيحيين وكانت العصبية العربية هي ما يفترق بها انسان عن اخر ، حتى اذا ما سقطت الدولة الاموية وحلت محلها العباسية ، وقد قامت على سواعد الفرس ، خسر العرب ما كانوا يتمتعون به من حصانه بكونهم عرب، فالعباسيون كانوا او لا مسلمين وبالثاني ملوكا . اما الامويون فكانوا اولا عربا ، وبالثاني مسلمين ، وعندما زال هذا الفرق بين العربي وغير العربي ازداد الحس بالفرق بين المسلم والمسلم (٢) فزاد اضطهاد المسلمون للمسيحيين في ايام المتوكل ومن تبعه من الخلفاء والامراء .

كان جبل لبنان في ايام الامويين قد تنصر اهله على يد جماعة الخلقيدونيين الذين اصبحوا يدعون فيما بعد الموارنة ، ونزله جماعه من المرده في القرن السابع ارسلهم امبراطور الروم لينازلوا المسلمين ، ويردوا هجماتهم ، وقد اضطروا المسلمين في زمن معاوية وعبد الملك ان يدفعوا الجزية لامبراطور الروم مقابل سكوتهم وركونهم الى الجبال ، والظاهر ان هؤلاء وقد امتزج معهم المرده ، استقلوا في الجبال العاليه لوعورتها ، فلم يتول عليهم احد من غيرهم ، وفي نحو القرن العاشر اي بعد خراب دير القديس مارون قرب افاميه على العاصي فزع بطريرك الموارنة الى لبنان وجعل سكناه فيه (٣) ثم عندما زحف الصليبيون على سوريا في اواخر القرن الحادي عشر وبلغوا في زحفهم مدينة طرابلس ، نزل لملاقاتهم والترحيب بهم هؤلاء الموارنة وعرضوا عليهم خدماتهم واشتركوا معهم في حروبهم فقد ارسل اميرهم ولده

---

(١) سورة البقرة — ان الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من امن بالله واليوم الاخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(٢) راجع: A.S. Tritton - The caliphs & their non-muslim subjects . ص ٥٠ — ٢ — ٣

(٣) نبذة تاريخية في اصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان من قديم الدهر الى الان ، للمطران يوسف دريان النائب البطريركي الماروني وثيقة الاخبار — مصر ١٩١٦ ص ٣٥

سمعان مع ٢٥ الف من الجند لمساعدتهم ، وفي عهد الصليبيين نفوا وانتشروا حتى بلغوا القدس وجزيرة قبرص ثم مالطه (١) وقد منحهم لويس التاسع ملك فرنسه براءة يتمتعون بها بنفس الحقوق التي للافرنسيين .

ولكن ما ان تقوى المسلمون على الصليبيين وطردوهم ، نال الموارنة من الاضطهاد الشيء الكثير خصوصا وقد لجأ عدد من هؤلاء الصليبيين الى الجبال اللبنانية ، فزحف الامير المملوكي قلاوون على هذه الجبال سنة ١٣٠٢ واهلك الكثير من اهلها في المتن وكسروان ، التي جلى عنها السكان وجردت . ولكن حافظ هؤلاء الموارنة في شمالي لبنان على حريتهم وبعض استقلالهم ومع انهم لم ينجوا من الحملات العسكرية ضدهم (٢)

والحقيقة ان جبال لبنان والعلوية اصبحت في هذا الزمن معقلا للطوائف المضطهدة كالدروز والنصيرية والاسماعيلية والموارنة ، وقد اعتصم هؤلاء في الجبال وحافظوا على استقلالهم الذاتي كما حافظ عليه الموارنة وكما حافظوا على بعض عوائدهم وتقاليدهم ، فكانت كل منطقة من مناطقه تؤلف شبه دولة منعزلة توافق تنظيمه الاجتماعي الاقطاعي ، ولكن لبنان الماروني ، بالاكثر تطور تطورا خاصا لم يتأثر معه بالحوادث العديدة التي كانت تمر على سوريا وقد كانت هذه المناطق تصطرع مع بعضها البعض ولكنها في الوقت نفسه تجتمع معًا ضد المسلمين مما اقام بينها نوعا من التعاطف والعصبية (٣) وهكذا نرى انه بعد الفتح العثماني انقسم النائر في الجبل الى حزبين قيسي ويمني ، وانقسم لبنان الى اقطاعات متعددة يحكمها ارثيا امراء من الدروز والموارنة فالمعنيون كانوا من الدروز مع ان هناك خلافًا على ذلك ، والشهابيون كانوا من الدروز ثم اصبحوا من الموارنة ويقول اللبنانيون ان فخر الدين الثاني المعني وضع اسس هذا الاستقلال اللبناني الكبير بحروبه ضد الدولة ، وفتحه الباب للغربيين وعلاقته مع اميرتوسكانه ، ثم باخضاعه الى سيفا في طرابلس وامتداد سلطانه من حلب الى القدس واقامته القلاع القويه في المرقب ونيحا وبانياس وصيدا ، واعتنائه بالاصلاح ، وقد اتى بعد المعنيين الشهابيون ، فثبت بشير هذا الاستقلال ودعمه ، ثم اتت حوادث الستين واعلن القانون الاساسي (١٨٦٤) فاعطي لبنان استقلاله اذ انه لم تمنح الدولة العثمانية من السيادة الا في امور اربعة هي :

١) تعيين الحاكم العام بعد الاتفاق مع الدول الست

٢) عرض حكم الاعدام على السلطان قبل تنفيذه

٣) وضع جند الدولة في سورية تحت طلب حاكم لبنان في الاحوال الاستثنائية على شرط ان لا يدخل الجند ارض لبنان الا برأي مجلس الادارة ، ويكون الجند مدة وجوده تحت امرة الحاكم العام .

---

(١) Lammens - La Syrie ج ٢ ص ١٦ (٢) دريان - اكتب لنفسه راجع ايضا لاوفس - نفس المصدر - ص ١٥ - ج ٢ (٣) M. Jauplain (بولس نجيم) La question du Liban في باريس ١٩٠٨ ص ٤٢ - ٤٣ -

٤) اذا طلب لبنان من خزينة الدولة سد عجز ا لميزانية لـ الاشغال العمومية والنفقات غير العادية فيكون للدولة الحق بمراجعة هذه الحسابات قبل تسديد عجزها (١)

وقد بقي هذا النظام ساري المفعول الى اواخر سنة ١٩١٤ اوحتى دخول تركيا الحرب، وقد فكّر البعض بعد اعلان الدستور مباشرة سنة ١٩٠٨ انه لم يعد من ضرورة لهذا النظام ، فاقترح عدد من المفكرين الغائه ، وضم لبنان الى الدولة العثمانية مباشرة لاشتراكه في مجلس النواب العثماني ، فيصبح له ممثلون ويسمع صوته هناك خصوصا وان الدولة ستضمه اليها يوما من الايام ،فلماذا لا تفعل الان ووراء ذلك نفع كبير . ولكن اكثرية اهله عارضت هذه الفكرة لانها تفقد بذلك استقلالها ، وعقد جماعة من اللبنانيين في مصر اجتماعا لهذه الغايه وقرروا بالاجماع ان يسعوا الى المحافظة على نظام لبنان ضمن حدود معقوله وان يحرصوا بالوقت نفسه على الاخلاص للدولة العثمانية (٢) .

بيد ان هناك ظاهرة في تاريخ هذه الطائفة تدل على ارتباطها الديني وتجاوزها العاطفة القومية التي لا تتقيد الا بالمصلحة الوطنية ، فعلاقة هذه الطائفة بفرنسا ظاهرة تستلفت النظر ، تبتدئ منذ الحروب الصليبية ومساعدة الموارنة للويس التاسع، ولم تنقطع هذه الصلة بينهما ، ففي عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ،عادت العلاقات بينهما على اساسين : ديني وتجاري ، فالديني هو حماية الكاثوليكيين ، والمساعدة المقدمه للموارنة المضطهدين من الاتراك ، والتجاري هو تنمية العلاقات التجارية بين فرنسا والمشرق لشراء الحرير منه وتدعيم النفوذ الفرنسي الذي كان قد اخذ في الامتداد .فكانت سياسة هذا الملك ان يلقي مهمة تنفيذ هذه السياسه على المرسلين والقناصل (٣) ولحماية الاقليات ابتدأت فرنسا تطلب السماح لها من الحكومة التركية رسميًا القيام بهذا الامر في دول المشرق باقامة قناصل لها في جميع المدن ، وقد نالت ما ارادت . وفي سنة ١٦٤٩ ارسل الملك لويس الرابع عشر رسالة الى البطريرك الماروني مع المونسنيور اسحق الشدراوي الذي ذهب لفرنسا لهذه الغاية ، يعلن له فيها حمايته للموارنة في لبنان ويطلب من السفير الافرنسي حمايتهم ومساعدتهم، وان يطلب من السلطان عدم الاساءة اليهم واطلاق حريتهم في طقوسهم الدينية،وكذلك يطلب نفس المعاملة من الباشاوات ومستخدمي الحضرة العلية ويعدهم لقاء ذلك سلوك نفس المسلك مع كل رجل من امتهم يصل في حقه كتاب توجيه منهم (٤) وقد استوثق الامر عهد ذاك في كسروان خاصة للشيخ ابو نوفل الخازن . الذي اهتم به ملك فرنسا واعطاه لقب الاشراف ، ثم اسند اليه قنصلية فرنسا في بيروت ، التي دامت في عائلته مدة من الزمن طويلة ، ثم

---

(١) السودا يوسف — بين القديم والحديث ، بحث قانوني في نظام لبنان القديم ونظامه الحديث (بيروت ١٩٢٢) — ص ١٨ — ١٩

(٢) مسعد بولس ، لبنان والدستور العثماني مطبعة المعارف (مصر ١٩٠٩) ص ٥٦

(٣) راجع: Rictelhueber - les Traditions Françaises au Liban (باريس ١٩١٨) ص ١١٥

(٤) المصدر نفسه ص ١١٦ — ١١٨ ونبذة تاريخية ص ١٢٤ — ١٢٥

انتقلت الى الشيخ غندور الخوري وقد اسس المرسلون في هذه المدة عددا من المدارس الدينية التي لا يزال بعضها حتى اليوم .

وفي سنة ١٨٦٠ كانت فرنسا اول من ارسل جيشا لحماية الموارنة والدفاع عنهم . وقد دامت هذه الصداقة حتى اليوم ولا تزال اثارها الواضحة في القداس الالهي الذي يقام في كنيسة الكبوشيين كل سنة ويدعى اليه سفير فرنسا باعتبار انه ممثل صداقة فرنسا للطائفة .

ولما كانت هذه الصداقة من الاشياء التي يعتز بها الموارنة ويعتمدون عليها . فقد لازمت اعمالهم السياسة واصبحت اساسا من اساسات نظرتهم الى الاستقلال .وجمعية النهضة اللبنانية كانت في بادئ امرها تمثل هذه الافكار احسن تمثيل ، فهي تريد ان يحافظ لبنان على استقلاله الذاتي ، وان تتسع حدوده فتضم البقاع وصور وصيدا وطرابلس وبيروت . بحيث يصبح له منافذ للبحر وسهول للزراعة وفكرة توسيع لبنان لم تكن جديدة فقد لازمت اللبنانيين منذ اعلان القانون الاساسي اذ كانوا حينذاك يرغبون بضم البقاع البقاع الى لبنان (١)وقد عادت هذه الفكرة الى الظهور بعد اعلان الدستور وطالب بها عديد من المسؤولين والكتاب ، منهم بولس نجيم في كتابه "القضية اللبنانية (٢) وقد اتفقت مع الجمعية هذه جمعية الاصلاح البيروتية لضم بيروت الى لبنان (٣) ولا اؤكد صحة هذا انما قد يكون اعتقادا انها بذلك تتخلص من الحكم التركي ، وقد اتفق معها ايضا بعض اهل البقاع ليكون هذا تابعا للبنان (٤)

كان للجمعية فروع في مصر واميركا ، فكان رئيس فرع مصر اسكندر عمون وقد عمل كنائب رئيس للمؤتمر العربي في باريس ، وكان نعوم مكرزل رئيسا لفرع اميركا وقد حضر المؤتمر العربي ايضا . وميل هذه الجمعية الى فرنسا ومطالبتها بحمايتها على لبنان امر عملت له الجمعية طويلا ، ويظهر ان فرعها في اميركا كان يفكر بالمطالبة بالاستقلال التام للبنان (٥) دون اي علاقة بدولة اجنبية ، وقد عقد مؤتمرا لهذه الغاية سنة ١٩١٦ دعا اليه الوفود من كل اللبنانيين في الوطن والمهاجر .

وهكذا نرى ان العمل السياسي في هذه الفترة سعى الى استقلال سورية وتأليف دولة سورية وليس دولة عربية ، وان كان الوصي او الدافع لتاليف هذه الدولة عصبية عربية ظهرت عند المسلمين وبعض المسيحيين على السواء . وقد عمل لتأسيس هذه الدولة اكثر الجمعيات والسياسيين ، وهيأوا للثورة ان تنشب من سوريا في حالة اعلان الحرب (٦) فجمعية العهد والعسكرية التي تألفت من الضباط السوريين في الجيش التركي اخذت تعد العدة للثورة (٧) وارتفع عدد اعضائها بسبب ذلك الى ان بلغ الاربعة الاف وكان المقرر ان

---

(١) N. Moutran - La Syrie de demain (باريس ١٩١٦) ص ١٣١ (٢) Jouplain - ص ٥٩٨

(٣) ايضاحات — ص ٣٢ (٤) نفس المصدر — ص ٣٣ (٤) N. Moutran - ص ١٣٤ (٥)

Jung - ص ٣٢ (٦) انطونيوس ص ١٥٦ (٧) نفس المصدر والصفحة وراجع مذكرات جمال باشا ص ٣٥٨ — ٣٦٠ عن مساعي حزب اللامركزية للقيام بثورة في سوريا .

ان تنشب الثورة من سوريا .

وقد عمل لغاية مماثلة نجيب عازوري الذي سعى لشراء الاسلحة وتسليح القبائل ولم ينجح لان الظروف لم تساعده على ذلك لما قابله من مصاعب لم يكن من السهل تخطيها ، ولان ايطاليا اعلنت الحرب على ليبيا وسقط المشروع (١)

---

(١) - راجع مذكرات جمال باشا . ص ٢٥٨ - ٢٦٠

الاتفاقات الاجنبيـــــــة :

لقد فكر الكثيرون من السوريين السياسيين في اعلان الثورة من سوريا ، واخذوا يعدون العدة لذلك كما راينا ، لكن سياسة جمال باشا وارساله للضباط السوريين الى الحرب ومعاملته الوحشية لعائلات الذين اعدمهم منعت القائمين على الامر في جمعية العربية الفتاة والعهد من التفكير في امر من هذا النوع ، ودعتهم يحولون نظرهم شطر الحجاز يطلبون منه القيام بثورة مماثلة (١) يلهي بها الجيوش التركية ، اذ انهم لم يكونوا على علم بالمراسلات القائمة بين السر هنري مكماهون سفير انكلترا في مصر وبين الشريف حسين امام مكة .

ولما كنا نحن لا يهمنا ما جرى من حوادث في الثورة ومن معارك ، فلن نتعرض لها ، انما سنتابع الحركات الداخلية والخارجية في هذا الظرف لقيام دولة مستقلة في سوريا .

قد رأينا ان ما كان يسعى اليه في الخفاء حزب اللامركزية هو انشاء مثل هذه الدولة تحت حماية فرنسا وتسليمها لامير مسلم ، ولم تقتصر هذه الرغبة على السوريين ، فقد كانت فرنسا وانكلترا ايضا ترغبان بمثل هذا الامر ، ففي تقرير المسيو ديفرانس سفير جمهورية فرنسا في القاهرة الى السيد بيشون وزير الخارجية يعرض عليه وجهة نظر السوريين في هذه الدولة ، فيخبره ان المسلمين والمسيحيين متفقون على اقامة دولة موحدة ، وان اكثر المسيحيين يرغبون في ان تكون هذه الدولة تحت حماية فرنسا بينما يفضل المسلمون حماية انكلترا ، وان الرغبة تتجه لجعل الامير يوسف كمال المصري اميرا على سوريا وهو يفضل حماية فرنسا (٢) .

وقد كانت فرنسا في اوائل الحرب وما قبيلها قد اخذت تنظر الى قيام هذه الدولة الموحدة لاعتبارها ان لها في سوريا حقوقا معنوية ، لا يمكن التنازل عنها . فاوعزت للبنانيين الموجودين في فرنسا للدعوة لقيام مثل هذه الدولة . وانشأت اللجنة المركزية السورية برئاسة شكري غانم ، فأسس فروعا لهذه اللجنة في سوريا وكانت غايتها اظهار الرغبة في الوحدة السورية وطلب الحماية الفرنسية (٣) ومما لا شك فيه ان هذه اللجنة كانت من صنع الحزب الاستعماري الفرنسي الذي ادار سياسة الحكومة الفرنسية طوال الحرب هذه الحكومة التي كانت تطمع في سوريا كلها من العريش الى مرسين ، وكانت قد اتفقت مع انكلترا سنة ١٩١٢ على ان تترك هذه الاخيرة لها يدها في سوريا دون ان تعارضها في شيء (٤) ولهذا روجت فرنســـا

---

(١) احمد قدري ــ مقالة موجودة في "القضية العربية" جمع اسد رستم في مكتبه الجامعة

(٢) جمال باشا ، احمد ــ مذكرات ص ٤١٢ ــ ٤١٤

(٣) الجريدة ــ ا ب ١٩٢٠ العدد الثالث ــ سلسلة مقالات بقلم الدكتور خليل سعاده تحت عنوان سوريا وفرنسا في موءتمر الصلح .

(٤) المصري ــ يوم ميسلون ص ٣٣

الدعوة للاستقلال والوحدة السورية متاملة انها ستحصل على سوريا كلها ٠

لم تقتصر هذه اللجنة على بث الدعوة لفرنسا بل عملت في الوجه الاخر اى تفهيم الافرنسيين الوضع السوري ، فكتبت بالافرنسية عدة كتب ومقالات في الجرائد فقد اصدر سنة ١٩١٢ خير الله خير الله كتابا عن "سوريا" تتبع فيه تطور العلم والثقافة منذ بدء الثورة ثم تكلم عن الحركة الفكرية والاجتماعية واخيرا عن السياسة في سوريا وطلب في النهاية وحدة سوريا الاصلية تحت الحماية الفرنسية — وقد عمل في جريدة النطان بعد ذلك يدافع عن مصالح فرنسا في سوريا ، ومن الذين كتبوا عن سوريا ايضا ندره المطران ، وهو احد وجهاء بعلبك والجالية السورية في باريس ، فوضع سنة ١٩١٦ كتابا تحت عنوان "سوريا الغد" اثار ضجة كبرى عند الموارنة لان كاتبه كان كاثوليكيا ، ولانه تحامل فيه على الموارنة وابطالهم كالامير بشير الثاني ويوسف كرم والبطريرك يوسف حبيش ، وتتلخص نظريته في ان لبنان لم يكن مستقلا البته ٠ وان استقلاله قبل سنة ١٨٦٠ لم يكن يختلف عن الاستقلال الذى كانت تتمتع به بقية الاقطار السورية وان لبنان بعكس بقية هذه الاقطار كان تحت رحمة امراء اقطاعيين كان يحكمهم احد غرباء الاصل والدين وكان يرفع نفسه عليهم (١) وان لبنان هو جزء اصيل لا يتجزأ عن سورية من الوجهة التاريخية والعرفية والجغرافية ولا يمكننا ان نفرقه عنها مطلقا ٠ (٢)

ويتعجب المؤلف من طلب جمعية النهضة اللبنانية بجعل لبنان امارة دستورية مستقلة استقلالا تاما يحكمها اميراجنبي (٣) لان الاستقلال معناه عدم طلب الحماية الفرنسية ، مما يرينا ان المطالبة بالوحدة السورية في ظرف الحرب كانت تعني الدعوة لفرنسا وقد راينا في بحثنا عن المؤتمر العربي ان ندره مطران نفسه اقر مقررات المؤتمر العربي باللامركزية ونفى ارادة فرنسا باستعمار سوريا ٠

ورد على هذا الكتاب المطران يوسف دريان ، نائب البطريرك الماروني في كتابه "نبذة تاريخية" المذكور سابقا وفيه يبرهن استقلال الطائفة المارونية في لبنان منذ عهد الفينيقيين ، وكون لبنان ملجاء لجميع المضطهدين المسيحيين في كل العصور ، لم يكن بامكان الغزاة الوصول اليه ، ويؤكد ولاءه وولاء الطائفة لفرنسا ٠

والحقيقة ان فرنسا بدعوتها هذه الى حقوقها التاريخية في سوريا ، الهبت عاطفة شعبها وجعلته ينظر بعين الرضا الى مطامعها الاستعمارية ، وهي لم تكن ترغب في ذلك الا للاحتفاظ بسيطرتها في البحر المتوسط والمحافظة على طرق المواصلات بينها وبين مستعمراتها في الشرق الاقصى ، وللدفاع عن

---

(١) مطران — ص ١٢٣

(٢) مطران ص ٩٧

(٣) المصدر نفسه — ١٣٤

مصالحها الاقتصادية ، ولتأمين هذه المصالح اخذت فرنسا على عاتقها القيام بحملة اذاعية لتهيئة الجو ، فتكلم بوانكاره في ٢١ ك١ سنة ١٩١٢ عن المسألة الشرقية وعن تصميم الافرنسيين المحافظة على مصالح فرنسا التقليدية في سوريا ، واتى في الوقت نفسه الكاتب موريس باريس الى سوريا واخذ يشيد بالحق بالتقاليد التي تربط بين الشعبين : ومن ثم لحقه سلطان مراكش وخطب قائلا ان احتلال فرنسا لسوريا ضرورة ولن يحول دونه حائل ، وانه آت عن قريب (١) ولم يكن من بين السوريين من يرغب في هذا الامر اكثر من الموارنة الذين اخذوا ينظرون الى هذا اليوم بفارغ الصبر .

لم تكن فرنسا وحدها صاحبة مطامع في سوريا ، فان مركز هذه الجزائر في واهميتها التجارية ليست من الاشياء التي يمكن للدول الاوروبية الكبرى التغاضي عنه او عدم الاهتمام به . فاتفقت اقواها بين بعضها على تقسيم النفوذ قبل ان تكون قد اصطادت الدب . فالالمان الذين كانوا يطمحون بالاتجاه نحو الشرق كانوا قد توصلوا الى اتفاق مع الافرنسيين في اوائل سنة ١٩١٤ تنتهي به حدود نفوذهم عند منطقة حلب بعد ان كانوا قد نالوا من السلطان امتيازا بمد خط حديدي الى بغداد ، لكن دخول المانيا الحرب غيّر الوضع بطبيعة الحال ، فراحت فرنسا تطالب باجزاء سوريا الشمالية في كيليكيا ومنطقة الموصل ومقاطعات ديار بكر ، وابتدأت تفاوض الروس والانكليز لتوسيع حدود الاتفاقات السابقة على هذا الاساس .

لم تعارض انكلترا المطامعة في سوريا ايضا مطالب فرنسا هذه ، لكن رأت انه في هذه الحالة اصبح من حقها ان تطالب بتوسيع منطقة نفوذها من حدود سينا وعلى طول ساحل فلسطين حتى حيفا ، ومن الارجح انها كانت تنوي احتلال سوريا كلها وجعلها دولة واحدة تقيم عليها اميرا مصريا هو الامير محمد داوود فتصبح بذلك سوريا مصرا ثانية ، وقد قبضت السلطات التركية ابان الحرب على عدد من الجواسيس الذين ارسلتهم انكلترا لبث الدعاية لهذه القضية (٢) وقد علمت فرنسا بهذا المشروع ، فاخذت تعارضه معارضة شديدة حتى تم الاتفاق بينهما على قيام مفاوضات لحل هذه القضية ، يكون اساسها اقتسام سورية الى مناطق نفوذ ثلاث ، تقتسم فيها انكلترا وفرنسا الساحل ويترك الوسط الى المملكة العربية المنوي انشاؤها اذ ان الانكليز كانوا قد بدأوا مفاوضاتهم مع الشريف حسين لاعلان الثورة ضد الاتراك بعد ان رأوا تعذر حدوثها في سوريا .

وفي هذا الجو ابتدأت مفاوضات سايكس ـ بيكو في اواخر سنة ١٩١٥ لتقرير مصير سوريا . فقد اعطيت الاوامر او التعليمات للسفير الفرنسي لاعطائها لممثل دولته في المفاوضات وفيها نص صريح بالمطالبة بسوريا كلها و منها كيليكيا ولكن الانكليز رفضوا هذا الامر واعترفوا لفرنسا بمصالحها في سوريا الشمالية

---

(١) انطونيوس ص ١٣٤

(٢) Jung - ج ـ ١ ـ ص ١١٣

اى في الاسكندرونه وكيليكيا اعترافا تاما وطلبوا حصر السلطة في لبنان والشام بوضعها تحت سيادة شريف مكه ، وبتخويل الفرنسيين حق تعيين الحاكم العام فقط ، كما انهم طلبوا الحق بتمديد خط الحديدى من العريش الى حيفا يكون تحت سيطرتهم وقد رضى الانكليز بعد حين من الجدل الطويل وتشبث الافرنسيين ان تصبح الشواطئ السورية من عكا الى الاسكندرية تحت الحكم الافرنسي مباشرة على ان تعطى اليهم مقابل ذلك حيفا وتصبح فلسطين منطقة حياد وتعترف انكلترا بحق فرنسا بالاسكندرون وكل ما وراءها من البلاد حتى الموصل . على ان تكون الموصل نفسها داخلة في تلك البلاد (١)

وبنتيجة هذه المفاوضات توصل الحلفاء الى عقد اتفاقية سايكس — بيكو المشهورة التي قسموا بها الهلال الخصيب الى مناطق نفوذ ومناطق استعمار ، فتتولى فرنسا الشواطئ السورية من شمالي عكا الى الاسكندرونه وكذلك منطقة كيليكيا بما فيها مرسين واخفه حتى سيواس شمالا وديار بكر شرقا وتتولى انكلترا العراق وتصبح فلسطين منطقة محايدة وتكون المدن الاربع شرقا حتى راوندوز شرقي الموصل ضمن منطقة النفوذ الفرنسي منطقة (A) وتكون النقب وشرقي الاردن وما تبقى من العراق في منطقة النفوذ البريطاني منطقة (B) .

والملاحظة انه في الوقت نفسه الذى كانت تجرى به مفاوضات سايكس — بيكو ، كانت المراسلات بين السر هنرى مكماهون والشريف حسين في مكة ، قد قطعت شوطا بعيدا فاعطيت وعود للحسين ، باستقلال الاراضي الواقعة بين طوروس شمالا والمحيط الهندي جنوبا ، اى جزيرة العرب وسوريا والعراق ، على ان يستثنى من ذلك المنطقة البحرية الواقعة بين عكا والاسكندرونه التي اختص بها الانكليز حلفاءهم الافرنسيين (٢)

لا نعرف تماما ما اذا الحسين كان يرغب في قيام دولة موحدة ضمن هذه الاراضي ، لان الغموض يحيط بهذه القضية ويزيدها تعقيدا عدم تحديد الكلمات والمقاصد ، فبعد ان اعلن الحسين الثورة اعلن نفسه ملكا على "العرب" ولكنه لم يوضح ماذا كان يعني بكلمة "عرب" ولكن المفهوم من ذلك العصر انها كانت تعني سكان الهلال الخصيب ، وجزيرة العرب . وفي الرد على الاعلام الذى ارسله الحسين الى الدول الغربية ، يعلنها فيه انه في السادس من اكتوبر ١٩١٦ بايعه الشعب ملكا على "العرب" جواب من الحكومة الانكليزية والفرنسية تعترفان به ملكا على الحجاز فقط (٣)

وطموح الحسين في ان يكون ملكا على العرب لم يكن بالحقيقة يشاركه فيه الكثيرون فان اكثر الزعماء كانوا لا يألون مزمعين على جعل الادارة في كل ولاية عربية على الاساس اللامركزية لتنظر بنفسها في حاجاتها

---

(١) راجع : R. poincaré - au service de la France ج ٨ ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) راجع رسالة مكماهون الى الحسين المؤرخة في ٢٤ ت ١ سنة ١٩١٥

(٣) انطونيوس — ص ٢١٣ — وردت في انطونيوس (King of the Arab Countries) ووردت في كتاب ثورة العرب .

وعاداتها تنفيذا لقرار المؤتمر العربي في باريس بهذا الشأن (١) فاذا كان هذا الكتاب كما يظهر يعبر عن رأي الحسين او الراي السائد في ذلك الظرف فلا غرابة ان يكون الملك حسين ممن كانوا يطمحون باستقلال هذه الاقطار ويطمح في الحكم عليها مباشرة . فقد جاء في مذكرات جمال باشا عند كلامه عن الثورة العربية ان التاكيد الذي ارسله مكماهون الى الحسين بضمان استقلال الاراضي العربية المحددة في رسالة الحسين ، يعد بمثابة اقتراح لانشاء دولة عربية مستقلة يحدها من الشمال خط ممتد من مرسين الى اطنه الى الموصل (٢) ولكن في برقية ارسلها الحسين الى جمال باشا بالشفرة قبل اعلان الثورة بقليل طلب من الاتراك الاعتراف باستقلال الحسين في سائر انحاء الحجاز من تبوك الى مكه وجعله اميرا على كل هذه الاراضي ، وتكون له الامارة وراثية (٣) ومع ان هذه البرقية لا تعطي توضيحا لمطامع الحسين ولا تهدف الى مثل هذا الامر ، اذ ربما قد تكون ضربا سياسيا لكنها تظهر على الاقل ان الحسين لم يكن مؤمنا تمام الايمان بحدود هذه الدولة التي اقترحها على الانكليز ، او انه كان يقصد بالاكثر استقلال هذه الاراضي وان يكون ملكا على العرب لما في الكلمة بحد ذاتها من قيمة معنوية لا من قيمة حقوقية . ولو كان الامر يختلف لكان سكان الهلال الخصيب اعلنوه ملكا عليهم بدلا من ابنه فيصل وخصوصا انه اعلن نفسه ملكا منذ اعلان الثورة ولكن لم يعتبر السوريون هذا الاعلان مقيدا لهم .

واذا عدنا لرأي السوريين انفسهم لوجدنا انهم كانوا يبغون قيام دولة موحدة في سوريا الجغرافية الا اذا استثنينا العمل الذي لا اهمية له والذي قام به العازوري لانشاء دولة في الهلال الخصيب مؤلفه من " سوريا وكيليكيا وفلسطين وما بين النهرين " وهو يقترح .

١) ان تعود الخلافة الى احد العرب من السلالة الهاشمية وتعطى له الحجاز ليحكمها ذمنيا .

٢) ان يعلن الاستقلال العربي فور اعلان الخلافة فتؤلف بعد ذلك سوريا وكيليكيا وفلسطين وما بين النهرين ، وحدة لا يمكن تجزئتها لاسباب عديده منها جغرافية وعرقيه .

٣) ان توضع هذه الدولة في طفولتها تحت رعاية الحلفاء من انكليز وافرنسيين وايطاليين ويونان .

وهنا يفرق العازوري بين مطالب "الحزب الوطني العربي" او حزبه وبين مطالب الاصلاحيين الجزئيين ناعتا اياهم بالعاملين لمصالحهم الشخصية والفردية . وبعد ان يعدد بقية المطالب التي لا اهمية لها بالنسبة لنا يرفض فصل فلسطين عن سوريا التي تؤلف جزءا اصيلا منها . ثم ياتي على ذكر

(١) ثورة العرب ـ ٢٣٩

(٢) راجع مذكرات الملك عبد الله عن حدود البلاد العربية التي عناها والده وهي تضم سوريا ما عدا مرسين واهنه والعراق والجزيرة العربية ما عدا نجد والبحرين ومسقط وحضرموت ولحج ص ٢٥٠

(٣) مذكرات جمال باشا ـ ص ٣٧٣

رسالة وردته من سوري عربي في سوريا يؤكد له ضحة نظريته ويطلب منه المطالبة بالحماية الفرنسية لما يكنه الشعب من حب لفرنسا (١)

ولكن الحقيقة ان السوريين اجمالا كانوا يرغبون في قيام دولة سورية مستقلة تضم الولايات والسناجق السورية نستدل على هذا من الرسالة التي وجهها السوريون السبعة من المكتب العربي في القاهرة الى السفير البريطاني يوضحونه فيها عن غاية الحكومة البريطانية من العمل واستقلال العرب. ومن تكليفهم الملك فيصل التكلم باسمهم في مؤتمر الصلح كشعب منفرد. فلقد شعر بعض السوريين ان العمل مع الحسين اصبح صعبا، فانفضوا من حوله تدريجيا خلال السنة الاولى والثانية للثورة لما تبينوه من صلابته وتشدده في ارائه وعدم ميله الى الاخذ باراء ذوي الراي (٢) وكان من اسباب هذا الاختلاف ظهور وعد بلفور ونشر روسيا لاتفاقية سايكس — بيكو على اثر اعلان الثورة الشيوعية، فقد اثار هذا الامر القلاقل وكاد يقضي على التعاون مع الانكليز، فقام هؤلاء السبعة من السوريين عندما رأوا تصميم الانكليز والافرنسيين على اقتسام الهلال الخصيب، وادركوا ما وراء ذلك من متاعب بارسال كتاب الى اللورد ملنر وزير الحربية البريطانية يومئذ سألوه فيه بعدما وضعوا القلق المستحوذ على البلاد عن :

١) غاية الحكومة البريطانية وفيما اذا كانت هذه الغاية ان يتمتع العرب في البلاد العربية بالاستقلال التام على ان يتعهد هؤلاء السبعة بصفتهم ممثلي الجمعيات العربية المتعددة حار التصريح الايجابي القيام بالخدم اللازمة التي تعود بالنفع على الحلفاء

٢) يطلق القائمون بالحركة العربية كلمة بلاد العرب على شبه جزيرة العرب والعراق وسوريا وقسم من ولاية الموصل، فهل من سياسة حكومة انكلترا مساعدة اهالي هذه البلاد على استقلالهم استقلالا تاما وتأليف حكومة عربية لا مركزية تشبه حكومة الولايات المتحدة او غيرها من الحكومات التي توافق طبيعة الاهلين ام هي تعتبر كل البلاد العربية على السواء.

٣) ان السوريين مع تمنيهم لان تكون سوريا جزءا من المملكة العربية الحليفة، فانهم كانوا من قبل الحرب يعملون لتطبيق قانون اللامركزية على البلاد السورية وتقسيمها الى ولايات تحكم نفسها بنفسها حكما اداريا فقط، واذا استقلت البلاد العربية فيجوز تطبيق مثل هذا القانون على ولاياتها واماراتها كلها.

وبعد ان تبين الرسالة اعتماد العرب على بريطانيا العظمى وثقتهم بتقاليدها تصور القلق المستحوذ واليائس الشديد من جراء عدم التعهد باستقلال البلاد العربية. ومن ثم تلمح الرسالة باطلاق يد الحسين في الجزيرة العربية لجمع كلمتها ومنح السوريين حقوقهم لان سوريا اساس الثورة ولها اليد الطولى

(١) جمعية العربية ص ١١٤ — ١٢١

(٢) سعيد — ج ٢ — ص ٣٧

في الحركة الفكرية التي انتجتها (١) وعندما قدم هؤلاء السبعة مذكرتهم هذه لم يذكروا اسمائهم (٢) بل تركوها مغفلة خوفا من غضب الحسين .

ورد الرد على هذه المذكرة في السادس عشر من حزيران وفي الثاني والعشرين منه وهي واضعي المذكرة من قبل المستر والرند الى مقر القيادة العليا حيث قُرِأ عليهم الجواب بالانكليزية والعربية وهو يتلخص في رغبة الحكومة البريطانية رؤية الشعوب المتكلمة العربية منقذة من السلطة التركية ، وان تعيش وعليها الحكومة التي ترغب فيها ، وان البلدان العربية التي كانت مستقلة قبل الحرب او استقلت بعده ستبقى كذلك وان الحكومة الانكليزية تعترف باستقلالها اعترافا تاما وانها ستترك لشعوبها ان تختار الحكومات التي ترغب فيها وفقا لمبدأ "قبول المحكوم" وانها ستواصل سعيها لتحرير بقية البلدان التي لا تزال تحت النير التركـــي .

واننا لنرى في هذا الجواب رغبة في تحرير البلدان هذه فقط وترك امر نوعية الحكومات التي ستقوم فيها لرغبة الشعوب وقبوله بها . وقد كان له الوقع الحسن واستبشر الناس به خيرا . وعلى اثر صدوره اجتمع عدد كبير من السوريين في مصر فتذاكروا في الشؤون السياسية الى ان انتهوا الى انشاء حزب سياسي يعبر عن اماني الشعب السوري ورغبته في وحدة بلاده واستقلالها وهي "حزب الاتحاد السوري" اختير لرئاسته الامير ميشيل لطف الله والسيد رشيد رضا لوكالته والدكتور شهبندر وسليم سركيس لامانة سره وكان من اعضائه الشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم ووهبه عيسى المحامي . وكان من مبادئه .

١) ان تكون سوريا بجملتها على وحدتها القومية من جبال طوروس شمالا والخابور فالفرات شرقا والصحراء العربية فمداين صالح جنوبا والبحر الاحمر فخط العقبة ورفح فالبحر المتوسط غربا .

٢) تكون سوريا مستقلة استقلالا تاما تضمنه جمعية الامم وتضمن قانونه الاساسي ضمانا لا يخل بهذا الاستقلال .

٣) يكون الحكم فيها على مبدأ الديمقراطية اللامركزية ويكون اساس قوانينها واحكامها مدنيا بحتا ما عدا احكام الاحوال الشخصية فانها تبقى على حالها .

٤) يكون قانون حكومتها الاساسي ضامنا حقوق الاقليات (٢)

وكما يظهر من هذه المبادئ انها واضحة التعبير لا خلاف حول مطالبها ، فحدود الدولة واضحة واستقلالها معبر عنه ، ونوعية الحكومة والقوانين التي ستتمشى عليها ، فالحس الباطني الذي كان في النفوس تبلور في مبادئ واضحة لا تعقيد فيها . وفي هذا انتقال من طور البلبلة وتعدد المشاريع

---

(١) وهم رفيق العظم ، الدكتور عبد الرحمن شهبندر فوزي البكري الشيخ كامل القصاب خالد الحكيم مختار الصلح ، حسن حماده . (٢) سعيد ج ٢ ص ٤١ (٣)

والنظريات الى مشروع واحد واضح وان لم يكن مستندا على نظرة قومية واضحة الاصول ، وقوة هذا الحزب واهميته كانت في انه كان الاول في التعبير عن رغبة الشعب في استقلال سوريا ووحدتها . فالاحزاب التي تلته وكان عددها كبيرا لم تختلف معه في الجوهر بل تلمست خطاه وسعت الى ما كان يسعى اليه من وحدة واستقلال ولقد كان هذا الحزب اول من احتج على تقسيم سوريا الى مناطق على اثر الاحتلال كما كان اول من طالب باستفتاء السوريين في تقرير مصيرهم ، وقد حمل لواء الجهاد عددا من السنين اتى خلالها باعمال باهرة ، ولم ينحل الا سنة ١٩٢٧ عندما طوحت به المطامع الشخصية (١)

وهذه الرغبة في الاستقلال والوحدة تظهر جلية واضحة في المذكرة التي تقدمت في باريس من قبل سليم نجار ولجنة الحزب الوطني العربي (٢) وفيها تعلن ان الثورة العربية هي من صنع السوريين والعراقيين وان القضية السورية هي قضية منفصلة عن القضية العربية ، وما يعنون بسورية هو لبنان وسوريا وفلسطين وان السوريين هم القاطنون الاراضي السورية والمنفيون منها . وتبدي المذكرة حب السوريين لفرنسا وانهم كانوا يريدونها لتخلّصهم من الاتراك فقط ، اما الان فهم يرغبون في استقلال تام على ان يطلبوا مساعدة فرنسا في الامور التي يحتاجون فيها هذه المساعدة ، ثم تنبه المذكرة فرنسا الى الامور التي يجدر بها ان تتحاشاها . وهذه اللجنة كانت تختلف تماما عن اللجنة المركزية السورية التي كانت تطلب سوريا موحدة لكنها كانت ترغب فيها موحدة تحت الحماية الفرنسية الخالصة .

وهكذا نرى انه في فترة الحرب اتخذت المطامع الافرنسية والانكليزية شكلا جديا وتخطت القول الى العمل ، فعقدت بينها اتفاقات على تقسيم سوريا الى اجزاء وعملت لتثبيت مصالح هذه الدول ، اما الاسباب طائفية او لاسباب فردية ، فدعا البعض لفرنسا ودعا البعض الاخر لانكلترا ، ولكن عدد كبير منهم دعا للحرية والاستقلال كما دعا للامركزية ووحدة سوريا واستقلالها .

وما كادت الحرب تنتهي ويقدم وقت تنفيذ العهودات والوعود والامال والمطامع حتى راينا البلاد تغلي كالبركان وتعج عجيج النحل ، فقد اتت الساعة التي يتقرر فيها مصيرها ومستقبلها وهي تدرك ان هذه الساعة هي الفاصلـــــــة .

---

(١) The Syrian World مجلد ٣ عدد ٥ ص ٥٢

(٢) Jung ج ٢ — ص ٣٨

العهـــد الفيصلـــي :

ان الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى ، كانت من اشد الفترات حراجة وتوجيها للحوادث السياسية التي تلت ، وتزيد اهمية هذه الحوادث بالنسبة لنا ، اذ ان ما تم فيها من مقررات شعبية وحوادث سياسية يعتبرها القائمون على مشروع الملك عبد الله انها نقطة الارتكاز في الدعوة الى وحدة البلاد السورية لانها كانت تعبيرا واضحا عن رغبة الشعب ومطالبه ولان في اثنائها تمت البيعة للملك فيصل فأصبح عرش سوريا من حقه وحق ورثائه من بعده .

لكن هذه الفترة بالنسبة لنا تعني امرا اخطر اذ انها فترة ابتداء النضال الجماعي والوعي الشعبي للتحرر والوحدة ، فترة اجمعت فيها اكثرية الامة على رؤية حقيقتها والتفت تشد ازر بعضها لتسير في طريق الحياة والحرية . ومن يتابع تطور الحوادث في هذه الفترة وسيرها واتجاهاتها لا يتوانى عن ادراك الحقيقة الفاعلة في توجيه هذه الحوادث .

وهنا قبل ان نبدأ في شيء من هذا يجدر بنا ان نصور الحالة باختصار حين اعلان الهدنة وقبل انعقاد مؤتمر الصلح لنرى الاتجاه الذي اخذته الامور ضد الارادة الشعبية .

كانت الدول الحليفة قد توصلت الى اتفاق فيما بينها على تقسيم الاراضي السورية ولكن في الوقت نفسه كانت قد اعلنت ان من حق الشعوب كلها تقرير مصيرها ، فاعترفت بان العرب والسوريين هما من الشعوب المحاربة ولم تتوان من جهة اخرى عن تأكيد مقررات معاهدة سايكس - بيكو ، وقد رتبت وضع جيوش الاحتلال الثلاثة بشكل لا يصعب معه تنفيذ هذه المقررات ، وتركت امر المنطقة الشرقية وهي المنطقة الممتدة من معان الى شمالي حلب ، بيد الامير فيصل يحكمها باسم والده .

واما الاحزاب السياسية فكان منها من يطالب بالاستقلال التام كاللجنة السورية اللبنانية التي تالفت في المهاجر لهذه الغاية ،وحزب الاتحاد السوري ، ومنها من كان يطلب الحماية الاميركية ، كالحزب السوري المعتدل الذي اسسه الدكتور فارس نمر باشا (١)

واما في البرلمان الفرنسي ، فقد اثيرت القضية السورية مرارا ، ولم يدافع عن استقلال البلاد الا الاشتراكيين ومنعت اللجنة التي الفها العازوري ويونغ للدفاع عن القضايا العربية عامة من الكلام .

وكانت البلاد هنا في حالة من البلبلة والاضطراب الفكري عظيمة فبينما الاكثرية تطلب الوحدة والاستقلال كان المسيحيون في لبنان قد زاد تخوفهم ونشطوا الى العمل لفصل قضية لبنان ولبنان عن سوريا .

---

(١) سعيد ، ج ٢ ص ٤٣ - وايضا Comment la France - De Jouvenel-Biron - ٢٥٢ (١٩٢٢)

ولذلك سندرس في هذا الفصل (١) كيف تم الاحتلال وتقسيم البلاد السورية (٢) مساعي السوريين الرسمية والشعبية للمحافظة على وحدة بلادهم (٣) التيارات الفكرية التي رافقت الحياة السياسية .

(١) الاحتلال الاجنبي والتقسيم :

لقد عرفنا ان معاهدة سايكس ـ بيكو قضت بتقسيم الهلال الخصيب الى مناطق احتلال ونفوذ افرنسية وانكليزية ، ومما لا شك فيه ان تنفيذ مثل هذه الاتفاقية كان وقفا على نجاح الحلفاء في الحرب . واما وقد نجحوا فكان لا بد لهم من تنفيذها ، بيد ان الظرف الذي كان يمكن ان يتم فيه التنفيذ ، لم يكن مناسبا ولا موافقا نظرا لما كان ينتظره السوريون من مساعدة معنوية ومادية من الحلفاء وبالحقيقة ، فان الحلفاء حال انسحاب الاتراك من سوريا اصدروا بيانا في السابع من تشرين الثاني ١٩١٨ يوضحون فيه اهدافهم بالشرق بانها تحرير الشعوب الواقعة تحت الحكم التركي التام واقامة حكومات يختارها الشعب بنفسه (١) والملاحظ في هذا الاعلان استعمالهم كلمة سورية بمعناها الجغرافي الحقيقي وما بين النهرين بمعنى العراق اليوم .

على انه ما كادت الجيوش الحليفة تتأكد من انسحاب الاتراك حتى اعلنت حكومة "عربية هاشمية" في بيروت برئاسة عمر الداعوق رئيس البلدية حينذاك (٢) وكذلك في مرجعيون ودمشق وبقية المدن السورية . ولكن الافرنسيين الذين كانوا يطالبون بتنفيذ معاهدة سايكس ـ بيكو لم يرضوا بذلك مما اضطر الانكليز على النزول عند رغبتهم والاتفاق معهم على تقسيم عسكري لسوريا مقابل توقيعهم لاعلان ٧ تشرين ثاني المذكور الذي اذيع بعد الاتفاق .

في الثاني والعشرين من اكتوبر سنة ١٩١٨ اذاع الجنرال بولز رئيس اركان حرب الحملة منشورا ضمنه خطوط التنظيمات الادارية وقسمة سوريا الى ثلاث مناطق رئيسية وجعل العراق وحدة سياسية ، واعلن الجنرال اللنبي حاكما عسكريا عاما ، واما المناطق السورية فكانت على الوجه التالي :

١) المنطقة الغربية وتضم الوية جبل لبنان وبيروت وطرابلس واللاذقية واقضية انطاكية واسكندرونه من ولاية حلب وجعلت افرنسية وحاكمها الكولونيل بيباب (٣)

٢) المنطقة الجنوبية وتضم سنجق القدس المستقل وسنجقي نابلس وعكا من ولاية بيروت القديمة وقد قبلت السلطات الانكليزية ادارتها وتعين الماجورجنرال ا . سبني حاكما عليها (٤)

٣) المنطقة الشرقية وتشمل ما تبقى من سوريا من معان جنوبا حتى حدود تركيا شمالا مع اقضية ادلب وجسر الشغور والباب غربا والفرات شرقا وجعلت عربية وعين حاكمها رضا باشا الركابي ، وهناك اختلاف حول بعض الاقضية في اية منطقة تدخل ، وفي اكثر المصادر كانت اقضية بعلبك وراشيا ضمن المنطقة

---

(١) انطيلونيوس = ٢٧٤ ويعرف هذا المنشور "بالاعلان الفرنسي ـ البريطاني" . نصه الكامل في الملحق من كتاب انطونيوس . (٢) سعيد ، ج ٢ ص ١٠ (٣) راجع انطونيوس ص ٢٤٩ (٤)

الشرقية وقد كادت محاولة احتلالها تؤدي الى ثورة .

وعلى اساس هذا التقسيم اخطر السوريين الى انزال العلم باحتفال في التاسع من اكتوبر، ونزلت في العاشر منه الجنود الفرنسية في بيروت .

والشيء الجدير بالذكر في هذا التقسيم انه يجاري روح معاهدة سايكس ـ بيكو ويمكن اعتباره مقدمة التقسيم التي تمت مأساته في الاشهر القليلة التالية . ولذلك لم تمض الامور دون احتجاجات وهياجات وقد تنبه الى هذا حزب الاتحاد السوري (١) فنبه اليه الشعب غير ان الانكليز حاولوا تسكين الاعصاب الثائرة والخواطر الهائجة بقولهم : ان هذه التدابير عسكرية محضة لا تؤثر في مصير البلاد ولا تعني تقسيم سوريا تقسيما سياسيا لان تقرير مصير البلاد من خصائص مؤتمر السلم الذي سيلتئم بعد انتهاء الحرب (٢)

وحار ان تم هذا التقسيم العسكري اعلن " الشريف " فيصل حينذاك تأليف حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالا مطلقا لا شائبة فيه باسم "مولانا السلطان حسين" شاملة جميع البلاد السورية (٣) وعهد الى رضا باشا الركابي بالقيادة العامة واعلن الاحكام العرفية كما انه اعلن خطط ومبادىء هذه الحكومة ، وانه حارب كعربي وهو يعمل كعربي ،ولذلك يطلب من اخوانه العرب على اختلاف مذاهبهم التمسك باطراف الوحدة ، وبيّن ضرورة ايجاد قوة تحفظ كيان الحكومة ، ثم اعلن بقاء القوانين العثمانية سارية المفعول حتى يسن قوانين جديده ، وبين ان العرب امم وشعوب مختلفة باختلاف الاقليم ولذا فان والده قرر ان يجعل البلاد مناطق يطبق عليها قوانين خاصة بنسبة اطوار واحوال اهلها واظهر اخيرا رغبة الحكومة في الاطلاع واقامة المدارس (٤)

وقد كرر الامير مثل هذا القول بعد عودته من مؤتمر الصلح .

وقصة الامير في اوروبا تمثل لنا باجلى مظاهرها مفاهيم السياسة العملية والروح التي تواجه بها الامم الاوروبية مشاكلها مواجهة القوة والحفاظ على مصالحها لا على اهدافها الانسانية ومثلها العليا التي تتغنى بها ولا تنفذ منها شيئا ، فقد ابحر الامير الى اوروبا في منتصف شهر كانون الثاني على راس الوفد الحجازي فاستقبلته الحكومة الفرنسية بصفته ضيفا وليس كممثل سياسي (٥) وانتقل من هناك الى لندن

---

(١) سعيد ج ٢ ـ ص ٤١

(٢) المصري ـ يوم ميسلون ص ٥٧

(٣) سعيد ـ ج ٢ ص ٢ ـ المصري ـ ص ١٩٤

(٤) نفس المصدر ـ ص ٨

(٥) انطونيوس ـ ص ٢٨٠

حيث قابل ملك الانكليز بصحبة لورنس .

واثناء وجود الامير في اوروبا اثيرت قضية معاهدة سايكس ـ بيكو ـ خصوصا بعد ان غيرت انكلترا موقفها من قضية مصالحها في البلدان العربية ، واعتبرت ان المعاهدة مضرة بمصالحها طالما هي تعطي ولاية الموصل لفرنسا وتترك فلسطين تحت الادارة الانترنسيونية ، واصرت فرنسا على تنفيذ المعاهدة بما انها الوثيقة الوحيدة التي تمكنها من الحصول على اي جزء من السلطة العثمانية (١) بيد ان الطرفين توصلا الى اقرار حق انكلترا في الموصل وفلسطين وحق فرنسا في بعض اجزاء سوريا .

وصل موء تمر الصلح في ابحاثه الى قضية البلدان العربية في السادس من شباط ودعي فيصل للكلام ، فطالب باعطاء العرب حق تقرير مصيرهم واوضح ان والده لا يرغب في ضم اي شبر الى مملكته ، ولكنه يطلب الاعتراف بحق العرب بالوحدة والاستقلال مبينا الاسباب الجغرافية والاقتصادية التي تدعوا الى مثل هذه الوحدة . ومن ثم تكلّم عن سوريا بصفته ممثلا لها بعد ان ارسلت اليه مضابط توكيل امضاها مختلف الاشراف ورؤساء الطوائف وممثلي الحرف (٢) فطالب باستقلالها التام على ان تستعين بمستشارين اجانب تستخدمهم عند الحاجة وعلى ان تكون متصلة بحكومة الحجاز في الشؤون الخارجية (٣)

و تبعه في الكلام عن الشؤون السورية شكري غانم ممثل اللجنة المركزية السورية في باريس ، فطالب بدعوة بوحدة سورية باشراف فرنسا واظهر غضب اللجنة المركزية السورية ورفضها لدعوة فيصل العربية مبينا ان سوريا للسوريين ولا علاقة لها البتة مع الحجاز (٤) وتبعه مستر بلس رئيس الجامعة الاميركية حينذاك الذي حضر الموء تمر بناء على دعوة الرئيس ولسن (٥) فقال ان السوريين يريدون ان يمنحوا حكم انفسهم بانفسهم ودافع عن هذا المبداء عامة . وختم الحديث داوود عمون رئيس الوفد اللبناني فطالب باعادة لبنان الى حدوده الطبيعية والجغرافية قبل سنة ١٨٦٠ ومنحه استقلالا اداريا مع جمعية تشريعية بمساعدة فرنسا واشرافها .

وعلى اثر انتهاء الخطاب اثير نقاش حول القضية ، فطلب الاميرفيصل ارسال لجنة تحقيق تعرف من المصادر الرئيسية رغبات الشعب، فاعجبت الفكرة الرئيس ولسن ، وصمم على تحقيقها ، فطرحت مسألة ارسال لجنة في العشرين من اذار على بساط البحث ، فاقترح الرئيس ولسن ارسال لجنة من الدول تتمثل فيها

---

(١) انطونيوس ص ٢٨٢ (٢) المصري ـ ص ١٩٣ (٣) سعيد ـ ج ٢ ـ ص ٢٢

(٤) Daniel ص ٤٢

(٥) الجريدة العدد السابع ، السنة الاولى

فرنسا وانكلترا واميركا وايطاليا بممثلين متساووي العدد ، فقبلت فكرته وتقرر ارسال اللجنة ولكن فرنسا وانكلترا امتنعتا عن ارسال ممثليهما ولم تهتم ايطاليا ، مما اضطر ولسن الى ارسال لجنة اميركية خالصة مؤلفة من الدكتور هنري كنغ رئيس كلية اوبرلن والسيد شارلس كراين .

وعند اتخاذ هذا القرار عاد فيصل الى سوريا وانتقلت الاحداث الى ارض الوطن .

٢) المساعي والحركات السياسية :

لا شك ان من الاسباب الرئيسية التي دعت الرئيس ولسن الى التصميم على ارسال لجنة استفتاء رغبته في معرفة الحقيقة من منبعها اي من الشعب السوري نفسه وليس بواسطة وزارة الخارجية الفرنسية او غيرها من الدوائر التي تحصل على معلوماتها من جهة واحدة ووفق رأي واحد . ففرنسا كانت تدّعي ان السوريين يطلبون وصايتها وحمايتها لما تربطها بهم من علاقات قديمة واواصر متينه ، وقد تمسكت فرنسا بذلك في مفاوضات سايكس — بيكو بحقها في سوريا تمسكا شديدا واظهرت عدم ارتياحها للمفاوضات الجارية بين الحسين والانكليز (١) ثم لما رأت امكانية قيام دولة مستقلة في سوريا سارعت للمنصو الى انتهاج خطة مراضاة مع الانكليز وترك لهم الموصل وفلسطين ، واخذت فرنسا تشجع الحركات اللبنانية الانفصالية ، وتخيف المسيحيين من المسلمين "المتوحشين" واخذت تنعت الجنود الفيصلية "بالشريفية" (٢) لما توحيه هذه الكلمة من حس ديني ومن معنى رجعي ، وراحت تشتري بعض الجرائد السورية باثمان باهظة ، وتثير النعرات الطائفية في الامكنة التي يسكن فيها المحمديون والمسيحيون ، بأن تهجم على الجنود السوريين في القرى ثم تنسحب ، فينتقم هؤلاء من القرى التي هاجم منها الفرنسيون كما حدث في مرجعيون (٣) وهي في كل هذا تريد ان تظهر السوريين غير اهل لحكم انفسهم وانها تريد حماية المسيحيين .

لم يتوان السوريون المخلصون عن العمل في سبيل الاتحاد وجمع الكلمة ، فما ان عاد الامير فيصل الى سوريا واستقبله الشعب استقبالا رائعا حتى القى خطابا في اجتماع لاعيان البلاد (في ايار ١٩١٩) بين فيه اعماله في المؤتمر ، فبعد ان اشاد باعمال الحجازيين والسوريين بالثورة ، وبعد ان استعرض اطوار المشكلة السورية ونظرة الاوروبيين الى العرب ، عرض كيفية دفاعه عن قضية سوريا ، مظهرا الاختلاف بين البلاد العربية من حيث العلم مما لا يسمح بجعلها امة واحدة ، لذلك طلب الاستقلال لسورية

---

(١) المصري — ص ٤٨

(٢) المصري — ص ٣٦ — الجريدة عدد ٣ سنة اولى ؛ ايضاً Lammens - Fayçal ج ٢ ص ٢٥٨

(٣) الجريدة — عدد ١٧ سنة اولى

بحدودها الطبيعية وللعراق ايضا ، على ان لا يكون لها علاقة بسوريا ، وطلب اخيرا موافقة الاعيان على ادارة الحكومة مع السياسة الخارجية والداخلية فاعطيت له من قبل الجميع بما فيهم المسيحيون الحاضرون (١)

اما الاتجاهات السياسية التي كانت تعمل في ذلك الوقت فعديده واكثرها متقارب، وبعضها متباين وكما راينا انه من الناحية السياسية كان اكثر السوريين مجمعين على قيام دولة سورية موحدة . فبرامج الاحزاب التي ظهرت في ذلك الوقت كحزب الاستقلال العربي او "الفتاة" السرى والذى تحول الى حزب الاستقلال بعد الحرب وخرج عن سريته ، وحزب العهد السورى هو نفس حزب العهد السرى في الجيش انفصل الى حزبين سورى وعراقي ، وحزب الاتحاد السورى والحزب الوطني السورى والجمعية العربية الفلسطينية والحزب السورى المعتدل بمصر وغيرها من الاحزاب التي نشأت في المهجر كجمعية الاتحاد السورى في الولايات المتحدة والحزب الديمقراطي في الارجنتين والحزب الديمقراطي في البرازيل وغيرها من الاحزاب التي كثرت وتعددت ولكنها اجمعت على المطالبة بوحدة الارض السورية وان لم يجمع بعضها على طلب الاستقلال فبعض هذه الاحزاب كان ذو صبغة عربية وبعضها كان ينادى بسورية للسوريين ، اى اى ان لا علاقة لها مع غيرها من الامم العربية ، وبينما كانت الاكثرية من هذه الاحزاب تطالب بالاستقلال التام الناجز ، كان بعضها يرغب اما في حماية اميركية او بريطانية ضمن حدود سوريا الطبيعية ، ولكنها جميعا قد اجمعت في برامجها على امر رئيسي مهم هو : وحدة سوريا الطبيعية ضمن حدودها المعروفة من طورس شمالا الى العقبة جنوبا ومن البحر غربا الى الصحراء شرقا ، وقد طالب بعضها بفصل الدين عن الدولة (٢) وطالب اخر باللامركزية وبعدم علاقة سوريا بالحجاز (٣) وطالب اخر بتاييد المبداء الملكي الديمقراطي (٤)

بيد ان الاتجاه المباين الرئيسي كان اتجاه اللبنانيين نحو المطالبة باستقلال لبنان بحدوده الطبيعية ولقد ذهب الوفد اللبناني الى باريس لحضور مؤتمر الصلح وطالب رسميا بانشاء لبنان الكبير وشجعته فرنسا على ذلك لخوفها من عدم تمكنها من الحصول على سوريا الداخلية . واما في لبنان فلم يكن بالحقيقة منظمة رسمية تنطق باسمه . سوى مجلس الادارة الذى تالف بعد حين ، والبطريرك الماروني وجمعية الاتحاد اللبناني التي كان مركزها مصر — ومطالب اللبنانيين يمكننا ان نعبر عنها بما جاء في كتابي "في سبيل لبنان"

---

(١) سعيد ج ٢ ص ٢٥ — ٣٤

(٢) الحزب السورى المعتدل

(٣) حزب الاتحاد السورى

(٤) الحزب الوطني السورى ، وهو حزب الفه الامير علي بن الحسين راجع اسماء الاعضاء في البشير عدد ٣ شباط ١٩٢٠ .

ليوسف السودا ولبنان بعد الحرب لاوغست باشا اديب والاثنان يطلبان استقلال لبنان واعادته الى حدوده الطبيعية والمطالبة بوصاية فرنسا وسناتي على هذين الكتابين فيما بعد ، ولكن احدهما وهو كتاب السودا يوضح لنا المشاكل الرئيسية والنقطة الاخيرة اى طلب حماية فرنسا كانت ظاهرة عند كثرة المسيحيين اللبنانيين وهذا ما قررته اللجنة الاميركية عند قدومها .

والحقيقة ان رغبة اللبنانيين في الانفصال عن سوريا كانت لمجرد عاطفة دينية بحته ، كما كانت هذه الرغبة من المسلمين رغبة اتصال لاسباب مماثلة ، واذا استثنينا العدد القليل من المفكرين المسيحيين الذين طالبوا بالوحدة ، فما ذلك الا لانهم ادركوا بثاقب نظرهم وحدة هذه الامة وضرورة ازالة الاسباب الموجبة لمثل هذا الانفصال .

والامر الظاهر في كل هذه الاتجاهات ان فكرة قيام دولة عربية موحدة لم تكن مدار بحث، ففي خطب فيصل كان تاكيد حول غيابها خصوصا بعد انتدابه من قبل السوريين لتمثيلهم ، ولم تكن الفكرة في الواقع من البروز بمكان في كل هذه الاحداث العظيمة ، وحتى فيصل لم يفكر بجعل سوريا جزءا من الحجاز (١)

ب — قيام المؤتمر السوري العام :

كانت الغاية الاساسية من هذا المؤتمر اظهار رغبة الشعب السوري امام لجنة الاستفتاء الاميركية ، فقد راينا كيف اوصى فيصل للمسؤولين الشروع بتاليف مجلس يمثل الشعب يمكنه ان يتكلم بصفة رسمية امام اللجنة والغاية الثانية كانت تعيين شكل الحكومة وتقرير قانونها الاساسي ، فقد كانت الرغبة عامة في الانتقال من دور الحكومة العسكرية التي كان زمام الامور فيها موضوعا في ايدي الحاكم العسكري تحت اشراف الامير وقيادة القائد العام الانكليزي للقوات الحليفة الذي رفض ان يكون للمؤتمر غير غاية تقديم المذكرة الى اللجنة الاميركية (٢)

جرت الانتخابات لهذا المؤتمر في المنطقة الشرقية وفقا لقانون الانتخاب العثماني القديم . الذي ينتخب فيه الشعب على درجتين ، اما في المنطقتين الجنوبية والغربية فقد امتنعت السلطات العسكرية المحتلة اجراء انتخابات بناء على اوامر القياده العليا (٣) فاضطر المنتخبون الى تنظيم مضابط توكيل سمّوا فيها ممثليهم ، ولا يمكننا في الحقيقة التاكد من ناحية قانونية صحة هذه المضابط ولكن الامر الذي

---

(١) من تصريح لفارس الخوري اجتماع معه في دمشق في ٢٤/ ١١/ ٤٩

(٢) DAVID ص ٦٦

(٣) الحصري ٢٤٥

لا شك فيه ان الاحتجاجات التي ظهرت ضدها لم تكن الا من قبل الافرنسيين وا للبنانيين المتعصبين وتقوم وجهة نظارهم ان القائد العام اصدر امره بمنع مثل هذه الانتخابات وان القانون الذي اتبع لا ينطبق نصوصه الا تحت الحكم التركي ، كما ان المناطق جميعها لم تكن ممثلة تمثيلا صحيحا (١) بيد ان تقرير اللجنة الاميركية المحايدة يظهر لنا على الاقل امرا واحدا هو انه مهما كان هناك من مخالفات ، فالاكثرية الصارخة كانت بجانب ممثليها في المؤتمر السوري العام الذي تألف من ٨٩ عضوا عن مختلف مناطق سوريا ولم يكن يتمثل فيه عن لبنان الصغير الا منطقة الكورة التي مثلها توفيق مفرج ، واما الاقضية الاربعة فقد تمثلت فيه جميعها وقد حضر المؤتمر عضو ماروني هو جورج حرفوش عن بيروت .

واول ما حققه المؤتمر هو وضع المذكرة (٢ تموز ١٩١٩) التي وجهها الى لجنة الاستفتاء الاميركية وقد جاء فيها :

١) المطالبة بحدود سوريا الطبيعية بما فيها كيليكيا (٢) شمالا وبدون حماية ولا وصاية

٢) حكومة ملكية مدنية نيابية لا مركزية يكون فيصل ملكها

٣) الاحتجاج على المادة ٢٢ من دستور عصبة الامم

٤) طلب المساعدة الفنية من اميركا

٥) طلب المساعدة الفنية من بريطانية في حال رفض اميركا

٦) رفض المساعدة الفرنسية بتاتا

٧) رفض مطالب الصهيونيين

٨) طلب عدم فصل القسم الجنوبي من سوريا والمنطقة الغربية الساحلية التي من جملتها لبنان على ان يكون للبنان الجبل الاستقلال الاداري ضمن اطار الوحدة ، وشددت المذكرة على المحافظة على وحدة البلاد وعدم تجزئتها باي حال كان .

٩) الاستقلال التام للقطر العراقي وعدم ايجاد حواجز اقتصادية معه

١٠) المطالبة بالغاء المعاهدات السرية بشان سورية والوعود الاجنبية باي حال

وكانت اكثرية اعضاء المؤتمر ترغب في رفض اية مساعدة اجنبية ، لكن اضطرارهم الاجابة على سؤال لجنة الاستفتاء القائلة انه في حالة عدم اعطاء الاستقلال لسوريا فاية دولة يفضل السوريون ؟ جعل الاكثرية تتفق على طلب المساعدة الاميركية لعلمهم انه ليس لاميركا مطامع استعمارية. ولكن الملك فيصل كان يرغب عن ذلك ويطالب بالوصاية البريطانية دون غيرها ، وعندما جوبه من قبل بعض الاعضاء ، في اجتماع خاص ،

---

(١) DAVID في الفصل المعنون "انتخابات المؤتمر السوري" ص ٥١ — ٦٣

(٢)

بالرفض التام اخذ يضرب راسه ونفش شعره (١) ثم توصل معهم بعد جهد الى اتفاق على طلب المساعدة الاميركية .

دامت دورة المؤتمر الاولى خمسة اشهر دار عمله فيها حول التهيئة والدعاية لاستقبال لجنة الاستفتاء الاميركية ، وصرّف بعض الامور القليلة الاهمية ، ولم يعد الى الاجتماع الا حين برزت مشكلة جلاء الجيوش البريطانية عن النصف الشمالي من سوريا .

ذهب الامير فيصل الى اوروبا ثانية لعرض قضية سوريا على مؤتمر الصلح ولبحث هذه القضية مع الدول الحليفة ، وفي الوقت الذي كان يتباحث فيه مع لويد جورج توصل الانكليز والفرنسيون الى الاتفاق على تقسيم سوريا وانسحاب الانكليز من جزئها الشمالي ، فحول لويد جورج الامير فيصل الى كليمنصو ، للاتفاق معه ، لاعتقاده بان اتفاقا مباشرا بين السوريين والفرنسيين يعفي الانكليز من تعهداتهم السابقة ، ويطمأن حلفاءهم الفرنسيين (٢) وبالفعل توصل كليمنصو وفيصل الى اتفاق على ان يحتل الافرنسيون القواطع السورية ، ويتركون ارض البقاع حراما ، ونصت الاتفاقية ايضا على ان يتوجه السوريين الى الفرنسيين في طلب المساعدة ، واعتبر هذا الاتفاق على انه موقت .

وما كاد هذا الخبر يصل الى مسامع الشعب حتى اخذ به الهياج ماخذا شديدا لانه اعتبره مقدمة عملية لتقسيم سوريا سياسيا فعاد المؤتمر السوري العام الى الاحتجاج ، واستمع الى بيان القاه الامير زيد المكلف من اخيه للقيام بمهام الحكومة ، فرد عليه المؤتمر بقرار حازم جاء فيه بان "واجب الامة التي يمثلها المؤتمر في امالها ورغائبها ، يقضي عليه بالدفاع عن وحدتها واستقلالها ، تأييدا لرغباتها التي ايدتها وتأمينا لوحدة بلادها المعرضة للتقسيم واستقلالها المعرض للضياع (٣) وانهى قراره هذا باقتراح "اعلان استقلال القطر السوري "استقلالا تاما ليسبق الامور ويضع الاوربيين امام الامر الواقع .

على اثر هذا القرار وتبليغه الى المسؤولين من الحلفاء اضطر الفرنسيون الى العدول عن احتلال الاقضية الثلاثة الواقعة ضمن الاتفاقية ، وهي حاصبيا وراشيا ورياق ، فجلت الجيوش البريطانية عن كل المنطقة الشرقية ، دون ان تحل محلها جيوش افرنسية ، واضطر الامير فيصل الى الاسراع الى سوريا دون ان يوقع اتفاقيته مع كليمنصو ، فاستقبل ببرود زائد وثار الشعب ضده وجرت محاولة لقتله حاولت ان استفهم

---

(١) هذا كلام سعيد حيدر نائب دمشق الان ، وعضو المؤتمر السوري عن بعلبك وسكرتير حزب الاستقلال العربي حينذاك ، في اجتماع معه في دمشق ٢٤/ ١١/ ١٩٤٩ وحب فيصل للانكليز وعمله بوحيهم ظاهر من المذكرة التي ارسلها الى لويد جورج بعد احتلال الفرنسيين لدمشق حيث يقول : "وكتبي التي ارسلتها الى باريس تبرهن على انني كنت ارفض ان اخطو خطوة واحدة بدون استشارتها راجع المذكرة في "الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب "نشرته جريدة الايام بدمشق ١٩٣٦ — ص ١٥٠ .

(٢) انطونيوس — ٣٠١ (٣) الحصري ص ١٠٠

عنها من عدد من شخصيات عصره ، فقيل لي انه سرت اشاعة من هذا النوع ولكن ليس هناك ما يؤكد تدبير مؤامرة منظمة ،

والتحول في سياسة فيصل هذه نحو الفرنسيين وقبوله له معهم باتفاقية "فيصل-كليمنصو" تدل على ان هذا التحول هو نتيجة لرغبة الانكليز في ارضاء الافرنسيين ، وقد يكون لانه وجد دائما اذنا صماء في مطالباته بامان السوريين ، وان ما كان يتصوره من عدل الحلفاء وامانتهم تبدو على اثر مجابهته بالحقيقة . فاراد الحصول على ما يمكن الحصول عليه لكن الامر هو ان رغبة الانكليز في الوصول الى مثل هذا الاتفاق ظاهرة و بيّنه ، ولا يمكن انكارها واخفائها وكذلك رغبة فيصل في الوصاية الاجنبية .

وبالحقيقة فان رغبة السوريين بالوحدة لم تبد واضحة كهذا الوضوح الذي اظهره غضب الشعب العظيم والاحتجاجات الصارخة التي احدثها نشر خبر انسحاب الجيوش البريطانية .

وما كادت هذه الازمة تمر ويستقر المقام بفيصل في سوريا حتى اصدر امره بحل المؤتمر السوري ، فارسل في اول كانون اول ١٩١٩ رسالة الى المؤتمر يعلنه فيها تحبيزه لفكرة المؤتمر السوري بقيام حكومة ـــ ديمقراطية ولكنه يعلنه انه نظرا للحاجة الى الاستقرار حتى يقرر مؤتمر الصلح مصير سوريا ، يطلب بقاء الحكومة بدون المؤتمر السوري (١) وقد فعل فيصل ذلك ارضاء للجنرال غورو الذي كانت فرنسا قد عينته قائدا عاما لقواتها في سوريا .

ولم يعد المؤتمر للانعقاد الا في ٣ اذار ١٩٢٠ على اثر الدعوة التي وجهتها اليه الحكومة السورية ، وهذه هي المرة الاولى التي تظهر فيه الدعوة بصفة رسمية في الجريدة الرسمية "العاصمة (٢) فقد ورد كثير من الاخبار عن المؤتمر في اعداد سابقة في اقسامها غير الرسمية ، اما منذ هذا الحين فقد اصبحت قرارات المؤتمر تدرج في الجريدة الرسمية على اعتبار انه "مجلس تأسيسي" له الصفة التمثيلية الرسمية وفي اول اجتماع له عقده في النادي العربي في الثامن من اذار سنة ١٩٢٠ اعلن المؤتمر الملك فيصل ملكا على سوريا .

ولقد سبق اعلان الاستقلال والملكية هذا بيانا القاه كاتب الامير فيصل الدكتور عن الاحوال العامة وسير المفاوضات في مؤتمر الصلح ، وعلى الاثر اجتمع في اليوم الثاني اعضاء المؤتمر في بلدية دمشق حيث اعلن قرار المؤتمر السوري القاضي باعلان الملك فيصل ملكا على سورية بحدودها الطبيعية ، فوقف الملك على اثر هذا الاعلان وشكر الامة ثم تقدم رجال الدولة للمبايعة فكان الامير زيد في المقدمة ، ثم تلا

(١) DAVID ص ٧٨

(٢) العاصمة عدد ١٠٥

بطريرك الروم الارثوذكس (١) عهدا موقعا عليه من جميع رؤساء الطوائف المسيحية ، وتشكلت في الوقت نفسه اول وزارة برئاسة رضا باشا الركابي وارسلت بلاغات رسمية الى الحلفاء تعلمهم باعلان الاستقلال السوري .

واعلن في اجتماع ماثل عقده زعماء العراق في دمشق في نفس اليوم ، استقلال العراق ووحدته في نفس الوقت ، والمطالبة باعلان الامير عبد الله او اخيه ملكا على العراق وقيام اتحاد اقتصادي بين البلدين وسلياسي .

وثمة امر يثير الاهتمام هو ان ممثلي فرنسا وانكلترا حضرا هذا الاجتماع وقد ارسل الجنرال غورو رسولا مهنئا في اليوم الثاني، الامر الذي يفهم منه ان فرنسا حتى ذلك الحين لم تكن تماني في استقلال سوريا الداخلية تحت حمايتها او وصايتها .

واخر ما عمله المؤتمر هو وضعه لجنه . هيأت مواد الدستور العتيد للحكومة السورية جاء فيه في مواد العمومية :

١) ان حكومة البلاد العربية السورية حكومة ملكية مدنيه نيابية عاصمتها دمشق الشام ودين ملكهـــا الاسلام .

٢) البلاد السورية تتألف من مقاطعات ذات وحدة سياسية لا تقبل التجزئة

٣) المقاطعات مستقلة استقلالا اداريا بمقتضى هذا القانون ويسن المجلس العمومي قانونا خاصا يبين فيه حدود هذه المقاطعات .

٤) لغة الحكومة هي اللغة العربية (٢)

ويقي الدستور في مائة وواحد وخمسون مادة ولكن المؤتمر لم يتم الا درس سبع مواد منها (٣) لان الجيوش الفرنسية كانت قد زحفت على دمشق واحتلتها ويشكّل اعلان المؤتمر السوري العام السوري العلم للملك فيصل على سوريا بيعة قانونية من الوجهة الفقهية لا يمكن التخلي عنها طالما تمت بطريقة دستورية وتمثل رغبة الاكثرية ، لكن عمليا زالت هذه البيعة بخروجه من سوريا .

وتاريخ المؤتمر يرينا صورة عن الصراع الذي قام بين السلطة العسكرية وبين السلطة المدنية ، او بالاحرى بين الاستعمار وبين المطالبة بالاستقلال ، ويرينا هذا الصراع امرا لا بد لنا من تقريره هو

---

(١) وقفت من السيد سعيد حيدر نائب دمشق على ان البطريرك هذا لم يتلو العهد الا بعد ان اخذ شروطا ستة على فيصل باحترام الطوائف المسيحية والمحافظة على حقوقها .

(٢) لائحة القانون الاساسي التي وضعتها لجنة المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق والمقدمة الى هيئة المؤتمر العامة ليتذاكر بها — دمشق المطبعة الحربية ١٩١٩ ص ٢

(٣) الحصري ٢٤٥

ان الامير فيصل لم يكن يعمل لمصلحة البلاد قدر عمله لمصلحة الجلوس على عرشها ، ففي جميع المواقف الصعبة كان يلين مع القوة وكان يتمايل مع الرغبات الانكليزية.وهذا الضعف لا يظهر عند الانسان الا عندما تتهدد مصالحه الشخصية ، فالمؤتمر السوري والشعب السوري كان يرفض رفضا باتا فكرة المساعدة الاجنبية والاستعمار الاجنبي ، اما هو فلم يكن يمانع بها اذا خدمت مصالحة ، وهو لم يدر بالمناداة بالاستقلال الاتحت ضغط الشعب السوري وعندما رأى ان آماله قد تنهار فيما لو تراجع بعد الان .

ج — لجنة الاستفتاء الاميركية :

اقترح فيصل ، كما رأينا في مؤتمر الصلح ان يرسل الحلفاء لجنة تستفتي الشعب السوري في المصير الذي يرغبه فيقرر مؤتمر الصلح على ضوء تقرير هذه اللجنة مصير البلاد وفقا للقاعدة التي وضعها ولسن في مبادئه الاربع عشرة والتي تعترف بحق الشعوب في تقرير مصيرها . وقد لاقى الاقتراح هذا اقبالا عند الرئيس ولسن فتبناه وعقد اجتماعا في الخامس والعشرين من اذار ١٩١٩ خاصا لهذه الغاية ، كان من نتيجته تقرير ارسال لجنة مؤلفة من الدول الاربع الكبرى : بريطانيا اميركا ،فرنسا ، ايطاليا ، لدرس الحالة في سوريا وتقديم تقريرها عنها ، وقد اخذت هذه الدول بالقرار جميعها ظاهرا ، لكن فرنسا التي كانت تخاف الا يكون التقرير بصالحها ، اخذت تعمل لتأخير مجيء اللجنة ، فامتنعت عن ارسال وفدها كما امتنعت انكلترا ايضا في اخر ساعة عندما وجدت ان مهمة اللجنة ستمتد الى فلسطين والعراق (١) ولم يبق الا الوفد الاميركي الذي اصر الرئيس ولسن على ارساله ، فوصل يافا في العاشر من حزيران ، بعد ان سبقته حملة دعائية قوية للتقيد بمقررات المؤتمر السوري العام التي قدمها المؤتمر الى اللجنة والتي اتينا عليها آنفا . ولكن اللجنة لم تأخذ بمقررات المؤتمر كأنها صادرة عن ممثلي الشعب (٢) بل فضلت ان تاخذ برأي الشعب مباشرة .

واحسن وصف لما قامت به اللجنة نفسها ورد في تقريرها المفصل . وقد ارفق التقرير خريطة توضح حدود المناطق العسكرية وحدود (فلسطين الكبرى) التي يطلبها اليهود ، و (لبنان الكبير) الذي يطلبه اللبنانيون .

كانت الطريقة التي اتبعتها اللجنة هو ان تزور المدن وتجتمع بالوجهاء ورؤساء الاديان والزعماء السياسيين وتقبل منهم عرائض يوضحون بها مطالبهم . وقد بلغ مجموع العرائض التي استلمتها ١٨٧٣

---

(١) انطونيوس ٢٩٤

(٢) DAVID ٧٠

عريضة منها ٢٦٠ عريضة من المنطقة الجنوبية و ١١٥٧ من المنطقة الشرقية و١٤٦ من المنطقة الغربية والباقي من مصادر مختلفة ، وقد بلغ عدد التواقيع عليها ٩١٠٧٩ توقيعا يشك في صحة عدد منها ، فكانت تحتوي على برامج ثلاث ، منها برنامجان يشددان على طلب الوحدة السورية وواحد يعارضها وهو اللبناني . واما البرنامج اللبناني فلم يكن هناك اتفاق على تفاصيله ، فالقسم الاكبر من الشعب يريد استقلال لبنان الكبير ، تحت الوصاية الفرنسية ، وقسم اخر يريد استقلال لبنان استقلالا ناجزا وثمة فريق اخر يريده مستقلا اداريا ضمن الوحدة السورية .

ولقد نالت سوريا المتحدة اكبر نسبة من العرائض اذ بلغ عددها ١٥٠٠ عريضة وهي ٨٠/٤ بالمائة من مجموع العرائض ، وسوريا المتحدة هنا يدخل فيها كيليكيا والصحراء وفلسطين وقد وافق على هذه الوحدة اكثر المسيحيين في فلسطين والمنطقة الغربية وفريق من الارثوذكس والبروتستنت في بيروت ، وقد قدمت الطائفة الارثوذكسية عريضة للجنة بهذا المعنى (١) وقد كانت نسبة طلب الاستقلال الناجز ٧٥/٤ بالمئة من مجموع العرائض وفي هذه العرائض اجمالا طلب لاستقلال العراق ، وقليل منها يحتوي على المطالبة باستقلال البلدان العربية .

وقد وجدت اللجنة ان طلب (سورية المتحدة) باستقلالها الناجز ورفض المساعدة الافرنسية وعدم قبول البرنامج الصهيوني ، هو ما ترغب به اكثرية الشعب وان هناك ادلة كثيرة ان البرنامج الذي وضعه المؤتمر السوري يعبّر عن افكار القوم في سوريا اتم التعبير (٢) فقدمت اللجنة تقريرها على ضوء هذه الاعتبارات وفيه اقترحت :

١ــ ان تكون الدولة الوصية على سوريا دولة غير مستعمرة بالمعنى المفهوم ، بل تكون غايتها خدمة الشعب السوري وترقيته ، ويجب ان تكون مدة الوصاية محدودة ، على ان تتولى هذه الدولة خلال هذه المدة تدريب الشعب السوري على الحكم الذاتي وتسمح بالحرية الدينية والمحافظة على حقوق الاقليات .

٢ــ تشير اللجنة بالمحافظة على الوحدة السورية حسب رغائب السواد الاعظم كما تدل على ذلك عرائضهم لان البلاد المشار اليها محدودة وعدد سكانها قليل جدا ووحدتها الجنسية والجغرافية والاقتصادية واللغوية واضحة بيّنة لا تحتمل انشاء حكومات مستقلة ضمن حدودها ، وتقترح الا تكون كيليكيا ضمن هذه الوحدة لاختلافها في اللغة وكذلك ان يعطى لبنان استقلالا اداريا كما يطلب برنامج دمشق على قاعدة

---

(١) بيهم ، محمد جميل ، قوافل العروبة ومواكبها ، بيروت ١٩٥٠ ج ٢ ص ٣٩ ونسخة العريضة موجودة عند جرجي نقولا باز

(٢) راجع نص التقرير بكامله في سعيد ، ج ٢ ص ٥١ ــ ٨٣ والجملة الاخيرة ص ٦٨ .

اللامركزية ، لانه من الافيد للبنان ا ن يكون ضمن سوريا المتحدة مما لو كان خارجها منفردا لوحدة اذ يكون شريكا لها في كل منافعها و مصالحها ا لحيوية ومثل هذا الكلام ينطبق على فلسطين .

٣ــ وتقترح اللجنة وضع سوريا تحت وصاية دولة لتأمين الوحدة ولا ترى تقسيم ادارة المقاطعات ا لسورية بين عدة وصيات .

٤ــ تشير اللجنة بان يكون الامير فيصل رئيسا لحكومة سوريا المتحدة ، بناء على طلب المؤتمر السوري ولان الامير فيصل وصل الى هذه السلطة وصولا طبيعيا ولانه ابن شريف مكة ، ولما قام به من اعمال ضد الاتراك في الثورة العربية .

٥ــ تشير اللجنة بوجوب تنقيح البرنامج الصهيوني لفلسطين تنقيحا كبيرا لا سيما مهاجرة اليهود غير المحدودة التي ترمي الى جعل فلسطين بلادا يهودية وان تنضم فلسطين الى سوريا المتحدة ، ووضع الاماكن المقدسة تحت ادارة لجنة دولية دينية تحت اشراف الدولة الوصية وجمعية الامم ، يكون لليهود فيها عضو .

٦ــ واقترحت اللجنة ان تكون الوصاية لاميركا وفي حالة تعذر اميركا عن قبول الوصاية فان اللجنة تقترح ان تعود هذه الوصاية الى بريطانية بالرغم من ان الشعب يرغب عنها او يتخوف منها لاساليبها الاستعمارية وانه في حالة تشبث فرنسا بمصالحها في سوريا يمكن عمل تسوية او ترتيب بوضع لبنان الصغير تحت وصايتها بالانفراد عن سوريا (١)

وقد قدمت هذه الاقتراحات الى مؤتمر الصلح فلم ياخذ بها ولم يرجع اليها حتى في وشنطن التي كان ولسن قد تركها عند انتهاء مدته ، وفي خلال المدة التي انقضت بين تقديمها ونشرها لاول مرة كانت سوريا قد مزقت الى اجزاء وكان مجلس الحلفاء الاعلى قد قرر في الخامس والعشرين من ابريل ١٩٢٠ في مؤتمر سان ريمو تقسيم سوريا والعراق ووضعهما تحت الانتداب البريطاني والفرنسي وفقا للاتفاقات المعقودة بين الطرفين ومما يتماشى ومصلحتهما .

د ــ معركة ميسلون ونتائجهـــا :

كان من نتيجة اعلان مقررات سان ريمو في الخامس من شهر ايار ، ان ثار الشعب وصخب واخذ يطالب بتاليف جيش قوي لمنع الدولة المنتدبة من دخول المنطقة الشرقية . ولم يكن فيصل يرغب في القتال ، لكنه

---

(١) اقتراحات اللجنة هذه . منشورة في كتاب "اندو نيوس" يقظة العرب" كما ظهرت لاول مرة في مجلة Editor & publisher نيويورك ، في العدد الصادر في الثاني من كانون الاول سنة ١٩٢٢ .

لكنه امام الحاح السوريين وجد نفسه مضطرا الى مجاراة التيار الجارف، وكان يأمل في انه لا يزال بامكانه اقناع الدول الاوروبية بعدالة القضية السورية ، وانه لو سافر الى اوروبا لتوصل الى حل مرضٍ. وفي الوقت الذي اخذ يتهيأ فيه للسفر في شهر تموز ارسل الى الجنرال غورو مع فوزي الصعيد علما يخبره فيه انه مزمع السفر الى اوروبا للاتفاق مباشرة مع الدول العربية ، فيرجو البحث معه لوضع الخطط لهذه الرحلة لكن الجنرال ابى الدخول معه في تفاصيل البحث واخبره بانه اعد انذارًا رسميًا سيرسله بعد ايام . وانه لن يسمح للملك فيصل بالسفر الى اوروبا ما لم يقبل الشروط التي يتضمنها الانذار (١) الذي كان يحتوي على :

١ــ قبول الانتداب الفرنسي

٢ــ وضع سكة حديد رياق ــ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي

٣ــ الغاء التجنيد الاجباري وتسريح المجندين

٤ــ قبول الاوراق التي اصدرها البنك السوري

٥ــ معاقبة المحرمين الذين استرسلوا في معاداة فرنسا .

ومن البيّن ان هذه الشروط كانت تعني امرا واحدا، اما قبول السوريين بالانتداب الفرنسي او الحرب .

كان السوريون قد توقعوا بعد قرار مؤتمر سان ريمو حدوث شيء من هذا النوع فاستعدوا له ، لكن استعدادهم لم يكن كافيا لانه لم يكن منظما ، وامام هذا الواقع لم يكن هناك بد للملك والحكومة من ان تقبل الانذار في موعد انتهائه ((٢) الامر الذي اثار سخط الجماهير وهياجها واتهام بعضها لفيصل بالخيانة (٣) وما كاد موعد الانذار ينتهي حتى ان زحفت الجيوش الفرنسية على الرغم من قبول الحكومة بالانذار وارسالها وفدا للمفاوضة ، وسارت دون ان تجد مقاومة حتى وصلت خان ميسلون في الرابع والعشرين من تموز فنشبت بينها وبين الجيش والمتطوعة السوريين القليلي العدد المعركة الشهيرة التي استشهد فيها القائد السوري يوسف العظمه ومعه عدد كبير من السوريين ، وتمكن بعدها الافرنسيون من الدخول الى العاصمة السورية دون اي عناء، بعد ان كانت الفوضى قد سادت فيها نتيجة للنزاع بين الحكومة والمؤتمر السوري الذي قرر في جلسته الاخيرة الحرب مهما كلف الامر بعد ان احس بعزم الملك فيصل ، فاعتبر الحكومة محلوله اذ قبلت بالانتداب الفرنسي (٤)

من الممكن ان ميسلون كانت فاشلة من الناحية العسكرية لكن ليس هنالك انجح منها في عصرنا الحاضر معنويا ، فهي وقفة الشعب وقفة العز والكرامة ، وهي يوم البطولة العظيم في تاريخ سوريا دون منازع.

---

(١) الحصري ١٠٤

(٢) الحصري ١١٥

(٣) سعيد ج ٢ ص ١٨٦ الجريدة عدد ٣٣

(٤) الحصري ١٥٢

ما كادت الاخبار تصل الى الملك فيصل عن الانكسار وعن تصميم الافرنسيين على عزله اذ كانوا قد سلموه امرا بمغادرة دمشق (١) حتى ركب القطار الى درعا ومنها الى حيفا حيث ابحر الى ايطاليا ، ثم الى انكلترا ولم يعد الا بعد ان طلب منه تولي عرش العراق .

وعلى اثر خروجه من سوريا طلب بعض السوريين من البيت الهاشمي من ينوب عن فيصل (٢) في تحمل مسؤولية الحكم ، فاستغنم الامير عبد الله اخو فيصل الفرصة وتوجه الى شرقي الاردن مع عدد من الانصار فوصلها في ٢١ ـ ٢ سنة ١٩٢٠ وحل في معان حيث ارسل نداء من هناك للسوريين يعلمهم فيه انه قدم لنجدتهم واجلاء المعتدين عنهم ، ومن ثم كتب للنواهي بانه نائب ملك سوريا ودعى اعضاء المؤتمر السوري العام للحضور الى معان ، وكذلك ضباط الجيش السوري فلم يلب النداء الا القليلون وقد اشترط عليه الاخرون دفع مرتباتهم اذا عملوا على مناصرته ، وتقدم من معان الى عمان وتولى الحكم هناك دون ممانعة البريطانيين ، ولكن لم يمض طويل وقت حتى توجه الى القدس حيث قابل المعتمد البريطاني واتفق معه ان يبقى في شرق الاردن وحدها ويسير بالناس سيرة تبتعد عن تحدي الفرنسيين (٣) وانه اذا تم هذا يؤمل ان تعيد فرنسا النظر في الامر ، وربما تم الاتفاق على اعادتهم الى الشام .

وسافر الامير عبد الله بعد ذلك الى بريطانيا حيث اجتمع بالمسؤولين هناك وعاد ومعه وعد باعلان استقلال الاردن وتوليه امارتها وقد اعلن هذا الاستقلال بالفعل في ١١ ايار سنة ١٩٢٣ واعترفت به الدول .

هـ ـ القضية اللبنانية :

كانت اكثرية الموارنة كما رأينا ، تطلب استقلال لبنان وتكبيره على اعتبار ان له حدودا تاريخية وجغرافية معينة ، وقد نشطت الدعاية لهذا المطلب خصوصا في الفترة التي ضعف فيها امل الافرنسيين بالحصول على سوريا باجمعها ليكون لهم من لبنان نقطة ارتكاز ، اذ انهم كانوا مصممين على البقاء في سوريا مهما كلف الامر ، نعرف هذا من التصريحات العديدة التي القاها المسؤولون الفرنسيون في عدة اماكن من المنطقة الغربية قبل احتلالهم لمنطقة الشرقية (٤) ومن تصاريح ميلران رئيس الوزارة الجديد الذي اعتبر سوريا كمراكش ، فكان لخطابه الوقع السيء في كل انحاء البلاد ، وردت عليه حتى

---

(١) عبد الله بن الحسين مذكراتي ـ القدس ١٩٤٥ ص ١٦٨ ولم يذكر من هم هذا البعض .

(٢) مذكراتي ص ١٨٠

(٣) راجع جريدة البشير في عددها الصادر في ٢٠ اذار ١٩٢٠ وفيه تصريح للكولونيل نيجر يقول فيه ان فرنسا هي مقيمة في هذه البلاد وستبقى فيها رغما عن كل ما يقوله فريق اخر

(٤) الجريدة عدد ١٤ .

الجرائد الفرنسية وتسائل بعضها خصوصا الجرائد الاشتراكية فيما اذا كانت الحكومة تعرف شيئا عن الحالة في سوريـــا (١)

اجتمع مجلس ادارة لبنان في الثاني من ايار ١٩١٩ واتخذ قرارا طالب فيه المناداة باستقلال لبنان السياسي والاداري بحدوده التاريخية والجغرافية وجعل حكومته ديمقراطية مؤسسة على الحرية والاخاء والمساواة مع حفظ حقوق الاقلية وترك تقرير العلاقات بين لبنان وسوريا الى الحكومة اللبنانية والافرنسية وتقديم هذا القرار الى مؤتمر الصلح. وبالفعل حمل هذا القرار البطريرك الدماروني الياس الحويك الى باريس بينما كان الامير فيصل لا يزال هناك في رحلته الثانية (٢) فاجتمع بالسيد كليمنصو رئيس الوزارة وباحثه واخذ منه عهدا برسالة مؤرخة في العاشر من ت٢ سنة ١٩١٩ وفيها اشاده بالصداقة الفرنسية اللبنانية، واتفاق تقاليد فرنسا الحرة مع رغبة اللبنانيين في المحافظة على حكومة ذاتية مستقلة وترك تعيين الحدود الى ما بعد تحديد امر الوصاية على سورية مع العلم ان فرنسا ستنظر عند تحديد تخوم لبنان في ضرورة تخويل الجبل الاراضي السهلية والمرافئ البحرية اللازمة لعمرانه، وقد كان لهذه الرسالة وقعها الحسن لدى الاوساط المتفرنسة واعتبرها اللبنانيون نصرا باهرا.

بيد ان الجيوش الفرنسية التي نزلت للاحتلال كانت متمرنة في المدرسة المراكشية ولا تعرف الا اساليبها فكانت معاملتها الوحشية للبنانيين (٣) معاملة اساءت الى سمعة "الام الحنون" ولم يمض طويل وقت حتى ادرك الكثيرون من اللبنانيين ان فرنسا الاستعمارية غير فرنسا الثورة الفرنسية.

وعلى اثر اعلان الاستقلال السوري وبيعة الملك فيصل او تنكر الفرنسيين لهذه البيعة، اجتمع مجلس ادارة لبنان في الثامن والعشرين من اذار في بعبدا بعد ان ارسل في طلب الوفود من اتحاد لبنان وعقد اجتماعا تمثلت فيه المناطق اللبنانية بعضو عن كل قضاء وبعد المداولة تقرر:

١ــ اعلان استقلال لبنان الكبير بمساعدة فرنسا

٢ــ الاحتجاج على ما جرى في دمشق بما يتعلق باستقلال لبنان

٣ــ الاحتجاج على اللبنانيين الذين ادعوا انهم ممثلو لبنان في المؤتمر السوري وطلب محاكمتهم

٤ــ البحث في درس القانون الاساسي

٥ــ شكل العلم ونشره على مراكز الحكومة اللبنانية وقد تقرر السير بتنفيذ البنود الثلاثة الاولى، الامر الذي يوضح لنا ان هذا الاجتماع لم يكن الا بوحي فرنسا خصوصا وقد حضره القومندان لابرو حاكم لبنان (٤) وقد ارسل المؤتمر الى الجنرال غورو احتجاجا بالفعل على اعلان الاستقلال السوري ومساسه

---

(١) الجريدة ٣ عدد ١٤ (٢) راجع تفاصيل هذه الرحلة في المجلة الفينيقية عدد ك١/ ٩١٩ ص ٢٤٢ ــ ٢٤٦ (٣) Comte R. de Soutet-Brion - Comment la France ص ٢٢٦

(٤) جريدة البشير عدد ٢٤ اذار ١٩٢٢.

بلبنان وكذلك فعل البطريرك الماروني .

وهذا الاعلان الشكلي ، لم يكن له اى اثر بالفعل ، فقد ادرك اعضاء مجلس الادارة مقدار احتقار الفرنسيين لهم ، كما ان قائد الجند اللبناني سعيد البستاني لم يكن يلاقي اقل احترام من زميله الافرنسي ، فقرر رأى سبعة من اعضاء المجلس على الاتفاق مع الحكومة السورية بطلب الاستقلال التام للبنان على ان يقوم بذلك اعضاء مجلس الادارة ويسافروا بالذات الى دمشق ومنها الى حيفا فباريس . وقد تعهد اللبنانيون الراغبون في استقلال لبنان دون فرنسا بدفع مصاريف رحلتهم . وهذه الرغبة اوضحها في المذكرات التي نشرها احد اعضاء المؤتمر الياس الحويك في جريدة البيرق ((١) وفي تصريح شفوى اخذته من احمد الزين (٢) ان الاعضاء كانوا يرغبون في استقلال لبنان الادارى فقط ضمن الوحدة السورية ، والاستغناء عن المساعدة الفرنسية ، وقد قال ان هذه المعلومات متأكد منها لانه سمعها مرات عديده من السيد سليمان كنعان عضو مجلس الادارة وواحد من اعضائه السبعة البارزين حينذاك . فاذا كانت هذه المعلومات صحيحة . فيعني ذلك ان البيان الذى اصدره مجلس الادارة في وقته واذاعه على الراى العام (٣) وفيه طلب استقلال لبنان التام المطلق ، وحياده السياسي واعادة المسلوخ منه سابقا بموجب اتفاق يتم بينه وبين سوريا ، وسعي الفريقين لحل مسائلهما الاقتصادية لوحدهما ، ولتصديق هذه البنود لدى الدول ، كل هذه كانت تعني امرا واحدا هو مقدمة لاعلان الاستقلال الادارى ضمن الوحدة السورية .

لكن الفرنسيون تمكنوا من القبض على اعضاء مجلس الادارة وهم في طريقهم الى دمشق وحاكموهم محاكمة كبرى واتهموهم بانهم ارتشوا بمبلغ ٤٢ الف ليرة استرلينية ، فحكموا عليهم بالنفي مدات تتراوح بين العشر سنوات و٦ سنوات ودفع غرامات تتراوح بين ٢٨٠٠ ليرة و٦٠٠ ليرة . واذاع على الاثر الجنرال غورو بيانا جاء فيه : ان بعض اخوانكم الذين لا يستحقون هذا الاسم ارادوا ان يضموا الى تاريخكم المجيد الشاهد لكم بالوطنية والوفاء صحيفة عار وخيانة اذ انهم باعوا ضمائرهم بيد السلم للحكومة التي كان يعتبرونها بالامس عدوة لبلادهم (٤) فليحي لبنان فلتحي فرنسا ، فليحى علمنا المشترك ، وصدر تصريح ينص على ان بروتوكول لبنان قد حصر صلاحية المجلس في (١) استقلال لبنان (٢) اعادته الى حدوده الطبيعية (٣) وصاية فرنسا . وقد قام المجلس بمهمته بكل دقة ، ولكنه في غضون المدة الاخيرة تآمر بعض اعضائه على نقض

---

(١) البيرق في الاعداد ١٦٦٥ وما بعدها كل اثنين تحت عنوان (ذكريات من باريس)

(٢) في اجتماع مع احمد عارف الزين احد اعضاء المؤتمر السورى العام عن صيدا في ٢١/ ١٢/ ٤٩

(٣) صورة القرار الاصلي محفوظة عند السيد بشاره الخورى رئيس الجمهورية اللبنانية

(٤) الجريدة عدد ١٠ .—

على نقض ما ينوى قبلا ، فتركوا مراكزهم وحاولوا التوجه الى دمشق لمسائل لا علاقة لها قط مع نسيان نادبيهم ، وهي مضرة بمصالح البلاد (١)

وهذه القضية ان دلت على شيء ، فانها تدل على ان الانتداب الفرنسي فشل في نقطة ارتكازه الاولى ، وان اساليبه كانت اساليب جد رجعية لا تتفق والمهمة التي اوكل اليه بها ، وان اللبنانيين المسيحيين ادركوا انه لأشرف لهم واعز الاتفاق مع ابناء وطنهم المسلمين من الاتفاق مع الفرنسيين المسيحيين ، لقد كانت هذه القضية ، قضية انتصار القومية على العاطفة الطائفية .

ولم يمض طويل وقت حتى اعلن الجنرال في حفل كبير اعلان استقلال لبنان "في الاول من شهر ايلول ١٢٠ حضره البطريرك الماروني والاوجه اللبنانية والقى خطابا جاء فيه "انادي بدولة لبنان "لبنان الكبير" واحييه باسم حكومة الجمهورية الفرنسية متجلببا بالقوة والعظمة ، وجاء ايضا "اولئك الجنود (يعني الفرنسيين) هم عرابو استقلالكم ، فلا تنسوا ان دم فرنسا الكريم اهرق من اجلكم كما اهرق من اجل كثيرين غيركم "

وهذا الخطاب الذي قبله اللبنانيون بلبتسامات عريضة يعبّر عن روح فرنسا الاستعمارية وعن سلطانها التي فرضته على سوريا وفي القلب منها رهبة وفي العين دمعة .

وهكذا اعلن انفصال لبنان الكبير عن سوريا بدون رضا اكثر اهله ، واحتلت الجيوش الفرنسية دمشق والبريطانية فلسطين وشرقي الاردن والعراق حيث شبت ثورة هائلة دامت حوالة السنة حتى اعلن الاستقلال العراقي تحت انتداب بريطانيا بانتصار عظيم للعراقيين .

٣- التيارات الفكرية السياسية المعاصرة:

لا بد لنا قبل الانتقال الى البحث عن المساعي العملية والنظرية لاعادة الوحدة السياسية للبلاد السورية من ان ننتحي بنظرنا ناحية التيارات الفكرية التي رافقت الحركات السياسية الاخيرة ، وننظر في ماهيتها واتجاهاتها ، ليس لانها تمثل لنا العقلية التي رافقت هذه الحركات ، بل لانها تمثل لنا الارتكازات الفكرية التي قامت عليها فيما بعد الحركات السياسية والفكرية التالية .

لن نتناول في هذا البحث التيارات الفكرية من حيث علاقتها بالنظريات السياسية في الحكم والمجتمع لأنه لا وجود لها ، انما سننظر الى ما له علاقة بالناحية القومية . فالوعي في هذا العصر كان قد تقدم الى درجة اصبح معها من الضروري ، ربط المصير القومي بالناحية التاريخية ، فقد اخذت بعض الابحاث تظهر بكثرة حول الاصول السورية وامكانية الاستقلال على اساس هذه الاصول . فنشأ اول ما نشأ فكرة ربط التاريخ

---

(١) جريدة البشير عددها الصادر في ١٧ تموز سنة ١٩٢٠

اللبناني بالتاريخ الفنيقي ، اي ان تاريخ فينيقية هو تاريخ لبنان ، وان الشعب اللبناني يفاخر باصله هذا ويستمد الفضل من كريم انسابه فعز فينيقيه وامجادها تجسدت في لبنان (١) وقد سبق مثل هذه النظره قول الى ان بعض الموارنة في لبنان هم من بقايا الفينقيين الذين اعتصموا في الجبال اللبنانية وحافظوا على تقاليدهم واديانهم نتيجة هذا الاعتصام مدة طويلة الى ان جاء الموارنة بعد اضطهادهم في سوريا الثانية والتجاؤا الى الجبال اللبنانية فاعتنق هؤلاء المارونية (٢) فهذه النظرة دون اعتبار لصحتها التاريخية المجردة ، لا شك تعني ان بعض اللبنانيين اخذوا يحاولون البحث عن قوميه خاصة او عن ميزه فريده يدعمون بها مطالبتهم بالاستقلال عن سوريا . ففي المذكرة التي قدمها البطريرك الماروني الى مؤتمر الصلح يبين فيها ان استقلال لبنان لا يعني مجرد استقلاله عن تركيا انما عن سوريا ايضا . فاللبنانيون دون الرجوع الى اجدادهم الفينقيين كانوا يؤلفون كيانا قوميا يختلف عن الكيانات المجاورة ان بلغته او علاقاته او ميوله او ثقافته الغربية ، فاللغة العربية لم تتمكن الا بعد ٤٠٠ سنة من الفتح العربي على التغلغل في لبنان ، حيث لا تزال المناطق العديده منه تحتفظ بلهجة خاصة تكفي لترف عن اللغة العربية كل صفة قومية كما ان هناك اختلافا بيّنا في الحضارة بين سوريا ولبنان ففي الاولى تنذر الثقافة الاوروبية الا في المدن الكبرى وتكثر الحياة البدوية بينما لبنان يكوّن المركز الرئيسي للثقافة الغربية (٣) ورافق هذه الدعوة عدد من الكتب والمقالات في المجلات ، فصدر من الكتب ليوسف السودا "في سبيل لبنان" وهو بحث تاريخي عن لبنان من العهد الفنيقي الى العصر الفرنسي ، مع فصل خاص عن علاقة لبنان بفرنسا وابحاث تختلف في جغرافية لبنان واقتصادياته وينتهي البحث عن علاقة لبنان بسوريا فيقول "انه خير لسوريا ذاتها ان تصادق لبنان مستقلا من ان تدغمه بها سواء مرغما او راضيا . وصدر كتاب اخر لاوغست باشا اديب رئيس جمعية الاتحاد اللبناني في القاهرة وهي الجمعية الوحيدة اللبنانية التي كانت تناهض اي استعمار وتطالب باستقلال لبنان الناجز ، فبعد ان يتعرض الكتاب الى جغرافية لبنان ويقول انه جبل في سوريا الوسطى (٤) وبعد ان يعرض عنه لمحة تاريخية يتقدم الى البحث في مصير لبنان والحلول الممكن بحثها وهي الضم او الحماية مع بقاء لبنان مستقلا استقلالا اداريا واسع النطاق او ضيقه ، او ادماج لبنان بسوريا ، بحيث تجعل ولايات متحالفه واخيرا الاستقلال ، فيرفض الضم كما يرفض الحماية لانها تقهقر في طريق الحرية ، واما الادماج مع سوريا فلا يرضى به اللبناني لانه يرفض كل الرفض ان يكون

---

(١) يوسف السودا — في سبيل لبنان (مصر ١٩١٩) ص ١٥ و ٢٥

(٢) دريان ، المطران يوسف ، نبذة تاريخية ص ٣٠

(٣) La Revue phenicienne عدد كانون اول ١٩١٩ ص ٢٣٦ × ٢٤١

(٤) اديب اوغست باشا — لبنان بعد الحرب (مصر ١٩١٩) ص ٩٠

تابعا لحكومة ومجالس مركزية تسود فيها اكثرية سورية لا تربطه بها رابطة الجنس والتقاليد ولا رابطة العواطف والمصالح ويؤكد استقلال لبنان ويقترح له دستورا ديمقراطيا واعادة ما فقد منه (١)

ومع هذه الدعوة الى الفينقية والميزات الفارقة صدرت عدة كتب عن علاقة فرنسا بلبنان ، منها كتاب رينيه ويستهلبير قنصل فرنسا في بيروت (٢) وكتاب عبد الله باشا صغير في نفس الموضوع (٣) وكلها تشير الى هذه التقاليد العريقة في القدم التي تربط فرنسا بلبنان . ومن الواضح ان هذا الربط بين الفينقية واللبنانية اخذ صفة المسيحية التي هي اقدم من الاسلام وبالتالي تربط لبنان المسيحي بتراث يمكن ان يعتبره المسيحيون كتراث قومي .

ومن الذين عملوا في الحقل الفينقي ودرسوا تاريخهم دراسة واسعة الاستاذ شارل قرم صاحب "المجلة الفينقية" (٤) وهو يعتقد ان الفينقيين هم للبنانيين اجداد كما يقول الافرنسيون اليوم "اجدادنا الغاليون" منه لسعد معد سلسقه nos "والطليان اجدادنا الرومان مع انه من المفهوم ان اجداد الفرنسيين والايطاليين ليسوا من اصل واحد او نسل واحد . والفينقية لا تمثل سوى مسألة معنوية لان الفينقيين وهم في الاصل الكنعانيون الذين انتشروا من فلسطين الى ساحل شمالا لم ينحصروا في المنطقة اللبنانية ، كما ان المسيحيين اللبنانيين هم لاجئون الى الاراضي اللبنانية ، بينما مسلمي صور وصيدا هم ولا شك من اصل فينقي خالص . فالفينقية ليس لها علاقة دينية او صفة دينيه وهي بطبيعة امرها متقدمة على المسيحية والاسلام (٥) غير انه لا يمكننا ان ننسى ان جميع اصحاب هذه النظريات من المسيحيين وان تكن دعوتهم هذه ليس لها الصفة القومية الشاملة ، انما هي محاولة لتغطية قضية دينية بقضية قومية في عصر اخذ فيه الوعي القومي يفرض نفسه على الحياة العامة والسياسية، وثمة مظهر اخر لتجسيد هذه الفكرة عدا المطالبة بدوله لها ، هو تأليف الاحزاب شبه عقائدية من اجلها . فعدا عن جمعية الاتحاد اللبناني ، ظهر حزب اسمه "الحزب الوطني اللبناني (٦) برئاسة حبيب البستاني في مصر يدعو الى فصل لبنان عن سوريا وطلب الاستقلال له وجعله امارة وراثية . وهذا الهدف الاخير هو الميزة الوحيدة الدينة في برنامج هذا الحزب ، على الرغم من ان فكرة الامير الحاكم لم تكن بالحديثة .

وقد اخذت الفكرة هذه (الفينيقية) تتطور وتبنتها الحكومة اللبنانية تدريجيا . تحت تاثير الجزويتيه ، واضحت عند بعض اللبنانيين نظرة جديده الى الاداب او القومية) تستمد وحيها من الفن الكلاسيكي او المتوسطي ، وهو في نظرها الفن القديم النقي من الاثر العربي (٧)

---

(١) المصدر نفسه — ص ١٠٨ — ١٢٤ (٢) R. Ristelhueber - Les Traditions françaises au Liban (٣) Abdallah Sfeir

(٤) Trad. françaises en Syrie et au Liban صور من "المجلة الفينقية" ستة اعداد سنة ١٩١٩ ثم توقفت عن الصدور ولم تكن ابحاثها مقتصرة على الفينقيين انما كانت مجلة تهتم بالشؤون اللبنانية عامة .

(٥) من حديث مع الاستاذ قرم في ١٢/١/٩٥٠ (٦) le parti National Libanais راجع عنه كتاب Liban d'abord (بيروت ١٩٢٢) (٧) راجع مقدمة (قدموس) لسعيد عقل .

اما الفكرة الثانية التي اخذت اسسها تبرز بوضوح وارتكازاتها تقوم ، هي الفكرة السورية القائمة على كون سورية للسوريين وانها وحدة جغرافية وتاريخية وعرقية ، وبالتالي وحدة سياسية او يجب ان تكون وحدة سياسية والشيء الذي ارهف حس هذه الفكرة هو ولاشك تقسيم الحلفاء لسوريا الى دويلات على الرغم من مطالبة الشعب بوحدتها ، الامر الذي ادرك معه السوريون اكثر من كل مرة الروابط الاجتماعية والروحية والمصلحية التي تربط بينهم وتجعلهم وحدة اجتماعية على الرغم من عديد طوائفهم واتجاهاتهم . وللدعوة السورية بالحقيقة وجهان ، فان اتفق الاكثرية على ان سوريا للسوريين سياسيا ، فان ثمة قضية اخذت تبرز الى اذهان هؤلاء السوريين ، هل السوريون عرب ام لا ؟ هل هم يفترقون عن هؤلاء العرب الساكنين الجزيرة العربية ام هم نفس الشعب ، والمجتمع ، لقد قال فريق ان السوريين عرب اصلا ولغة . وقال اخرون ان السوريين اصول مختلفة وان العرب جزء قليل منهم ، وان للسوريين حقيقة خاصة منفصلة لا يمتون معه للعرب الا بقليل الصلة — ولسوء الحظ كان القائلون بالسورية في هذه الفترة المسيحيون والقائلون بالعربية اكثرية محمدية ودافع الاثنين طائفي ، حتى ان المحاولات العلمية القليلة التي جرت كانت نتيجة دافع من هذا النوع .

واول مرجع طالعنا في هذه الفترة سلسلة من المقالات نشرتها الجرائد المختلفة في ذلك الحين حول هذا الموضوع ، ومثل ذلك مقال نشرته جريدة "العاصمة" وهي جريدة الحكومة السورية الرسمية في عددها الثامن والاربعين تحت عنوان "قوميتنا العربية" ردا على مقال للسوريين القائلين بان الدماء التي تجول في عروقهم هي دماء غريبة عن الدم العربي . فردت عليهم جريدة "المفيد" تحت عنوان "حياتنا القومية" وجريدة الاستقلال العربي "نحن عرب ليحي العرب" وحاول كاتب المقال في "العاصمة" ان يبرهن علميا ان الفينقيين اصلهم من جنوب جزيرة العرب وقد جاؤا منها الى هذه الديار في القرن السادس والعشرين ق . م . حسب قول هيرودوتس، كما ان الاراميين وان جاؤا من العراق فقد قدموا اليها من جزيرة العرب، كما تدل على ذلك اقوال بيروسوس ورولنسون وسمث ويني ، وان ما يربط الساميين هو لغتهم القديمة المشتركة التي لم يتركوا استعمالها الا اضطرارا تحت تاثير عوامل زمانية ومكانية . وبما ان تعيين الجنسية (١) يتوقف على اعتبار اللغة ومسقط الراس ليس الا (وبما ان اللغة العربية هي وارثة مجد السامية واصل الراس ليس الا)، وبما ان اللغة العربية هي وارثة مجد السامية ، واصل الساميين من الجزيرة العربية ، فان السوريين بطبيعة كونهم ساميين ، عرب، ولن نبحث نحن في هذا الفصل في منطق هذه النظرية ، ولا في ارتكازاتها العلمية انما الذي ينبغي ان نقوله هو ان هذه المحاولات الشبه العلمية كانت قائمة في العصر الذي نؤرخه ، وان ارتكازاتها اللاطائفية كانت تقوم على هذا النوع من التفكير

---

(١) يعني القومية

الذى لم يزل اثره الى الان عند الكثيرين .

ومحاولات القائلين بسورية للسوريين كانت اوسع مدى واكثر عددا ، واهمها محاولة لم يقم بها سورى انما بلجيكي يسوعي هو الاب لامنس في محاضرة القاها في الاسكندرية في ١٢ مارس ١٩١٩ بناء على دعوة جمعية نسائية سورية هناك ، تحت عنوان "التطور التاريخي للقومية السورية (١) ففي نظر الاب لامنس ان القومية ترتكز على اسس اربعه هي الوحدة الجغرافية والتاريخية واللغوية والعرقية ، وان تفاعلها معا هو ما ينتج القومية ،فيبتدئ بالوحدة الجغرافية واثرها ، ومن ثم بالوحدة العرقية وما تتركه هذه من اثر في تنمية الشعور القومي وينتقل الى اللغة ويبين ضرورة وحدتها واثرها في التفكير والعقلية . وينتهي الفصل الاول في اثر التاريخ والشعور المشترك بالام وافراح الامة . والفصل الثاني من المحاضرة هو محاولة تطبيق هذه النقط الاربع على سوريا ، فبعد ان يستعرض اقوال الجغرافيين الكلاسيكيين ، يأتي على تحديد المقدسي السورى لتخوم سوريا ، ويؤكد انه ليس لامة اخرى من الحدود الواضحة ما لسوريا وان الفروقات الداخلية لا يمكن ان تغير الوحدة الطبيعية . وفي كلامه عن الحدود الجنوبية وعلاقة السوريين مع العرب يبين كيف ان العرب الذين استوطنوا سوريا لم يتمكنوا من المحافظة على صبغتهم العربية ، بل اندمجوا بالحضارة السورية فالغسانيون تنصروا واصبحوا يدعون بملوك الشام ، وهم بدورهم اخذوا ينظرون الى عرب البادية نظرة فيها قليل من الاعتبار ، كما ان العرب انفسهم في العصر الاموى لم يتنازلوا عن شاميتهم ، بل افتخروا بها ، ويعود لامنس الى التاريخ القديم يبين كيف انه كان للسوريين منذ القديم طابع خاص يعرفون به وهو ظاهر في النقوش المصرية وكيف انه في العصر السلوقي ،دعيت الامبراطورية السلوقيه بالامبراطورية السورية ، وكيف ان الرومان ادركوا هذه الوحدة فاعطوا الوحدة الطبيعية اسمها ((٢) وكيف ان السوريين في العصر البيزنطي لم يحتملوا حكمهم ، فأنشقوا عنهم في طوائف عديده كالنسطورية واليعقوبية والمارونية .

والفن السورى يختلف عن غيره من الفنون ، وهو والد للفن المدعو (بالارابيسك) واللغة العربية التي تغلبت لم تحتفظ بطابعها الاصلي في سوريا ، بل ظهرت في لهجة مميزة وانه بامكان هذه اللغة في سوريا ان تتم رسالة سوريا التي هي رسالة وصل بين الشرق والغرب، واللغة هي اداة للتفاهم والوحدة القومية لكنها لا تغير ولا تخلق الشعب، وينهي خطابه بدعوة الى تجاوز الحدود الطائفية التي تجعل من السوريين ان ينظروا الى بعضهم كانهم شعوب وليس شعبا واحدا (٣)

وقد احدث تقسيم سوريا بالفعل عند عدد من الادباء السوريين الكبار نوعا من الاسف ليس لان سوريا فقدت استقلالها ، قدر تاسفهم الى ان هذا التقسيم تغذيه الروح الطائفية ، وقد ظهر في نتاج ادباء

(١) L'Evolution Historique de la Nationalité syrienne

(٢) Provincia Syria

(٣) La Revue phenicienne عدد كانون اول ١٩١٩ ص ١٤٣ — ٢٠٧

المهجر الشيء الكثير من هذا الموضوع ، ويمكننا بمتابعة كتاباتهم ان نعرف اثر التقسيم في نفوسهم والمحاولة التي كانوا يقومون بها لتفاديه ولاعادة الشعور بالعزة والكرامة الى السوري ، فعدا عن الاحزاب التي قامت تنادي بدعوة من هذا النوع وهي قليلة الاثر كحزب الاستقلال السوري ، وحزب سوريا الجديده (١) قام عدد من اشهر كتابهم ينددون بالروح الطائفية و بتقسيم سوريا واولهم جبران خليل جبران ، ففي رسالة له الى صاحب الهلال (٢) يشدد على القول بوحدة سورية الجغرافية وباستقلال البلاد تحت حكم نيابي وطني عندما يصبح السوريون اهلا لذلك ، وفي الفترة هذه يحبذ وضع سوريا تحت رعاية اميركا ، لكنه مع هذا كله يرى ان هناك امورا رئيسية يجب المطالبة بها بالحاح ، هي وحدة سوريا الجغرافية والحكم الاهلي النيابي والمحافظة على الصبغة السورية ولو وضعت سورية تحت رعاية الملائكة .

ولم يكن الريحاني اقل تأثرا وشعورا بسوريته ، ففي عدد من المقالات حول هذا الموضوع يبيّن كيف انه في سوريا فريقان او حزبان ، حزب رسم دائرة صغيرة وقال هذه بلادنا ، هذه هي دائرتنا ... وحزب رسم رسم دائرة كبيرة حول الدائرة الصغيرة وقال ، هذه هي بلادنا وهذي دائرتنا تضم دائرتكم وتصونها (٢) ثم يتساءل اي الفكرتين اصح ؟ فبعد ان يستعرض الفكرة اللونانية وعلاقة فرنسا بها في العصر الذي لا يقوم به شيء بلا شيء ، يندد بها على انها فكرة طائفية قديمة ، وسوريا واحدة لا تتجزاء فاذا نال السوري حريته ونوعا من استقلاله يشمل ذلك اللبناني والفلسطيني ، المسيحي والمسلم والدرزي على السواء .

وفي مقال تحت عنوان "التطور والاستقلال" يقول " انا سوري اولا ولبناني ثانيا وماروني بعد . انا سوري انشد الوحدة السورية القومية ، السياسية ، الجغرافية، وبعد ان يعدد اعتقاداته ، ومنها فصل الدين عن الدولة ، يبين انه لا قيام لسورية اذا بقيت فيها هذه العصبية الطائفية ويرفض استقلال لبنان الطائفي واستقلال الشام بدون مساعدة اجنبية (٣)

وفي مقالة اخرى تحت عنوان "عشرون حجة (٤) يعدد الاضرار التي تنجم عن تقسيم سوريا من الناحية القومية والسياسية والاقتصادية ويرى ان الطريقة الوحيدة هو اتفاق اللبنانيين والدمشقيين ، على مشارفة افرنسية محدودة الاجل ، ومع ان في هذه المقالات نظرة واقعية الى الامور السياسية ، لكنها لا تخلو من توجيه قومي وحسي بالواقع التاريخي القومي لسوريا .

وفي كتاب الدكتور حتي عن " السوريين في اميركا (٥) اول محاولة للتفريق بين السوريين وغيرهم

---

(١) حتي ، فيليب، الناطقون بالضاد في اميركا — ترجمة البدوي الملثم ، القدس ١٩٣ ص ٨٣—٨٤ وراجع ايضا كاتبه حبيب عطات وطنية نيويرك ١٩٢٢ ص ٧٩ — ٨١ (٢) نشرت لاول مرة في الهلال — مارس ١٩٣٤ — ص ٥١٠ — ٥١٤ (٣) الريحاني، امين ، الريحانيات ج ٤ : ص ٢٠١ (٤) نفس المصدر ص ٢١٠ — ٢١٦ (٥) المصدر نفسه — ٢٢٢ — ٢٢٨ .

كالعرب والاشوريين ومع ان هذا التفريق موجه للاميركيين ، لكنه يبدي وجهة نظر الدكتور في الموضوع فهو ينفي كون السوريين اتراكا ، وان تسمية البعض انفسهم وباولاد عرب "تسمية خاطئة (١) كما وان السوريين ليسوا الاشوريين كما يحب البعض ان يدعوا هؤلاء الاخيرين ، وفي كتاب اخر له "سوريا والسوريون من نافذة التاريخ " محاولة تاريخية لاظهار الاصول السورية وقيام القومية السورية الحديثة على الفرع الارامي من العائلة السامية (٢)

ومن الذين تابعوا هذا الموضوع القس حبيب كاتبه الذي رد على مناظرة تحت عنوان "هل نحن عرب " بين الاستاذ خباز والسيد يوسف احمد نجم . فالاستاذ خباز يعتقد ان السوريين هم ارامیون اصلا ومتزجون كثيرا او قليلا مع العرب . وان في المقارنة وترانيمهم الشرقية استمرار حياة اجدادنا وفنونهم .. فنحن سريان قبل حنا مارون . وقبل محمد وقبل عيسى (٣) ومع اني لم اتمكن من الاطلاع على ما نشره الخباز ونجم لكني سألت الاستاذ خباز عنها ، فقال انه لا يحفظ نسخة عن المناظرة ، لكنه يذكر ان رأيه كان ان سكان سوريا الشمالية خاصة هم سريان اصلا (٤) واما وجهة نظر القس كاتبه هو ان هناك فرقا اليوم بين العنصرية من حيث الجنس اي الاصل . وبين العنصرية من حيث النفسية ، وان السوريين اكثريتهم مسلمة والنفسية المسلمة هي عربية وانه يلفت نظر المتناظرين الى هذه الناحية (٥) ولكنه في مقال اخر عن حزب تحرير سوريا ينتقد الروح الطائفية لانها منافية لمصلحة سوريا اذ ان الكاثوليكي الماروني ، اصبح فرنسيا والمسلم صار حجازيا ، وليس من اخلص النيه لسورية كاملة الا القليل الذي يكاد لا يشعر به (٦) وقد حملت الروح السورية هذه مجلة "العالم السوري "! التي افسحت المجال للكتاب السوريين ليجولوا في هذا الموضوع ، وكان من ابرزهم القس حبيب منصور الذي نشر عدة مواضيع حول حفظ الشخصية السورية ووعيها (٧) وعظمة الجنس السوري . ولم تقتصر هذه الروح على الولايات المتحدة ، بل انتشرت كذلك بين السوريين في البرازيل والارجنتين ففي البرازيل تالفت عدة احزاب منها الحزب الديمقراطي الوطني الذي جاء في بنده الاول "ان مصلحة البلاد السورية لا تقوم الا بوحدتها واعتبار سوريا ضمن حدودها الطبيعية وحدة سياسية واقتصادية غير قابلة التجزء (٨). وقد الف هذا الحزب الدكتور خليل سعاده ، وفي هذا الجو الذي تركه الادباء ونشرته الحوادث في المهجر ما دعا انطون سعاده فيما بعد الى الدعوة الى قومية سورية خالصة .

---

(١) P.K. Hitti - The Syrians in America ص ١٩

(٢) حتي فيليب — سورية والسوريين من نافذة التاريخ (نيويورك ١٩٤٦) وهو مجموعة محاضرات القيت تحت رعاية الجمعية التهذيبية في نيويورك . (٣) خباز حنا ، سوريا وفرنسا مصر ، ١٩٢٨ — ص ٥٢

(٤) حديث مع الاستاذ خباز في ٢٤/ ١١/ ٤٩ (٥) كاتبة - كتاب نفسه - ص ٦٣ — ٦٥ (٦) المصدر نفسه ص ٨٠ (٧) The Syrian World الاعداد ٦ و ٧ من المجلد الثاني وعدد من المجلد الثالث . (٨) الجريدة عدد ٢٤ .

ومن البيّن ان هذا النزاع الفكري حول قومية سورية تطاول وامتد حتى يومنا هذا ولكن الامر الواضح من هذا النزاع انه لم يكن عند احد من الذين نزلوا في حلبة هذا الميدان فكرة واضحة عن القومية كما انه لم تكن هناك فكرة عن الدولة القومية (Nation - state) لان الذين كانوا يقولون بقومية سوريا العربية لم يتوانوا عن المطالبة باستقلال بسوريا الناجز التام عن جميع البلدان العربية الاخرى ، كما هو ظاهر في برنامج الاحزاب التي ظهرت في تلك الفترة والتي لم تكن الا تكتلات سياسيين لم تصل الى الشعب في صميمه .

بيد ان المحاولة العلمية الوحيدة التي تمت في هذا المضمار هي نشرة صغيرة بالافرنسية للدكتور ادمون رباط تحت عنوان " الولايات المتحدة السورية " يتساءل في قسمها الاول هل هناك امة سورية " فيقول ان القومية تقوم على اساسين مادي وروحي واما الاساس المادي فهو الوحدة الجغرافية التي تتوفر في سوريا اما الاساس الروحي الذي لا يقتصر على الوحدة اللغوية ، والاصل الواحد ، انما على نفس العادات والتقاليد ، والمطامح فهذه الاخيرة لا تتوفر ومفقودة نتيجة للطوائف العديده وللقضية الطائفية التي هي المشكلة الاولى في القومية السورية والتي تمنع نموها الاصيل (١) .

وبالاخير فان هذا النزاع الفكري حول القومية لا يزال قائما بعنف في بلادنا وسنتناول قضاياه في الجزء الاخير من الاطروحة .

---

(١) Les Etats-Unis de Syrie - Ed. Rabbath ١٩٢٥ ص ١ — ١٣

العمل السياسي للوحدة السورية :

لن تحاول في هذا الفصل ان نعرض لاطوار النزاع السوري ـ الفرنسي البريطاني ، انما سنأتي على المحاولات ان الشعبية او الحكومية للمطالبة بالوحدة السورية ، وقد ابتدأت قوية عنيفه بعد التقسيم ثم خفت حدتها الى ان وصلت الى القطيعة عند معظم القائلين بها على اساس قومي عربي ، ليظهر محلها فكرة الحزب السوري القومي الاجتماعي وفكرة " سوريا الكبرى " والظاهرة في مشروع الملك عبد الله ، وفكرة " الهلال الخصيب " الظاهرة في مشروع نوري السعيد ، وهذه ستكون موضوع الجزء الثاني من اطروحتنا .

اما الحركات السياسية بحد ذاتها ، فلم تكن بالواقع منظمة او ذات برامج معينة ، فالجماعات التي عملت في حقل المطالبة بالوحدة السورية لم تكن مجمعة على هدف معين والامر الذي يثير الغرابة هو انه ما مضت سنتان على تقسيم سوريا الى مناطق حتى انحصر العمل السياسي في هذه المناطق بعينها ، ولم يكن ليتعداه الى غيرها وانحصرت دعوة المطالبة بالوحدة السورية عند المحمديين في لبنان الكبير بضم الاقضية الاربعة الى سوريا ، كما ان المطالبين في داخلية البلاد بهذه الوحدة انسجموا معهم في هذا الموضوع ، وتركت الاقسام الجنوبية لوحدها ، فلسطين لتجابه الحركة الصهيونية وشرقي الاردن لتستقبل الامير عبد الله الذي عين بالاتفاق مع الانكليز اميرا على تلك المنطقة التي كانت تقع تحت حكم اخيه .

وقد كان لثورة العراق ونيلها حق تاليف حكومة وطنية مع معاهدة تحالف مع بريطانيا تسعى فيها بريطانيا بادخال العراق في جامعة الامم ، مقابل بعض الحقوق لبريطانيا (١) اثر كبير في توجيه السياسة في الدولة تحت الانتداب الفرنسي ، لان الحركة السياسية اصبحت تستوخي الحصول على مثل هذه المعاهدة بعد ان فقدت الامل باجلاء الجيوش الفرنسية عن البلاد ، وقبولها بالامر الواقع .

واول محاولة من هذا النوع وضد الاحتلال الفرنسي كان المؤتمر الذي عقده المهاجرون السوريون الى مصر وفرنسا في جنيف ، والفوا على اثره نوعا من لجنة سياسية عليا دعيت بالمؤتمر السوري ـ الفلسطيني بقيت عاملة فعليا الى ما بعد الثورة الدرزية واسميا الى اوائل سنة ١٩٣١ .

افتتح هذا المؤتمر في اول ايلول سنة ١٩٢١ برئاسة الامير ميشال لطف الله رئيس حزب الاتحاد السوري في مصر . فبعد الترحيب وقراءة برقيات التاييد من انحاء سوريا كلها ، قدم سليمان كنعان عضو مجلس ادارة لبنان سابقا والمنفى من قبل الافرنسيين (كان قد هرب من منفاه) تقريرا عن الوضع في لبنان ، ثم جرى انتخاب لجنة تنفيذية واغلق المؤتمر في الواحد والعشرين من ايلول بعد ان وافق على صيغة الاحتجاج الذي سيقدمه المؤتمر الى عصبة الامم طالبا فتح تحقيق في الاراضي السورية لمعرفة رغبات الامة وقد اتخذ

---

(١) المصدر الاول عدد ١٥ ص ٢٩١
H. Foster - The making of Modern Iraq, p. 117

المؤتمر عدة قرارات منها :

١ــ الاعتراف باستقلال وسيادة لبنان وسوريا وفلسطين

٢ــ الاعتراف بحق هذه الدول بالاتحاد تحت حكومة مدنية وبرلمان خاص بها وحق اتحادها مع غيرها من بقية الدول العربية في شكل " فيدراسيون)

٣ــ اعلان انتهاء الانتداب حالا

٤ــ جلاء الجيوش البريطانية والافرنسية عن سوريا ولبنان وفلسطين

٥ــ الغاء وعد بلفور بالوطن القومي اليهودي (١)

وهذه المطالب كانت بالواقع مطالب الامة بعينها لكنها لم تكن الا مجرد مطالب ليس ما يسندها الا راي عام غير منظم ، سريع الانقلاب ، ليس من خطوط سياسية اصيلة واضحة له .

وثمة امر جديد في تقرير هذا المؤتمر هو المطالبة بحق هذه الدول في الاتحاد مع غيرها من دول عربية وهذه المطالب كانت قد اختفت تقريبا في الفترة التي تلت الاحتلال الا عن بعض محاولات للتوحيد مع العراق في بعض النواحي الاقتصادية والسياسية ، ولكنها لم تود الى نتيجة .

وقد عقد المؤتمر اجتماعا اخرا في القاهرة ثبت فيه مطالبه السابقة ، ودعى فيه الاحزاب والجمعيات السورية الى التعاون ولكن هذا التعاون بقي ضئيلا ، ولم يعد المؤتمر الى الظهور الا اثناء الثورة الدرزية ، وقد انفرط عقده سنة ١٩٢٧ عندما اخذ رئيس حزب الاتحاد السوري يحلم بامارة لبنان فانفصل عن باقي اعضاء المؤتمر . وقد كان للمؤتمر مجلة اسمها "المجلة السورية " بقيت تصدر الى اخر حياة المؤتمر .

واما في لبنان فقد اقتصرت المطالبة بالوحدة السورية على المحمديين ، وقد عقدت عدة مؤتمرات للمداولة في هذا الامر ، واكثرها لم يكن يختلف من حيث مضمونه عن بعضها .

وقد حصلت على وثيقة (٢) مقررات احد هذه المؤتمرات العديدة التي كانت تعقد في لبنان للمطالبة بالوحدة ، غير مؤرخة لكن ورود شكر للمفوض السامي الى الطريقة التي اجري فيها الاحصاء تدل على انها حدثت في اوائل ١٩٢٣ ، اذ ان الاحصاء ~~الذي~~ جرى في اواخر ١٩٢٢ ، وقد امضى هذه الوثيقة زعماء الاقضية الاربعة من بينهم عبد ~~اللطيف~~ كرامه . عبد اللطيف بيسار ، الدكتور شريف عسيران ، وسامح الفاخوري وغيرهم ، والوثيقة في اربع نقاط مرفوقة بشرح واف تبين الحيف الذي لحق المسلمين من جراء ضمهم

---

(١) ORIENTE Moderno السنة الاولى عدد ١٥ ص ٢٩١

(٢) موجودة عند الاستاذ محمد جميل بيهم .

للبنان وتظهر ان لبنان الطبيعي هو لبنان الصغير وليس هناك من حجة تاريخية تسند الاقضية الاربعة وتبين ايضا المطالبة بايجاد مرفأ للبنان في بيروت وطرابلس وصيدا وحرم سوريا منها وهي مرافئها الطبيعية ان يقود الى اضرار اقتصادية فادحة ، وهذه المطالب كانت اساس سياسة اللبنانيين المسلمين وسياسة السوريين الشاميين ايضا ، بيد ان سياسة الجنرال غورو وكاترو من بعده في تقسيم سوريا الى دويلات عديدة منها دولة جبل دمشق والعلوية والدروز وربطها بنوع من الاتحاد ، جعل امر الوحدة السورية عند الشاميين يعني توحيد هذه الدويلات بدولة واحدة وافقدهم تقريبا المعنى الاصيل من طلب الوحدة (١)

وفي شهر شباط ١٩٢٥ تالف في دمشق "حزب الشعب" بناء على اقتراح المفوض السامي الذي كان يرغب في ان يفاوض جماعة منظمة ذات برامج واضحة وقد تالف هذا الحزب برخصة وجاء في مبدأه الثاني : توحيد سوريا بحيث تضم جميع الاراضي الواقعة ضمن حدودها الطبيعية (٢)

وبعد حدوث الثورة الدرزية واسراع المفوض السامي باعلان الجمهورية في لبنان (ايار ١٩٢٦ واعادة الحياة الدستورية في مجلس النواب منتخب وشيوخ معين ، وتصميم الفرنسيين اعطاء حقوق ممثلة للسوريين ودعوتهم لانتخاب مجلس تاسيسي لوضع القانون الاساسي او الدستور ، تالفت لجنة وضعت صيغته وقدمته للمفوض السامي للموافقة عليه . وقد قبل المفوض السامي صيغته الاجمالية ، لكنه اعترض على بعض مواده . فالمادة الثانية منه ، كانت تنص على ان الاراضي السورية التي انفصلت عن السلطنة العثمانية وحدة سياسية لا تتجزأ "وهذا معناه بالنسبة للمنتدب عدم الاعتراف بالتجزئة التي تمت ما بين الحرب الكبرى وذلك الوقت ، ومعناه ايضا عدم الاعتراف بكيانات جبل الدروز والعلوية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن السياسية مما يتنافى مع تعهدات فرنسا الدولية (٣) وقد اعترض المفوض السامي على بعض النقاط الاخرى المتعلقة بصلاحية رئيس الجمهورية مما ادى الى ايقاف الحياة البرلمانية وعدم الوصول الى حل نهائي .

وقد وجد اللبنانيون المطالبون بالوحدة السورية في انعقاد المجلس التاسيسي فرصة مؤاتية لعقد مؤتمر يؤكدون فيه مطاليبهم ، فعقد مؤتمر في بيت السيد ياسين الجسر في ١٩٢٨/٦/٢٣ كان اكبر مؤتمر حدث بعد الانتداب واكثرها قوة وقد حضرته وفود عن جميع المناطق السورية الواقعة تحت الانتداب الفرنسي ، وقد جاء في قراراته انه لما كانت القضية السورية قضية واحدة لا تقبل التجزئة والانقسام وكان

---

(١) راجع: E.P. MacCallum - The Nationalist crusade in Syria - ص ٦١

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠

(٣) راجع: A. Hourani - Syria & Lebanon - ص ١٩٢ — ١٩٣

اليسوريون امة واحدة تربطهم جامعة القومية ولا تفرق بينهم الاديان والمذاهب ولما كانت بعض الظروف القاسية حالت دون اشتراك بعض ابناء البلاد في الجمعية التاسيسية السورية التي تضع دستور هذا الوطن وتقرر مصيره لذلك .. فان المؤتمر يؤيد ميثاق البلاد القومي ويطلب الى الجمعية التاسيسية وحدة هذه البلاد السورية إلا لعامة بضم جبل الدروز والبلاد المسماة ببلاد العلويين ، والبلاد التي ضمت الى لبنان القديم الى سوريا وذلك بوضع مادة خاصة في صلب الدستور تنص على ان سوريا المؤلفة من البلاد المذكورة هي دولة واحدة مستقلة ذات سيادة وذات وحدة سياسية لا تتجزأ" (١)

والتشديد كما هو ظاهر فهي هذا القرار هو على ضم الدويلات الدرزية والعلوية والاقضية الاربعة الى الدولة السورية وليس الى المطالبة بالدولة السورية الطبيعية ، وقد حضر هذا المؤتمر رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وعبد الله اليافي وغيرهم من الشخصيات السياسية الحاضرة .

وبالحقيقة ان السياسة في لبنان والشام ، اقتصرت على المطالبة بالاستقلال وعقد معاهدة تشبه المعاهدة العراقية وتجيز للبلدين الدخول في عصبة الامم ، وقد بقيت المطالبة بالوحدة السورية ، اى بضم الاقضية الاربعة شديدة الى سنة ١٩٣٦ حيث اضطربت المدن الساحلية واضربت وخرجت المظاهرات ونشبت معارك في طرابلس التي بقيت مقفلة عدة اشهر ، وفي بيروت كانت الهتافات في المظاهرات "بدنا الوحدة السورية اسلام ومسيحية " او " بالوحدة يا بالدم " ، وهذه المظاهرات كانت تحركها على الاكثر احزاب طائفية بعيدة عن الوطنية الحقة ، ولم تنته الا بعد امضاء المعاهدة الفرنسية اللبنانية وكان قبل ذلك قد انعقد "المؤتمر الساحلي" الذي قرر المطالبة بهذه الوحدة ولكن على اثر امضاء المعاهدة حدث نوع من التكوية اقترحها السيد كاظم الصلح تقوم على ان في لبنان نزعة الى قومية عربية ، ولذلك فانه بالامكان ان توفق هذه النزعة الى ان تكون المخرج بين الشخصية اللبنانية الحرة وبين الشخصيات القطرية الاخرى في سائر بلاد العرب (٢) وان هناك ثمة تساهل اخذ يلمسه عند كثير من المطالبين بالوحدة ، ولذلك فانه يقترح بان يبقى التقسيم السياسي لسوريا على حاله لان القومية العربية تجمع بينهما ، وبهذا الشكل صبغ لبنان بالصباغ العربي هذا الصباغ الذي وصف بانه "وجه لبنان" سنة ١٩٤٣ وهذه كانت اول خطوة اتخذها المطالبون بالوحدة السورية للعمل الايجابي في لبنان ولم يرضوا بالعمل الا على اساس شروط ذهبت اكثرها لكنها تلخص في اربع تقوم على :

---

(١) نشرت هذه المقررات في جريدة كل شيء " عدد الصادر في

(٢) الصلح كاظم ، مشكلة الانفصال والاتصال في لبنان — (بيروت ١٩٣٧ .

١ـ تفاهم لبنان المستقل مع سوريا المستقلة على وجهة نظر واحدة بالدفاع الوطني اذ يكون جيش واحد للبلدين

٢ـ ان يكون التمثيل الخارجي موحدا

٣ـ استقلال البلدين بادارة الشؤون الجمركية

٤ـ ادماج ادارة البرق والبريد بشقيقتها في بيروت (١)

وهذه كما نرى مطالب توفيقية تعتمد الحل الشكلي للامور ولكنها لا تزيل اسبابالخلاف ولا تضع حدا للخلافات الممكن حدوثها ولا تختلف عن غيرها من الحلول في هذه الوجهة .

وهكذا نلاحظ ان جميع الحركات التي قامت منذ بدء النهضة في القرن التاسع عشر، كانت حركات سياسية تطلب الاستقلال لوحدة كما انها لم تكن حركات شعبية نظامية ، اى ان الشعب لم يكن يشترك في اعمالها اشتراكا فعليا مبنثقا عن رغباته الحقيقية ، وقائما على المسؤولية وادراك الخطة والنتيجة من اعمالها السياسية فهي اعمال كتل سياسية ، تتغير خططها بتغير الاشخاص والظروف والمصالح ولا تبغي هدفا بعيدا اوغاية قصوى وتتوجه بالتوجيه الطائفي فلا تقوم الا على اساسه ، فاخضعت بذلك المصير القومي للمصير الطائفي ، اذ انه لم يقم بينها بالفعل من درس هذه القضية درسا علميا منظما منزها واضح النظرة ، بل قبل الاكثرية المصير الذي توحيه اليهم المطالح الطائفية واقبلوا عليه اقبالا لا محيد عنه ولا مقر منه وبنوا على اسسه نظرياتهم تارة بدون وعي وطورا بوعي ولكن في كلا الحالتين بدون ادراك للحقيقة القومية وبدون ادراك لمعنى هذه الحقيقة واثرها في حياتنا .

واذا كان الظرف الذي نشأت فيه الحركة القومية ظرفا تقوم اسبابه على الطائفية وارتكازاته على نقط ضعيفة فالمشكلة القومية مشكلة مصير الامة وحقيقتها لم يتقدم الى حلها واحد في حله نزاهة وفيه تجرد وفيه تفضيل لمصلحة الامة على غيرها من المصالح الجزئية .

وهذا الاقتصار على القضايا السياسية الاستقلالية كان من نتيجته ان اختلطت القضايا الفكرية بغضها مع بعض وخضعت بذلك مصلحة الامة السورية الى مصالح اشخاص، ومصالح بلدان خارجة عنها لاشتراكهما معا في الحركة الاستقلالية المجردة و لتوخيهما الخلاص من الحكم العثماني معا ، كما اننا نلاحظ ان الذين نادوا بقيام دولة سورية موحدة لم يعينوا من هم السوريون هل هم امة تامة ام هم شعب من امة اكبر ، حتى القائلين بالعروبة لم يقدموا على مثل هذا التحديد بل بقي مغفلا غير واضح يحتاج الى تحديد وتوضيح .

---

(١) الجمهور ـ العدد الرابع ـ السنة الاولى ٨ ت١ سنة ١٩٣٦ ص ٤ .

مشاريع توحيد سوريـــــا

١ــ الحزب السوري القومي الاجتماعـــــي :

نشوء الحزب وتطـــــــــوره :

لا بد لنا بعد ان انهينا دراسة الفترة الاولى من النهضة الوطنية الحديثة ورأينا اسبابها واعمالها واتجاهاتها من ان ننتقل الى المرحلة الثانية والحاضرة من هذه النهضة بعد ظهور امر الحزب السوري القومي الاجتماعي ، اذ ان هذا الحزب يمثل اتجاها جديدا في التفكير وفي معالجة الامور والنظر اليها يختلف عن الاتجاهات القديمة ويتفوق عليها من حيث النظرة العلمية الى الاشياء واعتبارها .

ولما كنا نحن سنبحث في هذا الجزء مشاريع توحيد البلاد السورية ، فمشروع الحزب السوري القومي الاجتماعي هو اقدم المشاريع الحديثة واوضحها تعيينا لغاياته واهدافه ، بعكس المشروعين الاخرين ، اي مشروع سوريا الكبرى " الذي اوجده الملك عبد الله ، حديثا محاولا به بعث قرارات المؤتمر السوري العام القديمة ، وابقى فيه نفس الخطوط السياسية القديمة التي عينتها الظروف والمناسبات والغايات الشخصية ومشروع الهلال الخصيب " الذي اقترحه نوري السعيد في كتابه الازرق سنة ١٩٤٣ وسعى اليه جديا بعد خسران فلسطين ، ولا نعرف منه الغاية الاساسية ولا الخطوط الكبرى التي يبني عليها اهدافـــه .

وفي الدراسة هذه سنحاول ان نعطي اول الامر لمحة تاريخية صغيرة عن نشوء كل من المشاريع هذه نبين فيها اسباب ظهورها وكيفية تطورها ، ثم نبين اتجاه كل مشروع السياسي منه والفكري ، لما في ذلك من اثر على مستقبل البلاد السورية وتطورها ، ولما يتوقف على ذلك من انتهاج خطط ذات علاقة اساسية بحياة الامة والشعب .

واول ما نبدأ بدراسته هو الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي اسسه انطون سعاده ، ووضع له نظرته ومنهاجه ، وعلى اساس هذه النظرة والمنهاج اشترك الاعضاء في الحزب . وانطون سعاده هو ابن الدكتور خليل سعاده احد حاملي لواء النهضة الحديثة وقد ولد في سنة ١٩٠٤ في بلد الشوير من قضاء المتن في لبنان وتلقى دروسه في مدرستها الابتدائية ثم في مصر حيث كان يقطن ابوه قبيل الحرب العالمية الاولى . وخلال هذه الحرب بقي في مدرسة برمانا التي كانت قد تحولت الى ملجأ بعد ان توفيت والدته وسافر والده الى اميركا . وقد ذاق من العذاب الامرين كما ذاق غيره من سكان هذه البلاد فاثر هذا عليه كثيرا ، وجعله يفكر بخلاص بلاده ، ومنذ ان ذهب الى البرازيل بعد انتهاء الحرب ، حيث

قضى هناك عشر سنوات حتى سنة ١٩٣٠ اذ عاد الى سوريا ، ابتداء يسعى لتاليف حزب يتم على يده خلاص البلاد من الاستعمار ، وقد وجد الارض خصبة في الجامعة الاميركية حيث تعرف الى عدد من التلامذة والمدرسين وانشاء معهم الحزب في ١٦ ك٢ سنة ١٩٣٢ وبقي الحزب ينمو سريا حتى سنة ١٩٣٥ ، اذ اكتشفت امره السلطات الفرنسية ، وقادت اعضاءه وزعيمه للسجن وحاكمته مرارا .

وفي سنة ١٩٣٨ سافر سعاده الى اوروبا واميركا ومنعته الحرب من العودة حتى سنة ١٩٤٧ فاعاد تنظيم حزبه ونشط في دعاياته واعماله مما ادى الى عدد من الاشتباكات البسيطة مع الحكومة انتهت باضطهاد الحكومة اللبنانية للحزب والقاء القبض على المئات من اعضائه ، مما اضطر الحزب الى اعلان ثورة لم تدم سوى ايام قليله القى القبض بنهايتها على سعاده فحوكم واعدم في مدى يوم واحد .

وقد وضع سعاده عددا من الكتب و المؤلفات والخطب وكلها تدور حول مذهبه في القومية وفي القومية السورية خصوصا ، والتي على اساسها دعا الى توحيد البلاد السورية .

ماهية القومية والقومية السوريـــــة :

ولم يكن الحزب بالواقع اول من استعمل لفظة القومية السورية واول من نادى بان سوريا للسوريين ، فهذا القول وهذا النداء صدرا قبله عن عدد من السياسيين و الادباء . ففي كتاب الدكتور حتي " سوريا والسوريون من نافذة التاريخ " دعوة لتقوية " القومية السورية (١) وكتابات لامنس المتفرقه كلها تتطرق لهذا الموضوع بحد ذاته ، ولكن الامر الذى انفرد به الحزب هو دراسة ماهية الامة وبالتالي القومية ، والقول بان السوريين امة تامـــــة .

ولكن كان العصر الذى شب فيه انطون سعادة وتفتحت عيناه على مشاكل بلاده عصر الدعوة للوحدة السورية والاستقلال السورى . وقد ابتداء يقول بالامة السورية منذ ان اخذ يكتب في الجرائد و المجلات وهو بعد حدثـــا ، ولكنه عندما اسس حزبه لم يرد ان يقول بالامة السورية اعتباطا ، بل درس اول ما درس ماهية الامة ومقوماتها ، ففي العدد الثالث و الرابع من "المجلة "التي اصدرها في بيروت ١٩٣٣ دراسة عن "معنى الامه وصفتها " (٢) بيّن فيه ان الدعامتين اللتين يقوم عليهما بناء الامة هما : مادة بشريه هي الاشخاص المتسلسلة من بعض الاصول ومادة طبيعية هي المحيط بجغرافيته وجوه وحدوده وكنوزه الطبيعية هوواو وقد رفض قول بعض العلماء السياسيين بان الامم تتميز بعناصرها واصولها ، بل تتميز بروحياتها

---

(١) فيليب حتى ـ سوريا والسوريون من نافذة التاريخ (نيويرك ١٩٢٦) المقدمه

(٢) المجله ـ العدد الثالث ـ السنة التاسعة عشرة ص ١٦١ والعدد الرابع ص ٢٥

وحياتها التقليدية وتقاليدها الاجتماعية التي هي نتيجة تفاعل عقول ابناء الامة الواحدة وتمكنهم من اظهار رابطة عقليه تربطهم في الشرائع والقوانين والتقاليد الاجتماعية واللغة والادب والتربية التي تؤلف الوحدة الاجتماعية (١) وهذا التحديد وان كان يفرق في تفاصيله عن التحديد الذى وصل اليه في كتابه "نشوء الامم" لكنه لا يختلف عنه في ان قوام الامة هي الارض المعينة بحدود طبيعية ووحدة الحياة الاجتماعية عليها ، وان ما تبقى من عناصر هي صفات للامة لا مواد مؤلفة لها .

فما هي الامة اذا في نظر انطون سعاده ؟

ان اول ما يلفت سعاده النظر اليه عند ابتدائه في تحديد الامة هو انها واقع اجتماعي ودرس الامم ونشوءها هو لذلك درس اجتماعي لا سياسي (٢) ولهذا السبب ظهر كتابه "نشوء الامم" كدراسة للتطور الاجتماعي لا كدراسة لما تتألف منه الامم فقط كما هي مقوماتها وصفاتها . فابتداء يسرد النظريات المختلفة لنشوء النوع البشرى ، الدينيه منها والعلمية ، فاقر النظرية العلمية ثم انتقل لدرس السلالات وعددها ، وبين ان السلالات امر فيزيائي واقع . وان هناك فوارقا بين السلالات الاولية والمرتقيه . ولكنه ينفي القول بتفوق احدى السلالات كالراقية في المواهب العقلية على غيرها ، بالرغم من وجود عقليات مستقلة متباينة (٣) كما ينفي نظرية ضرورة نقاوة السلالة للارتقاء العقلي ، فقد تبين ان العكس هو الاصح مع ان الخصائص الجنسية تنتقل بالوراثة . ولذلك يمكن ان تمر في امة مكونة من مزيج سلالي معين نفسيه ومعان نفسيه ثابتة واضحة في اجيال الامة على الاطلاق ويمكن تبديل نفسية الامة تبديلا اساسيا جوهريا ، اذا امكننا تبديل الامة فيزيائيا (٤) ويعطى مثلا على ذلك استعمار الفينقيين لشمالي افريقيا ، فان احتفاظهم بسلامة فطرتهم ، مكنهم من اقامة امبراطورية كبيرة اما العرب فباختلاطهم مع السلالات البربرية نشأ منهم مزيج فقدوا به حيويتهم .

وينتقل سعاده الى درس الارض وجغرافيتها واثرها في الانسان والجماعة والتاريخ . فالارض مقسمة بحسب تكوينها الى اقاليم وبيئات ولكل اقليم خصائص ، ولكل بيئة خصائص والبيئة هامة لتقدم الانسان لانها السبب المباشر لتوزع النوع البشرى جماعات ولتحديد هذه الجماعات .

فلحدود البيئة الجغرافية وطبيعتها من حيث تربتها ومعدل درجة حرارتها ورطوبتها وشكلها الطبغرافي ، ومن حيث السهول والجبال والانهار ، تأثير فعال في الجماعة . فالحدود تضمن وحدة

(١) المصدر نفسه ص ١٦٣

(٢) انطون سعاده ـ نشوء الامم (بيروت ١٩٣٨) ص ١٤١

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦

(٤) النظام الجديد ـ والمحاضرة الرابعة عدد حزيران ٩٤٨ ص ١١

الجماعة لانها تجمعها ضمنها ، والطبيعة تميز الجماعة بما تكسبها من لون وشكل وبما تمدها به من المواد الخام لسد حاجاتها الحيوية من غذاء وكساء وبناء وادوات والشكل الطبغرافي يميز الجماعه ايضا . فالبيئة الجغرافية المؤلفة من سهل منبسط فسيح تكسب جماعتها تجانسا قويا يختلف عن تجانس اهل البيئة المؤلفة من جبال . والتجانس في هاتين البيئتين يختلف اختلافا قويا عن "التجانس التنوعي" الناتج عن بيئة جغرافية متنوعة الاديم من سهل وجبل وساحل (١)

وبالنتيجة ، فان البيئة هي اهم عامل في تكوين شخصية الجماعة ولكنها لا تقدم الحتميات في تاريخ الجماعة اذ انها امكانية فقط في تاريخ الحياة الانسانية واما العوامل الفاصلة في هذا التاريخ فهي العوامل النفسية والفردية (٢)

وبعد ان ينتهي الى هذه النتيجة يدرس الاجتماع البشري واجتماعية الانسان من وجهها البيولوجي والفلسفي ، ويبين كيفية نشوء الجماعات وكيفية تنوعها . ومن ثم يدرس المجتمع بحد ذاته وتطور الثقافة ونشوء الدولة وتطورها ويصل الى تحديد "المتحد" " Communes والامة .

والاجتماع في نظره صفة عامة في الانسانية ، ولكن هذا لا يعني ان الانسانية مجتمع واحد ، ولا يعني انه يتم بالاختيار ، اي انه ليس بامر اوجدته ارادة انسانية ، كما يقول اصحاب مدرسة العقد الاجتماعي . فالمجتمع هو متحد ولكنه ليس متحدا خاصا . اذا ما هي عوامله وروابطه ؟ هل هو مجرد انتشار ثقافة مادية وروحية بين عدد من الجماعات البشرية ، فتربطه الثقافة ؟ كلا ان الثقافة تفرق بين انواع المتحدات لا بين المتحدات نفسها . فليس المتحد بعدد من الناس مشتركين في عمل ما . كما انه ليس مجموعة صفات مشتركة . فالصفات متغيره . والقول بان الصفات اساس المتحد ، كالقول انها اختلاف طبيعي وراثي لا يمكن تغييره . ونحن نعرف بالفعل ان الصفات تتغير ولا تبقى على حالها . فهي بالواقع نتيجة لا سبب ، لان الاساس الحقيقي للمتحد اي الامر الاجتماعي الواقع وحياة الجماعة المشتركة هي التي تكسب المجتمع وحدة خاصة بالنسبة الى الوحدة الانسانية فالمتحد يتألف من متحدات صغيرة ، متباينة ولكنها في مجموعها تؤلف وحدة يهم في افرادها التجانس في الهيئة والمظهر ، وليكون المتحد متحدا ، يجب ان يكون التجانس اكثر من التباين .

وقد يعتقد البعض ان المتحد هو وحدة المصالح والارادة ، اي العلاقات بين الناس لكن المصلحة لا تعني العلاقة التجارية البسيطة ، كما ان الارادة لا تعني الارادة الفردية التعسفية ، لان المصلحة

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٤٣

(٢) المصدر نفسه ـ ص ٤٥

بالواقع تشمل كل ما تنطوى عليه النفس الانسانية في علاقاتها · هي طلب حصول ارتياح النفس ، وهي كل ما يسبب او يولد عملا اجتماعيا ·

والمصالح على نوعين ، منها الخاصة ومنها العامة · والمتحد هو مقر الاحياء المتحدين في الحياة بكل مصالحها ، ليست الاقتصادية ، بل مصلحة تامين حياة الجماعة وارتقائها · وهذا التحديد للمصلحة بمعناها الواسع · يجعل المصالح متباينة ، فليست مصلحة اى متحد ، مصلحة كل متحد ، لان المصالح ليست بيولوجية ، بل هي مصالح نفسية (عقلية) والمصالح النفسية ، اى مصالح الحياة الجيدة حسب تمييز ارسطو — تتنوع ·

وبالنتيجة ، فان المتحد من حيث صفاته هو مجموع من الناس في حياة واحدة على مساحة محدودة يكتسب من بيئته ومن حياته المشتركة الخاصة صفات خاصة به الى جانب الصفات العامة المشتركة بينه وبين المحيط الذى هو اوسع منه ، بينه وبين جميع البشر ، بينه وبين المتحدات الاخرى (١) واما من حيث المصلحة فهو وحدة اجتماعية حاصلة لاعضائها القناعة الداخلية الاجتماعية ان لهم مصالح تكفي لتفاعل اعمالهم · تفاعل مصالحهم وارادتهم ، في حياة عمومية مشتركة على مستوى ثقافي معين ، ضمن مساحة معينة (٢)

وهكذا فان كل متحد مهما كثرت صفاته ، ومهما تعددت مصالحه هو متحد قائم بنفسه فكل قرية او مدينة او منطقة متحد ، ولكن ليس كل متحد قرية او مدينة او منطقة ، ومتحد القطر هو متحد الامة او المتحد القومي ، وهو اكمل واوفى متحد ·

فالامة اذا هي اوفي واكمل متحد لانها تشمل ضمنها كل المتحدات الاضيق منها وتشمل ضمنها جميع المؤسسات الاجتماعية التي تؤلف مجتمعات اصغر منها ·

ويدرس سعاده بعد تعيينه ماهية المتحد «الامة دراسة خاصة بها · فيبيّن الصعوبة في مثل هذا الدرس لما ينطوى عليه من عنصر سياسي وقومي يجعل العلماء ينحازون تجاه نظرية معينة جدا بتأثير مبدأ معين يخدم امتهم او جماعة في امتهم · واورد تاريخ دراسة النظريات القومية في فرنسا والخلاف الذى اثارته بين العلماء الفرنسيين ثم اورد المشهور من تعريفات الامة كما عرفها رينان ومنتشيني (٣) وفوديه ودركهايم وايفانوف وشبنغلر · وقابل بينها ، خصوصا نظرية مفتشيني ، وايفانوف لان الاول اوجبت تعريف الامة تعريفا علميا خاليا من الغرض ، والثانية اتبعت نفس التعريف انما زادت عليه بعض

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٨

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣

(٣) Pasquale s. Mancini (١٨١٧ — ١٨٨٨) احد اعلام الحقوق والفكر السياسي الايطالي ومدافع عن الحريات المدنية عمل لتوحيد ايطاليا وتسلم مناصب وزارية عدة ·

العوامل . وتعريف الامة عند منتشيتي هو انها : "مجتمع طبيعي من الناس ذو وحدة ارضية (جغرافية) واصليه ، ووحدة عادات ولغة خاضع للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي (١)

يتناول سعاده درس الامة من هذا التحديد فيبدأ في الجزء الاول منه : الامة مجتمع طبيعي من الناس ، والقول بالمجتمع الطبيعي نقيض المجتمع الاصطناعي ، الذى قد يكون دولة تفرض نفسها على عدة مجتمعات طبيعية . فهو امر لا يقوم بالقوى الخارجية التي تصهر حياة الجماعات القاطنة فيها ، وتمزجها مزجا يكسبها شخصية خاصة . وتوجد الامكانيات لنشوء المراكز العمرانية التي تتألب عليها قوات المجتمع ويحتشد فيها نتاجه الثقافي . فلا امة على الاطلاق بدون قطر معين . فالامة تجد اساسها في وحدة ارضية معينة تتفاعل معها جماعة من الناس وتشتبك بها وتتحد ضمنها في دورة حياة واحدة .

وهذه الوحدة الارضية هي الوطن ذو الحدود البارزة ، وذو الطبيعة والموارد الخاصة التي يجب ان تكون كافية لتجعل من البيئة بيئة صالحة لنشوء الامة .

والعنصر الثاني في تعريف منتشيتي . هو وحدة الاصل ، ويعرفه ايفانوف بوحدة السلالة ويفرق سعاده بين مفهوم الاصل ومفهوم السلالة ، اذ انه ليس لامة معينة اصل عرقي واحد ، فكل الامم مزيج معين كالمركبات الكيماوية ، التي يتميز كل مركب منها بعناصره وبنسبة بعضها الى البعض الاخر (٢) ويمكننا ان نعطي هذا المزيج نتيجة الاختلاط الحياتي في بلاد واحدة ومجتمع واحد معنى السلالة . فتفقد معناها العرقي وجلالته ويلازمها هذا المعنى الشعبي الاجتماعي .

والعنصر الثالث الذى يعطيه منتشيني هو وحدة العادات يقابلها عند ايفانوف وحدة التقاليد والفرق بين الاثنين ان العادات غير وراثية ، بينما التقاليد وراثية . الاولى تتغير بسرعة ، اما الثانية فلها مساس بالحالات النفسية العميقة وشؤون الحياة . والاثنان ينشآن من اختبارات الحياة وبعامل الاجتماع في المجتمع ، فهما نتيجة وليسا سببا ، اى ان مجرد اشتراك عدد من الامم في بعض العادات والتقاليد المتشابهة لا يجعلها امة واحدة ، انما العنصر العام هو التقاليد والعادات الشخصية للامة والتي تظهر وجها من نفسية الامة في مجرى حياتها ليس اكثر . فالتقاليد والعادات تكسب الامة لونا خاصا تتميز به ، لكنها لا تكون الامة .

ويتفق منتشيني وايفانوف على اعتبار اللغة عنصرا اساسيا في تكوين الامة فهي وسيلة للتخاطب والتفاهم بين الناس ولكن اللغة ، في نظر سعاده ، ليست الا وسيلة من وسائل قيام الاجتماع لا سببا من اسبابه

---

(١) سعاده — ص ١٦٠

(٢)

انها امر حادث بالاجتماع في الاصل ، لا ان الاجتماع امر حادث باللغة ، ومتى صارت اللغة لغة الجماعة حملت ميراثهم الادبي الثقافي ، وسهّلت الحياة الواحدة ، وساعدت على نشر ثقافة الامة وفنها . وقد تتكلم عدة امم لغة واحدة او امة واحدة عدة لغات فالمهم من هذا كله هو النفسية والعقدية التي تظهرها الجماعة بواسطة هذه اللغة . فوحدة اللغة لا تقرر الامة ولكنها ضرورية لتماسك الامة(١)

واما الدين الذى هو شأن من شؤون تطور البشرية وارتقائها نحو سيطرة النفس وحاجاتها ، فعالمي في اصله وعالمي في نظرته ، ولكنه في تطوره لم يشذ عن قواعد الشؤون الانسانية حين تعارض معها ، فالدين بالحقيقة هو واحد ، ولكن الامم متعددة وقد تتمسك امة ما بعقيدة او دين لتحافظ على وحدتها الروحية ، لكنها تعدّ له بطريقة حتى يصبح ملائما لمصالحها ، وبذلك تصبغه بلون من الوان شخصيتها الخاصة حتى لا يتعارض مع تطورها و وحدتها .

ولا تختلف عن الدين الوحدة الثقافية ، اذ ان الثقافة العامة ، ولكن ما يفرق امة عن اخرى هو الدرجة التي تبلغها من الثقافة واحتفاظها لنفسها باسلوب ادبي او فني خاص تعطيه لهذه الثقافة .

ويقول البعض ان الوحدة السياسية شرط للامة وهذا القول ليس بالصحيح ، لان الوحدة السياسية ضرورية لفاعلية الامة وليست شرطا من شروط وجودها .

وينتهي سعاده بالقول ان نقطة الابتداء الحقيقية لوجود الامة ولتعريفها هي خضوع المجتمع الحقيقي للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي . اى ان تجرى فيه حياة واحدة ذات دورة اجتماعية اقتصادية واحدة تشمل المجموع كله و تنبه فيه الوجدان الاجتماعي ، اى الشعور بوحدة الحياة ووحدة المصير فتتكون من هذا الشعور الشخصية الاجتماعية بمصالحها وارادتها وحقوقها (٢) فالامة قبل كل شيء مجتمع طبيعي من الناس. وما الدين واللغة والعادات والثقافة الا اوصاف للامة او ميزات خاصة بها لا ينتفي وجود الامة بتغيرها او تطورها . وبالاخير فأن "الامة جماعة من البشر تحيا حياة موحدة المصالح موحدة المصير ، موحدة العوامل النفسية المادية في قطر معين يكسبها تفاعلها معه ، في مجرى التطور خصائص ومزايا تميزها عن غيرها من الجماعات "

وعلى هذا الاساس تكون القومية يقظة الامة وتنبهها لوحدة حياتها ولشخصيتها ومميزاتها ولوحدة مصيرها انها عصبية الامة والوجدان العميق الحي الفاهم الخير العام ، هي شعور قومي صادق وعواطف حية وحنو وثيق على الحياة التي عهدها الانسان (٣)

هذا هو التحديد الذى يعطيه سعاده للمجتمع والامة والقومية ، ويوضح فيه العوامل الفعالة الاساسية في تكوين الامة ويوضح الصفات التي هي ميزات من مزايا الامة والتي تخلط احيانا مع مقدماتها الاساسية .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧٨

(٢) المصدر نفسه ص — ١٨٠ — ١٨١

(٣) المصدر نفسه — ص ١١٣

و من هذه النقاط ينطلق في دعوته للقومية السورية ، ولقد كان ينوى ان يكتب الجزء الثاني من كتابه "نشوء الامم "عن نشوء الامة السورية . وقد وضع مخططا وملاحظات ، صادرتها الحكومة الفرنسيـــة مع ما صادرت من اوراق ، ولم يتمكن من اعادة كتابتها لانهماكه في الاعمال الحزبية . ولكننا نتمكن من كتابته في شرح المبادىء ، وغيرها من الكتابات ومن احاديثه ، ان نتبين بوضوح ماهية الامة السورية وقوميتها ويمكننا ان نعرف من بعض اشارات جاءت في كتابه الاول انه كان سيبحث بين الامور التي سيبحثها " نشوء الدولة البرية في سوريا (١) والعناصر الجنسية التي تتألف منها الامة السورية(٢) والتشابه القوى ـــ والتجانس الشديد بين شعبها نتيجة لطبيعة البيئة (٣)

بيد ان الثمانية مبادىء الاساسية في الحزب تعطينا الاساس القومي والحقوقي للامة السورية وهـي بالتالي :

١ــ سورية للسوريين والسوريون امة تامـــة

٢ــ القضية السورية هي قضية قومية قائمة بنفسها مستقلة كل الاستقلال عن اية قضية اخرى .

٣ــ القضية السورية هي قضية الامة السورية والوطن السورى .

٤ــ الامة السورية هي وحدة الشعب السورى المتولدة من تاريخ طويل يرجع الى ما قبل الزمن التاريخي الجلي .

٥ــ الوطن السورى هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الامة السورية وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها ، تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختيارى في الشمال الشرقي الى قناة السويس والبحر الاحمر في الجنوب ، شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة ومن البحر السورى في الغرب شاملة جزيرة قبرص ، الى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق ويعبر عنها بلفظ عام الهلال السورى الخصيب ونجمة جزيرة قبرص .

٦ــ الامة السورية مجتمع واحـــد

٧ــ تستمد النهضة السورية القومية الاجتماعية روحها من مواهب الامة السورية وتاريخها الثقافي السياسي القومي .

٨ ــ مصلحة سوريا فوق كل مصلحـــة .

ونلاحظ من هذه المبادىء ان الرابع والخامس والسادس منها ، يبحث في وحدة الشعب التاريخية

---

(١) المصدر نفسه ــ ص ١١٣

(٢) " " ــ ص ١١٥

(٣) " " ــ ص ١٦٤

وفي وحدة البيئة الجغرافية ووحدة المجتمع .

اما وحدة الشعب التاريخية فلا تتجلى باصل الامة الواحد السلالي ، فالامة موجودة يتفاعلها ضمن بيئتها ومع هذه البيئة . هي امر قائم بذاته وهي وحدة الحياة ، الطويلة ، بين الشعوب العديدة التي قطنت هذه الارض السورية من كنعانيين وكلدانيين وارامين واشوريين وحثيين ومتنيين واكاديين ،فتفاعلت بعضها مع بعض ، وألفت مزيجًا سلاليا خاصا في نفسيته وتاريخه وثقافته . ولكن حقيقة الامة السورية طمستها الاحداث واعتبار التعاريف الاجنبية اعتبارا فقد الواقع معه قيمته .

ويفسر سعادة عدم اتحاد هذه الشعوب السياسي واسباب نزاعها الدائم وانشاء كل منها دولة خاصة بها ، الى امر طبيعي وجد مالوف هو "ابتغاء بسيط السلطان لاحدى هذه الفئات على بقية البلاد لايجاد تمركز لها ، وليس بدافع انفصال الحياة وانعزال البيئة واختلاف في الحياة واتجاهها" (١) فهذه الحروب لا تشبه مثلا الحروب التي تقوم بين امتين مختلفتين بيئة وشعبا كفرنسا وانكلترا بل تشبه الى حد كبير الحروب التي قامت في ايطاليا بين الاتروسكيين والرومان وغيرهم ابتغاء تسلم السلطان . ومن يلاحظ اتجاه هذه الدول التي نشأت في الهلال الخصيب ، في حروبها يرى انها كانت كلها تسير او تبغي الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الهلال السورى الخصيب (٢) وهذا دليل على وحدة الحياة فيها . وتطور هذه الحياة خلال العصور المختلفة كان نحو مزج هذه الشعوب في وحدة سلاليه متباينة وذات خصائص راقيه متمايزه عن غيرها نتيجة لنوعية هذا التمازج بين هذه الشعوب بحد ذاتها .

ولكن هذا التمازج او هذا التطور نحو خصائص متمايزة هو نتيجة لتفاعل المجتمع ذى الامكانية مع بيئة خاصة . والبيئة السورية في الهلال الخصيب تؤلف وحدة جغرافية — اقتصادية — زراعية — استراتيجية ، فالوحدة الجغرافية ظاهرة في حدودها الطبيعية . ففي الشمال طوروس ، وفي الشرق البختارى وفي الجنوب الصحراء وفي الغرب البحر . وهذه البقعة تقدم امكانيات عظيمة من حيث انها بحرية وجبلية وسهلية وبالرغم من هذا التباين الداخلي وتقسيمها الطبغرافي ، فان التجانس باد فيها للعيان ، وفيها دارت حياة العناصر التي نزلتها واقتزجت حتى صارت شعبا واحدا . وبسبب هذا الوضوح استمرت وحدة الحياة السورية بالرغم مما مر عليها من غزوات وفتوحات .

واهمية هذه الوحدة الجغرافية للامة عظيمة ، فعدا اهميتها السياسية . تأتي الاهمية الاقتصادية

---

(١) النظام الجديد — المحاضرة الرابعة عدد حزيران ٩٤٨ — ص ١٣

(٢) شرح المبداء الرابع ص ١٤

الزراعية فالانهار العديده التي تجرى ضمنها كالدجلة والفرات والعاصي وسيحون وجيحون والليطاني تجعل منها ارضا خصبة ذات امكانيات واسعة ، والامم القوية لا تقوم الا في بيئة تكون فيها ممكنات حياتها كبيره فهذه الانهر تربط الارض في وحدة زراعية ووحدة الارض الزراعية هي وحدة الحضارة .

وعد الوحدة الاقتصادية والجغرافية فان الوحدة الاستراتيجية امر اساسي . اذ ان اتحاد الوطن السورى تكمل بعضا ، وصيانة اية جهة من جهاته ضرورية لصيانة الوطن كله . فاحتلال اية جهة منه تؤدى الى التمكن منه كله ، وقد بين التاريخ ان الشعوب المجتاحة حال دخولها "البوابات السورية" من الشمال او جبال زقروس من الشرق او صحراء سينا من الجنوب كانت تتمكن من الاستيلاء على الهلال الخصيب كله ، فالوحدة الجغرافية ـ الزراعية ـ الستراتيجية تجعل من هذه البقعة الواضحة الحدود مجتمعا قائما بنفسه اى مجتمعا واحدا له مصالح واحدة . وبالتالي وحدة حياة ، لو قامت على الاساس القومي لما تجزأت فيه المصالح ولا تضاربت ، بل قامت فيه مصلحة الامة لا مصلحة الطوائف او الاشخاص او المؤسسات او الاكثرية والاقلية .

وقد اعطى المبدأ الاول والثاني والثالث الناحية الحقوقية من الموضوع . فسوريا للسوريين والسوريون امة تامة ، بمعنى ان وحدة الامة السورية وسيادتها على نفسها امر لا يمكن الاستغناء عنه ، ولا يمكن معه ان يكون لغير السوريين فيه حق تقرير مصير وطنهم . كما انه لا يسمح للسورى بان يتصرف بهذا الوطن الذى هو ملك عام للامة . و وحدته ضرورية لسلامتها ويتيح له وحده حق تمثيل قضيته والبيت في مصالحها وحياته واعتبار ارادة الامة السورية التي تمثل مصالحها ارادة عامة ، ولا يمكن لاحد غير السوريين التعبير عن نفسيتهم ، وجعل القضية السورية هذه ، قضية الامة والوطن ، اذ لا انفصال بين الاثنين فلا قيام لامة بدون وطن .

والنفس السورية الفاقدة الوجدان السورى القومي او الشاعرة بضعفه الان هي امر ظاهر في انتاج رجالها الفكرى والعملي . فمن اختراع الاحرف الهجائية ، وانشاء الشرائع . واثار الفن السورى المنتشر في المتوسط الى ما خلد رجالها العظام كزينون وبارصليبي ويوحنا فم الذهب وافرام والمعري وديك الجن الحمصي والكواكبي وجبران وغيرهم كثيرون .

وهكذا نرى في هذه اللمحة البسيطة الارتكازات الاساسية للقول بالقومية السورية القائمة على وحدة البيئة و وحدة الحياة ضمن هذه البيئة المعروفة بالهلال الخصيب . فالوطن السورى والمصالح الحياتيه اى الوحدة الاجتماعية ضمن هذا الوطن هي العوامل الاساسية الفعالة في نشوء الامة السورية . اما بقية العناصر التي قد يظن انها تؤلف الامة كالصفات والعادات والتقاليد واللغة والوحدة الثقافية

فقيمتها ثانوية وهي شد الرباط في صفوف الامة لا تكوين الامة ، وهي نتيجة للتفاعل بين الارض السورية والشعوب التي قطنتها وتفاعلت معها وكونت من هذا التفاعل الشعب السوري الحاضر .

وعلى هذه الاسس يرفض الحزب القول بقومية غير القومية السورية في الوطن السوري . ولكنه يعتبر سوريا احدى الامم العربية . بمعنى ان العالم العربي هو مجموعة امم ذات شخصيات متمايزة متباينة ، تتكلم لغة واحدة بلهجات مختلفة ، ويدين اكثرها بدين واحد . لكنها لا تؤلف وحدة الحياة ، او وحدة جغرافية ، اي انها لا تخضع للشرطين الاساسيين لوجود الامة ، فلا يوجد لهذا العالم وحدة يمكن ان تجعل من كل مجموع الكتل الموجودة ضمنه ، كتلة واحدة او شعبًا واحدا او امة واحدة او دولة واحدة قائمة على الارادة العامة (١) لذلك تسمية هذا العالم بالعربي تقوم على الاساس اللغوي والديني ولكنها لا تفقد سوريا ميزاتها الخاصة ولا تعطل عليها مصالحها الخاصة .

والقومية السورية ترفض قضيتين قائمتين في البلاد واعني بهما ، القضية اللبنانية ، و "القضية العربية" ، فكلا القضيتين ديني او بالاحرى طائفي ولا عبرة فيما تدعيه كل منهما بانها قضايا وطنية او قومية . اذ انهما نتيجة التناحر الطائفي القائم في المجتمع السوري والذي جلب على هذا المجتمع الويل . وهذه القضايا بكونها قضايا طائفية فهي جزئية ومتعارضة ولاء تابعيها هو للجزء وليس للكل . هو ولاء للطائفة او لجزء من الامة ، وليس للامة . والحزب بنظرته القومية اعطى الولاء للارض للوطن السوري وللمجتمع وبالتالي للوحدة التي هي الكل . فاعتبر القضية اللبنانية الـ (these) والقضية العربية الـ (antithese) اما الـ (Synthese) فهي القضية السورية القومية الاجتماعية .

وهذا المخرج النظري الـ (Synthese) للقضية القومية ، جلب العداء للحزب، فاصحاب النظريتين يعادونه على اساس واحد ، ويتهمونه بالعداء للكيان اللبناني وللعروبة باعتبار ان هاتين القضيتين ، هما قضايا تامة قائمة بذاتها. وفي رأي الحزب ان القومية السورية لا تهدف الى هدم الكيان اللبناني ، الذي هو نتيجة ، بل الى ازالة السبب (٢) ولذلك يعتبر الحزب ان امر هذا الكيان هو وقف على ارادة الشعب اللبناني . لان هذا الكيان يفتقر الى ارادة قومية عامة ، تعطيه الاساس الذاتي فالكيان هذا هو كيان طائفي ومعالجته يجب ان تبتدئ من الاساس . فان منشاء هذا الاستقلال هو حصول اقتناع قديم ان لا حل لقضية المسيحيين المقيمين فيه الا بالانفصال عن الاكثرية المسلمة ، وجعل لبنان دولة مسيحية مستقلة . ولما كان تجمع المسيحيين في جبال لبنان عينها ، وكانت هذه المنطقة لا تكفي لانشاء دولة صغيرة

---

(١) النظام الجديد - المحاضرة الرابعة يونيو ٩٤٨ - ص ١٤

(٢) النظام الجديد - عدد نيسان ١٩٤٩ - ص ٤٩

صغيرة ، ولما كانت ارادة الاحتلال الاجنبي قد اتجهت نحوالاستفادة من الطوائف والحزبيات الدينية في البلاد لتجزئتها ، درست مسألة انشاء دولة لبنانية تستند الى اقتناع المسيحيين ورغبتهم والى ارادة الدولة المحتلة فاعلن الجنرال غورو قائد الجيش المحتل في اول ايلول ١٩٢٠ ، باسم الجمهورية الفرنسية دولة لبنان الكبير (١) فالاعلان هذا تم بارادة اجنبية بالرغم من رفض العديدين له . ومع ان الحزب يقول بالامة السورية الواحدة وان الدولة الواحدة هي خير تعبير عن المصلحة الواحدة . فانه لا يرفض بقاء بعض الكيانات بقاءوقتيا كالكيان اللبناني ، باعتباره نطاقا قوميا يضمن القيم السورية القومية الاجتماعية ويضمن عملها واستمرارها ، اذ ان هذا لا يتنافى مع مبادىء الحزب ولا مع برنامجه . فكثير من الامم تقسمت الى دويلات او كانت مقسمة ، لكنها عندما وعت حقيقتها ومصلحتها الحقيقية اتحدت واقامت الدولة الواحدة التي تحقق المصلحة الكبرى العامة .

ولكن الحزب، تجاه موقفه الصعب من الحكومة اللبنانية منذ ظهوره حتى الان ، وموقف الحكومة منه ، ترك مصير هذا الكيان الى ارادة الشعب اللبناني ، ورفض ان يحتكر احد تقرير هذا المصير . اذ ان بعض اللبنانيين او الحكوميين يعتبرون انفسهم ممثلي الشعب اللبناني وينطقون باسمه ويعلنون عدم حق غيرهم بالتكلم باسم الشعب، خصوصا الذين يرون غير نظرتهم . وقد حمل انطون سعاده على هذه النظرة في خطابه في اول اذار ١٩٣٦ اذ قال "نحن اعضاء في الدولة اللبنانية ، ولنا ملء الحق في ابداء رأينا بشان مصيرها ومن يمنعنا عن هذا الحق يتمرد على سيادتنا . ليست الحكومة الدولة ، فقد دفن هذا المبداء مع لويس الرابع عشر ، وهو يرقد الى الابد بجانبه بسلام . ان لكل حكومة حدا تقف عنده فيما يختص بامر تقرير المصير العام الاخير ، الذي هو مصير الشعب لا مصير الحكومة ."

وقد اعتبر سعاده القضية اللبنانية قضية سياسية ولا يمكن ان تكون قضية عقائدية ، فهي مسألة سياسية تتعلق بظروف بعض الجماعات الدينية (٢) ولذلك فهي مسالة ظرفية تزول بزوال السبب لها واحترام الحزب للكيان اللبناني السياسي لا يعني ان اللبنانيين غير سوريين قوميا ، فانهم كذلك مندمجون في اصل الامة السورية ومزاجها وحياتها وتاريخها وتمدنها وثقافتها وبيئتها ودورتها الاجتماعية والاقتصادية (٣) .

واما القضية العربية فتختلف عن اللبنانية من حيث ان المفهوم الاول لها هو انها جهاد الامم العربية للحصول على استقلالها . وهذا الجهاد المشترك لا يعني ان هذه الامم وحدة . ففي هذا

(١) من بيان الحزب الانتخابي سنة ١٩٤٧ .

(٢) من خطاب اول مارس ١٩٣٨

(٣) كل شيء — ٣١ تموز ١٩٤٧

الجهاد المشترك للتخلص من الاتراك كيفما كان الامر ، لم يكن هناك فكرة واضحة لتاسيس الحياة القومية وحفظ مصالح الشعب السوري . فاختلطت شؤون كثيرة ، منها السياسية ، ومنها الدينية بعضها مع بعض . ولما كان الكثيرون لا يرون خلاصا للامر الا بالاعتماد على القوة الدينية ، امتدت ايديهم للتعاون مع السلالة النبوية وامتدت ايد اخرى للتعاون مع ايد غربية ، ولم يكن من معنى لهذه القضية بالواقع الا طلب الحرية او الاستقلال ، وانطلاق تعبير "القضية العربية" في الامة السورية ، التي كان ينقصها التعبير الصحيح عن قضيتها ، ووجود قضايا دينية وسياسية وقومية مختلفة ، جعل كل قسم ينظر الى هذه القضية بمنظار مختلف ، فهي عند البعض حركة لانشاء امبراطورية عربية وعند البعض الاخر رجعة الى النظرة الدينية وشؤون الخلافة والامامة وعند اخرين قضية نسب وارحام وصلة دموية مع العرب وعند القليلين قضية قومية تلغي امم العالم العربي وتجعل العالم العربي امة واحدة (١) هذا عدا عن الخلط الكثير في التعابير التي تستعمل في "ادب" هذه القضية والتي لا تعطي الا معاني متنافرة في احيان كثيرة .

ويرى الحزب، ان هناك امما عربية ، وان هذه الامم تشترك في اللغة والدين مما يضفي عليها ، من جهة اللغة ، الاسم العربي . لكن هذه الامم وحدات اجتماعية متباينة وذات شخصيات متمايزة ومصالح قد تتضارب ، وقضايا قومية قائمة بنفسها مستقلة كل الاستقلال عن اية قضية اخرى (٢) ولقرب بعض هذه الامم من بعضها ولاشتراكها في بعض المصالح ، يسعى الحزب لانشاء "جبهة عربية" من امم العالم العربي ، تكون سدا منيعا ضد المطامع الاجنبية الاستعمارية ، وقوة يكون لها وزن كبير في اقرار المسائل السياسية الكبرى . ولكن لا يمكن لهذه القومية والعصبية الحساسة في انهاض الامم . فعلى الامة السورية اذا ، المؤهلة متى وعت نفسها الى قيادة العالم العربي ، ان تعمل ضمن نفسها ولنفسها لتتمكن بالتالي من تقديم واجبها نحو الامم العربي (٣) فالحزب لا يضر على ان تنحصر فكرته القومية الاجتماعية على الامة السورية ، بل يرى ان تتعداها ، لكن ضمن حدود معينة ، الى الامم العربية عن طريق العمل الثقافي وتبادل الاراء والتفاهم لا عن طريق الغاء شخصيات الامم العربية وفرض النظريات عليها فرضا (٤) ومن هذا يتضح ان عمل الحزب لا يتنافى مع عروبة العالم العربي وليس الامة العربية . وهو يعرف ان في اتباع الخطط القومية الاصيلة ، اى ان بعث الروح القومية في هذه الامم يقود الى تقويتها ونهوضها وبالتالي الى امكانية فرض وجهة نظرها في هذا العالم القائم على المصالح القومية .

---

(١) خطاب اول مارس ١٩٣٨ ص ٤

(٢) كتاب التعاليم السورية القومية الاجتماعية ـ المبداء الرابع

(٣) من رسالة الزعيم الى احد اصدقائه نشرت في "النهار" في ٢٢ك٢ ١٩٣٦ و "القبس" في ٣١ منه .

(٤) كتاب التعاليم ـ غاية الحزب

والعروبة الحقيقية التي يقول بها الحزب والتي اول ما وصفها بالحقيقية انطون سعاده في خطا به ألقاه في ٢ اذار سنة ٩٤٧ يوم عودته من المهجر ، تختلف في نظره عن العروبة الوهمية التي لا تقوم على واقع اجتماعي ، اى التي لا وجود لها . فلقيام الحقيقة لا بد من شرطين اساسيين : الاول هو الوجود بذاته اى ان يكون الشيء موجودا ، والثاني ان تقوم المعرفة لهذا الوجود ، والمعرفة هي التي تعطي الوجود قيمة لا يمكن ان تكون له بدونها . وبما انه ليس لهذا الواقع (الامة العربية من وجود ، فان معرفتها ستبقى امرا وهميا لا حقيقة له ، وسيبقى التخبط قائما في تحديدها ومعرفتها . فالعروبة الحقيقية هي تلك التي تعرف حقيقة العالم العربي وان قوامه عدد من الامم التي يتمتع كل منها بشخصية قومية خاصة ، يمكن ان تتعاون معها ، خصوصا في الحقل الانترنسيوني . فالتعاون بين الامم العربية وهو امر يحدد بالاتفاق وبالنظر الى المصالح الخاصة ، شيء يقول به الحزب ويسعى اليه ، وتحقيق الكيانات القومية واستعادة ما ضاع منها امر يعمل له الحزب ايضا ، ولكن الحزب لا يقر ما هو غير واقع ولا يمكنه ان يقر به لانه غير موجود ولا يمكن ايجاده لانه ليس قضية تتم بالاتفاق او التسوية او الرغبة الفردية ، بل هو واقع اجتماعي لا يمكن تغييره .

وفي نظر الحزب ان الدعوة العروبية كما هي الان ، هي دعوة دينية طائفية وان الاقلية التي تقول بغير ذلك لا تجد الاساس المادى حتى ولا الروحي للقول بامة عربية . كما ان القضية اللبنانية لا تختلف عنها من هذه الوجهة فكلا الاثنين يلتقيان من حيث الاساس الديني (١) ومن حيث الخوف من الاقرار بحقيقة الامة . فالدعوة لقضية لبنانية او لقضية عربية لا تثبت على اساس قومي ، اى على اساس المجتمع الواحد الذي تؤلف مصلحته مصلحة الكل ، بل على اساس طائفي تكون فيه مصلحة الجزء هي المصلحة القصوى .

وهكذا ينفي الحزب عدم وجود قضية حقيقية عربية ولبنانية ، ويظهر مكان هاتين القضيتين ، قضية الامة السورية ، التي هي في نظره القضية الحقيقية الذي يجب ان ياخذ بها المجتمع السورى ، وهذه النظرة الجديدة لا تعني فقط وعي الامة السورية لنفسها ووعي حقيقة وجودها ، بل تعني ايضا تغيير صفات الامة او العودة الى الصفات الاصلية لها الظاهرة في ادبها الخاص ، وفي فكرها الخاص . فالقومية السورية ليست مجرد قومية سياسية ، انما اتجاه في الحياة واخذ بالنظرة التقدمية والانفتاح على العالم ، فهي تعني لاعضاء الحزب طريقة جديدة في الحياة تختلف عن طريقة الحياة العربية ولا تاخذ بها . وهذه الطريقة سورية الاصول . هي عودة الى نفسية الامة السورية الاصيلة . هذه الامة التي تقع بين الشرق والغرب وتميل الى الغرب اكثر منها الى الشرق اذ انها اساس ثقافة البحر المتوسط (٢)

---

(١) جريدة كل شيء — عدد ١٠٥ اول نيسان ١٩٤٨

(٢) من خطاب اول مارس ١٩٣٨

الشرق والغرب :

وفي نظر سعاده ان هناك خلافا واضحا بين الشرق والغرب من حيث النظرة الى الكون والانسان ، الفرد تقود بطبيعة امرها الى اختلاف في طريقة معالجة الامور وتسييرها . وهذا الخلاف قد لا يمكن في المظاهر الخارجية ، في شكل الاشكال قدر كونه في الفكر والشعور ، والعالم اليوم يسير قدما نحو تقدم تكني عظيم يبقى التغاضي عنه جهلاً قبيحا وانخذالا اقبح .

وسوريا بموقعها الطبيعي ، تقع بالاكثر ضمن المنطقة الشرقية ، وفي تاريخها الطويل ، كانت مركزا يجتمع فيه الشرق والغرب . فتأثرت بالاثنين معا ، واعطت للعالم فكرا فريدا من نوعه هو مزيج من الاثنين . ولكن النزعة الشرقية ، نزعة الاتكال وقبول الامر المفعول ، وفقدان الفضول الفلسفي ، اى عدم التوق الى معرفة الاسباب والحصول على جواب (لماذا) ، طغت عليها خصوصا بعد دخول الدين الاسلامي وانتصار (بلا كيف) الاتكالية على (كيف) التقدمية)

ومن طبيعة النفس الشرقية التعصب ، فهذه النفس لا تفهم كثيرا معنى التسامح (Tolerance) لانها تقبل بالامر كما يصل اليها دون تحر عن اسبابه ونتائجه ، فلا تمشق الحسام الا ضد امر يخالف ما اخذته من نتائج لا ما وصلت اليه منها .

وانتصار بلا كيف قوّت في النفس الشرقية التوق الى الفناء في الشؤون الغيبية وفي القضايا ذات العلاقة بما وراء المادة واضطرت الى ترك المسائل الوجودية ، الهيوليه الحسيه ، وحيثما انعدمت اسباب التقدم العمراني انعداما يكاد يكون كليا صارت مطالب ما وراء المادة نفسها مادية في معظمها ، فصارت الجنة جنة حلى وملابس وعطور وماشاكل (١) فالروحية التي ينعتونها بالشرقية لا تقتصر على الشرق وحده ، كما ان المادية هي من نصيب الشرق والغرب معا . فمسائل الحب المادى والشهوات الجسدية والصور المادية في الادب وتعابيره تدل على هذه المادية القوية في الشرق . وما الحجاب وتعدد الزوجات الا نتيجة هذه النظرة المادية التي لم يتعلمها الشرق من الغرب . وبينما نرى الغرب قد سما بفنه الى روحيه عليا ، والى انطلاق وتحرر ، نرى ان الفن الشرقي من موسيقى وغيرها لا يزال يعبر الا عن حاجات مادية حقيرة .

ولذلك فان النفس السورية القومية ترفض الاخذ بالنظرة الشرقية التي ترفض المادة التي يستند اليها العلم الحديث وثقافتها لفشلها في اخضاع المادة والتي تقول ان الانتصار على المادة يكون بمعالجتها والقبض عليها وتسخيرها للغايات النفسية الجميلة التي تجعل الوجود الانساني جميلا ، صريحا ، نيرا .

---

(١) انطون سعاده — الصراع الفكرى في الادب السورى الطبعة الاولى (الارجنتين ١٩٤٣ ص ٢٨ .

وقد رد سعاده في "الصراع الفكرى" على مخائيل نعيمه في تفريقه بين الشرق والغرب. وقد جعل الاخير الفرق في ان الشرق يستسلم لقوة اكبر منه، فلا يحاربها والغرب يعتقد بقوته ويحاربها كل قوة. الشرق يرى الخليقة كاملة لانها من صنع الاله الكامل، والغرب يرى فيها كثيرا من النقص ويسعى لتحسينها (١) فنعيمه يرفض تحسين الخليقة بكلامه هذا، ويرفض معها كل تقدم. فينتقده سعاده حول هذه النقطة مبينا ان الدين نفسه نشأ لتحسين الخليقة، لكنه عطل كل تحسين جديد، وانه ليس في سنة المسيح او الرسول ما يمنع التفكير بتحسين الخليقة. لكن العقلية الشرقية التي عجزت عن حل قيود الروح المادية افترضت وجود هذه القوة الكبرى التي اختلفت في شأنها حتى الكتب "المنزلة"

ومن الطبيعي ان الاخذ بالنظرة الشرقية، كما هي يعني الاستسلام الكلي لما يحدث او الهرب من الواقع والحقيقة، باللجوء الى قوة غيبيه نترك امرنا بين يديها كما يفعل الفقير الهندى، وننسى شأن التقدم العلمي والروحي الذى يحدث في العالم. وطالما ان هذه النظره لو اخذنا بها، لن تقدر على منع الحروب ولا عن رد العداة عنا، ولن تحل مشاكلنا الحاضرة، انما تؤخر تقدمنا العلمي فالحزب يرفضها — ويحاربها ويسعى الى نزع العقلية الشرقيه بانشاء عقلية جديده تحمل في نفسها السمو الروحي الفردى والجماعي وتحمل ايضا الروح العلمية والعقل المجرب الذى لا يأخذ بالحدس ويقبل الامور كما هي. بل يشك بها ويختبرها ليصل الى اليقين الانساني.

وهذه العقلية تدل على نوع الحضارة او التقدم الذى ياخذ به الحزب. فالنهضة او التقدم لا تعني مطلقا التقدم العارض، اى زيادة المعارف والتكلم المبعثر عن فولتار وموليار، ان هذا لا يعني نهضة (٢) فالنهضة تحتاج الى الحافز الروحي المستمد من فكرة او عقيده فلسفية جديده في الحياة وقضاياها — اى ان على النهضة لتكون نهضة ان تتبع شكلا (pattern) فكريا معينا. وان يكون لها نظره خاصة واتجاه معينا وحافزا اصيل منبثق عن ارتقاء نفسي. فالتقدم التكني بالحقيقة ليس تقدما بالمعنى الصحيح اذ ان التقدم الحقيقي هو تقدم في الانسان وفي نظره الى الحياة والكون والفن. وليس كله تقدما خارجا عن الانسان. ان التقدم التكني هو نتيجة للتقدم النفسي وليس سببا. فان لم نتقدم في نظرنا الى الاشياء وفي محاولتنا بعث الماضي لنحقق تقدم المستقبل، فان ما ندعوه تقدما باطل.

ولذلك على الامة الا تقبل بالامر المفعول والحالة القائمة وتستسلم، بل ان تنشىء تقدما جديدا واسلحة جديده لانه في الصراع بين المجتمعات لن يقرر الحق الا القوة (٣)

---

(١) مخائيل نعيمه، المراحل

(٢) النظام الجديد — المحاضرة الاولى مارس ١٩٤٨

(٣) النظام الجديد القنبلة الذرية وتفوق الامم، بقلم الزعيم — مايو ١٩٤٨ ص ١٩

والحزب لا يقر الدعوات للسلام العالمي على الاساس الحاضر اذ ان انتظام السلام في وضع من النوع الحاضر يعني عمليا اتفاق دول كبرى تفرض على بقية العالم الخطط الكبرى، او حربا تنتصر فيها دولة او دولتان على العالم وتفرض خططها عليه . وا لا فكيف يمكن ان يحدث السلام عمليا ؟ . وفي حالة من هذا النوع ، ما هي نسبة العدل عمليا التي ستسود كل شعب ؟ وما هو موقف الامم كالامة السورية المغبونة وهل يحق لها المطالبة باسترجاع ما فقدته ؟ وهل يناسب الامم الفتيه التي ترغب في التوسع والكبر ؟ وهل سيترك الفرصة للامم التي قل عددها ، للعودة الى طبيعتها ، او يفرض عليها السلام ؟ (١)

ان التفكير في نظر سعاده ، بايجاد سلام يجب ان يبنى على اساس ازالة اسباب الخلاف وكل احتمالات للخلاف . وحتى تزول الاسباب فان الخلافات تبقى . وهذه الخلافات جزئية في داخل الامم ، ولكنها اصيلة واساسية بين الامم . وفكرة السلام في بعضها هي نوع من السياسة التخديرية ، لان الامم المسيطرة والمتمكنه من موارد العالم الصالح لتموينها ، الذى تفاخر به لانه يشتمل على مقياس مادى وروحي معين ، تدعو لهذا الامر وللاحتفاظ به على حساب امم غيرها . وسعاده لا يريد لسوريا ان تكون من هذه الامم التي سيوطد السلام على حسابها ، بل يدعو للعمل وللولاء القومي ، لتنهض الامة ، ويدعو الامة للتسلح وتاليف جيش قوى لان القوة هي القول الفصل في اثبات الحق القومي او انكاره (٢) ولان السلم سيوطد على حساب الامم المستسلمه التي تغنّي في ذلها وعبوديتها غناء القناعة والسلام (٣)

الادب السورى :

ويرى سعاده ان اللغة بطبيعة كونها اداة للتفاهم في المجتمع الواحد ، تؤلف تراثا للامة لما تحمله او تنقله من نفسية هذا المجتمع، وليس لانها لغة منزله او لغة قومية بمعنى انها احدى العوامل الفعالة في تاسيس الامة .

فاللغة هي الاداة التي يظهر بها ادب الامة الى الوجود ، ولكنها ليست الادب ذاته ، فليس كل ما كتب بها هو تعبير عن نفسية الامة . فان هناك امما عديده قد تشترك في لغة واحدة ، فليس من معنى، لأن يكون ادبها هو ادب هذه الامم .

ومن وجوه هذه النقطة يرى سعاده ان الخطاء ابتداء في سوريا باعتبار كل المعروف بالادب العربي ادبا يعبر عن النفسية السورية . فمنذ ان فتح السوريون اعينهم على النهضة الحديثة لم يجدوا امامهم الا

---

(١) من حديث لانطون سعاده في الحلقة الثقافية اجتماع اول اب ٩٤٨ محفوظ في ملفات الندوة .

(٢) كتاب التعاليم — المبداء الخامس

(٣) القنبلة الذرية وتفوق الامم — ص ٢٠ من النظام الجديد — مايو ١٩٤٨

بعض الكتب والاشعار التي لا تمثل الا الشعور الجامح كالحماسة والفخر ، وطورا تمثل الاحساس المنفعل تحت تاثير عامل قوى كالغزل والتشبب (١) ولكنها تخلو من حقيقتهم ومن ثروتهم الروحية الكبيرة المتأصلة في نفسهم منذ القديم ، وقد ظهرت في فكرة الانتاج والعمران اللذين هما للسورى قيمة ومعنى وجوده ، واللذين تمكن بهما من التأثير في الامم التي حوله واعطائها عددا من الالهة الرامزة الى نظام الحياة ، وتقديم موارد فيثولوجية لا نضوب لها للاغريق ولغيرهم .

والادب كله ، من نثر ونظم من حيث هو صناعة يقصد منها ابراز الفكر والشعور لا قيمة له ولا يمكنه ان يحدث تجديدا او تقدما ، لان الادب مسبب لا سبب ، هو نتيجة حصول التجديد او التغيير في الفكر والشعور (٢) فالادب ليكون فاعلا حيا عليه ان يكون منبعثا عن الدوافع الجديده او الفكر الجديد الذى يحركه ويحرك الحياة السياسية والاجتماعية معه .

والادب من حيث هو ادب او فن هو لغة النفس الانسانية بكل ظواهرها وبواطنها . فالتنوع في الادب هو تنوع يتبع حالات نفسية خاصة ، فالقوم الذين لا تزال نفسيتهم في دورها الابتدائي كان ادبهم ابتدائيا لا يعبر الا عن العواطف التي هي شيء مشترك بين الانسان والحيوان ، كالشهوات الجنسية ، واما القوم الذين تحررت نفسيتهم وارتقت ، فان ادبهم يسمو عن الشهوات الجنسية ، ويعلو عن الاغراض الحيوانية الدانيه ، ولذلك فان ادبنا كما هو الان ليس الا مرآة نفسيتنا التي لم تتحرر بعد ولا يمثل نفسيتنا الاصيلة الاصيلة واكثر كتابنا الذين يقلدون الاشعار العربية القديمة ويتكلمون عن شؤون ليست من مظاهر تمدنهم لا يمكنهم ان يقدموا للحياة فكرا جديدا ولا يمكنهم الارتفاع والسمو الى التخيلات السامية التي هي من صفات التحرر الروحي والعقلي .

ولذلك فان على الفكر السورى والادب السورى ان ينتهجا طريقا جديدا ليس لمجرد التجديد الفني ، بل للتعبير عن نظرة الى الحياة والكون والفن جديده قادرة على استيعاب المطالب والمطامح النفسية المنطبقة على خطط النفس السورية (٣) والنفس السورية لا يمكنها ان تجد شيئا من خصائصها في ابتكارات خارجة عن الفكر السورى ، اذ ينقصها المغزى الفلسفي للفكر والشعور الانساني كما ترسمه مثلا الاساطير السورية في قصة ادونيس ومعط وعلين ، وملحمة جلجمش التي كانت معينا لكثير من الاساطير الاغريقية ، والتى نرى فيها التصور السورى قد عرض لقضايا الحياة باسبابها واشكالها ، فتناول الشيخوخة والشباب والابوة والبنوة والحب والبغض والحكمة والاقدام والعدل والظلم ، وترى الشباب فيها غير نابض بثورة الشهوات والحب

---

(١) المجلة مجلد ٨ عدد ٤ بعث الادب السورى بقلم " مفكر حر " هو سعاده

(٢) سعاده الصراع الفكرى ص ٣٩

(٣) سعاده — الصراع الفكرى ص ٨٢

البيولوجي ، بل تراه في مطامح السؤدد ، وفي محاربة لويتان (١) او تنين الرذائل الذى كان ولا يزال يخيف النوع الانساني (٢) فعلى الادباء ان ينهلوا من هذا المعين لانه لا يمكن ان يعيد لنا ادبا ، ان لم يكن يعني بقضايا الفكر والشعور الكبرى في نظرة الى الحياة والكون والفن عالية ، اصيلة ممتازة ، لها خصائص شخصيتها . فان مثل هذه النظرة تعطي معنى جديدا للقيم كالحرية ، والحب الذى يصبح قضية جمال الحياة كلها واشتراك النفوس في هذا الجمال .

وللانتقال الى هذه النظرة تحتاج الى قفزة لرفس الفردية غاية اخيرة للفرد ، والقفز الى عالم ابتغاء الحقيقة الاساسية الكبرى التي يستقر عليها الفكر ويطمئن اليها الشعور ، والقاعدة الذهبية التي لا يصلح غيرها للنهوض بالحياة والادب وهي هذه القاعدة : طلب الحقيقة الاساسية الكبرى لحياة اجود في عالم اجمل وقيم اعلى (٢)

اما الفنون والاساليب التي تعبر عن هذه الغاية ، فليست مهمة بحد ذاتها قدر اهمية الغاية العليا التي تهدف اليها .

المبادىء الاصلاحية :

ومن مظاهر القومية السورية كما وضعها سعاده مبادىء حزبه الاصلاحية التحي يرى انه بتحقيقها تزول الاسباب المفرقة للامة السورية وتزول بطبيعة زوال هذه الاسباب، النظرات المختلفة الى جوهر الامة السورية .

وهذه المبادىء الاصلاحية خمسة :

١) فصل الدين عن الدولة

٢) منع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين

٣) ازالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب

واما المبداء الاخير فيتعلق احدهما بالتنظيم الاقتصادى و الاخر باعداد الجيش قومي يكون يكون ذا قيمة فعليه في تقرير مصير الامة والوطن .

فالمبداء الاول يرمي الى ازالة الحكم الثيوقراطي ، او الجمع بين الدين ، وبين اصول الحكم . فالمراجع فالمراجع الدينية تشبث بكونها المراجع الاخيرة في الدولة . وانها صاحبة السلطة والسيادة الفعلية .

---

(٢) المصدر نفسه — ص ٩٨ - (١) (Leviathan)

(٢) المصدر نفسه — ٨٨

ولن يكون الامر مجرد صراع بين السلطة الدينية والسياسية بل سيتعدى ذلك الى النزاع بين المصالح القومية التي هي مصالح الامة كامة وبين المصالح الدينية التي قد يكون فيها الولاء لسلطة دينية خارجة عن الامة او ولاء لجزء من الامة ،اى طائفة معينة وتغاضي عن الولاء الحقيقي للكائن الذى يجمع كل المصالح في مصلحة واحدة يعني الامة .

وفي الدولة التي لا فصل فيها بين الدين والدولة ، يكون الحكم فيها بالنيابة عن الله . ولا يمكن محاسبة الملك او الحاكم محاسبة قانونية دستورية . وعلى الرغم من ان دساتير بعض الامم العربية والدول السورية لا تنص صراحة على هذا الامر فان الواقع،هو ان العائلات الدينيه تحكم في الاردن والعراق ، ليس لانها صاحبة حق طبيعي ، بل لانها تمثل الولاء للدين . وفي الجمهورية السورية نرى الان المحاولة للجمع بين الدين والدولة في الدستور ، وفي لبنان يستأثر البطريرك الماروني وبقية رجال الطوائف بكثير من السلطة على قومه وبالتالي على التوجيه السياسي وهذا الامر مناف للقومية ، كما انه مناف للدين كحاجة نفسيه للتحرر من القيود المادية ويحط من شأنه . فالحزب بتحقيقه هذا الفصل ليس فقط في النظام الشكلي للدستور ، بل في نفسية الشعب بتربيته تربية منزهة عن النزعات الطائفية ، يرمي الى ازالة السبب للاختلاف في النظر الى قومية البلاد السورية ، ويرمي الى توحيد الشعب باعطائه ، حق تقرير مصيره بنفسه وليس بواسطة رجال الدين والملوك الدينيين ، وبتحويل ولائه من للمؤسسات الخارجة عن الامة او المقسمة للامة ، الى ولاء للوحدة الكلية التي هي الامة ، ويحل بذلك مشكلة الاقليات بالغائها من اساسها .

والمبدأ الثاني يرمي بالواقع الى توحيد التشريع . فالتشريع يجب الا يتضارب بعضه مع بعض، ويجب ان يجعل الكل متساويين امام القضاء لا ان يكون للبعض حقوق كاملة وللبعض الاخر حقوق جزئية وممنوحة ، فالمواطن من حيث هو عضو في الدولة يجب ان يتمتع بنفس الحقوق وبنفس الواجبات .

ولا يختلف المبدأ الثالث عن الاول والثاني . انما هو تتميم لهما ، فهو يبين ان في امتنا تقاليد متنافرة ، مستمدة من انظمة مؤسساتنا الدينية والمذهبية . وهي تؤلف حواجز تقليدية تخلف وتقلل من قوتنا في المطالبة بالحرية والاستقلال ، وتفقدنا الوحدة الروحية ، كما وانها تجعلنا وكأننا مجتمعان في مجتمع واحد . ولا يمكن للوحدة القومية ان تتم ان لم تزول هذه الحواجز وترتفع وتحل محلها الوحدة القومية الروحية ـ المادية .

ولن نتدخل هنا في تفصيل المبدأ الاقتصادى ، الذى هو نوع من الاشتراكية الاقتصادية ، كما واننا لن نفصّل المبدأ الخامس والغاية منه تاليف جيش قوى لصيانة الامة . وسنعرض بقليل من التفصيل برنامج الحزب السياسي تجاه القضايا القومية الكبرى لنتمكن منه ادراك النتائج للقول بالقومية السورية .

برنامج الحزب السياسي واعمالـــــه :

ليس للحزب بالواقع خطة سياسية غير تحقيق المبادئ التي يدين بها وتعين له خططه السياسية وطرق عمله واتجاهاته . ولكن لا بد لكل حزب يريد ان يحقق هدفا من ان يعين الطريق التي سينتهجها لما هنالك من علاقة بين الطريق والغاية فكثيرا ما يقودنا خلال الطريق الى الابتعاد عن الغاية التـي نقصدها . فتتحطم نفوسنا ونترك الغاية لنغرق في اوحال الطريق . وكما قلت ان الحزب لم يحتفظ لنفسه طريقة بطريقة للعمل معينة ، لكننا نتمكن ان نتبين هذه الطريق من معالجته للقضايا العامة ووجهة نظره اليها .

لست اعني هنا بالخطة السياسية نوع الدعاية او الاذاعة التي يوجهها الحزب لاقناع الناس بصحـة نظرته ، فهذه قضية فنية خالصة ولها مشاكلها الخاصة . وقد كان لها مشاكلها ضمن الحزب ايضا . فبينما كان الكثيرون يرون ان يجاري الحزب اللبنانيين والعروبيين بالتقرب اليهم ولو بالالفاظ دون الجوهر ، كان سعاده لا يرى هذا الراى ، بل يصر على الاذاعة الصريحة التي تقول بالقومية السورية على اعتبار ان قضية الحزب هي القضية السورية القومية الاجتماعية ، التي عرفها ويدعو لها ويعمل لها ، وان هناك احزابا لبقية القضايا يمكنها ان تخدم تلك القضايا ، فالاذاعة يجب ان تستهدف نقل الحقائق وتستصرخ العزة القومية لا ان تستهدف ، كالدعاية ، تشويه الوقائع وبهرجة الحالة الراهنة وتخدير العزة القومية .

فالخطة السياسية هي الموقف الذى ينتهجه الحزب تجاه المشاكل القومية الكبرى التي يتقرر بها مصير البلاد او جزء منها ، كقضايا المعاهدات والمشاريع التوحيدية واستلام الحكم والتعاون مع الاجانب ، وللحزب نظرته الخاصة تجاه هذه المشاكل يمكننا درسها في قضايا معاهدة ١٩٣٦ وقضية الاسكندرون وقضيـــة فلسطين ومشروع سوريا الكبرى والهلال الخصيب .

ولكن قبل ان ندرس هذه المواضيع ، نحب ان نسال كيف كان الحزب ، يوغب في تنفيذ برنامجه ، وهو برنامج لا شك في انه ضخم و كبير . هل كان سينتظر الزمن ليغير الناس ولا يعرف كيف يتغيرون ، ام يسبق الزمن فيتسلم الحكم بثورة ويحقق برنامجه ، وهو على الحكم ، لقد اتبع الحزب تجاه هذا الامر موقفين ، ليس لانه لم يكن قد عين موقفه ، بل لانه كان يعتقد ان استلام الحكم من اجل استلامه قضية لا تفيد اذا لم يكن هناك رجال مسؤولين عن تنفيذ برنامجه ، يفهمون روحه ويدركون خطورته ومعناه ، فسعى لتهيئة مثل هؤلاء الرجال قبل ان يقدم على اى عمل خطير . ولكنه في الوقت نفسه كان يهيؤ من بان عملا حاسما ثوريا كان يجب ان يقوم . والامر الذى كان يمنع الحزب عن اتمامه هو ان حصول هذا الامر في احدى الكيانات السورية وعدم حصوله في غيرها ، يؤدى الى عقبات وتدخلات دولية من الصعب ازالتها . فكان يعمل على بث افكاره الاصلاحية لتخفيف وطأة الاسباب التي تؤخر تقدم البلاد ، وتطيل انقسامها ، وكان يعمل على

بثافكاره الاصلاحية لتخفيف وطاة الاسباب التي تؤخر تقدم البلاد ، وتطيل انقسامها ، وكان يعمل على ان يقوم بعمل حا سم في الوقت نفسه الذى يراه مناسبا . واما ما قام به في الاخير ، فليس الا نتيجة اظهاد والحكومة اللبنانية له ، ولم يكن تنفيذا لخطة الحزب او برنامجه .

فالثورة كما يفهمها الحزب هي ثورة فكرية اى ثورة عقلية الشعب ونفسيته ، ولكن الثورة الما دية التي ترمي الى تنفيذ خطط الحزب الموصله الى هذه الثورة الحقيقية لا بد منها ، فا ن تمت بالوسائل السلمية فهذا ما يحبذه الحزب، ولكن ان لم يكن هناك بد من غيرها من الوسائل ، فذلك شر ضرورى . ويمكننا ان نفهم هذه الحقيقة من الخطاب الذى القاه انطون سعاده قبل اعدامه بايام على القوميين الاجتماعيين الذاهبين الى القتال لافتا به نظرهم ان الحزب لا يرمي الى قتال الدرك ، بل الى اسقاط الحكومة ، وطلب منهم الا يقاتلوا الجنود الا ان قاتلهم هؤلاء ، لانهم اخوان لهم في القومية ويجب المحافظة عليهم كانفسهم (١)

هذه نظرة الحزب الى الثورة الداخلية وطريقة وصوله الى الحكم ، لكن لن نصل الى فكرة شاملة وواضحة ان لم نر طريقة معالجته للقضايا القومية الكبرى التي اشرنا اليها ، ويجب ان نعرف هنا ، ان الحزب لا يمكنه ان يفعل اكثر من ان يوجه وان يبدى وجهة نظره لانه ليس صاحب السلطة ولا تقع عليه تبعة التقصير الا اذا كان صاحب السلطة الفعلية .

فمنذ ظهوره واجه مصاعب جمة وواجه قضايا عديده ، فا لحكومة الفرنسية كانت قد اخذت تفاوض السوريين لعقد معاهدة صداقة وتحالف تمنحهم فيها الاستقلال . فذهب وفد منهم الى باريس بينما كانت المدن السورية مغلقة كلها ، والمتظاهرات الدامية قائمة في اكثرها ، خصوصا في طرابلس التي اخذت تلح في طلب الانضمام الى سوريا ، وفي بيروت حيث كادت تظاهرات المسلمين تؤدى الى معركة طائفية . فتدخل الحزب في هذه الحوادث مباشرة ومنع وقوع التصادم في بيروت على اعتبار انه لا يجوز حصوله للاسباب الطائفية التي ادت اليه ، وكان يعتبر فيه ان المقياس السياسي الذى يطالبون فيه با لوحدة هو مقياس طائفي ، اصبح احد اسلحة الاستغلاليين من جميع المذاهب يستعملونه وراء الفاظ "استقلال لبنان" و "الوحدة السورية" (٢) فالحزب يطالب بالوحدة لانها امر واقع بالطبيعة ولانها تعني له امرا واحدا معينا ومشكلة قومية يجب ان تزول .

الاسكندرون :

وفي الوقت الذى كان الحزب يواجه سلطان الانتداب ويقف في وجهها برزت الى الوجود قضية الاسكندرون فقد اخذت تركيا تطالب بمركز ممتاز في اللواء هذا وتدعي ان السوريين يظلمون الاتراك ، فانتقلت قضية

---

(١) من حديث هملته في السجن مع احد القوميين المشتركين في القتال

(٢) انطون سعاده دم الغوغاء — مقال في الجمهور عدد ١١ ٢٨ ت٢ سنة ٩٣٦ ص ٥

اللواء من ايدى السوريين الى ايدى عصبة الامم التي افردت للمسالة جلسة خاصة او عينت لجنة لدرس القضية .

كان الحزب يدرك منذ البدء المناورة التركية ، فنشر الزعيم مقالا في جريدة "الشرق" البيروتية ، وضع المسالة فيها امام الشعب ونبههم الى الخطر ، ثم وضع الحزب مذكرة وجهها الى عصبة الامم والدول الصديقة ، بيّن فيها ان الحزب يعتبر مسالة الاسكندرون مسالة حيوية للامة والوطن السورية وينكر وجود اى اساس حقوقي لتركيا في هذا اللواء السورى ، وابلغ الغرفة السياسية في المفوضية الافرنسية وجهة نظره هذه ولما توترت الحالة واصبح من المؤكد انسلاخ اللواء عن الجسم السورى ، ارسل زعيم الحزب الى المفوضية الفرنسية كتابا يبلغها فيه استعداده للدفاع عن الاسكندرون ، وتمكنه من وضع القوات الكافية لتامين الحقوق السورية (١) اذا أُمن له السلاح . وبالفعل ابتدأت حركة تطوع من اجل هذه الغاية ، لكن المصالح الفرنسية التي قضت بسلخ اللواء لم تكن مستعدة ان تتنازل عنها من اجل المصلحة السورية .

واعلن سعاده ان الحزب يرفض جميع المساومات والتسويات والاتفاقيات التي عقدتها او تعقدها دولة منتدبة على سوريا ، او على جزء منها وكانت آئلة الى تعديل وحدة الوطن السورى ووحدة الامة السورية واعتبرها مساومات فاسدة ، فلا فرنسه ولا دولة اجنبيه غيرها تملك الحق بالتصرف بشبر واحد من ميراث الامة السورية . وكل ما حدث هو تعد على ارض الوطن وعلى حقوق الامة السورية الصريحة .

فلسطيـــــن :

ولا يختلف موقف الحزب في قضية فلسطين عن قضية الاسكندرون ، فكلا المكانين يؤلفان اجزاء متممة للوطن السورى ، وضياعها يعني خسران الامة السورية اعز اجزائها . والحزب قد انتبه للخطر الصهيوني منذ تاسيسه وقدم حلوله لهذه القضية في عدة مناسبات فقبل تاسيس الحزب كتب انطون سعاده مقالة في "المجلة" التي كان يصدرها والده سنة ١٩٢٥ ، ردا على احد اليهود الذين اموا البرازيل للدعاية للقضية الصهيونية بيّن فيها انه ليس هناك امة يهودية ليكون لها حقوق في فلسطين ، وبيّن فيها حقيقة الصهيونية وخطرها ، وعرض للاسباب الدينية التي تساعد على جعل حملة الصهيونية لإنتهاجها خطه منظمة لا يمكن ايقافها الا بخطة نظامية اخرى معاكسة لها . وبيّن ان سورية تخلو من حركة قومية منظمة تتقدم الامة وتهيء لها مصيرا مجيدا ، مما يجعلها تواجه حالة خطره جدا . وانتقد منذ ذلك الوقت الاعمال السياسية الاحتكارية وتخاذل بقية السوريين تجاه قضية جنوب سوريا ، وقال بوجوب جعل قضية فلسطين ضمن نطاق قضية سورية قومية واحدة لان عمل سوريي فلسطين وحدهم لا يكفي لانه لا يشمل سوريا كلها وينقصه التضامن الضرورى لحياة الامم التي لا تتجزأ (٢) وهذه النظرة الاخيرة هي التي اعتمدها الزعيم

---

(١) من رسالة الزعيم الى القوميين عن قضية الاسكندرون . معاد نشرها في "نشرة عمدة الاذاعة مجلد ٣ عدد ٤

(٢) المجلة — مجلد ١١ عدد اول شباط سنة ١٩٢٥

دائما . فما كان يريده من هذه القضية هو ان تكون قضية الامة السورية كلها لا قضية جزء منها .

وفي سنة ١٩٣١ رد سعاده على خطاب لويد جورج كان قد القاه في احدى المآدب التي ادبتها له الجمعية الصهيونية في لندن (١) بيّن فيه التناقض في كلام لويد جورج ، وعدم نظرته التاريخية الى فلسطين باعتباره فلسطين ارضا خرابا قبل دخول اليهود اليها . ويرد عليه لتسميته سكان فلسطين بالعرب والمسيحيين قائلا "انه لا يوجد في فلسطين عرب ومسيحيون بل جماعة هي جزء من الامة السورية التي تحمل رسالة تنص في جملة موادها على انهاض العالم العربي اجمع . وهي الامة التي وضعت حجر الزاوية في بناء تمدنكم والتي فعلت في سبيل المدنية كل شيء .

وبعد تاليف الحزب، وكان لا يزال سريا القى سعاده خطابا في حفلة افتتاح النادي الفلسطيني في بيروت سنة ١٩٣٣ اظهر فيه الخطر الصهيوني في الجنوب والتركي في الشمال وانزلاق الامة السورية في تفسخها ، ومن ثم شبّه الخطر الصهيوني بافعى التقت عاملين بالطريق فهرب الواحد واخذ يستغيث علا بجيرانه لينجدوه . بينما اخذ الاخر معوله وراح يجاهد وحده حتى اجهز عليها وبينما وقف الاول يصيح فرحا "لقد قتلنا الحية" راح الثاني الى عمله بدون ضجة . وشبّه سعاده الصهيونية بافعى بمائة راس، وتحتاج للقضاء عليها ثقة الامة . وقال نحن امام موقفين : اما موقف من لا يريد ان يتحمل مسؤولية تقرير مصيره بحق ، فهو يصمد لكل حالة ويقوم باعباء مسؤولياته غير راغب في مشاركة غيره اياه (٢) وبعد ان بيّن حقوق السوريين في فلسطين تطرق الى كونهم امة تامة ، وانه لو اتحدوا وتنظموا لتمكنوا بوقت قصير من القضاء على الصهيونية ومن ايقاف الخطر الزاحف على سورية من كل جهاتها .

وبعد ظهور امر الحزب، اصدر زعيمه "البلاغ الازرق" وفيه معالجة لقضايا الساعة ، ومفهوم الوحدة السورية عند الحزب وتبيان بأن وعد بلفور وعد سياسي لا حقوقي وانه ليس لليهود حقوق خاصة او عامة في اية ارض سورية .

وفي الرابع عشر من تموز ١٩٣٧ ، وجه الحزب مذكرة الى عصبة الامم والامم المتمدنه ، بشأن تقسيم فلسطين على اثر قرار الحكومة البريطانية وتقرير البعثة الملكية المعروفة ببعثة اللورد بيل . فعرض للقضية من وجهها التاريخي وكيفية دخول اليهود في التاريخ الى الارض السورية ، وعدم ورود اى نص في المسيحية او الاسلام يؤيد حقوقهم الدينية اذا كانوا يدعون بان الله وعدهم بها .

---

(١) نشرته جريدة الف باء سنة ١٩٣١ واعيد نشره في كتاب "الزعيم في مراحل المسالة الفلسطينية" مارس ١٩٤٩ ص ١٠

(٢) الزعيم في مراحل المسالة الفلسطينية ص ١٩

وبيّن ان وعد بلفور يقيد بريطانيا كوعد سياسي تجاه اليهود ، ولكنه لا يقيد السوريين ، لان المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم تمنع من ا لوجهة الحقوقية اى تصرف حقوقي من قبل الدولة المنتدبة يمس بسيادة الامم المنسلخة عن السلطنة العثمانية ، المعترف بها بانها "امم مستقلة "اى ذات سيادة قومية على نفسها وعلى وطنها . ثم رفض مشروع التقسيم الذى اقترحته بعثة اللورد بيل ، لان تحقيقه يعني اهتضام حق الامة السورية وسيادتها على وطنها ولان مشروع التقسيم هذا يتطلب الاعتراف بالوطن القومي اليهودى وتنازل السوريين عن حقوقهم ، ويكسب الوطن اليهودى صبغة "دولة" ستكون نواة الدولة اليهودية التي ستستعيد الشعب السورى وتفرض الجزية على الامم الغربية ، حسب نصوص التلمود .

وقد كان لهذه المذكرة اثرها اذ اعتمدها السياسيون في الشام عند بحثهم قضية فلسطين ، وخصوصا اعتبار وعد بلفور كوعد سياسي لا حقوقي .

وعدا هذه المذكرة وا لتوجيهات العديدة التي كان يوجهها الحزب، فقد اشترك بعض افراده في ثورة ١٩٣٦ كجورج عبد المسيح وسعيد العاص الذى استشهد في المعارك ، ولكنه لم يكن مقتنعا بالتنظيم وبالتنظيم وبالخطط التي كانت تنتهجها القيادات المنفصلة ، ولا بالعقلية التي كانت توحي بالعمل، ولا بالغايات الشخصية والفردية والاقطاعية التي استخدمت القضية العامة لمصلحتها (١)

ولقد اعتبر الحزب القضية ذات شقين : احدهما يتعلق بالحلول العاجلة والاخر يتعلق بالعقلية التي توجه الحياة العامة اجمالا ومنها قضية فلسطين . والحزب بعد عودته للحياة بعد عهد الاستقلال ، قدم بيانا لمؤتمر "الجبهة العربية" الذى كان منويا عقده في يافا في ٢١ ايلول ١٩٤٥ اوضح فيه معنى "القضية اليهودية" و "القضية الفلسطينية" و "الاخطاء الحقوقية التي ترتكب في الدفاع عن الحقوق السورية في فلسطين" وعرض خططا عملية يمكن انتهاجها او يجب انتهاجها لحل القضية لا تختلف عما جاء من حلول سابقه (٢) سوى تفصيل الطرق والاساليب الموصلة الى الحل .

وبانتقال المسالة الفلسطينية الى طورها الحاضر ، حاول الحزب ان يعالجها بامكانياته القليلة ، فاستعد لحشد قواه كلها في تظاهرة كبرى يوم ٢ ت ١٩٤٧ منعتها الحكومة في اخر ساعة ، فاعتاض زعيم الحزب عن ذلك ذلك برسالة وجهها الى الحزب والامة ، استعرض فيه تصريح بلفور وسوابقه من معاهدة سايكس — بيكو وتقسيم البلاد ، وعدم ادراك السوريين لحقيقتهم السورية وكيف انهم كانوا دائما يطلبون الخلاص من الخارج (٣) فلم يتمكنوا من تأسيس قضيتهم القومية ، بل اتجهوا الى شريفهم الذى اخذ يخطط بناء

---

(١) رسالة الزعيم في ٢ نوفمبر ١٩٤٧ — ص ٤٣

(٢) الحزب القومي القضية الفلسطينية بقلم فايز صايغ ص ٨

(٣) الزعيم في مراحل المسالة الفلسطينية — ص ٣٦

بناء امبراطورية يكون هو واولاده اباطرتها ، ويكون اولاده ملوك جهاتها . وكانت سورية من جملة ما كان يدخل في امبراطورية الحسين ، فكان من نتيجة ذلك ، استمرار الشلل السوري واستمرار النظره المحلية والمسائل الخصوصية او الشخصية والحزبية الدينية . وفي الوقت الذى كانت تتخبط فيه سوريا في شللها ونهض الاتراك وخسرت سوريا كيليكيا ، وبقيت الفئات التي تصدت للمعالجة السياسية فئات كلها من النوع الرجعي الديني ، او الاقطاعي او العشائرى ، اقتصرت في عنايتها على القضايا الجزئية ، وسعت جهدها لاحتكار القضايا احتكارا . وبنظرتها الجزئية خسرنا كيليكيا فلم تحرك ساكنا ، وخسرنا الاسكندرون فلم تحرك ساكنا ايضا لانها اخذت تعتبر هذه المقاطعات خارجة عن نطاق منطقة احتكارها . ولم يختلف عمل الفئة السياسية في فلسطين عن غيره من الاجزاء السورية فانها عملت على اساس لا قومي لان اعضاءها :

" لم يعملوا على اساس الامة السورية والوطن السوري وحقوق الامة السورية ومصالحها ووحدة وطنها بل عملوا على اساس الاعتبارات التي هي وراء القومية ، على اساس الاختلاطات العربية فجعلوا اساس الحقوق القومية في فلسطين الفتح العربي وجعلوا المستند الحقوقي لطلب ايقاف هجرة اليهود الى فلسطين وعد بريطانيا العظمى لحسين باستقلال العرب ، فاخرجوا الحقوق السورية القومية الاصيلة من اساس دعواهم واستندوا الى اعتبارات خارجية لا تقوم مقام حق الامة السورية الاصلي . وكذلك وجعلوا بالتالي الحقوق السورية مشاعا لجميع دول العالم العربي "(١)

ثم انتقد الزعيم الاسا سر الذى انتقد بموجبه وعد بلفور واوضح اعماله واعمال الحزب تجاه القضية ~~الغلسط~~ الفلسطينية ، وبيّن النقائض في ثورة ١٩٣٦ التي لم تؤد الى نتيجة ما ، بالرغم من تضحية العديدين لانها لم تقم على الدوافع والغايات القومية ، ولم تتبع القواعد والاساليب التي كان يمكن ان تقيها شر الكارثة واعتبر ان كارثة فلسطين مسؤولة عنها سياسة الخصوصيات والحزبيات الدينية والعشائرية ثم اعلن :

"ان الامة السورية هي وحدها صاحبة الحق الطبيعي والشرعي في فلسطين ، وانه ليس لغيرها ان يقول الكلمة الاولى والاخيرة في مصيرها ليس لبريطانيا ان تقرر مصير فلسطين ، وليس لروسية ان تقرر مصير فلسطين وليس لاميركانيه ان تقرر مصير فلسطين بل ليس لمصر ولا للعربه ان تقرر مصير فلسطين .

ليس من حق جمعية الامم المتحدة كلها ان تفرض على الامة السورية مقررات تنزع سيادة الامة السورية عن وطنها او حقها في ارضها .

ان جمعية الامم المتحدة هي جمعية الامم المحاربة التي انتصرت مصالحها في الحرب العالمية الثانية ومن والاها . انها ليست جمعية عالمية ولم تنشاء بارادة عالمية في ظروف من تساوى الحقوق فيما بين امم

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١

العالم . وانها فوق ذلك جمعية منقسمة على نفسها ولا تكون وحدة انسانية كليه . ان هذه الجمعية لا تملك حق تقرير مصير الامة السورية ولا تقرير مصير جزئها الجنوبي ، فلسطين .

ان كل مقررات انترنسيونية تخالف ارادة الامة السورية وحقها في تقرير مصيرها ومصير وطنها بملء حريتها هي مقررات باطلة .

وان عمل الجامعة العربية ومقرراتها يجب ان تخضع ايضا لهذا المبداء عينه ، فليس من حق الجامعة العربية الغاء سيادة السورية على نفسها ووطنها وليس يحق لها اقرار ما ترفضه الامة السورية ، اوما لم يتح لها اعلان ارادتها الحرة فيه في صدد مصيرها ومصير وطنها (١)

ودعا الزعيم في النهاية الى مؤتمر لدرس المسالة الفلسطينية والى الاخذ بالنهضة القومية الاجتماعية والى نبذ الحزبيات الدينية . ومن ثم دعا بالنهضة العالم العربي الى تأييد سيادة الامة السورية وحقها ، ودعا الشعوب السورية الى المطالبة بازالة نظام جوازات السفر فيما بينها ليقدر كل سوري ان يدخل فلسطين بحرية تامه . ودعا في النهاية القوميين الاجتماعيين للوقوف في مراكزهم مستعدين لتلبية الدعوة للنضال

وفي هذا البيان تنطوى نظرة الحزب من وجهها الحقوقي الى المسالة الفلسطينية ، ونظرته الى الاعمال التي تمت لانقاذ فلسطين واعتبرها مسؤولة عن خسارة فلسطين

والسوال الذى يجب ان نطرحه على انفسنا الان ، لماذا لم يشترك الحزب في الحرب ضد اليهود ؟ ولماذا لم يتعاون مع دول العالم العربي وهل اتصل حقا باليهود كما اتهمته الحكومة اللبنانية ؟

فالحزب اشترك في الحرب ضد اليهود ولم يشترك . فقد اشترك عدد من افراده ساهموا في مختلف ميادين القتال خصوصا في حيفا والمناطق الشمالية . ولم يشترك رسميا ، اى انه لم يجند فرقة او ينضم الى جيش الانقاذ والسبب في ذلك ، كما يقول المسؤولون ، هو ان الحزب كان يدرك التخبط الذى عولجت به قضية فلسطين ويدرك الدوافع التي حركت الجيوش الى فلسطين ، وكان يعرف من التقارير الواردة له عن الحالة في مختلف المناطق في فلسطين (٣) ان الدخول في الحرب معناه خسران الحزب العديد من اعضائه دون فائدة ترجى للبلبله اللاحقة صفوف دول العالم العربي وكان شرطه للدخول في المعركة هو ان الفرقة التي سيؤلفها يجب ان تكون تحت قيادة قومية اجتماعية . فرفض طلبه .

وحين اقترابا لخطر الشديد على القدس ، طلب مفتي فلسطين من الحزب ان يتولى الدفاع عنها ، وارسل

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٦

(٢) النشرة الرسمية للحركة القومية الاجتماعية مجلد اول عدد ٩ ايار ٩٤٨ ص ١٨

(٣) " " " " مجلد اول عدد ٤و٥ ص ٢٦

رسولا خاصا بالطائرة الى الزعيم ، فقبل على اساس ان تبقى القيادة قومية اجتماعية وان تسلم الهيئة العربية العليا ، الفرقة حال دخولها الاراضي الفلسطينية فقبل المفتي بالشروط ثم اقلع عنها بناء على تدخلات رياض الصلح .

واما التهمة التي وجهتها الحكومة اللبنانية الى الحزب بالاتصال مع اليهود فلا تستند على اثباتات قوية فهي تقوم على رسالة موجهة من محمد جميل يونس منفذ عكا الى زعيم الحزب، وعلى شهادة محمد عركه احد اعضاء الحزب . واما رسالة محمد يونس ، فهي تقدم معلومات للحزب استقاها الاخير بطرقه الخاصة من ضابط استخبارات يهودي وهي تدل على سهر الحزب على مجارى القضية وانتباهه للاخطار المحيقة بالبلاد وهي بجانب الحزب وليست ضده . اما شهادة عركة فلا قيمة لها لان عركة مأجور للحكومة ولا تستند اقواله على وثائق . كما ان بطلان ادعاء الحكومة يظهر في عدم توجيه هذه التهمة الى زعيم الحزب اثناء المحاكمة (١) وتوجيهها اياها الى اركان الحزب الذين لم يكونوا على علم باى امر من هذا النوع . ولذلك لم تضع الحكومة في كتابها " قضية الحزب القومي " نصب الحكم على زعيم الحزب ولا مطالعة النائب العام اثناء محاكمته ووضعت نصوص الاحكام على بقية القوميين الاجتماعيين .

التعاون مع الاجانب :

وقضية الاتصال باليهود تقودنا الى نقطة حساسة في تاريخ الحزب السياسي ، اى نظرة الحزب الى التعاون مع الاجانب . فالحزب ليس مؤسسا على مبدأ كره الاجانب (Chauvinism) (٢) اذ انه بطبيعته غير منغلق على نفسه ، ولكن بوكنه حزبا قوميا ومن مبادئه مصلحة سورية فوق كل مصلحة لا يمكنه ان يتنازل عن هذه المصلحة وان كان لا يمتنع عن التعاون لهذه المصلحة .

ولقد اتهم الحزب بالتعاون مع ايطاليا والمانيا وفرنسا وانكلترا والملك عبد الله واليهود . وقد روج لهذه الدعاية ضد الحزب الافرنسيون في بادئ الامر . وعدد من مناوئي الحزب الوطنيين . فصدرت عدة كتب ومناشير ضد الحزب في اول ظهوره ، منها نشرة اصدرها السيد فواد مفرج تحت اسم مستعار يتهم الحزب فيه بالتعاون مع الايطاليين ومنها كتاب اصدره اديب الزهيرى تحت عنوان " بين الحقيقة والخيال " استنتج منه ان عمل الحزب هو تقسيم الامة العربية ، ولما كان هذا التقسيم يتوافق مع السياسة الاستعمارية فلا شك ان الحزب ، فلا شك ان الحزب يتعاون مع الايطاليين بالرغم من ان التحقيق لم يثبت شيئا (٣) وفي كتاب الحكومة الاخير فقرات اخذت من مذكرة سعاده تفيد اتصاله ببعض الاجانب للتعاون .

---

(١) راجع نفس البلاغ الذى اصدرته الحكومة على اثر اعدام الزعيم — النهار عدد ٤٢٤٠ — ٩ تموز ١٩٤٩ وكميل شمعون في النهار ١٨ تموز ١٩٤٩ (٢) رسالة الزعيم الى حميد فرنجية مدروجة في النظام الجديد ، مايو ١٩٤٨ — ص ٥ (٣) الزهيرى ، اديب ، بين الحقيقة والخيال — (بيروت ، بدون تاريخ) ص ٣٩ — ٤٠

ان الحزب لا ينكر انه يريد ولا يزال يريد التعاون مع الاجانب لانه لا يكره الاجانب. وبالواقع فقد اتصل الزعيم بالالمان بالرغم من ان احدا لم يتمكن برهنة هذا الامر . واتصل بالافرنسيين الذين كان يحاربهم ولكن هذا الاتصال لم يكن لتسخير الحزب لمصلحة الاجانب، بل لتسخير الاجانب لمصلحة الحزب. فالوثيقة التي نشرتها الحكومة اللبنانية لتثبت اتصاله بالاجانب، تفيد ان الزعيم لم يكن مقيدا باحد اذ انه يهتم بما يجد فيه "مصلحة سياسية لقضيته ... وانه اذا كان البريطانيون يريدون احترام ارادتنا وتقوية موقفنا فلا مانع من التفاهم . وقصدي استخدام ما امكن من القوى الاجنبية لتعزيز خطتي (١)"

والشروط التي قدمها الزعيم للالمان للتفاهم ، لا يمكن ان تضر بمصلحة سوريا او استقلالها ، فهو لم يعد بشيء انما قال "اننا مستعدون لسماع ما يطلبه الفريق الثاني (٢) اما مطاليبه فهي تأكيد لوحدة سوريا واستقلالها. واتصال الزعيم بالافرنسيين لم يخفه عن احد . فقد صرح به في خطابه عن قضية الاسكندرون بعد ان كان قد زار السيد كيفر رئيس الغرفة السياسية في الجمعية الفرنسية (وكانت المقابلة ودية اظهرت فيها كل التساهل الذي تسمح به قضيتنا القومية (٣) وافهمت السيد كيفر ان مصالح سوريا وفرنسا المتبادلة توجب على المفوضيين الافرنسيين الاعتراف بحركتنا والتفاهم معنا . ولكن رئيس الغرفة السياسية كان يطمح — على ما يظهر — بالحصول على اكبر من هذه النتيجة مني فقال: "اننا ايضا نود حصول التفاهم فابواب المفوضية تكون دائما مفتوحة لاستقبالكم ... فقلت لرئيس الغرفة المذكورة : "ان الوصول الى تفاهم يقتضي وضع القواعد الاساسية التي يمكن ان ينشأ عليها التفاهم . واننا مستعدون من جهتنا القيام بنصيبنا من العمل لتسهيل الوصول الى هذه القواعد الاساسية (٤) فتركت باب الاتصال مفتوحا من غير ان اقبل الالتجاء الى ابواب المفوضية الفرنسية المفتوحة لكل من يريد الاذعان للسياسة الفرنسية)

ومن كل هذه الوثائق نرى ان الحزب لم يتمكن من التعاون مع احد ، لانه كان يفهم بالتعاون ان يخدم مصلحة البلاد وليس مصلحة غيرها على حسابها ، الامر الذي لم يعتد عليه الاجانب من الذين تعاونوا معهم في هذه البلاد . ويقول الحزب ان سعادة قد وضع بمحادثاته هذه الاسس العملية للطرق التي يجب ان تبني البلاد عليها علاقاتها مع الدول الاجنبية .

وفي هذه اللمحة عن برنامج الحزب السياسي ، نكون قد انهينا دراستنا في تاريخ الحزب ونظرته الى القومية السورية ، ومنها رأينا ان الحزب امتاز عن غيره من بقية الاحزاب التي نشأت في البلاد ، في انه حزب

---

(١) قضية الحزب القومي — الوثيقة ١٧٤ ص ١٩٨

(٢) المصدر نفسه الوثيقة ١٧٥ ص ١٩٢

(٣) المصدر نفسه — الوثيقة ١٧٤ وراجع ص ١٩٨ عن التعاون مع الانكلوسكسونيين فانه يحدد هذا التعاون "بتقوية الميل الى التفاهم بقدر ما تسمح به مبادئ حزبنا والحالة السياسية (

(٤) نشرة عمدة الاذاعة مجلد ٣ عدد ٤ ص ١٠

يستند في نظرياته على اسس علمية ولا اهمية ان كانت تتفق مع نظرات غيره او لا ،ورأينا انه يعالج على ضوء نظرة معينة للامور اى ضوء مبادئه ، وانه كان اول الاحزا ب النظامية في البلاد التي اعطت معنى واضحا للقومية للقومية ، كما انه كان اول الاحزاب التي قدمت برنامجا شاملا لكل مناحي الحياة القو مية ، ليس لمجرد العمل السياسي ، بل لايمان راسخ بامكانية هذه المبادىء على خدمة البلاد · وعدا نظرته القومية والاجتماعية فالحزب أول من اوجد نظاما اقتصاديا معينا ونظاما سياسيا معينا في البلاد السورية ·

مشروع سوريـــــا الكبـــــــرى :

عدا مشروع الحزب السورى القومي الاجتماعي ، يقوم مشروع سياسي اخر يعمل له الملك عبد الله بن الحسين ، ملك شرق الاردن لتوحيد سوريا الطبيعية بحدودها التقليدية التي تضم الجمهورية السوريـــة واللبنانية وفلسطين وشرقي الاردن . ودراسة هذا المشروع لا تسمح لنا بالتمكن منه تمكنا نظهر به حقيقته لاسباب عديده ، اهمها ان المشروع لا يزال قيد التحقيق ، ومن الصعب ان ناخذ من القائمين به معلومات حقيقية علمية منزهة ، فطبيعة المشروع السياسي يفرض على القائمين التكتم او اظهار ما لا يعملون لـــه بالفعل ، مما يمنع عنا رؤية الحقيقة كما هي . فميزان التاريخ الذى يساعد كثيرا على جلاء الحقائق لم يفعل فعله بعد . وثمة سبب اخر هو انه قد يكون في المشروع نفسه اختلاطات ومداخلات اجنبية وشخصية يعني الافضاء بها هدم المشروع من اساسه ، الامر الذى يحرص اصحابه الا يؤول اليه مشروعهم .

فكل ما يمكننا ان نعتمده في هذا الموضوع هو النشرات الرسمية وغير الرسمية التي ظهرت حول الموضوع والتي تنير لنا طريق بعض الامور ، خصوصا الخطوط الكبرى للمشروع والملابسات التي قد تلازمه . ولن نعول كثيرا على اقوال الجرائد في هذا الصدد لان ما لازم المشروع من غليان ضده ومعه ، افقد اقوال هذه الجرائد قيمتها العلمية ، فلا يصح لذلك اعتمادها الا في الامور التي لاخلاف حولها ولا ملابسه فيها .

نشأة المشروع وتطـــــوره :

رايذا في عرضنا في الجزء الاول من هذه الاطروحة " للقضية العربية " ، ان زعماء سوريا استعانوا بشريف مكه لمساعدتهم في الثورة التي كانوا قد ازمعوا القيام بها في سوريا . فادخلوا بذلك عنصرا جديدا في حركتهم الوطنية خرجت معه عن نظامها وغايتها الاساسية من تحرير سوريا . اذ سلموا بذلك حقهم في السلطة الى الشريف حسين وورثته ، باعترافهم له بالحق في المفاوضة باسمهم عن بلادهم مع الحلفاء . وبهذا الحق تمكن الامير عبد الله بن الحسين من استلام زمام الامور في شرق الاردن . على اثر اخراج الفرنسيين لاخيه فيصل من سوريا . فاعلن نفسه في كتب ارسلها الى النواحي بانه نائب ملك سوريا (١) واستلم الحكم على هذا الاساس ، اى انه ينوب عن اخيه وغايته استرداد سوريا كلها ورد وحدتها اليهـــا واجلاء المعتدين عنها وتجديد بيعة الملك فيصل (٢) وانه سيعود الى وطنه متى تم ذلك ونزح العدو عن البلاد .

---

(١) عبد الله بن الحسين ـ مذكراتي ص ١٧٠

(٢) المصدر نفسه ، منشور الامير عبد الله الى " كافة اخواننا السوريين " في ٢٥ ربيع اول ١٣٣٩ ص ١٦٨ .

اسس الامير عبد الله حكومة في شرق الاردن بعد ان منحته الحكومة البريطانية الفرصة ، واعترفت باستقلال هذه الحكومة تحت الانتداب البريطاني في ١٥ ايار سنة ٩٢٣ ، وبقي هو اميرها فملكها حتى الان .

بيد ان الامير لم يحاول بعد اعلان هذا الاستقلال السعي وراء الغايات التي اعلنها في منشوره السابق الذكر ، بل اقتنع بنصيبه وراح يحكم البلاد حكما يتراوح بين الظلم والسماحة زمنا طويلا حتى اندلاع الحرب الثانية واحتلال الالمان لفرنسا .

وفي هذه المدة كان قد اصبح للاميرجيش قوى حسن العدة والتجهيز ، بفضل مساعي الانكليز وغلوب باشا قائد الجيش الاردني الانكليزي الجنسية (١) اصبح معه للامير كلمة تسمع ورأى يؤخذ . وكأني بالامير لم ينس الغرض الذي قدم من اجله سوريا . وقد راى الفرصة مؤاتية ان يعود لسعيه ، ليس كنائب لملك سوريا بل كملكها الاصيل وصاحب الحق فيها بعد وفاة اخيه .

وقد تنبه الملك قبل غيره الى دعاية المحور للوحدة السورية ، فارسل مذكرة الى الحكومة البريطانية يشير بها الى هذا الامر والى ان هناك رغبة يبديها البعض تجاه وحدة البلاد السورية (٢) فلم يظهر لاول مرة انه هو الذي يرغب في هذه الوحدة ، بل اظهرها عن لسان غيره ، انما ابتداء في اكثر المذكرات والتهاني يحشر بجمل التي تنم عن رغبته وتنوه بمقاصده وحقوقه . ففي برقيته الى المستر تشرشل على اثر تحرير دمشق تنويه بالفرح الذي عم القلوب ، والذي تذكر به الشعب ذكرى (فيصل ـ اللنبي) قبل ثلاثة وعشرين عاما ، وذكرى المدن الاربع والملك حسين ووعود بريطانيا السابقة(٣) فهو يلمح الى حقوق عائلته في ملك سوريا ، ولكنه لا يبدي اي تصريح رسمي او مطالبة فعليه بمشروع معين ، بل يجس النبض قبل التقدم بالمشروع .

لم يخرج المشروع من طور الرغبة والحلم الى طور التحقيق الفعلي الا بعد سنة تماما من مذكرة الامير الى الحكومة البريطانية عن الدعاية المحورية ، اي في اول تموز سنة ٩٤٢ ، فقد حول "الامير" المشروع الى مجلس وزرائه واتخذ به قرارا برقم ٣٣٧ بناه على تصريح السمتر ايدن والجنرال كاترو باعلان استقلال سوريا ولبنان ، اذ عد المجلس هذين التصريحين بمثابة اعتراف بجدارة البلاد السورية بالاستقلال والوحدة .

---

(١) راجع تاريخ هذا الجيش في كتاب غلوب باشا (The Arab legion) لندن ١٩٤٨

(٢) الوثائق القومية في الوحدة السورية الطبيعية او الكتاب الاردني الابيض . اصدرته الحكومة الاردنية (عمان ٩٤٧) ص ١٩ والمذكرة بتاريخ اول تموز ١٩٤٠

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩

وقد بنى مجلس الوزراء رغبته في العمل للمشروع على اعتبار شرق الاردن جزء من مجموعة البلاد السورية" وعلى اعتبار ملكها (اميرها حينذاك) قد حارب من اجل الاستقلال العربي ونصرة الحلفاء . فطلب المجلس من الامير السماح له بالاتصال بالحكومات السورية والتعاون معها على تحقيق الوحدة مستندة بذلك على :

١ـ تصريح المستر ايدن ان الحكومة البريطانية عظيمة العطف على قضية الاستقلال السوري وانها مستعدة لتاييد السعي الذى يبذله فريق من زعماء العرب لايجاد نوع من الوحدة العربية (١)

٢ـ ولاء حكومة الاردن وشعبها لقضية حكومة جلالتـــه

٣ـ ان البلاد السورية بحكم وضعها الجغرافي وموارد ها الطبيعية لا تتحمل وعلى الاخص من الناحية الاقتصادية ان تعيش الا كيانا واحدا ، فتشاند اجزاؤه معا .

٤ـ ان الراى العربي السوري جد توأق الى وضع جديد يشعره بانه قادم على مستقبل يحفظ له كيانـــه السياسي والاقتصادى .

ومن الواضح ان البيان هذا يستند على حقوق ممنوحة من الدولة البريطانية وعلى تفسير وعودها وليس على الحقوق الطبيعية للشعب السورى في وحدة الحياة والمصير .

وانتقل العمل على اثر هذا القرار الى طور السعي بالطرق السياسية لتحقيق هذه الوحدة . فارسل مجلس الوزراء بلاغا الى الحكومة البريطانية يعلمها فيه بقراره هذا . ولكن الحكومة البريطانية التي لم يكن بامكانها السعي الظاهرى لامر من هذا النوع ، لم تشأ ان تتخذ اى خطوة عملية قد تثير الراى العام ضدها في ظرف هي احوج ما تكون اليه . فطلبت من المجلس ارجاء البحث في الموضوع ريثما تغدو الحالة اكثر استقرارا (٢) وقد اكد المستر تلتون الوزير البريطاني هذا الرجاء على اثر استلامه مفكرة رسمية من الملك عبد الله تبحث في المسائل العامة المتعلقة بالقضية العربية اى السورية بالمسائل المتعلقة بشرق الاردن خاصة . واما المسائل السورية فهي تذكير بمرامي الثورة العربية الكبرى وباتفاق الملك عبد الله مـــع المستر تشرشل عند اجتماعهما في القدس سنة ١٩٢٠ (٣) و بيّنا ان الاستقرار الادارى الذى لم يظهر مثيله في كل انحاء سوريا الا في الاردن ، ورغبة الاردن في الصداقة البريطانية " لتحقيق وحدة الاقاليم السورية على اساس هذا المسلك النقي بين الطرفين " ولذلك فان الاردن تطلب ان يفسح لها المجلس للسعي

---

(١) اعتبر هذا التصريح دعوة لقيام الجامعة العربية . فعلى اثره اخذ النحاس باشا رئيس وزراء مصر بالاتصال برؤساء الدول العربية لتاليف الجامعة . (٢) الكتاب الابيض ص ٣٦

(٣) الزركلي ، خير الدين ـ عامان في عمان (مصر ١٩٢٥) ص ٤٩ وخلاصة هذا الاتفاق هو تاسيس حكومة وطنية في شرق الاردن تسترشد براى مندوب بريطاني وتحافظ على الحدود الفلسطينية السورية على ان توضع تحت التجربة ستة اشهر قبل الاعتراف بها واما الملك عبد الله فيقول انه تشرشل وعده باسترجاع ملك اخيـــه .

الجدى من اجل تكوين الوحدة التامة للمجموعة السورية باقاليمها الاربعة . وهذه المذكرة تتضمن بالواقع الخطوط الكبرى للمشروع كما وضعته الحكومة بعد زمن قصير .

وعدا هذا البلاغ فقد جاء في خطبة الملك بمناسبة ٩ شعبان ، عيد الثورة العربية ذكر للمشروع ولقرار مجلس الوزراء حوله . وعلى الاثر تم الاتصال بعدد من الشخصيات السياسية القديمة كفارس الخورى الذى اقترح القيام بعمل "دستورى لتحقيق هذه الفكرة ولم يمانع بالحكم الملكي .

ولاعطاء الحركة الجديدة صفة الشعبية ، اجتمع عدد من المجاهدين القدماء في ٥و٦ اذار سنة ١٩٤٣ بعمان ، وكانت العلاقات اذ ذاك بين الافرنسيين وبين لبنان وسوريا متوترة ، فقد امتنع الافرنسيون عن اعطاء الاستقلال الذى اعلنوه ، فقرر هؤلاء المجاهدون ان يحتفلوا بذكرى ٨ اذار احتفالا شعبيا للمطالبة بتحقيق ميثاق البلاد المشترى (١) اى ميثاق ١٩٢٠ ، والفوا لجنة لوضع مشروعين للدولة السورية الكبرى ، وليس مشروعا واحدا ليضمنوا بذلك رضى الدولة السورية . الاول على اساس الاتحاد (Federation) والثاني على اساس دولة كبرى (state) وارسل على اثر هذا الاجتماع الملك عبد الله بلاغا للناس عن السدولة السورية الكبرى والاتحاد العربي ، موجها الى اهل الشام ، حاضرة وبادية من خليج العقبة الى البحر الابيض المتوسط الى اعالي الفرات . واتبعه بمذكرة الى الحكومة البريطانية بواسطة المندوب السامي البريطاني وبرسائل الى الحكومة السورية الجديدة التي كانت قد تألفت على اثر انتخابات ١٩٤٣ ، يوحي لها بالعمل لهذه الدولة (٢)

وفي هذه الاثناء تقدم نورى السعيد رئيس الوزارة العراقية الى المستر كيزى وزير الدولة البريطانية في الشرق الاوسط بمذكرة تعرف "بالكتاب الازرق" معنونة "مذكرة في استقلال العرب ووحدتهم مع اشارة خاصة الى فلسطين ومقترحات رامية الى حل نهائي" . وتتفق هذه المذكرة بمضمونها مع ما جاء في مذكرة الامير عبد الله حول مشروعي الاتحاد والوحدة مما يدل على انهما كتبتا بالاتفاق معه اوبوجهه .

وفي اثناء مشاورات الوحدة العربية في مؤتمر الاسكندرية اثير موضوع سوريا الكبرى . فقد اقر الوفدان اليسورى والاردني ضرورة تحقيق الوحدة السورية الطبيعية ، وبقي من غير حل امر تقرير شكل الحكم في الدولة الكبرى ، اذ ان الاردن تمسكت بالنظام الملكي باعتبار انه الاطل طبقا لقرار ٨ اذار سنة ١٩٢٠ ، وتمسك المندوب السورى بالنظام الجمهورى الذى اقره المجلس التاسيسي سنة ١٩٢٨ ، واخذت به البلاد منذ

---

(١) الكتاب الابيض ص ٦٤

(٢) المصدر نفسه الوثائق رقم ٣٢—٣٧

الحين ، خصوصا وان كل قطر من الاقطار السورية تعود على حياته الخاصة وطابعه الخاص · وبين شديد حرصه على اعادة الوحدة الى البلاد السورية ، على ان تنتهج طريق تشبه منهاج التعاون بين لبنان وسوريا (١) وما عدا ذلك فلم يتوصل المجتمعون الى حل لهذه القضية ووقع بروتوكول الاسكندرية في ايلول ٩٤٤ وميثاق القاهرة في اذار ٩٤٥ وانتهت المرحلة الاولى مرحلة تقديم المشروع وادخاله رسميا في نطاق برامج الحكومات السورية بفشل المشروع ·

ماهيـــــة المشـــــروع :

وقبل ان نتقدم الى المرحلة الثانية من المشروع ، نريد ان ندرسه ، فنحدده ونبين تفاصيله · فالمشروع بطبيعة امره يبغي توحيد سوريا الجغرافية في دولة واحدة · واما شكل هذه الدولة ، فقد اعطى له واضعو تصميم المشروع نوعين · اما وحده وهو قيام دولة سورية موحدة ، واتحاد عربي في الهلال الخصيب · واما تاسيس دولة اتحادية وقيام اتحاد عربي تعاهدي · ويتضمن المشروع الاول :

ا ـ الاعتراف بدولة سورية مستقلة وذات سيادة يكون نظام الحكم فيها ملكيا دستوريا

ب ـ تضم الدولة السورية الموحدة (سوريا الشمالية وشرق الاردن وفلسطين ولبنان)

ج ـ يكون لكل من فلسطين في بعض مناطقها ولبنان القديم ادارة خاصة بمقتضى الدستور · يلاحظ في الاول منهما حفظ حقوق الاقلية اليهودية ومركز الاماكن المقدسة الخاص · وفي الثانية صيانة اماني اللبناني ·

واما الاتحاد العربي فيتم تاليفه حال اعلان تاسيس الدولة السورية الموحدة من الدولة السورية المنوى اعلانها ومن العراق · وينتظم الاتحاد التنسيق السياسي والدفاع والثقافة العامة والدفاع الوطني · وليس ثمة ما يمنع انضمام الدول العربية الاخرى الى هذا الاتحاد ، على ان تكون رئاسة مجلس الاتحاد العربي دورية او ان تعطى عند الاقتضاء عهديا الى اوسع الدول العربية ثروة ونفوذا ·

وينص المشروع الثاني على انه يعمل به في حالة تعذر قيام الدولة الموحدة حالا · فهو قد اعد لضمان تنفيذ المشروع على اية حالة ، لاتخاذ خطوة عملية نحو تنفيذه · وهو :

ا ـ ان تقوم في الاراضي السورية بحدودها الطبيعية دولة سورية اتحادية مركزية تنتظم حكومات شرق الاردن وسوريا الشمالية ولبنان وفلسطين عاصمتها دمشق ·

---

(١) المصدر نفسه وثيقة ٤٢ ـ ص ١٠٦

(٢) المصدر نفسه وثيقة ٤٢ ، ص ٦٥

ب ـ ينظم الاتحاد السوري المركزي شؤون الدفاع والمواصلات والاقتصاد الوطني والسياسة الخارجية والثقافة العامة والقضاء الاتحادي مع بقاء الاستقلال الذاتي لكل من الحكومات الاقليمية الاربع باستثناء ما يصبح من اختصاص حكومة الاتحاد السوري العامة .

ج ـ يكون للاتحاد السوري مجلس اشتراعي عام منتخب فمثل للاقاليم المتحدة اتحادا مركزيا ومنه يكون انتخاب رئيس وزراء الاتحاد واختيار اعضاء السلطة التنفيذية الاتحادية وفق احكام الدستور .

ومن هذين التصميمين ، يمكننا ان نرى ان نطاق المشروع يتناول اتحاد سوريا اولا ،، ثم اتحادها مع العراق بنظام لا مركزي ، ومن ثم وضعها في نطاق اتحاد عربي اشمل ليس موضحا تمام التوضيح في حدوده ونوعه .

واما نوع الحكومة فيصر الامير على ان تكون ملكية . وعلى الرغم من انه يرضى باجراء استفتاء عام في البلاد السورية (١) فما ذلك الا لاعتقاده ان الشعب سيسير في ركابه . وقد ورد في كتاب نوري السعيد الازرق في المادة الثانية من الخاتمة :

" ان يبت سكان هذه الدولة انفسهم في نوع الحكومة التي تتخذها هذه الدولة . سواء اكانت ملكية ام جمهورية وايضا اكانت وحدة ام اتحادا "

وكذلك ورد في البيان رقم (٢) الصادر عن "جماعة الاحرار" وهم دعاة الملك عبد الله في الشام بتاريخ ٢٧ شباط سنة ٩٤٥ : ان بلادنا لا تتمسك بشكل مخصوص من انظمه الحكم : فهي ترحب بكل نظام ديمقراطي . سواء اكان ملكيا ام جمهوريا يوحد اجزاءها ويلم شتاتها ويصون حريتها (٢) وقد بين الملك عبد الله في رسالة له الى مرشد الاخوان المسلمين "ان سبيله لتحقيق الميثاق السوري المشترك هو الدعوة الحرة . فاما رجوع الى الاصل او استفتاء جديد (٣) ولكن هذه التصريحات المختلفة حول الاستفتاء الشخصي لم تكن سوى تصريحات سياسية اذ انها لم تدخل في تصميم المشروع . وما دخل في المشروع هو الملكية الدستورية في حالة الدولة الموحدة . طبقا لقرار ٨ اذار سنة ١٩٢٠ على اعتبار ان هذا القرار قد وضعه ممثلو سوريا الكبرى انفسهم واعتبرته الاقاليم السورية جميعا ميثاقها القومي المشترك في حينه (٤) و انه ليس من حق اى اقليم سوري نقضه منفردا (٤)

ولما كان المشروع ملكيا . فبطبيعة الحال يكون الملك عبد الله ملكا على الدولة السورية الكبرى لاسباب عديده اهمها :

---

(١) المصدر نفسه وثيقة ٤٢ ، ص ١٠٤ (٢) الحزب القومي ـ مشروع سوريا الكبرى ص ١٦

(٣) على هامش الكتاب الابيض الاردني اصدره المكتب الدائم للمؤتمر القومي الاردني بدون تاريخ ص٣٧و١٤

(٤) الكتاب الابيض وثيقة ٤٢ ص ١٠٤ راجع ايضا الوثيقة ٢٧ حيث يعتبر الملك امر نظام الدولة السورية الموحدة مسالة سورية محضة تقررها الحكومات القائمة في الاقاليم السورية والشعب السوري نفسه بحرية تامة .

١- حقوقه الشرعية الثابتة في الامارة الاردنية وهي جزء مهم من اجزاء سوريا الكبرى

٢- مساهمته سابقا ولاحقا بمعونة الحلفاء معونة الحلفاء معونة فعلية وقد اشتملت هذه المعونة على الساحة السورية في الحرب الحاضرة .

٣- كونه الوريث الاول لحقوق والده المغفور له جلالة الملك حسين في رعاية الحقوق السورية بوجه خاص والحقوق العربية بوجه عام .

٤- وعد الحكومة البريطانية له برئاسة الدولة السورية بلسان رئيسها وزرائها (عندئذ) المستر تشرشل منذ عام ١٩٢١ وزوال موانع تنفيذ ذلك الوعد بعد انهيار الدولة الفرنسية وسقوط وكالتها القانونية وحرية بريطانيا للعمل في الاراضي السورية

٥- رغبة السوريين بالحكم الملكي الدستوري في حالة تحقيق وحدة البلاد العامة او اتحادها المركزي .

وهذه الاسس التي تقوم عليها مطالبته خارجة عن ارادة الامة السورية ، فهي ترتكز الى حق والده في سوريا والى وعد بريطاني ولا يمكن التوفيق بينها وبين حق الشعب في تقرير نظامه او حكومته لانها بطبيعتها تتنافى وحق الشعب .

وقد سعى جماعة الاحرار " ان يقوموا بمحاولة للتوفيق بين هذين الوضعين الشاذين فجاء في بيانهم حول هذه النقطة ان حماية الحريات الدستورية ليست وقفا على نظام دون غيره . فالحريات في مصر وبريطانيا والعراق الملكية مصونة وفرنسا هي مصونة في الجمهوريات الاميركية والفرنسية مثلا - واوضح البيان ان البلاد السورية لا ترضى ان يكون النظام الجمهوري مبررا لاستيقاء التجزئة ، وعثرة في طريق الوحدة . واعطى مثلا على ذلك تخلي رئيس جمهورية البندقية عن منصبه وكتابته الى الملك عمانوئيل رسالة يقول فيها : " ناد بوحدة ايطاليا وانا والجمهورية جميعا نؤيدك ، وبمبايعتك ملكا علينا ونمشي وراءك . وهذه المحاولة كمحاولة الملك عبد الله تناقض نفسها اذ تريد ان تعترف بالحريات الدستورية بعد قيام النظام الملكي ، لا ان تترك الشعب يقرر لنفسه قضية النظام الحكومي .

ارتكاز المشروع :

الواضح من صيغة المشروع واسباب قيامه انه يرتكز على نقط ثلاث اساسية هي : غاية الثورة العربية ومقررات المؤتمر السوري العام والعهود الاجنبية .

١- يعتبر الملك عبد الله ان مشروعه هذا هو تتميم لغاية الثورة العربية في الحرب العالمية الاولى ، التي قامت لايجاد دولة عربية واحدة يرأسها ملك واحد وترمي الى هدف واحد . ويعتبر ايضا ان الامة حينذاك

كانت مستكملة الشروط الضامنه لقيامها على قدمها وكانت لها متصرفية فلسطين وولاية بيروت ، وولاية حلب، وولاية سوريا وولاية بغداد والموصل وولاية البصره و ولاية الحجاز (١) ويستنكر الملك ما تم من تقسيم لهذه الامة ، ويعتبر ان الاعتراف باستقلال سوريا والعراق وانفصالها عن الثورة العربية والملك الواحد هو الذى جر الانتدابات على هذين البلدين . كما ان الاعتراف بالتغيير في البيت المالك للحجاز معناه ازالة الرئاسة الواحدة للبلاد الواحدة . وان كل هذا ليس في مصلحة الامة العربية باجمعها (٢) ولما كان قسم من هذه البلاد العربية لا يزال في يد ورثاء الثورة من رجال البيت الهاشمي و اشياعه (العراق وشرق الاردن) فان عليهما واجبات وتبعات لاعادة الامور الى نصابها وتحقيق رغائب الشعب في الوحدة ولذلك فمن واجب بغداد وعمان السعي للقضاء على من يريد اخراج القضية العربية عن مبادىء النهضة الاولى (٣)

و في التعليمات الخاصة التي اعطاها الامير لرئيس وزرائه توفيق ابو الهدى باشا في صدد مباحثات الوحدة العربية توضيح لما عناه والده بالبلاد العربية ،وبيان بان البلاد الفلسطينية والسورية ساحلا وداخلا كانت الهدف من الثورة فهي القضية التي ينبغي اذن الخروج منها بوحدة شاملة أو باتحاد تعاهدى ٤) فالامير يبني دعوته على تزعم والده للثورة العربية ، وعلى حق والده بهذه البلاد لانه تزعم الثورة التي كان من غايتها تحرير البلاد السورية .

واما النقطة الثانية التي ترتكز عليها دعوته ، فهي قرارات المؤتمر السورى العام في ٢ تموز سنة ١٩١٩ وفي ٨ اذار سنة ٩٢٠ واما قرار ٢ تموز فهو ما جاء في مطالب المؤتمر من اللجنة الاميركية التي قدمت لاستفتاء الشعب ، وهي تتلخص في الاستقلال السياسي التام لسوريا بحدودها الطبيعية وان تكون حكومتها ملكية دستورية مبنية على قواعد المبادىء الديمقراطية ، واللامركزية الواسعة التي تصون حقوق الاقليات . وان يكون الامير فيصل ملكها الاول .

ولا يختلف قرار ٨ اذار ٩٢٠ عن هذا القرار سوى انه كان خطوة عملية لاعلان الاستقلال السورى ، وقد اعلن بالفعل الاستقلال كما عرفنا من الجزء الاول ، ويوضح الامير فيصل ملكا على سوريا واقترح ادارة البلاد على اساس اللامركزية . وقد جاء في نص الدستور عن الملك وحقوقه : ان الملك هو الامير فيصل بن ملك الحجاز الحسين الاول بن علي الهاشمي ، ويلقب بفيصل الاول ملك سوريا . وان ينحصر الملك بالابن الاكبر من سلالة الملك فيصل على خط عامودى . وان لم يكن للملك ابن فيرجع للاقرب اليه من الذكور . وان لم يبق

(١) مذكراتي — ص ٢٤١ — ٢٤٢

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٤

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٥

(٤) الكتاب الابيض وثيقة ٤٢/٨ ص ١٠١

من صلب الملك فيصل ولد ذكر ،فينتخب ملك للبلاد السورية من سلالة الملك حسين الاول (١)

على ان ما شدد عليه الملك الملك عبد الله ليس قرار البيعة هذا لان ما ورد فيه واضح ولا يقبل التاويل ويبعده من اى حق بالوراثة ، انما اعتبر استقلال البلاد السورية بحدودها الطبيعية ، واعتبر ميثاق ٨ اذار ١٩٢٠ ميثاقاً مقيدا خصوصا في قضية وحدة الوطن السورى الاكبر ، وان هذا الميثاق هو مبدأ قومي مستمد من ارادة الشعب السورى ،وليس لاى اقليم سورى حق نقضه بالانفراد (٢) خصوصا وان الشعب عبر مرة ثانية عن ارادته في الوحدة في المادة الثانية من الدستور السورى الذى وضعته الجمعية التاسيسية في دمشق عام ١٩٢٨ وحذفها الفرنسيون ، والتي تنص على ان "البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية وحدة سياسية لا تتجزأ ولا عبرة بكل تجزئة طرأت عليها بعد نهاية الحرب العامة " وقد طبعت هذه العبارة في الكتاب الابيض باحرف نافرة كبيرة دلالة على الاهمية التي يعلقها الملك على هذا القرار .

وقد جمع الكتاب الابيض عددا من الوثائق هي قرارات المؤتمر السورى الفلسطيني في جنيف ، وقرار المؤتمر الفلسطيني المنعقد في دمشق في ٢٧ شباط سنة ١٩٢٠ وكلها قرارات تطالب بالوحدة السورية (٣) وهذه القرارات بطبيعتها تعبّر عن رغبة اكثرية الشعب بشان الوحدة بحد ذاتها . لكنها قد لا تعبر الان عن نوعية هذه الوحدة وطريقة حصولها .

والنقطة الثالثة التي يرتكز عليها الملك عبد الله في دعوته هي العهود الاجنبية . فقد جاء في بلاغ الملك الى الشعب السورى والعالم العربي حول مشروع الدولة السورية الكبرى عن اسباب تحينه الظروف هذه للدعوة للمشروع " ها نحن اولاء نزود بالطرق السياسة ولما يبدو من بوارق الرجاء في وعود الحلفاء بحكم جهادنا الماضي وقيامنا الحاضر على امر سوريا الجنوبية ، عن ارادتكم المعلنة في قرار المؤتمر السورى العام يوم ٨ اذار سنة ١٩٢٠ وعمّا حمّل هذا القرار التاريخي ورسائل مكماهون بيتنا الهاشمي من امانة (٤)

وردد قرار المجاهدين القدماء وهم نفر من كبار ساسة الاردن اليوم كمحمد علي العجلاني وعبد الرحمن الرشيدات ومحمد الشريقي (٥) اتخاذهم نقاط الارتكاز نفسها للدعوة للوحدة السورية ، واعتبروا رسائل مكماهون رسائل حقوقية . وفي المذكرة السياسية التي وضعوها ووضعوا فيها تصميم مشروعي الوحدة والاتحاد اعتبروا وعود بريطانيا العظمى للعرب سابقا ولاحقا ، وما صرح به وزير الخارجية البريطانية المستر انطوني ايدن بشان الوحدة العربية وتحبيذ بريطانيا لها (٦) من عناصر حقهم في هذه الدعوة .

---

(١) راجع نص الدستور في مواده الخامسة والسادسة الذى وضعه المؤتمر السورى العام وحذفوا على مواده السبع الاولى (٢) من قرار المؤتمر الاردني — على هامش الكتاب الابيض ص ٤٢ (٣) راجع الجزء الاول من الكتاب الابيض . (٤) الكتاب الابيض ص ٧٦

(٥) الحزب القومي — مشروع سوريا الكبرى ص ١٠

(٦) عن بيان المجاهدين القدماء

والتصاريح او الوعود الاجنبية هذه يأخذ بها الملك عبد الله لانها تربط مصير بيته بمصير سوريا . فقد اعترفت رسائل مكماهون بحق الشريف حسين في تقرير المصير السوري والعربي اجمالا بطريقة مداورة ، اي بمجرد الوصول معه الى اتفاق بشان هذا المصير دون غيره من الرجال ، كما ان اشتراك الحسين في الثورة او قيادته لها ، اعطته صفة صاحب الحق الذي باسمه اسست الحكومة في سوريا بعد الاحتلال مباشرة . واما الملك عبد الله فحقه ياتي من عهدة الملك حسين له امر الديار الشامية على اثر احتلال الجيش الفرنسي لدمشق ، وماقام به من المرابطة عبر الاردن ، وقد عقدت له الراية لاعادة بناء الدولة السورية (١)

ولا ينسى الملك عبد الله ان امر الوحدة السورية امر طبيعي ، بطبيعة الوضع الجغرافي والتاريخي للبلاد . فدعوته ترتكز ايضا على اساس من هذا النوع ، وعلى اساس اقتصادي نتيجة لوحدة الحياة التي تتفكك بتفكك البلاد (٢) ولكن هذه الناحية لا يهتم لها الملك كثيرا قدر اهتمامه بميثاق سنة ٩٢٠ وبالمادة الثانية من دستور ١٩٢٨ التي لها علاقة مباشرة بحقه في الملك .

هذه اهم الارتكازات السياسية المتأثرة بالمصير السياسي وبقضايا السياسة وهي بالاكثر ارتكازات سياسية متأثرة بالمصير السياسي وبقضايا السياسة ولا تقوم على اساس علمي او قومي او تاريخي وهنا يكمن ضعفها لانها تتغير بتغير الظروف والاحوال .

ولكن لن نتمكن من فهم المشروع واهدافه ان لم ننظر الى موقفه من مجمل القضايا القومية ، ومع ان المشروع لا يحدد نظرة ما الى اكثر هذه القضايا من ناحية قومية مجردة ، انما موقفه السياسي من بعضها كلبنان وفلسطين والوحدة العربية ينير لنا الطريق ، ونتمكن به من الاحاطة بالموضوع احاطة اوسع واشمل .

موقف المشروع من لبنـــان :

يظهر موقف المشروع من لبنان بشيء من عدم الاقتناع بكون لبنان جزءا من اجزاء سوريا و بالاحرى لبنان الصغير . واول ما يرد ذكر لقضيته في تصميم المشروع في البند الثاني منه ، هو تنويه بان لبنان وسوريـــا الشمالية وشرق الاردن وفلسطين تؤلف بمجموعها الاقاليم السورية ، صاحبة ميثاق ٩٢٠ ولقد جاء في البند ب / ٣ ان الدولة السورية العتيدة ستضم هذه الدول الاربع . لكن عهد استدراك في البند الثاني يمنح به لبنان القديم ادارة خاصة بمقتضى الدستور لصيانة اماني اللبنانيين الوطنية . اما في حالة تخلف لبنان عن الانضمام الى الوحدة او الاتحاد فيجب ان تعاد الاراضي السورية الملحقة بلبنان دون رغبة من السكان بالاستفتاء الحر الى سورية (٣) وقد اكد الملك هذا الموقف في التوصيات التي اعطاها لرئيس وزرائه ، وبيّن

(١) الكتاب الابيض ص ٦٤

(٢) عن بيان المجاهدين القدماء

(٣) الكتاب الابيض ص ٦٨

على ان مسالة لبنان الكبير هي من جملة الحقوق السورية التي لا ينبغي اغفالها (١) وكذلك منح الكتاب الازرق الموارنة في لبنان وليس لبنان ، اذا شاؤوا ، ادارة ممتازة على نحو ما كانوا يتمتعون به خلال السنوات الاخيرة من عهد الامبراطورية العثمانية ، على ان تسند هذه الادارة الخاصة الى ضمان دولي (٢)

وهذا الموقف من لبنان لا يختلف عن موقف السوريين خاصة منه سنة ١٩٢٠ وضمانتهم للجبل حقوق الانفصال عن سوريا . ومن الواضح ان هذا الموقف تغلبه الاعتبارات الطائفية التي تقوم على اساسها السياسة في لبنان ، ويؤكد لنا الصفة السياسية المجردة لمشروع الملك عبد الله وخلوه من النظرة القومية الى اسباب قيام الكيان اللبناني ومعالجة الاسباب بحد ذاتها لازالتها ، فالمشروع ينظر الى الناحية العملية التي يتمكن بها او يعتقد انه يتمكن بها ارضاء المسيحيين والمسلمين ، ولا يفكر بازالة اسباب التفوريين الاثنين . فالمشروع يرمي الى اعادة لبنان الى وضعه السابق للحرب العالمية الاولى ، كوطن قومي للمسيحيين ويستند كيانه على الدول الاجنبية التي تضمن له هذا الكيان ، الامر الذي يعني بالحقيقة تدخلاً اجنبا عمليا في الشؤون السورية ، مما يزيد في انكماش المسيحيين ويشجع بقاء العصبية الطائفية التي هي سبب وجود لبنان الحالي كدولة وكيان سياسي قائم بنفسه .

موقف المشروع من فلسطين :

واما موقف المشروع من فلسطين ، فلايختلف عنه من لبنان ، اذ يظهر فيه بوضوح اعتراف الملك ببعض الحقوق لليهود في فلسطين . وقد ورد في تصميم المشروع الاول تحت البند ج / ٣ . "انه يكون لفلسطين في بعض مناطقها ادارة خاصة بمقتضى الدستور يلاحظ فيها حفظ حقوق الاقلية اليهودية ، ومركز الاماكن المقدسة الخاص . وورد في التصميم الثاني ما يشترطه المشروع لانضمام فلسطين الى الاتحاد السوري :

ا ـ تقوم حكومة وطنية دستورية في فلسطين بحدودها الحاضرة .

ب ـ يبقى العمل بالكتاب الابيض موقتا على ان يحل محله تفسير رسمي نهائي لوعد بلفور يشترط فيه ازالة مخاوف العالمين العربي والاسلامي ، وحفظ نسبة اليهود ثلثا ، لان هذا الثلث يحل البريطانيين من وعد بلفور .

جـ ـ يراعى في ادارة فلسطين الوطنية المركز الخاص للاماكن المقدسة

د ـ تعطى المناطق ذات الاكثرية اليهودية ادارة لا مركزية توكيدا لحفظ حقوق الاقلية اليهودية

هـ ـ يبادل الاتحاد العربي العام المواطنين الفلسطينيين من اليهود تعاونا اقتصاديا نافعا .

و ـ يشترط لاقرار العرب هذه المزايا للاقلية اليهودية في فلسطين ، اعلان الهيئة اليهودية المسؤولة موافقة اليهود نهائيا على هذا الحل باشعار الحكومة البريطانية ذلك . وفي حالة عدم حل

(١) مذكراتي ـ ص ٢٥٢

(٢) الكتاب الازرق ـ نوري السعيد

المشكلة اليهودية على هذا الاساس، فيجب ان تبقى فلسطين خارج نطاق الاتحاد السورى ، وستبقى هذه المشكلة المصدر الرئيسي لتسميم العلاقات البريطانية مع العالمين العربي والاسلامي . ولن تكون في مصلحة السلام والاستقرار ، وستساعد الدعاية والشكوك المعادية للديمقراطية في الشرق الادنى (١)

وهذا الموقف من فلسطين تنقصه ايضا النظرة القومية الى فلسطين . فليس لليهود من حقوق في ارض فلسطين مطلقا . واذا كان وجودهم يؤلف مشكلة بحد ذاتها ، فحل هذه المشكلة ، يجب ان يتجه الى اخراج اليهود من فلسطين . لان وجودهم فيها خطر على مصير سوريا القومي .

ورغبة الملك في حل هذه القضية ، ليس باعتبار انها تهدد المصير القومي او انها تخط على حقوق البلاد وافتئات لهذه الحقوق، بل لان حلها يزيل اسباب الشك في الصداقة البريطانية ،ويقطع دابر الدعاية ضد الديمقراطيات ، كأن الغاية من القضية الفلسطينية هو ازالة اسباب هذه الدعاية وليس المحافظة على حق البلاد وحياتها .

موقف المشروع من الوحدة العربية :

من طبيعة اى مشروع لتوحيد سوريا الطبيعية ، ان يلاقي بعض التهم التي تصفه بالاقليمية او بالانفصالية لان هذه الصفة تلازم القول بالقومية السورية عند الذين يقولون با لقومية العربية . ولم ينج مشروع الملك عبد الله من نعت من هذا النوع مع ان امره يختلف تمام الاختلاف عن القول بالقومية السورية . فالمشروع بحد ذاته مشروع سياسي ليست الغاية منه قوميه ، وليس هو بنظرة قومية معينة يبني برنامجه ومنهاجه على اساسها فهو من هذه الناحية تجديد للمشاريع السياسية القديمة في العهد العثماني واول العهد الفرنسي .

وما ورد في تصميم المشروع لا يحدد امرا معينا تجاه هذه القضية . فغاية المشروع ان يؤسس اتحادا عربيا تعاهديا بين الدولة السورية العتيدة والعراق (الهلال الخطيب) ، ينتظم التنسيق السياسي والدفاع والثقافة العامة والاقتصاد الوطني .

وفي الوقت نفسه ، لا يمانع في انضمام غيرها من الدول العربية الاخرى الى هذا الاتحاد على ان تكون رئاسة مجلس الاتحاد العربي دورية ، وان تعطى عند الاقتضاء عهديا الى اوسع الدول العربية ثروة ونفوذا ونفوسا ((٢) وليس في هذا العرض من تحديد للبلاد العربية او للدول العربية سوى ما ورد في الوصيات التي اعطاها الملك لرئيس وزرائه اثناء مباحثات الوحدة العربية ، والتي تضم الحجاز واليمن

---

(١) الكتاب الابيض - ٦٨ - ٧٠

(٢) الكتاب الابيض ص ٦٦-٦٧

وسوريا والعراق — وهو ما تطمح اليه العائلة الهاشمية ، وليس ما هو بالواقع بلادا عربية واحدة وفق تحديدات اكثر القائلين بامة عربية واحدة .

وفي نظر اصحاب المشروع هذا ، ان الوحدة السورية الطبيعية لا تناقض الوحدة العربية ، بل انها مظهر طبيعي لها وتنتظم معها في نطاق الواقع الجغرافي والتاريخي لتخرج على العالم بوجه اجمل وشكل اكمل (١) وهذا يعني ان الوحدة السورية ترتكز على نفس الاسباب التي ترتكز عليها الوحدة العربية وما هي الا خطوة لوحدة ابعد واكمل لا يحدد المشروع مداها ولا نوعها الا ان تكون نوعا من الجبهة او الجامعة كما يعني الاحتجاج على تدخل دول عربية في هذا المشروع الذي هو عمل خاص بالدول السورية الاقليمية ويتعلق بارادة الشعب السوري وحده (٢) اي الشعب صاحب السيادة الفعلية على بلاده . ومن هذا نرى ان المشروع مع انه يعتبر السوريين عربا من حيث القومية ، دون ان يحدد الكلمة ، يريد في الوقت نفسه ان يبقي حقوق الامة السورية في ايدي الامة ويمنعها عن غيرها ممن يعتبر ان لها حقا بالتدخل في شؤونها وهو موقف صحيح في حالة وجود حكومة تعمل على ضوء هذا المبداء ومن اجله في كل الحالات . لكن مشروع الملك عبد الله لا يحافظ على هذا المبداء الا تجاه الدول التي تعاكسه في هذا الامر لاسباب خاصة بها . وما موقفه الظاهر في عدم اهتمامه بقضية كيليكيا والاسكندرون الا انه يتجاوز عن الحقوق القومية تجاه دولة يعتبرها صديقة لشخصه . فليس في المشروع اي ذكر لقضية هذه الاراضي المسلوخة عن الجسم السوري والتي هي حق صارخ للبلاد السورية . فكأن الملك يرغب عنها اولا يعتبرها قطعة من الارض السورية يحتلها الاتراك .

هذا هو مشروع سوريا الكبرى اجمالا بارتكازاته وموقفه من مجمل القضايا القومية ، كما يراها اصحابه . وقد اثار سخطا ما بعده سخط في اكثر الدويلات السورية والدول العربية ، خصوصا بعد ان انتقل الى طور التحقيق الجدي في بحثه في جامعة الدول العربية .

مشروع سوريا الكبرى وحكومات الجامعة العربية :

حاول الملك عبد الله ، كما رأينا اقحام المشروع في ميثاق الجامعة العربية ، لكنه فشل في ذلك . وجاء ميثاق الجامعة خلوا من اي ذكر لمشروع توحيد او وحده . واعتبرت الجامعة ميثاقها حجة نهائية للعاملين بالوحدة العربية ، فتمشت سياستها وفقا لهذا الاعتبار ، وان تغيير الوضع القائم كفر بالميثاق

---

(١) الكتاب الابيض — ص ٤ — المقدمة

(٢) على هامش الكتاب الابيض ص ٢٠

وهذه العثرة لم تكن في حسابات الملك ولا في تقديره ، اذ انه حاول منذ بدء الامر اعتبارها فرصة سانحة لتحقيق الوحدة السورية ولاعادة القضية السورية الى وضعها الاصلي .

وما حلت الدورة الثانية للجامعة العربية حتى اثيرت القضية وحمي وطيسها ، فعلى اثر تصريح اولي به في شهر تشرين الثاني سنة ٩٤٥ ونشرته احدى وكالات الانباء الاجنبية ونسبته للملك (١) صدر تصريح للسيد حميد فرنجيه وزير خارجية لبنان حينذاك يستغرب فيه هذه الدعوة ويستنكرها على اعتبار ان "البلاد العربية " قد استقلت ضمن الحدود الحاضرة لكل منها ، وان كل دولة منها اعترفت باستقلال الاخرى في هذه الحدود وان الجامعة العربية الفت على هذا الاساس، وكل مشروع ليس من روح ميثاق — الجامعة يرفضه لبنان (٢)

رد وزير الخارجية الاردنية على هذا البيان ببيان اخر بيّن فيه ان ميثاق الجامعة لا يمنع الدعوة للوحدة او الاتحاد كما ورد في نص مادته التاسعة على انه" لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون اوثق وروابط اقوى مما نص عليه هذا الميثاق، ان تعقد بينها من حين الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الاغراض " وزاد على انه ليس هناك ما يخالف الميثاق اذا رد امر الوحدة للشعب او لرضى الحكومات.

لم يقف الامر عند حد البيانات هذه ، بل اثيرت القضية في مجلس النواب اللبناني والسوري . بعد ان اثيرت في مجلس الجامعة العربية . فعلى اثر المناقشات والمقالات في الجرائد والبيانات ، اتخذت اللجنة السياسية في الجامعة على اثر موافقة مجلسها قرارا باحالة القضية الى اللجنة السياسية المؤلفة من وزراء خارجية الدول العربية يوم ٢٥ ت٢ سنة ٩٤٦ فاجتمعت اللجنة وبعد مداولات واخذ ورد اتفق الجميع على اعتبار الامر لم يقصد منه التعرض لاستقلال او سيادة احدى دول الجامعة او النيل من نظام الحكم القائم فيها (٣)

وموقف سوريا من الموضوع كان يرتكز ويدور حول نقطة واحدة اساسية هي نظام الحكم . فقد راينا انه عند اثارة الموضوع في مشاورات الاسكندرية لم تمانع الحكومة في طرح المسالة للبحث، انما اعترضت على النظام الملكي . وهذا الاعتراض ليس لان النظام الملكي عاطل بحد ذاته ، انما لان النظام الجمهوري وليد رغبة الشعب والدستور السوري الذي وضعته الجمعية التاسيسية المنتخبة انتخابا شرعيا عام ١٩٢٨ ، ولان هذا النظام بحد ذاته يؤ من حرية للشعب لا يؤمنها له نظام ملكي يقوم الملك عبد الله عليه (٤)

---

(١) الكتاب الابيض ص ٢٣٢ وقد جاء في التصريح ان الملك عبد الله قال : " لا شيء يحول الان دون ارتقائي عرش دمشق، وقد وعدني بذلك من بيده الشان " . راجع ايضا كتاب "كلمة السوريين والعرب في مشروع سوريا الكبرى " اصدره فريق من شباب العرب (دمشق ٩٤٧) ٢٨٩

(٢) الكتاب الابيض ص ٢٣٣ (٣) كلمة السوريين والعرب — ص ٢٤ (٤) المصدر نفسه — من تصريح لخالد العظم وزير الخارجية ردا على ابرهيم هاشم رئيس وزراء الاردن ص ٢٢ .

وفي راى سوريا ان سوريا وشرق الاردن يؤلفان بلادا واحدة . ولكن سعوريا بصفتها اصلا ، ترى من الضرورة ان تعود شرق الاردن اليها ،لا ان تعود هي الى شرق الاردن (١) واما قول الملك عبد الله بان سوريا الجمهورية هي وليدة معاهدة سايكس بيكو — وان الاردن وليدة الثورة العربية ، فكلام لا اساس له من الصحة ، لان الوضع القائم في شرق الاردن انما هو وليد بيان القاه المنتدب السامي البريطاني في فلسطين ، اعلن فيه بسط سيادة بريطانيا على هذا اللواء المقتطع من سوريا ، اثرنكبة عام ١٩٢٠ واعقبه اختيار السلطات البريطانية حكام تلك المنطقة (٢) ولذلك لا يكون المشروع تتميما لاهداف الثورة العربية ولا تحقيقا لميثاق ١٩٢٠ لان بين الاثنين خلافا اصيلا . خصوصا في الموقف من القضية الفلسطينية ومن الاسكندرون وكيليكيا ، ولان الملك يبغي فقط السلطان ، والا فلماذا قبع طوال مدة عشرين عاما عن المطالبة بالوحدة السورية . فضلا عن ان الملك عبد الله ليس بالرجل الذى يمكنه تولي قيادة الامة او يرث هذه القيادة ، لانه جاهد للارث وجاهد لاخيه .

وهناك ايضا نقطة اساسية تجعل سوريا تعارض مشروع سوريا الكبرى ، هي المعاهدة مع بريطانيا . فانضمام سوريا والاردن يعني خضوع سوريا لاحكام هذه المعاهدة التي تقيدها بالتزامات الى بريطانيا تفقد معها السيادة والاستقلال التي تتمتعها نتيجة لجهادها الطويل من اجل هذا الاستقلال . فالملحق العسكري من المعاهدة البريطانية الاردنية يسمح لصاحب الجلالة البريطانية والاردنية يسمح لصاحب الجلالة البريطانية اقامة قوات مسلحة في شرق الاردن ويسمح لهذه القوات باستعمال جميع المرافق العامة تسهيلا لحركتها .

وفضلا عن هذه المعاهدة فهناك الدستور الجديد الذى سنه الملك والذى يمنحه حق اصدار القوانين وتصديقها ومراقبة تنفيذها (٣) ويمنحه ايضا قيادة القوات البرية والبحرية والجوية ، وحق تعيين رئيس مجلس الاعيان ونائبه واعضائه ورئيس مجلس النواب ونائبه كما ان جميع الحقوق في الاراضي التي قد تكون رتبة الارض او حق التصرف فيها عائدا الى الحكومة ، تناط بالملك (٤) مما يعني تسلمه جميع مصادر الثروة في الاردن .

وثمة امر اخر هو ان الملك مشهور بصداقته لبريطانيا وبانه يمثل المصالح البريطانية في سوريا . فالقبول به يعني القبول بالمصالح البريطانية التي منحت اليهود وعد بلفور والتي امضت التنازل عن حق سوريا

---

(١) المصدر نفسه من تصريح للجابرى ص ٥٧

(٢) " " ص ٢٢

(٣) المادة ٢٤ منه

(٤) المادة ٧٦ منه

بالاسكندرون ، والتي لا حد لمطامعها واهدافها الاستعمارية . وهذا الامر الاخيرلم تصرح به الحكومة رسميا لكن الجرائد السورية نبهت اليه مرارا ورددته في اكثر مقالاتها والملك في نظر السوريين لم يقف موقف اللبق ، ولم يراع الظروف التي تمر بها البلاد ، فيروز قضية فلسطين الى الوجود كان عليه ان يتريث قليلا حتى تنتهي وان يتكاتف مع غيره

وهذه الاعتراضات فيها الكثير من الصحة ، ولكن المطالبة ببقاء النظام الجمهوري وجعل قضية نظام الحكم الاعتراض الاساسي كان يعني ان الامر قضية شخصية بين الملك ورئيس الجمهورية السورية . وفي نظري ان النظام الجمهوري هو نظام تقدمي يفضل النظام الملكي في الشرق خصوصا عندما يقوم هذا النظام على اسس دينية ، ولان الوعي الدستوري لم يصل الى درجة قوية ليفرض به الشعب ارادته الحقيقية على الملك .

اما موقف الجمهورية اللبنانية فيختلف عن موقف الجمهورية السورية بسبب المشاكل الخاصة القائمة في لبنان وفي طبيعة كيانه . فالحكومة اللبنانية ترفض بالاصل اى دعوة للاتحاد والوحدة كما جاء في تصريح فرنجية المار ذكره ثم في تصريح فيليب تقلا وزير الخارجية بتاريخ ١٣ ت٢ سنة ٩٤٦ الذي اوضح به ان دخول لبنان الجامعة العربية كان على اساس استقلاله التام الناجز بحدوده الحاضرة واستقلال كل من دول الجامعة فلبنان على هذا الاساس يرفض ان تكون قضية .. سوريا الكبرى " موضع بحث (١)

وقد رد على هذا البيان وزير خارجية الاردن ردا ابان فيه رغبة الاردن في التقيد بميثاق الجامعة واقرارها باستقلال لبنان والتسليم بحريته في امر الوحدة او الاتحاد . ولكنه اظهر تمسك الاردن والاردنيين بوحدة سوريا وبالعمل لهذه الوحدة ، ثم يسال لبنان لماذا توسع على حساب سوريا . ولا يريد الان ان يسمح للاردن بالسعي للاتحاد بمحض الارادة وعلى حساب حقوقها الطبيعية والقومية ؟ واكد انه ليس للمشروع اى تعاون مع الصهيونية وان المعاهدة مع بريطانيا معاهدة دفاعية وضمن نطاق مجلس الامن (٢)

ولكن وزير الخارجية اللبنانية كرر رفض لبنان الدخول في اى بحث للوحدة . وفي هذا الوقت الذى صدرت فيه هذه التصاريح والبيانات ، اثيرت القضية في مجلس النواب السورى فرفض المشروع على اسسه التي وضعها الملك عبد الله ، بينما اخذت الجرائد تشن حملة قومية ضد المشروع . وصدرت عدة تصريحات من وزراء خارجية الحكومات الثلاث لا يخرج مدارها عن جوهر النقاط التي ذكرت .

وفي ختام هذا الجدل بحث رئيسا الجمهورتين في ايلول ٩٤٧ القضية واصدرا بيانا مشتركا جاء فيه

---

(١) الكتاب الابيض ص ٢٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٢

بيان صاحب الجلالة الملك عبد الله الصادر في ٤ اب ٩٤٧ كان موضع استغرا بهما و استنكارهما لتدخله في شؤ ون جمهوريتي سوريا ولبنان ولتعرضه لنظام الحكم فيهما ولمخالفته في ذلك ميثاق جامعة الدو ل العربية ومبادئ القانون الدولي (١)

وتبع هذا البيان بيا نات من مصر والمملكة العربية السعودية اللتين وقفتا موقفا معا ديا من هذه الدعوة وايدتا الجمهورتين في موقفهما . ولقد كان موقف مصر شديد الصلابة، فالصحافة المصرية وقفت منه موقفا شديد العداء وكذلك الحكومة . فصرح احمد خشبة باشا وزير الخارجية عن موقف الحكومة من المشروع واستنكارها له لمخالفته ميثاق الجامعة العربية خصوصا بعد ان توصلت هذه الجامعة الى قرار اعتبرت فيه هذه المسالة بحكم المنتهية . واعلن ان حكومة جلالة الملك متمسكة بعهد الجا معة والقرار المشار اليها واعتبر انه بفضل تضامن جامعة الدول العربية يمكن سد الطريق على الطامعين الى فرصة للوصول الى مارب هم في تفريق كلمة العرب (٢)

ولم يختلف موقف ابن السعود عن موقف مصر ، فقد اصدر في الواحد والثلاثين من اب ١٩٤٧ بيانا لا يفرق في جوهره عن البيان ا لمصرى، وبنى رفضه للمشروع على انه منا فٍ لدقوانين الدولية ولميثاق جامعة الدول العربية ولانه يعتبر اعتداءا على سورية ودستورها الجمهوري ا لذى اقرته الامة واعترفت به سائر حكومات العالم (٣)

ومع انه لا يمكن الاقرار بمشروع الملك عبد الله كما هو ، فاننا نرى ان جميع هذه البيانات لا تهتم فيما اذا كان المشروع بحد ذاته يخدم الامة والشعب او يضرهما فتدرسه دراسة علمية دقيقة منزهه . بل اكتفى اكثرها بعدم الموافقة عليه لانه ينافي القوانين ، دون ان تبين فيما اذا كانت القوانين وضعت لاستعباد الامة او لخدمتها ورقيها . لقد رفضت البيانات المشروع لانه لا يستند الى نص قانوني صريح ولا الى عهدة دولية وهذا تقصير عظيم من الناحية الاجتماعية لانه نوع من الارتجاليه ومن الاخذ بالاعتبارات الشخصية .

وقد رد الملك عبد الله على تدخل مصر والسعودية العربية في هذا الصدد على انه شأن يخص البلاد السورية وحدها . وهذا الموقف صحيح من حيث الناحية القومية ، لكنه ليس بقائم عليها ،بل يقوم على اعتبارات شخصية ومصلحية بين مصر وابن السعود وبين الملك عبد الله .

---

(١) كلمة السوريين والعرب ص ٥٩ حـ ٦٠

(٢) المصدر نفسه ص ٦٣

(٣) نشرت البيان اكثر الصحف في حينه ووزع منه نسخ عديده في بيروت و منه نسخة محفوظة في مكتبة الجامعة

وقد وقفت العراق موقف المحايد طوال هذه المشادة وان كان ميلها ظاهرا تجاه الملك عبد الله و مشروعه .

واما بريطانيا فاننا نلاحظ موقفها من المشروع في بادىء الامر ، موقف من ينصح ولا يريد التورط في مشروع لا يمكن التكهن بنتائجه ، فكانت تنصح الملك بالتروى في اعلان المشروع الى ان تسنح الظروف . وبا لحقيقة لا يمكننا ان نعرف موقفها تماما لان المشروع لم يمت بعد ولان مصالحها لا تزال قائمة . ولا يمكن للانسان ان يلمس اى تحديد صريح لموقفها عن لسان مسؤوليها . فعلى اثر المشادة الكبيرة في اواخر اب ٩٤٧ حول المشروع ، ادلى ناطق بلسانها ان رغبتها هو ان تخلق الدول العربية فيما بينها حدا من الاستقرار (١) اما نوعية الاستقرار وماهيته فلا تبينهما ويمكن للانسان ان يستنتج امورا عدة متباينة من هذا التصريح .

لم يمت مشروع الملك عبد الله بعد وان يكن قد ركد . فقد مر على التفكير به عشر سنوات استيقظ فيها مرارا ثم عاد ركوده ، ولا نعرف الان ما تحمله لنا الاقدار منه .

الحزب السوري القومي الاجتماعي وموقفه من المشروع :

للحزب من مشروع " سوريا الكبرى " نظرتان . الواحدة سياسية تنظر الى الموضوع من ناحيته السياسية والثانية قومية ذات علاقة مباشرة بالاساسيات من نظرة الحزب الى الامة السورية كامة . فالحزب يعتبر ان هناك امة سورية ذات حدود طبيعية واضحة ، هي نهاية ما يسعى اليه ، وهي بحد ذاتها مدا رعمله وهذه الامة بطبيعة كونها امة ، لها قوميتها السورية .

واما مشروع الملك عبد الله فلا يقول بقومية سورية ولا بقومية عربية ، ان هو الا مشروع سياسي . وقوله بقومية عربية بعض الاحيان يستمده من الصفة الدينية التي له ، بكونه من عائلة هاشمية اسلامية ، وليس من نظرة خاصة الى مفهوم القومية . وهذا يعني انه بينما الحزب يسعى الى ايقاظ الوعي القومي في الامة السورية ويسعى الى تحقيق مبادىء اصلاحية معينة والى ايجاد نظام جديد ، لا يسعى مشروع الملك عبد الله الا الى توحيد سوريا توحيدا سياسيا ينتهي بوصوله الى هذا الهدف . وهو يستعمل القومية العربية كوسيلة لتحقيق هذا الهدف السياسي . والحزب لا يرى في توحيد سوريا الا خطوة بسيطة تجاه غايته الكبرى " التي هي بعث نهضة سورية قومية اجتماعية تعيد الى الامة السورية حيويتها وقوتها وتثبت سيادتها وتقيم نظاما جديدا يرفع مستوى حياتها " فالاختلاف في المشروعين اختلاف في الغاية وفي الوسيلة ايضا .

---

(١) كلمة السوريين والعرب ص ٧٤

والاختلاف بينهما ايضا هو في نوعية الحكم ،اى في الصفة التي يعتبرها كل منهما مؤ هلة للحكم ٠ فالحزب يتوصل للحكم من الشعب بصفته حزبا ، ومن عمله لخدمة الامة ٠ بينما الملك يريد ان يتوصل للحكم لانه من عائلة هاشمية ، ولان اباه قاد الثورة العربية ولانه حاكم على جزء من سوريا ٠ فبطبيعة صفته الهاشمية سيكون حكمه ٠ ان لم يكن دستوريا ، حكما تيوقراطيا يقوم على اسس دينية وبالاحرى طائفية ٠ والحزب يرفض ان يقوم حكمه على اسس دينية ، فهو يفصل بين الدين والدولة ويمنع رجال الدين من التدخل في الشؤون السياسية لانه يعتبر السلطة من الشعب وليس من الله ، وان عهد الحكم بالحق الالهي قد انقضى وزال بتطور الانسانية وتطور النظرة الى حق الشعب والامة ٠

وعدا هذه الخلافات في الغاية والوسيلة ، هناك اخطار استعمارية يرى الحزب ان المشروع يحققها ويقيد الامة برباط سياسي لافكاك لها منه ٠ فهو يسمح لليهود بحقوق وللاتراك بحقوق اخرى، لا يسمح بها الحزب اطلاقا لاحد منهما ٠

لقد اصدر الحزب سنة ١٩٤٦ بيانا يظهر فيه موقفه من المشروع ٠ والبيان هذا لا يعبر اجمالا عن نظرة الحزب الواقعية الى المشروع لان ارتكازاته تقوم على اعتبار الكيانات السورية المنفصلة كيانات نهائية لكنه من جهة ثانية يعطي الخطط العملية التي يرى الحزب انه يحسن انتهاجها تجاه هذا المشروع ٠

١ــ يجب العمل على تامين او استكمال السيادة في كل الدول المتاخمة (يعني الدول السورية) غير المستقلة فعليا ويتطلب ذلك :

ا ــ استكمال تحرير شرق الاردن من كل قيد من القيود التي تجعل استقلالها الحالي شكليا واسميا فقط

ب ــ انقاذ فلسطين من الاستعمار المزدوج الذى اخضعت له ، ومن الاخطار المتوقع حلولها

جـ ــ انقاذ كليكيا والاسكندرون وارجاعها الى حظيرة الوطن الام ٠

٢ــ من الواجب الدفاع عن استقلال الجمهوريتين ضد كل عدوان اجنبي صريح او مستور ويجدر العمل على محاربة المساوئ والمفاسد الاجتماعية والعمل على اشادة المجتمع الجديد ، المرتكز على مفاهيم الحياة المدنية العصرية ٠ على ان تجرى هذه الدول (السورية) سياستها الخارجية والاقتصادية وتوجيهاتها الثقافية والعمرانية بتجانس تام ٠ وان تتعاون مع غيرها من الدول العربية ضمن " الجامعة العربية " لتصبح ذات وزن في تقرير مصير العالم العربي ٠ واخيرا يجب المحافظة على استقلال وسلامة كل دولة (١)

---

(١) الحزب القومي مشروع سوريا الكبرى ص ٢٨ ــ ٢٩

بيد ان موقف الحزب من هذا المشروع تغير قليلا بعد عودة زعيم الحزب . فانطون سعاده لم يتغير نظره الى المشروع ونتائجه ، انما لم يكن يمانع في حدوثه لسبب واحد ، هو ان توحيد الدول السورية يعفي الحزب من مجابهة الحكومات السورية منفردة واعتبار كل منها للحزب كانه يعمل على تقويض كيانها الخاص . ولما كان الحزب يرى ان غايته لا تنتهي عند مجرد توحيد سوريا ، فان هذا التوحيد يساعده على الانتباه الى الاصلاح الاجتماعي والى نشر افكاره التي من شانها ان تنبه وعي الامة ، دون ان يضطر فيما لو تسلم الحكم الى مواجهة صعوبات دولية عند محاولته ضم دول معترف بها من جامعة الامم . فمن هذه الوجهة وعلى هذا الاساس كان زعيم الحزب يرى انه لا مانع من حدوث هذا المشروع ، كما انه لم يكن يمانع ايضا ان يحدث تعاون مع الملك عبد الله ، على اساس تولي الحزب الحكومة وتحقيق برنامجه وايجاد دستور تقدمي . يحدد سلطة الملك ويكون زعيم الحزب فيه قائد الجيش ورئيس الحكومة . وعلى شرط ان يؤ من الملك عدم تدخل دول اجنبية في المشروع (١) وفي المفاوضات التي دارت مع الملك حول المشروع رفض الملك هذه العروض وامتنع الحزب عن البحث في القضية الا على اساس هذه الشروط .

ومن هذا نعرف ان الحزب لا يتنازل عن غايته تجاه حدوث التوحيد وتولي السلطة ، بل يعتبر الغاية الاصلاحية علة وجوده ، لان تقسيم البلاد السورية هو نتيجة لا سبب ، وبزوال السبب تصلح النتيجة .

---

(١) هذه الشروط التي وضعها انطون سعاده عند اجتماعه الاخير بالملك عبد الله وقد رفضها الملك .

مشروع الهـــلال الخصيـــــب :

نشأة المشروع : ليست فكرة التوحيد بين سوريا الجغرافية والعراق بالفكرة الحديثة ، انما هي قديمة الوعي القومي في البلاد والعمل في " القضية العربية " ولكن لم يقم طوال وجود هذه الفكرة في عقول القليلين من اوضحها او اوضع لها خطة معينة وبين ضرورة حدوثها وكيفية امكانية هذا الحدوث ومدى نفع هذه الفكرة او ضررها .

فالصراع من اجل الاستقلال الذي هو محور القضية العربية اشترك فيه السوريون والعراقيون على السواء والجمعيات السرية وغير السرية التي تالفت لمناهضة الاستعمار العثماني كانت تجمع بين العراقيين والسوريين الامر الذي دعا الكثيرين الى عدم التفريق بين الاثنين واعتبار قضيتهم واحدة

واول ملى نجد تفكيرا مدونا لهذه القضية في كتاب يونغ (الثورة العربية) التي يقترح فيها ان تكون البلدان العربية سوريا وكليكية وفلسطين وما بين النهرين) مملكة مستقلة (١) وان يقوم خليفة عربي على المسلمين بحكم الحجاز مدنيا فقط . والعالم الاسلامي روحيا . وتؤلف بقية البلدان (اى بلدان الهلال الخصيب) وحدة حكومية لانها هي بالواقع وحدة لا يمكن تقسيمها لاسباب عديدة منها جغرافية وعرقية(٢) ولا يختلف هذا الاقتراح في روحه وشكله عن المشروع الذي وضعه نجيب العازوري "صديق يونغ ورفيقه ويدل على انه مستوحى من افكاره .

بيد ان الحرب والاتفاقات الاجنبية التي قررت بالفعل مصير البلاد لم تسمح لمثل هذه الافكار بالانتشار خصوصا وهي لا تستند على وعي شعبي كامل او جزئي لقضية من هذا النوع.

ولقد اوجدانتهاء الحرب انفصالا للشراكة التي كانت قائمة خلال عصر الصراع من اجل الاستقلال ، فاخذت كل جماعة تحاول الاستقلال بقضايا استقلالا يقرب الى الانفصال التام فالاحزاب السرية كالفتاة والعهد كانت احزابا يشترك فيها السوريون والعراقيون معا ولكن بانتهاء الحرب انتهت هذه الشراكة(٣) وتاسس حزب عهد عراقي واخر سوري وكذلك انحصرت اعمال حزب الاستقلال وليد الفتاة بسوريا .

ونشبه الاطوار التي مرت بها العراق بعد الحرب الكبرى الى حد كبير الاطوار التي مرت بها سوريا نرى سائل مكماهون — الحسين ، وعاهدة سايكس بيكو والاحتلال البريطاني الفرنسي كلها اطوار اشترك بها الاثنان معا بطبيعة وحدتها الا ان العراق لم يصبه من التقسيم ما اصاب سوريا . فلقد وجدت بريطانيا

(١) Temperley ج ٢ ص ١١٥
(٢) المصدر نفسه ص ١١٧
(٣) يذكر فوستر في كتابه ان حزب العهد العراقي تالف ٩١٣ وكان مؤسسه ضباط عراقيون في الجيش التركي وانه خلال الثورة العربية كان يسعى لاستقلال العراق بدون اي تدخل اجنبي على امل ان يوحدوا تلك مع سوريا المستقلة تحت ملكية العائلة الهاشمية في الحجاز ص ٧٨ راجع سعيد ٢ ص ٣٧ عن انفصال حزب العهد .

بهاالاثنان معا بطبيعة وحدتها الا ان العراق لم يصبه من التقسيم ما اصاب سوريا . فلقد وجدت بريطانيا انه لا يمكن تقسيمه مطلقا كما ان لجنة كنغ — كراين قررت ان البحث في تقسيم العراق امر عقيم لا يمكن البحث به ولكنها لم تقترح ان ينضم العراق الى سوريا بل ان ينال استقلاله وان يكون ملكا عليه ، اما الامير عبد الله او زيد .

وفي اليوم الذى اعلن فيه المؤتمر السورى العام استقلال البلاد السورية بكاملها وبويع الملك فيصل ملكا على سوريا عقد زعماء العراق الموجودين في الشام اجتماعا قرروا فيه اعلان استقلال العراق وكان توفيق السويدى رئيس المؤتمر العراقي قد ارسل قبل انعقاد المؤتمر السورى في ٨ اذار كتابا الى رئيس هذا المؤتمر يدعوه فيه للاشتراك في تقرير مصير البلاد جاء فيه :

" ان غاية الثورة العربية لم تكن تحرير قطر دون سواه من الاقطار العربية وان جهاد العراقيين في خدمة القضية العربية في الحرب الماضية اوصلهم مع اخوانهم السوريين الى سوريا التي تربطها بقطرهم العراقي روابط اقتصادية وجنسية وسياسية . ولما كان المؤتمر السورى لم يهمل مقررات المؤتمر العراقي المرتبطة بسورية في قراراته السابقة لذلك قرر المؤتمر العراقي المنعقد في دمشق في جلسة ١٤ اذار ١٩٢٠ ان يرجو من المؤتمر السورى الاشتراك في تقرير مصير البلاد المحررة وفقا لرغائب الامة وبيانات الحلفاء ومبادئ الرئيس ولسن (١)

ولذلك جاء في نص القرار الذى اتخذه المؤتمر السورى العام باستقلال سوريا في ٨ اذار ١٩٢٠ بشان العراق .

" ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربي من حكم الترك ، وكانت الاسباب التي يستند اليها في استقلال القطر السورى هي ذات الاسباب التي يستند اليها في استقلال القطر العراقي . وبما ان بين القطرين صلات وروابط لغوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية تجعل احد القطرين لا يستغني عن الاخر . فنحن نطلب استقلال القطر العراقي استقلالا تاما ، على ان يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي اقتصادى "

وما جاء في قرار المؤتمر العراقي لم يكن يختلف في جوهره عما جاء في القرار السورى ، فايد استقلال سوريا التام واعلن اتحاد العراق اتحادا سياسيا واقتصاديا معها (٢) ولكن هذه القرارات لم تكن ذات قيمة من الناحية الفعلية ، لان السلطة لم تكن بيد احد من العراقيين ، ولم يقم بالفعل اى نشاط لاخراج هذه القرارات الى حيز التنفيذ وتحقيق امر هذه الوحدة ، انما بقي الامر نوعا من التمني . او نوعا من

---

(١) الوثائق والمعاهدات ص ٣١٦

(٢) الوثائق والمعاهدات ص ٣١٨

من العطف المتبادل بين السوريين والعراقيين لاشتراكهم في قضية الصراع من اجل الاستقلال معا .

وحدثت ثورة العراق سنة ١٩٢٠—١٩٢١ وانتخب الامير فيصل ملكا على العراق . واعطى العراق استقلاله تحت انتداب انكليزي فعلي ، لكنه يختلف في علاقته عن النوع الوارد في المادة ٢٢ دستور عصبة الامم (١) اذ انه قائم على معاهدة مصدقة من الجمعية التاسيسية العراقية ومدته معينه ، مما يجعله اقرب الى الوصاية منه الى الانتداب .

وخف منذ ذلك الحين شان الوحدة ولم يعد الى الظهور الا سنة ١٩٣٨ بعد ان اعلن المفوض السامي الدستور السوري وفقا رغبته . فاعتقد بعض السادسة انه في حالة ضم العراق وسوريا وجعلهما مملكة واحدة يتخلصون من الانتداب الفرنسي . ففاتح بالامر السيد ان فارس الخوري وشكيب ارسلان صاحبا الفكرة ، الملك فيصل الذي كان يستشفي في سويسرا فرحب بالفكرة ، لكن عندما طرحت القضية للبحث عارضها بقية السياسيين لرغبتهم في بقاء « سورية جمهورية (٢)

واول ظهور رسمي لمشروع "الهلال الخصيب" ظهر في تصميم المجاهدين القدماء لمشروع سوريا الكبرى الذي اقترح ان يصير بعد توحيد سوريا الى ايجاد "اتحاد عربي تعاهدى مؤلف من الدولتين السورية و العراقية (الهلال الخصيب) ينتظم التنسيق السياسي والدفاع والثقافة العامة والاقتصاد الوطني (٣) وظهر ايضا في كتاب توري السعيد الازرق وهو لا يختلف في جوهره وفحواه عن التصميم الظاهر في مشروع الملك عبد الله .

وهذا التصميم لاقامة اتحاد في الهلال الخصيب لا يمنع بقية الدول العربية من الانضمام الى هذا الاتحاد ،لكن مجرد تعيينه في هذه المنطقة ،يعني اهتماما اوليا بها لانها المنطقة الواقعة تحت حكم العائلة الهاشمية وسيطرتها . وتبدو دعوة غير هاتين الدولتين السورية والعراقية نوعا من المجاملة التي لا بد منها والتي هي نتيجة القول بقومية عربية او اخوة عربية .

وعدا ما جاء في تصميم الملك عبد الله وفوزي السعيد فليس هناك تعيين واضح للمشروع وماهيته وقد تطور بمدة قصيرة من اتحاد الى وحدة تقتصر على سوريا الجمهورية والعراق .

وشأن "الهلال الخصيب" او الاتحاد السوري — العراقي لم يثر الا موءخرا بعد حوادث فلسطين ولم يكتب فيه من المفكرين احد بعد تطوره الحديث . لكن على اثر ظهوره لاول مرة سنة ١٩٤٣ اصدر الدكتور فيليب حتي نشره باللغة الانكليزية تحت عنوان "الاتحاد العربي ،هل هو ممكن ؟ قال فيه انه "ان كان ثمة من اتحاد عربي فنواته العراق — سورية والبداءة من هذين البلدين" ويعطي اسبابا لذلك تحبيز

(١) Foster - ص ١٢٦

(٢) من حديث مع السيد فارس الخوري ، في ٢٤/١١/١٩٤٩

(٣) حتي فيليب الاتحاد العربي هل هو ممكن ؟ في الهلال — عدد يوليه — ١٩٤٤ — ص ٥٣٩ — ٥٤٤

الانكليز لهذا الاتحاد الظاهر في تصريح المتريدن المذكور انفا والدلائل التاريخية التي تشير كلها بصراحة واضحة الى امكان شمل سوريا والعراق في اتحاد ... خصوصا وان المدة التي كان فيها قرنا الهلال الخصيب ، اي سوريا والعراق — منفصلين تمام الانفصال كانت قصيرة بالنسبة للمدة التي كانا فيها متصلين (١)

ومع ان حتي لا يفكر في امر وحدة سياسية مطلقة كما يوضح اذ انه يعني بالاتحاد حلفا سياسيا بين البلدان العربية المستقلة يقابل الحلف البريطاني ويختلف عنه في مسالة العرش، لكنه ادرك امكانية قيام هذه الوحدة من الهلال الخصيب ، لما يربطه من عوامل تاريخية واجتماعية وجغرافية .

بيد ان قضية الهلال الخصيب ، التي فتحت مؤخرا هي قضية اتحاد سوريا — العراق ، وهي قضية لا تزال تحت الدرس ولم يقرر بشانها شيء ولذلك لا يمكن درسها او درس الاطوار التي مرت بها بتفصيل او دقة فهي لا تزال في درسها او درس الاطوار التي مرت بها بتفصيل او دقة فهي لا تزال في طور دقيق ولم تتبلور بعد عن مشروع معين يمكننا اعتماده للدرس .

تطور القضية بعد حرب فلسطين :

اتخذت قضية الاتحاد السوري — العراقي الذي اقتصر عليه مشروع الهلال الخصيب الذي اقترحه كتاب نوري السعيد الازرق بعد حرب فلسطين شكلا جديا فالفشل الذي اصاب دول العالم العربي في هذه الحرب جعل الجميع يفكرون في امر اتحاد اقوى يتمكن من الوقوف في وجه اليهود ويصد تيارهم الذي قد يتصاعد ويزداد خطرا يوما بعد يوم . وهذا لا يعني ان امر الاتحاد هذا لم يكن يفكر به احد كلا ، فان سلسلة المقالات التي ظهرت قبل حادث فلسطين وبعده في جريدة "الحياة" توحي بان ثمة تفكيرا في الموضوع كان يراود مخيلة بعض الساسة ولكننا لا نعرف مداه ولا نوعه .

وعلى اثر الانقلاب السوري الاول ، ظهرت بوادر تحقيق هذا المشروع جديا . اذ ان حسني الزعيم قائد الانقلاب ، اقترب في بادئ امره من الجبهة الهاشمية وجرت بينه وبين السيد نوري السعيد محادثات كما جرت بين هذا الاخير وبين عدد من رجالات سوريا بعد ان كان حسني الزعيم قد ارسل وفدا من رجالات السياسة والحرب لبحث امكانية عقد اتفاقية عسكرية غايتها :

١ — ان تشترك قوات البلدين فورا بالاعمال الحربية التي قد تنشأ عن عدوان اليهود

٢ — ان يتضامن البلدان ويتحالفا لصيانة امنهما الخارجي تجاه اي اعتداء كان (٢)

---

(١) حتى فيليب الاتحاد العربي هل هو ممكن ج الترجمة العربية في الهلال عدد يوليه اغسطس ١٩٤٤ ص ٥٣٥ — ٥٤٤

(٢) جريدة المصري العدد الصادر في ٦ حزيران ١٩٤٩

٣ــ وكنتيجة لهذه المعاهدة ايجاد هيئة اركان حربواحدة وتقديم مساعدة عسكرية وكما يظهر من هذه العروض انها عسكرية الغاية ولاذكر فيها لاى نوع من الاتحاد اوللاتحاد او الوحدة ، انما كانت تدل على امكانية السعي او الاتجاه نحو الوحدة .

وفي ١٥/ ٤/ ٤٩ حضر نورى السعيد رئيس وزراء العراق واجتمع سرا برئيس الحكومة السورية حسني الزعيم وبيّن له ان العراق مستعد لتقديم المساعدة لسورية عند اعتداء اليهود لكنه لم يرض معه الوصول الى عقد معاهدة دفاع مشتركة قبل اخذ راى الانكليز الذين يرتبط معهم العراق بمعاهدة تحالف . ثم بين ان رأيه في التعاون بين العراق وسوريا قديم وانه عرض امر هذا التعاون على لبنان ايضا عندما كان سامي الصلح رئيسا لمجلس وزراء لبنان واعتذر اخيرا ان تكون البادرة منه في طلب هذا التعاون من العراق لما قد يفهم به من نية غير صادقة .

ورد الزعيم حسني قائلا : ان سوريا والعراق ليستا جارتين فقط ، بل اكثر من ذلك ، واني اعتقد انه يجب ان نتعاون الى اقصى درجات التعاون في مسائل الحدود والمسائل الجمركية والمسائل العسكرية وغيرها ((١)

وهذا التصريح يعطي على الاقل الخطوط الكبرى لمدى التعاون وليس الوحدة التي ابتدأ البحث بها

وقد اجتمع نورى السعيد بزيارته تلك بعدد من الشخصيات السورية منهم نبيه وعادل العظمه وهاشم الاتاشي وسعيد حيدر حسن الحكيم ونسيب البكرى وغيرهم وكانوا مجمعين على ضرورة تقارب القطرين السورى والعراقي بشكل من الاشكال .

بيد ان جميع هذه المساعي لم تقد الى نتيجة بل بالعكس قد قادت الى قطيعة فظيعة بعد ان تمكن المصريون من اقناع حسني الزعيم بترك الجبهة الهاشمية ، فدعاه الملك فاروق الى مصر ، وتأزمت على الاثر الحالة بينه وبين العراق تأزما ادى معه الى حشد الجيوش على حدود البلدين

وعلى اثر اعدام حسني الزعيم عاد الاتجاه الى التعاون مع العراق وفتحت قضية الاتحاد جديا واصبحت حديث الصحافة كلها وعلى اساسها قامت الدعاية الانتخابية للجمعية التاسيسية التي ترك لها حق تقرير مصير البلاد ، فاعتنق "حزب الشعب" الفكرة ووضعها في برنامجه دون ان يعين ايا من الدول العربية يريد الاتحاد معها وتبعه بعد مدة طويلة اى قبل الانتخابات في كانون الاول ٩٤٩ " الحزب الوطني " الذى صرح امين سره بقوله : "ان الوحدة هي المخرج الوحيد والوسيلة الوحيدة اذا نطالب الا يكون اتحادنا مع العراق مجرد اتفاق عسكرى او اتفاق اقتصادى او اتفاق ثقافي اننا نريد الاتحاد دمجا تاما . نريد ان يشعر العراقي بانه عندما يدافع عن دمشق انما يدافع عن ارضه وان يتحسس الخطر مثلما نتحسسه نحن (٢)

---

(١) المصـــدر نفســـه

(٢) جريدة الحياة عدد ١١ كانون اول ١٩٤٩

واما موقف الحكومة السورية خلال الفترة التي سبقت الانتخابات فكان لن ترك الامر الى الشعب يقرره فلم تبد ممانعة ولم تبد تاييدا لكنها لم تتخذ اي خطوة عملية تجاه هذا الامر ، اذ اعتبرت نفسها حكومة انتقال ليس من شانها تقرير مصير الاتحاد .

وموقف الشعب من الاتحاد لم يكن موقف الراغب عنه ،فالجمعية التاسيسية التي انتخبها الشعب لم تكن تعارض فكرة الاتحاد بحد ذاتها انما قامت معارضة اكثريتها على نقطة اساسية هي شكل الحكم فقد اعتبرت النظام الجمهوري هو الاوفق للبلاد .

وبالواقع فقد انقسمت الاراء حول موضوع شكل الحكم الى فرق ثلاث ارلفريق الاول وهو الراغب في الاتحاد على اي شكل كان لا يمانع بان تكون الدولة العتيدة ملكية لان امر الوحدة اهم واخطر من نظام الحكم خصوصا وان الخطرالهودي يهدد الدولتين معا وقد تحقق الملكية الدستورية وتحفظ حقوق الفرد كما تحققها الجمهورية فلاخوف اذا من هذه الناحية .

واما الفريق الثاني فهو يرى ان يتم الاتحاد وان تبقى سوريا جمهورية والعراق ملكية وان يتم الاتحاد في الشؤون العسكرية والاقتصادية والتمثيل الخارجي وغيرها من الامور التي تحقق منافع الوحدة وتبقي نظام الحكم على حاله .

والفريق الثالث يرغب في الوحدة ايضا ويريدها تامة لكنه يرى انه من واجب العراق ان يتبع النظام الجمهوري لان هذا النظام وليد رغبة الشعب ولان النظام الملكي كما هو فعلا في العراق لا يستند على وعي الشعب وانما هو نوع من الحكم الالهي الذي يجب ان يزول ولان معنى قدوم الملكية الى سوريا هو تدخل الانكليز المباشر في الشؤون السورية

وهذه الفرق الثلاث موجودة في المجلس التأسيسي وتتصارع فعلا صراعا شديدا اذ انه ما كاد فريق الملكية ينتصر حتى تدخل الجيش وحدث الانقلاب الثالث ورجحت كفة الفريق الثالث .

والنقطة الثانية التي تقوم عليها معارضة الاتحاد هي وجود المعاهدة العراقية البريطانية فالسوريون لا يودون رؤية انفسهم خاضعين لاستعمار غير مباشر جديد (١) فالمعاهدة هذه تقيدهم الى بريطانيا وتترك لهم قليل الحرية في حق تقرير مصيرهم على الرغم من انها معاهدة تحالف عسكري بالدرجة الاولى وهذه المعاهدة تنتهي مدتها بعد سنوات ثلاث ولكن الذين يعترضون على وجودها يؤكدون انه بمضي السنوات الثلاث ستجدد وتحور بطريقة تبقي التدخل البريطاني فعليا .

---

(١) الحياة ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٤٩ .

هذا بالاجمال ما تم حتى الان في هذه القضية ولن نتمكن من تبيان موقف بقية الدول العربيـــة والحليفة من هذا المشروع للسبب نفسه الذى لا نتمكن به من رؤية المشروع كوحدة ، اى لان المشروع لا يزال في طور البحث والتحقيق ولان الزمن وحده هو الكفيل باظهار ما اختبأ من حقائق وما حدث من مشاورات وكل ما فعلنا هو تبيان الخطوط العريضة للمشروع وما يلازمه من اخذ ورد .

اسباب نشوء المشروع :

ان نظرة القائلين بضرورة قيام المشروع ترتكز على اسباب اكثرها سياسية ولا يمكننا تعيين مدى التدخل الاجنبي في هذا المشروع وعدمه بيد ان الاسباب التي يقدمها القائمون بالامر تقوم :

اولا— على وجود الخطر اليهودى فقد برهنت حرب فلسطين انه اذا لم يصر الى نوع من الاتحاد اقوى من الاتحاد القائم الان ، فان الخطر اليهودى يهدد سوريا والعراق معا . ولذلك فالاتحاد ضرورى لدرء هذا الخطر الذى يهدد سوريا بالاكثر (١)

ثانيا— ان حوادث سوريا الاخيرة تدل على ان الشعب السورى يطمح الى تبديل احواله تبديلا اساسيا وهذا التبديل لا يتم الا بالاتحاد (٢)

ثالثا— هناك عوامل اقتصادية اساسية لا يمكن لسوريا معها ان تحافظ على صناعتها الناشئة الا بالاتحاد مع العراق كما ان العزلة عن العراق تعني خنقه وراء الخليج الفارسي مع وفرة خيراته وخلو اراضيه واسواقه من الايدى العاملة النشيطة التي يستلزم لسدها الاتحاد (٣)

رابعا— هناك عوامل تاريخية تجمع بين القطرين ، وقد كان القطران وحدة فعلية طوال العهد العثماني واشتركا معا في الصراع من اجل الاستقلال وان انفصالهما تم فقط على يد الاجنبي ونتيجة لتدخلـــه .

فكل هذه الاسباب وغيرها تدعو القطرين للاتحاد توحيدا تاما خصوصا وان امر الوحدة العربية لم يعد ممكنا إذ انه فشل كما دلت على ذلك حرب فلسطين ، ولذلك يجب تضييق الدائرة تضييقا يشمل الهلال الخصيب فقط لما هنالك من عوامل تمكن من وحدة ضيقة كهذه (٤)

واخيرا لا يمكننا ان نجزم في غير هذه الاسباب والدوافع فغريزة الحياة التي تتغلب على غيرها من الغرائز تفرض بالفعل تفكيرا من هذا النوع وتحتم الاتحاد والوحدة ولن نبحث في نظرة المشروع الى قضية

(١) جريدة بيروت المساء عدد ١٦—٢٠ اذار ١٩٥٠ من تصريح لنورى السعيد
(٢) جريدة لواء الاستقلال العراقية ملحق العدد ٨٣٠ — ٢١ ت٢ ١٩٤٩
(٣) جريدة الحياة عدد ١٠٩٧ / ٧ ك١ ١٩٤٩ من تصريح للنائب العراقي عبد الرزاق الظاهر
(٤) العلمي ، موسى عبرة فلسطين (بيروت ١٩٤٩) ص ٥١ — ٥٨

القومية او النظرة الى الحياة لان المشروع سياسي ولا علاقة له بالامر وكل ما نعرفه هو ان اكثر القائمين بالمشروع بنظرتهم السياسية المجردة الى الامور يولون شان النظرة القومية قليل اعتبار فبعضهم يرى فيها قضية قومية عربية (١) وغيرهم يرى بانها قضية " وطن واحد "وليس هناك من تحديد صحيح في استعمال كبير من الاصطلاحات والتعابير لان شان القومية ليس محددا بوضوح عند اكثر القائمين بالمشروع.

موقف الحزب السوري القومي الاجتماعي :

وموقف الحزب هذا لا يختلف في نظرته الى هذا المشروع عن نظرته الى مشروع "سوريا الكبرى "فكلا المشروعين يقومان على اسس مماثلة وهما لا يختلفان في نظرتهما ان الى القومية او الى شكل الحكم وان في الاسباب السياسية والاخطار التي يمكن ان تتعرض لها البلاد من جراء اتمام هذين المشروعين .

والحزب يرى في الهلال الخصيب امة تامة قائمة بنفسها هي سوريا الاصلية التي طمستها الحوادث والتواريخ بينما لا يرى القائمون بامر هذا المشروع شيئا الا من هذا ولا يفهم امر هذه القومية بشيء وان همهم فهم يفترضون في هذه القومية عربيتها فرضا لا يقوم على اسس علمية مجردة وقد بيّن زعيم الحزب نظرته في هذه الناحية في مقال له نشرته جريدة كل شيء (٢) تحت عنوان "نحن سوريون لا هللخصيبيون" والتشديد على السورية هنا يعني ان للهلال الخصيب قومية سورية ، وان توحيده يجب ان يتم على هذه الاسس ولمصلحته كامة واحدة ذات مصير واحد .

وبالنتيجة فان المشاريع الثلاثة التي درسناها تهدف اما الى توحيد تام او جزئي للهلال الخصيب وهي تلتقي عند هذه النقطة ولكن الاثنان الاخيران يختلفان عن الاول من وجوه كثيرة بيّنا اكثرها . واهم ما في هذا الاختلاف هو ان المشروعين الاخيرين مجرد مشروعين سياسيين غايتهما مجرد التوحيد وتولي السلطة بينما مشروع الحزب هو قومي بمعنى انه يبغي ابعد من التوحيد : انشاء نظرة جديده وعقلية جديده ويبغي اقامة الدولة على اسس شعبية تعمل لمصلحة الامة وتقوم على اسس حديثه من مفهوم السلطة الشعبية وهو ينظر الى الامة كلها كوحدة طبيعية لا تتجزأ ولا يمكن ان تتجزأ بينما المشروعان لا يهمها من امر وحدتها الطبيعية الا توحيد الدويلات السياسية دون المطالبة بالاراضي المغتصبة ، بل القبول بالامر الواقع .

---

(١) جريدة (بيروت المساء) عدد ١٦

(٢) جريدة لواء الاستقلال ، ملحق عدد ٨٣٠

الجـزء الثالث

هل هناك امـــة سوريـــة

اسـم سوريا

سنقتصر في هذا الجزء على درس الظواهر الجغرافية والتاريخية والفكرية التي من شأنها ان تقودنا الى تقرير الحقيقة التي نسعى اليها وهي هل هناك امة سورية ؟

فنبدأ بدراسة اسم « سوريا » وكيفية ظهوره واستعماله ، لما يوضح لنا ذلك من امور اساسيـة حول مدلول الكلمة ومعناها . فاى بقعة من الارض يجب ان ندعوها سوريا ، ومن اين اتاها هذا الاسم ؟

سنأتي في هذه اللمحة عن الموضوع على ذكر النظريات المختلفة حوله ، ونرى اذا كان بمقدورنا ان نبيّـن النظرية الارجح صحة والاقرب الى الصواب .

لقد اطلق على البلاد السورية اسماء عديدة من قبل شعوب مختلفة قبل ان تعرف باسمها السوري . فلقد اطلق المصريون عليها اسماء عديدة وردت في نقوشهم منها « خارو » وزاهي » وروتانو » وكيفاتيو » . وهي اسماء كانت تطلق في بادئ امرها على شعوب المناطق القريبة من مصر التي كان لسكان الدلتا علاقة قوية بها ، ثم اطلقت على اقسام اخرى من البلاد . فزاهي مثلا ، كانت تطلق على الساحل الواقع شمالي شرقي مصر حتى الصحراء ، وقد قدّر ماكس موللـر انها تضم فينيقيا (١) . وكفاتيو اسم اطلق على الفينيقيين اولا ثم على الشعوب التي اتصل بهـم الفينيقيون على حدود اسيا واوروبا وسكان جزيرة كريت . واطلق اسم خارو على منطقة جبل الطور في سينا . وقد خمّن عدد من العلماء ان هذ الاسم يعني سوريا بكليتها كبرش (Birch) في كتابه « ملاحظات على الواح الاحصاء في الكرنك » وبروقش (Brugsch) في كتابه « النقوش الجغرافية » (٢) .

واما اسم لوتانو او روتانو ، وقد اطلق في اول امره على القسم الواقع شمالي خارو وشرقي زاهي (اى على شرقي فلسطين ومنطقة جبل الشرقي) ولبعد هذين المحلين عن نقطة التلاقي مع المصريين ، اطلق الاسم على وادي الاردن اولا ، ثم امتد حتى شمل العاصي ومنطقة الفرات ،

---

(١) راجع : Maspero - the struggle of nations, p 121

(٢) عن المصدر نفسه

ولكنه بقي بالفعل متقلقلا قد يعني او لا يعني كل هذه المناطق معا • وبروقش في كتابه المذكور (ج ٢ ص ٣١ و ٥٩٩) اطلقه على الاشوريين • ولكن في بعض النقوش المصرية ، نرى ان التسمية هذه تعني ،،سوريا ،، او جميع الشعوب القاطنة في حوض العاصي والفرات كما برهن على ذلك ماكس موللر (١) فالكلمة وردت في النقش الثنائي (اليونانية والمصرية) المعروف بمرسوم كانوبوس (٢) Lotanu ou Rotanu بالمصرية ويقابلها كلمة (Συρία) سوريا اليونانية وسوريا تعني لليونانيين كما تعرف من كتبهم سوريا الطبيعية •

وسكان البلاد من عبرانيين وراميين وغيرهم ، كانوا يدعون سوريا بارام • وهذا الاسم الذى تعرف به في التوراة حمله معهم الاراميون من المنطقة الواقعة على ضفاف الدجلة الادنى ، في مكان كان يدعى حتى زمن الساسانيين (بيت ارميا) (٣) وكلمة ارام تعني ارض عدليه ، ويقصد بها في التوراة سهل يرتفع ممتد من الجبل الشرقي حتى الفرات ، (٤) وتضم هذه الكلمة غالبا الى كلمات اخرى مثل ارام صوبا ، وارام معكه ، وارام النهرين ، الواقعة بين دجلة والفرات • وارام دمشق • وهي اسماء مناطق كان يسكنها الاراميون • وقد وردت في التوراة نسبة الى ارام الخامس من ابناء سام بن نوح (٥) •

واما الاسم ،سوريا ،، فيتفق اكثر المؤرخون على ان اول من دعاها به هم اليونان • ويظهر ان ذلك حدث بعد عصر هوميروس لان الكلمة هذه ، لم ترد في اشعاره انما وردت كلمة (Ἀραμαῖοι) اراميون • واول ما نجد هذا الاسم مطلقا عليها في كتابات هيرودوتس •

بيد انه وان اتفق المؤرخون على ان كلمة ،، سوريا ،، استعملها اولا اليونان فالاختلاف لا يزال كبيرا في اصل هذه الكلمة اى في اشتقاقها •

هناك نظريتان رئيسيتان حول هذا الموضوع ، الاولى نظرية قائلة ان كلمة (syria) اليونانية هي مختصر (assyria) • فقد وردت الجملة التالية في كتابات هيرودوتس ،،الشعب الذى يدعوه اليونانيون بالسوريين والمعروف عند البرابرة بالاشوريين (٦) ،، والواضح من هذا ان

---

(١) نقلها ماسبرو عن كتابه اسيا واوروبا وما يليها ،ص ١٤٣ •

(٢) The decree of Canopus

(٣) W. Wright - Lectures on the comparative grammar of the Semetic languages. p. 15

(٤) سفر العدد ١٠ ص ٢٣ ؛ والايام الاولى • اص ١٠ : (٥) تكوين • اص ١٠ : ٢٢ •

(٦) Herodotus - History - ed. G Rawlinson, vol. IV p. 50-53

البرابرة وربما السوريون انفسهم يساوون بين ،، السوريين ،،والاشوريين ،، في التسمية ولا يذكر هيرودوتس شيئا مطلقا عن كيفية تحول كلمة الاشوريين الى السوريين • وقد تبعه في هذه التسمية بقية اليونانيين كزينفون واوريان وغيرهما •

واصحاب هذه النظرية يقولون ان كلمة (syria) ليست الا اختصار كلمة (assyria) التي كانت تطلق على كل الامبراطورية الاشورية • الا انه بتقدم الزمن ونتيجة للعوامل السياسية اصبح للاسمين مفهومان خاصان فتقلصت كلمة ،،سوريا ،، الى الجانب الغربي من الفرات ،واقتصرت كلمة اشور على المنطقة الواقعة على ضفاف دجلة (١) • ويقول بهذه النظرية سمث ونولدكه (٢) ورابت وغيرهم •

وقد اعتمد الاراميون في العصر المسيحي هذا الاسم ، لان اليهود كانوا قد استعملوا كلمة ارامي (ארמי) بمعنى (gentile) وثني • ولما كان الاراميون قد اصبحوا مسيحيين مؤمنين وحاملين لواء المسيحية ، لم يعد يرق لهم ان يبقوا على هذه التسمية التي اصبحت غير مستحبة ولا مرغوب فيها ، فاتخذوا لانفسهم اسم السوريين وهو الاسم الذى اطلقه اليونان على الاشوريين (٣)

والنظرية الثانية ، وهي تختلف تمام الاختلاف عن هذه ولا تقبل بها ترى ان اصل الكلمة غير (assyria) ، وان كلمة (syria) و (assyria) هما بالحقيقة كلمتان مختلفتان • فما كلمة (syrian) الا شكل لفظي آخر ل ،، Tyrian ،، • فانه عند تعرّف اليونان الى البلاد الواقعة بين اسيا الصغرى ومصر ، وجدوا ان سكان صور (Tzur) هم المسيطرون • فدعوا البلاد (syria) باسمهم بدلا من (Tzyria) التي يصعب عليهم لفظها •

وعندما سمعوا بعد حين عن الاشوريين ، اعتقدوا ان الاسم هو ذاته ، مع ان للاثنين لفظا مختلفا واصلا مختلفا • واليونان انفسهم ،عند القائلين بهذه النظرية ، استعملوا الفاظا

---

(١) G.A. Smith - The Historical Geography of the Holy Land p. 3 ff.

(٢) ZDMG مجلد ٢٥ ـ ص• ١١٣ وما يليها •

(٣) Wright ص• ١٥

مختلفة للدلالة على الاشوريين ولتفريقهم عن السوريين • فعندهم ان هيرودوتس نفسه قد لاحظ هذا الفرق ، ان سكان منطقة ما بين النهرين العليا يدعون انفسهم بالاشوريين وليس بالسوريين • وقد ظهر في بعض من كتابات زينفون تفريقات من هذا النوع ، ولكن في احيان كثيرة استعملت الكلمة لتعني الاشوريين • وقد دعا غيرهم من الجغرافيين والمؤرخين سكان كابدوكيا وراء طوروس بالاشوريين ودعاهم هيرودوتس بالسوريين البيض (١) واما ما في العصر الروماني فقد استعمل بليني وميلا كلمة اشوريين بمعنى السوريين •

واصحاب النظرية ،،الصورية،، يقولون ان الفرق لا يظهر في تمييز الكتاب بين السوريين والاشوريين ، انما هناك فرق اساسي آخر ،يمكن ان نراه بوضوح عند رجوعنا الى اللغات اللغات القديمة • فاصل ،، سورى ،، في الكبرى ،، ٦٧٦٧ ،، من الجزر الفينيقي ،، ٦٧ ،، واصل اشورى ٦٧٧ (Asshur) • ويبدو الفرق اوضح في النقوش الاشورية ، فبينما اشور تكتب ،، as-sur ،، نرى كلمة الصوريين تكتب ،، Tzyr-ra-ya ،، والحرف المستعملة تختلف عن بعضها تمام الاختلاف بالنسبة للمعنى الاصلي • فصور يمكن تفسير معناها الصخرة لانها كانت مبنية على صخرة ، بينما اشور لها علاقة بـ (٦٧) السعادة • ومن الممكن ان اصلها الاكادى هو (Ashar) وتعني السهل الجيد الرى (٢) وفي اللغات السامية تقترن فكرة السعادة بفكرة الخصوبة والبركة والخير مما لا يترك مجالا كبيرا للشك في معناها •

وصاحب هذه النظرية هو رولنسون ، وقد اخذها عنه كوندر الذى لا يجزم في الموضوع ، بل يقول انه في حالة كون كلمة ،، سوريا ،، من اصل سامي فهي ليست من نفس جذر اشور لانها تكتب بالسامخ (ס) بدلا من الشين (ש) التي تكتب بها الكلمة اشور (٣) وهذا الشيء يحدث ايضا في السريانية اذ تكتب ،(ܐܫܘܪ) بالسين ، وتكتب اشور (ܐܣܘܪ) بالتاء • وهذا الفرق في كتابة الكلمة لا اهمية له البتة ، لان الشين (ש) العبرية والتاء (ת) السريانية والثاء (ث) العربية تتبادل فيما بينها وهي قاعدة قياسية • وكلمة اشور وردت في العربية

---

(١) راجع: Ed. Meyer - Histoire de l'antiquité vol III p. 290.

(٢) راجع: Z.R. Ragozin - assyria (لندن ، ١٨٩١) ص٠ ٢

(٣) راجع: Conder - Syrian stone lore ص٠ اولى

،، اثور ،،(١) مما يثبت ان لا اعتبار مطلقا لهذا الاختلاف الظاهري في الجزر .

وثمة نظرية ثالثة غير موضحة تمام ما يقول بها (D. G. Hogarth) (٢) وملخصها ان كلمة ،، سوريا ،، قد تكون الكلمة البابلية ،، سورى ،، (Suri) وهي كلمة كانت تطلق على منطقة الجزء الشمالي من نهر الفرات . اى المنطقة الواقعة وراء طوروس في ارض الحثيين وفي منطقة كابدوكيا وتمتد جنوبا حتى شمالي حلب (٣) ، ومن ثم اطلقت تعميما على كل البلاد المعروفة الان بسوريا الجغرافية . بيد ان هذا الامر لا يمنع من ان تكون كلمة ،، سورى ،، مشتقة من اشور وهو الارجح . لان منطقة اشور ومنطقة سورى متقاربتان في الموقع ، ولان هذا الاسم اطلقه عدد من الامم الاجنبية على نفس المنطقة .

واسم سوريا كما وجد مقابله في المصرية (روتانو) ، وجد ايضا على نفس حجر تنيس (decree of Canopus) تحت اسم (Asher) ، ووجدت الكلمة نفسها في قائمة اسماء الامم التي نقشت على جدار هيكل ،، ادفو) ولا يبعد ان تكون هذه الكلمة في المصرية الحديثة تعني نفس كلمة (ashur)(٤) فاذا صح هذا القول واستعمل المصريون كلمة تقترب في مبناها من اشور لتعني سوريا الجغرافية ، وكذلك تضم في حدودها الشمالية منطقة الفرات كما تضم الكلمة (Asher) ، فليس من الغريب ان تكون سوريا مشتقة منها خصوصا واننا نرى اللفظة المخففة (AŠ iR) وردت كذلك بين اسماء الاشوريين التي وجدت في كابدوكيا (٥) .

ولم يكن اليونان وحدهم من اخذ اسم ،، سوريا ،، عن اشور ، بل قد اخذها الفرس ايضا واستعملوا كلمة ،، اثورا ،، وهو التحريف الارامي لاشور . وقد دعا بختنصر حملته على ـ ،، حرّان ،، حملة اشور ، وكان ذلك بعد زوال الامبراطورية الاشورية من الوجود . وقد استعملت التقاويم الرسمية لممتلكات الامبراطورية الفارسية ،، اثورا ،، لتعني المنطقة الشمالية من بين النهرين (٦) وفي القرن الثاني للمسيح اطلقت التقاويم الارمنية على ملوك حرّان والرها لقب ،، ملك الارمن

---

(١) راجع ياقوت ـ معجم البلدان ، طبعة دى غويه ـ مادة اثور

(٢) Enc. Britannica مادة syria بقلم D. G. Hogarth

(٣) S. A. Smith - Atlas to the Historical Geography of the Holy Land ، ص ٢٠ -

(٤) Brugsh - History of Egypt under the pharoas ص ٢٣٣

(٥) Ed. Meyer - Histoire del'antiquité ج ص ؛ ص ٢٩٤

(٦) هرتزفلد ، ارنست ـ ،، سورية ،، مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ٢٢ العدد الثالث والرابع ص ١٧٨ .

والاسوريك ،، او اشور (١) • وهذا يعني ان منطقة اثور هي منطقةحرّان والرها • وفي نحو سنة ٢٦٤ للميلاد وضع شابور الاول ملك الفرس ، على كعبة زرادشت التي رفعها على مقربة من مدينة (برسيبوليس) في العراق ، والولاية الرومانية (سوريا) اى الشام • وقد جاء لفظ (اسوريا) بلا الف • وقد اطلق النص اليوناني من هذه الكتابة على الجزيرة اسم ،، سوريا ما بين النهرين ،، (١) وهذا التفريق اللفظي بين سورستان وسوريا يمكن ان يكون قد تم لاسباب سياسية ، لان العراق كان تحت الحكم الفارسي ، وكانت سوريا للجغرافية تحت الحكم السلوقي • وقد ذكر ياقوت ان الفرس كانوا يسمون العراق والجزيرة والشام ،، سورستان ،، اضافة الى السريانيين الذين هم الكلدانيون (٢)

فيمكننا من كل هذا ان نرى ان اسم سوريا من ،، سورى ،، او اثور وهي المنطقة الشمالية من الهلال الخصيب (٣) وان اسمها هذا مأخوذ من كلمة اشور التي تعني الارض الخصبة او الارض المروية او الارض السعيدة (٤) وان هذا الاسم اطلق في عصور متأخرة على كل الامبراطورية الاشورية لكنه تقلص على اثر الاحتلال الفارسي الى الجزء الغربي من الهلال الخصيب ، وبقيت اثار اصله في تسمية المنطقة الشمالية منه بأثور التي هي مصدر التسمية ، وفي اقتصار كلمة ،، سوريا ،، اكثر الاحيان وحتى اليوم على المنطقة الواقعة فيها الجمهورية السورية تقريبا الان •

وهكذا فاسم سوريا ، اطلق اول امره على منطقة الامبراطورية الاشورية التي تألفت من الهلال الخصيب ، واطلق على القسم الغربي منه ، كما اطلق على القسم الشمالي من الجهة الغربية ولكنه لم يكن طوال تاريخ سوريا الطويل يطلق عليها مجتمعة الا في ظروف قليلة ومن بعض المؤرخين الذين كانوا يحققون في الاصول ولا يتأثرون بالاوضاع السياسية او الدينية •

---

(١) المصدر نفسه ـ مجلد ٢٢ عدد ٣ • (٥) المصدر نفسه ص• ١٨٠

(٢) ياقوت الحموى ـ معجم البلدان (طبقة ليبزع ١٨٦٨) ، مادة سورستان •

(٣) يدعو لوكيان Lucian نفسه بالاشورى ، وهو من سمياط في ،، كوماجين ،، اى في المنطقة التي نتكلم عنها ، راجع De Deasyria الترجمة الفرنسية ،ص ١٢ ويذكر جوستان (Justin) (القرن الثالث ب•م)• ان السوريين كانوا يدعون بالاشوريين ،مما يبين لنا ان هذه التسمية بقيت معروفة الى عصور متأخرة •

(٤) يعتقد خير الدين الاسدى ان كلمة ،شام ،، العبية هي من اصل سامي ،، ش م ،، التي منها الاسماء والتي تدل على المكان ذى الشجر والماء •

جغرافية البلاد السورية ، قديمها وحديثها

الحدود القديمة ٠

كما يختلف علماء اليوم اختلافا بينا حول حدود سوريا القديمة كذلك يختلف العلماء الاقدمون حول هذه الحدود ، من اين تمتد والى اين تنتهي ٠

ويظهر من مراجعة الكتب الجغرافية القديمة ، انه حتى في الوقت الذى كان لا يميّز فيه الكثيرون بين السوريين والاشوريين ، لم يكن هناك من لا يفرّق بين سوريا وبين اشوريا ٠ — فهيرودوتس يعرف سوريا بانها القطعة من الارض الواقعة غربي الفرات من المكان الذى يخرج فيه الفرات (١) من طوروس الى ،، Thapsacus ،، (٢) ، وتمتد من هناك على خط منحن قليلا للغرب حتى حدود مصر ٠ ومن ثم يوضح كلامه فيذكر انه يحددها من الشمال والشمال الغربي قسم من طوروس وجبال الامانوس (جيوزاغ والماماغ) وغربا البحر المتوسط وفينيقيا وجنوبا العربية البطراء (ARABIA PETRA) وشرقا العربية الصحراء (ARABIA Deserta) والفرات ٠ ويصف شكلها فيقول انه لا يختلف عن شكل الرجل الانسانية . ابهامها متجه نحو مصر وكعبها نحو الفرات قرب الحمام ٠ طولها من ايسوس الى وادي العريش يزيد قليلا عن ٤٠٠ ميلا ويتراوح العرض بين المائة ميلا بين ايسوس والفرات او اكثر من خمسمائة بين مصر والحمام ٠ ومساحتها ∗ تعادل ٦٠ الف ميل تقريبا ٠

وقد اعتبر هيرودوتس كابدوكيا من سوريا ، وهي المنطقة الواقعة على جانبي نهر الهاليس بين نهر الفرات شرقا وكوماجين وراء طوروس . وكذلك تدخل في تحديده منطقة كوماجين ، وهي المنطقة الواقعة جنوبي طوروس من الفرات عند سمياط الى الدجله قرب ديار بكر (٣) ٠

ويؤلف تحديد هيرودوتس هذا ، عدا انه اول تحديد وصلنا ، نقطة دقيقة تنير لنا سبيل التحديدات القديمة التي كانت تتأثر ببعض القضايا ∗ العارضه فهو قد ادخل كابدوكيا ضمن سوريا

---

(١) ويسمّيها العرب هذا المكان ،، الدروب ،، — راجع كرد علي محمد — خطط الشام (دمشق ، ١٩٢٦) ج ١ : ص ٤٩ ٠

(٢) تقع هذه المدينة شرقي جنوبي الدرة اليوم في محلة تدعى ،، الحمام ،، ومعناها ،، الوصله ،، لان الفرات عندها قليل العرض ٠ فجعل منها ممرا يصل بين شطيه ٠

(٣) History of Herodotus - طبعه رولنسون (لندن ، ١٨٦١) ج ١ ٠ ص ٠ ٤٧١

او اشور ، ليس لانها جزء طبيعي منها ، بل لان قسما من الاشوريين سكنوها • فاخذ بهذه التسمية عدد من جغرافيي اليونان حتى العصر الفارسي (١) • فدعوا سكان تلك المنطقة — بالسوريين وهو اختصار كلمة ،،اشوريين ،، سكان المنطقة الاصليين • ودعوهم بالسوريين البيض ،، Leukasyriens ،، تفريقا لهم عن السوريين الساكنين جنوبي جبال طوروس (٢) وقد دلت الاكتشافات الحديثة (٣) على ان الاشوريين استوطنوا تلك المنطقة بكثرة ويدل على ذلك احتواء اكثرية الاسماء في جزئها الاول على كلمة ،،اشور ،، او ،،اشير ،، المخففة ، ويدل على ذلك ايضا اللغة الاشورية ووجود اختام هي اختام اشورية •

ولو راجعنا زينفون ، نرى انه يصف مروره بسوريا في كتابه ،،رحلة العشرة الالاف ،، ، ويقول انه دخل سوريا من "بوابات كيليكيا" و"سوريا" وانتهى منها عند نهر الاراكيس (٤) (بليخ) ولا يزيد على ذلك سوى وصفه للمسافات التي قطعها ، فيختلف عن هيرودوتس بابعاده الحدود السورية الشرقية الى ما وراء الفرات ، الامر الذي لم يقل به احد قبل العصر الروماني •

واذا وصلنا الى جغرافيي العهد اليوناني ، واخذنا بليني (ت ٢٤٠ ب •م) نراه يصف سوريا بانها تشمل الشاطئ ، وانها كانت لزمن ما ، من اكبر البلدان ، ويعني بذلك امتدادها في عصر الاشوريين • نعرف هذا من الفصل الذي يعنونه "بسوريا" ،، ويأتي فيه على ذكر البلدان التي كانت تضمها سوريا الطبيعية • فيذكر منها فلسطين واليهودية المجوفة (ربما يعني بها منطقة الغور لانها تتميم لسوريا المجوفة) وفينيقيا • ويقول ان الجزء الداخلي كان يدعى دمشق والابعد منه والمتجه الى الجنوب ، كان يدعى بابل ، والجزء الواقع بين الفرات والدجلة يدعى ما بين النهرين ، وما وراء طوروس سوفين (Sophene) وما قبل طوروس كوماجين — (Commagene) وما وراء ارمينيا ابيادين (Abiadene) التي كانت تدعى اشور ،

---

(١) Ed. Meyer - G. A. ص • ٢٩٥

(٢) المصدر نفسه — راجع ايضا:
Jastrow - The Civilization of Babylonia.... ص • ١٦٠ — ١٦١ • وراجع ايضا نولدكه في مجلة Hermes مجلد ٣ ص • ٤٦٨ — ٤٤٣ •

(٣) هذه الاكتشافات هي الالواح المعروفة ب Cappadocian Tablets وتتألف من عدة وثائق تجارية ورسائل مختلفة مكتوبة باللغة الاشورية •

(٤) Xenophon - The march of the Ten Thousands - p. 14-16

والجزء الملاصق لكيليكيا كان يدعى انطيوكيا . ومن ثم يحدد طول سوريا من كيليكيا الى الجزيرة العربية ب ٤٧٠ ميلا وعرضها من سلوقيا بيريا (١) الى (zeugma) (٢) ١٧٥ ميلا ومن ثم يذكر ان بعض الجغرافيين لا يدخلون فينيقيا من سوريا (٣) وهو يقصد بذلك هيرودوتس (٤) .

وهكذا نرى ان ما اتى به اليونان من اي سوريا ، كانت تؤلف الامبراطورية الاشورية ، كان لا يزال قائما حتى عصر سترابون وبليني وبطليموس ، ولكن كان من الواضح ان التفريق بين اشور وسوريا قد تم ، واصبح شيئا مقررا يعتمده الجغرافيون ، كما نرى من تحديد بليني لسوريا

وسترابون (ولد ٦٣ ق.م) لم ينس ان يذكر ان سوريا كانت تشغل حدود المملكة الاشورية ، وان المؤرخين السوريين كانوا يذكرون على ان بابل ونينوى هي مدن سورية ، لكنه قسم سوريه الى خمس مناطق هي بالتتالي ، كوماجين ، سلوقيا ، سوريا المجوفة ، اليهودية وفينيقيا ، وهذا التقسيم هو المشهور ، انما اضاف اليه شبه جزيرة سينا حتى مدينة pelusium المصرية ، ومع ان المعروف عن سترابون انه الوحيد تقريبا الذى كان يعتبر اهمية الجبال والسهول في التحديد الجغرافي (٥) فاننا لا نراه هنا يأخذ بهذا الامر كثيرا .

ومما يجدر بنا ان نلاحظه هو ان التقسيمات القديمة هي بالاكثر تقسيمات سياسية وليست جغرافية ، بمعنى ، انها تؤلف حدودا طبيعية كالجبال او الصحارى او البحار . فبليني لم يكن ليدخل كوماجين في سوريه ، مع انها من الحدود السورية الطبيعية لوقوعها بين حلب وسفوح جبال طوروس ، لو لم تكن منذ عهد قريب اى في سنة ١٧ قد ضمت الى ولاية سورية ،، فنراه مثلا لا يذكر من اقسام سورية منطقة (OSROENE الرهاويون) اي منطقة الجزيرة العليا التي احتلها الرومان وجعلوها ميدان حرب بينهم وبين الفرس لان هذه المنطقة بقيت تحكم مباشرة من قبل ملوكها

---

(١) تقع على بعد اربعة اميال شمالي مصب العاصي ، تجاه جبل الاقرع .

(٢) بلدة تقع على ضفة الفرات اليمنى في كوماجين تدعى اليوم (رمحاله) .

(٣) راجع هيرودوتس . ج ١ ، ص. ٤٧١

(٤) راجع : pliny - natural History - ج ١ ، ص. ٤٢٣ - ٤٢٤ .

(٥) Enc. Britannica مادة strabo بقلم H. Jones ط ١١ .

الاباجره (١) الذى يقال اصلهم من عرب الجزيرة ، ولم تضم الى" ولاية سوريا " سياسيا ٠ وكذلك نراه لا يشمل في تحديده ،،البطراء ،، او العربية السعيدة ، لانها ايضا لم تكن قد ضمت الى سوريا بعد له مع ان الوحدة الجغرافية بينها وبين سوريا واضحة ، وان كانت هي اى العربية البطراء كدولة تغيّرت حدودها مع سوريا بعد احتلالها مرارا واحتوت لزمن ما شبه جزيرة سينا (٢) حتى آخر العصر البيزنطي ٠

وهكذا نرى ان التقسيمات ، تقوم بالاكثر على اساس غير اساس النظرية الجغرافية او العرقية وليس هذا بغريب لو لاحظنا الامر اليوم ، فالامم تحدد وفق حدودها السياسية القائمة لا وفق كيانها الجغرافي الطبيعي ٠ وعدم الاخذ بالحد الطبيعي عند البعض يكون لامور تمت بكثير او قليل للغايات السياسية وللمطامع الاستعمارية ، وللتوسع الحيوى والجنسي وغيرها من العوامل التي قد تطمس الحقائق وتزيد كثافة الظلام حولها ٠

واذا انتقلنا من العصر الروماني الى العصر البيزنطي ، قلما نجد من الكتب الجغرافية ما يمكننا الاعتماد عليه ، لندوره مثل هذه الكتب ، لاتجاه الاهتمام آنذاك الى القضايا الدينية الغيبيه ٠ ولكننا من التقسيمات الادارية ، نعرف ان ما كان يقصد بسوريا هو سوريا الجغرافية والمتعارف عليها والتي تقف شرقا عند الفرات ٠ وبكن بعد ان احتل الرومان منطقة الجزيرة العليا اصبحت هذه المنطقة تابعة لولاية سوريا مباشرة في زمن كركلا الذى ضمها الى هذه الولاية سنة ٢١١ م ٠ (٣) وقد اتسعت حدود هذه المنطقة في زمن ديوقليشيان ،حتى اتصلت بالدجله وما وراءها شرقا وبحيرة فان شمالا ، لكنها تراجعت بعد ذلك التاريخ حتى نهر الخابور – نصيبين شرقا وانما اجتازت شمالا مرادسو (٤) وهو احد روافد الفرات الشمالية ٠

ولقد قسم ديوقليشيان الامبراطورية الرومانية الى ابرشيات (diocese) وكانت سوريا

---

(١) Enc. Brit. – ماده OSROENE طبعة ١١ بقلم Ed. Meyer وفي قصة المعلم شليحا السريانية ذكر للاباجره ، وبنعت ابجر بالاسود (ا صم ٥٦ صها)

(٢) Chapot - La Frontière de L'Euphrate . P 6 - 11

(٣) Enc. Brit. – ماده O sroene طبعه ١١

(٤) Chapot ص ٠ ٩ – ١١

تقع في المنطقة الشرقية وتتألف من ٩ ولايات • فحافظ البيزنطيون على هذا التقسيم • فكانت الجزيرة العليا وعاصمتها اورفه ، وفي الوسط كانت سوريا الاولى وعاصمتها انطاكية ، وسوريا الثانية وعاصمتها افاميه ، واعطي اسم فينيقيا الى الشاطيء والجبال • وسميت بفينيقيا اللبنانية المناطق التي وراء الجبال وكانت تضم مدن الداخل كحمص وبعلبك ودمشق حتى تدمر • وفي الجنوب كانت فلسطين الاولى تشغل الاراضي الواقعة بين الاردن والبحر ، وفلسطين الثانية تشغل الاراضي الواقعة شرقي النهر حتى حدود الصحراء • وكانت ولاية العربية تمتد من البحر الاحمر الى بحر الميت ، وغربيها منطقة المضيق وهي المنطقة التي يحدها جنوبا الخليج العربي (١)

ونرى هنا ايضا التحديد السياسي نفسه ، فمنطقة الجزيرة العليا والعربية السعيدة اصبحتا ضمن الحدود السورية ، بعد ان اخذت الاولى بالثقافة اليونانية ـ السورية واصبح اهلها يتكلمون لغة سورية خاصة بهم تقريبا ، دون ان يلتحقوا بالدولة الفارسية ، وقد بقي هذا التحديد الاخير فاعلا حتى مجيء الجغرافيين العرب الذين اخذوا به •

فلو اخذنا من الجغرافيين العرب ياقوت مثلا ، فانه يحدد الشام ،، من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية ومن جبلي طي من نحو القبلـــه الى بحر الروم ، وما ـ بشأمة ذلك من البلاد ،، • وبعد ان يعدد اشهر مدنها واجنادها ، يأتي على ذكر الثغور والعواصم ويقول انه ،، يعد من الشام ايضا الثغور وهي المصيصه وطرسوس وافنه وانطاكية وجميع العواصم من مرعش والحدث وبغراس والبلقاء وغيرها (٢) • فهو قد ادخل في الشام كيليكيا اذ ان اضنه وطرسوس وهما منها وقد احتلهما العرب ، واقاموا فيها الحصون ومراكـز التموين واتبعوهما بالشام ، فادخلهما ياقوت في حدود الشام ، ليس لانهما جزءا طبيعيا من الشام ، بل لان العرب احتلتهما ، ويظهر لنا هذا واضحا من امتناع المقدسي عن ذكر كيليكيا ضمن حدود الشام لان الروم احتلتها ، ويعلل امتناعه هذا لاحتلال الروم لها (٣) •

ويظهر من كلام المقدسي ، ان ثمة نزاع قام في عصره حول كون طرف البادية الى حدود

---

(١) R. Thoumin - Histoire de Syrie ص • ١٤٩ ـ ١٥٠

(٢) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان = ج ٣ ـ ص • ٣٤٠ ط • وستنفيلد ليبزغ ١٨٦٨

(٣) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ ط • د• غويه ،(بريل ليون ،١٩٠٦)ص• ١٦٥

العراق ، من الشام اولا ، لان العراقيين يدّعون بان كل ما وراء الفرات الشام ، فينفي ذلك ويعترف بان الارض المتنازع عليها من جزيرة العرب (١) .

ولا يختلف ما جاء في الادريسي وابن حوقل في كتابه ،، صورة الارض ،، عما جاء في ياقوت والمقدسي . ولكن ابن حوقل يوصل شمالي الشام الى بحر طرابزون والخزر وما ذلك الا لانها بيد المسلمين (٢) .

وان كان لنا ما نقوله في هذه التحديدات ، هو انها تتميم للمتعارف عليها ، فلا جديد بها ، بل هي اتّباع ما اتفق عليه الاقدمون ، وما اتفقت الظروف السياسية والاعمال الحربية بين الروم والمسلمين على ان تدعيه من الشام دعته دون اعتبارات جغرافية او عرقية او ثقافية ، كما هي الحال مع بقية الجغرافيين في العصور القديمة . والحقيقة انه لا لوم على هؤلاء الجغرافيين لانه لم تكن المعارف في عصرهم متقدمة كما هي اليوم ولان الحدود السياسية امر يتعلق بمقدرة الامة وحيويتها ، فاذا كانت الامة مقتدرة زاخرة بالحيوية تغلبت على مواقعها الطبيعية ، فتجاوزت حدود بيئتها ، واذا كانت ضعيفة تراجعت وتقلصت وقد عرفت البلاد السورية المد والجزر كليها في حدودها الساسية ، وان كان هذا المد والجزر من صنع المستعمر في كثير من الاحيان .

الحدود الحديثة

بعد ان قدّمنا هذا العرض المختصر لاقوال اليونان والرومان والعرب في ما هي سوريا لا بد لنا ان نأتي على الوضع السياسي الحاضر ونعرض باختصار ايضا للكيانات السورية القائمة ونرى هل هي طبيعية ام اصطناعية .

فالاتجاه في وقتنا هذا ، يتراوح ، كما رأينا ، بين المحافظة عليها وبين الغائها

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ١٥٢ .

(٢) ابن حوقل ـ كتاب صورة الارض ، الطبعة الثانية ، ص ١٦٥ .

واقامة الوحدة الطبيعية ، بيد ان وجودها اصبح مألوفا وعاديا عند عامة الشعب ، واصبح من الغريب عند التكلم عن ،، سوريا ،، ان نفهم منها معناها الجغرافي او الطبيعي . فعندما نقرأ اليوم في الجرائد او نتكلم في احاديثنا نفهم من اسم سوريا ،، الجمهورية السورية ،، لمدلولها السياسي الحديث . خصوصا في المدة الاخيرة اذ قامت الحكومة اللبنانية بعدة محاولات لالغاء المعنى الطبيعي او الجغرافي للكلمة ، فامرت بتأليف كتب تاريخية مدرسية ، تؤصل مفهوم هذا المعنى . كما انها شددت على الرسائل الواردة من عبر البحار الا تذكر لبنان ضمن سوريا .

ولقد كان لتقسيم البلاد السياسي الى مناطق نفوذ فرنسية وانكليزية بعد الحرب العالمية الاولى اثر كبير في تثبيت المعنى السياسي الحاضر ، في ذهن الشعب المثقف منه والعامي .

واما نحن فلن نأخذ بهذه الاعتبارات السياسية الا بمقدور ما هي قريبة من الواقع والحقيقة ولا يسعنا الا ان نقف ونتساءل اين هي البلاد المدعوة بسوريا ، هل هي الجمهورية السورية بمدلولها السياسي الحاضر ، ام هي المنطقة الممتدة بين طوروس شمالا والعقبة جنوبا ، ام انها المنطقة الاكبر ، الممتدة بين طوروس شمالا والعقبة جنوبا وبين زقروس شرقا والبحر المتوسط غربا ،

وفي البلاد السورية اليوم فئات ثلاث تدعي كل منها ان البلاد هي احدى هذه المفاهيم ، فاى منها يا ترى يدعي الصحيح ، ولماذا انشأت هذه الشكلة ، .

وقبل ان نجيب على هذه الاسئلة بوصف الحدود الطبيعية في هذه المنطقة ، يجب ان نراجع حدود الكيانات السورية الحاضرة . فالبلاد المزمعون درسها تقسم الى عدة دول : الجمهورية اللبنانية والسورية ، والمملكة الاردنية وفلسطين والعراق . وكما عرفنا في الجزء الاول من هذه الاطروحة ان قيام هذه الدويلات لا يعود الى زمن بعيد اذ قد تم بعد الحرب العالمية الاولى نتيجة للمطامع الاستعمارية الفرنسية والانكليزية من جهة وللعقلية الدينية الطائفية من جهة اخرى . فبواقع الحال نرى ان حدود هذه الدويلات اصطناعي لا يقوم على اساس جغرافي او عرقي ، بل على اساس طائفي وسياسي . ولو اخذنا حدود كل دولة على حدة ، لوجدنا ان ما قلناه صحيحا اذا قابلناه مع الوضع الجغرافي الطبيعي . فحدود سوريا الشمالية كانت قبل اغتصاب الاكندرونه تبتدئ من خليج الاسكندرون

بخط يمتد من جنوبي بلدة بانياس ويتجه نحو بلدة ميدان اكبس ، بنلدة كلّس ، مخترقا جبال الامانوس ثم يجارى في طريقه نحو الشرق خط حديد بغداد ، حتى نصيبين والقامشلي ومنها يسير نحو الشمال الشرقي حتى ينتهي في جزيرة ابن عمرو على نهر الدجله (١) ويفصل الجمهورية السورية عن العراق خط يحاذى نهر الدجله مسافة قصيرة ، ثم ينحرف نحو الجنوب الغربي متبعا خطا مستقيما في الجزيرة العليا حتى جبل سنجار ومنه نحو الجنوب حتى بلدة البو كمال على نهر الفرات • ومن هناك ينحرف ثانية بخط مستقيم نحو الجنوب الغربي حتى جنوبي صلخد من اعمال جبل الدروز • ويبدأ من شرقي صلخد سائرا مسافة قليلة باستقامه الى الغرب ، مبتدأ من بصرى اسكثام الى ان يبلغ الخط الحديدى الذى يؤلف بعد ذلك الحدود تقريبا مارا جنوبي درعا حتى قرية الحمّه على طبريا • ومن هناك يتجه نحو الشمال شرقي بحيرتي طبريا والحوله ونهر الاردن حتى بلدة بانياس عند جشر بنات يعقوب (٢) ،

ويحد لبنان من الشمال النهر الكبير ، ومن الجنوب خط يمتد من جسر بنات يعقوب مارا شمالي صفد حتى رأس الناقورة ومن الشرق الجمهورية السورية والبحر من الغرب •

وجعل الفاصل بين فلسطين وشرقي الاردن ، وادى الاردن حتى بحر الميت ووادى عربه حتى العقبه ، ويمتد حد الاردن الجنوبي من العقبة في خط مستقيم ينحرف نحو الجنوب قليلا حتى المدوره ، ثم يتجه نحو الشمال ، فيصعد شمالا في خط مستقيم الى شرقي جبل طنف ويتجه شرقا نحو الصحراء حيث يلتقي بحدود العراق مع السعودية ، ويفصل بينهما خط وهمي مستقيم وسط البادية •

ويحد العراق من الشمال جمهورية تركيا • ومن الشرق بلاد ايران ، ومن الغرب جمهورية سوريا والمملكة العربية السعودية ، ومن الجنوب المملكة العربية السعودية وامارة الكويت وخليج فارس وتمتد حدودها الشمالية بخط متعرج يبتدئ من قرب ملتقى نهر الخابور العراقي بنهر الهيزل ، فيمتد على طوال مجراه الى وادى شرانيس ، ثم يمتد شرقا تارة صاعدا الى ذرى الجبال وطورا هابطا الى بطون الوديان ، حتى يقطع نهر الخابور والزاب الاعلى والسواعد التي تصب فيه الى ان يتصل بحدود ايران شمالي راوندوز •

---

(١) Elie Naim - La Syrie, ses frontières - p. 19

(٢) المصدر نفسه × ص • ٤٨ وما بعدها •

اما الحدود الشرقية فيمتد القسم الشمالي منها في اراضي جبلية بين الحدود التركية والعراقية وقرية خانقين ، اما القسم الجنوبي الواقع بين خانقين والغاو فيمتد في اراضي سهلة تتسلط عليها جبال البختياري من الجهة الشرقيـة • اما في الجنوب فيبدأ خط الحدود من ملتقى وادى العوجا في شرقي الكويت مسافة ثمانين ميلا ، وبعد ان يرسم منطقة محايدة بشكل معين ◇ يمتد الى الشمال الغربي على خط مستقيم ، وبعد ان يقطع جبل الفطن الى جبل عنازه يلتقي بالحدود العراقيـة الاردنيـة • واما من الغرب فهو نفس الخط الذى يحد سوريا شرقا (١)

الحدود الطبيعيـــــة

ولكي نتمكن من تقدير الفرق بين الحدود الحاضرة والحدود الحقيقية ، علينا ان نبين ماهية الحدود الطبيعيـة كما هي لتظهر لنا الحقيقـة مجردة •

فالهلال الخصيب هو هذه البقعة من الارض تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري (زقروس) في الشمال الشرقي الى قناة السويس والبحر الاحمر في الجنوب شاملة شبه جزيرة سينا وخليج العقبة ، ومن البحر المتوسط في الغرب الى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق •

والوحدة الجغرافية في هذه المنطقة امر لا يحتاج الى كبير عناء لاظهاره اذ يمكن لاقل الناس الماما بالعلوم الجغرافية ، ان يدرك بنظرة واحدة يلقيها على الخارطة وجود هذه النصف دائرة القائمة شمالي جزيرة العرب بين الصحراء والجبال.طرفها الغربي في زاوية المتوسط الشرقيـة الجنوبيـة ووسطها شمالي جزيرة العرب تماما ، وطرفها الشرقي عند الخليج الفارسي وقد دعاها برستد لعدم وجود اسم سياسي سابق لها بالهلال الخصيب (٢) •

اما ما يجعل هذه البقعة هلالا هي الصحراء السورية الداخلة بين قرني الهلال على شكل نصف دائرة ممتدة من مرتفعات حوران وجبل لبنان الشرقي حتى الفرات ، ومنحنية نحو الشمال الشرقي ، ويبلغ ارتفاعها قرب حمص ٦٠٠ متر وتنخفض نحو الاربعمائة عند تدمر ، ولا يزيد ارتفاعها على المائتين عند دير الزور (٣) •

---

(١) الحدود هذه مأخوذة عن طه الهاشمي باختصار من كتابه مفصل جغرافية العراق (بغداد صفحة ١٩٣٠) ص• ١١٢ – ١١٣ ،

(٢) J.H. Breasted - Ancient times - p. 101

(٣) R. Thoumin - L'asie occidentale p. 60

ويقطع هذه الصحراء مرتفعات متقطعة متجهة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي — تبتدىء قرب دمشق وتنتهي عند الفرات ، ويقع طرف هذه الصحراء الشمالي بين منخفض المطبخ حيث يصب نهر قويق وبين جبل الحص • وتتميز المنطقة الشرقية منها بعدد من الوديان المنحدرة الموازيه في اتجاه لمجرى الفرات (١) وارض الصحراء السورية تختلف عن جارتها الجنوبيـــة صحراء النفود بانها ترابيـــة ، يعيش فيها النبات وتهطل فيها الامطار قليلاً ، فهي سهوب حزاريه يمكن غرسها ، وحين هطول الامطار تغطيها الاعشاب والاشواك مما تتغذى به القطعان السارحة في ارجائها •

ويوازي الصحراء السورية من الشمال سلسلة من الجبال هي جبال طوروس وانتي — طوروس تمتد من غربي كيليكيا باتجاه شمالي شرقي حتى المنطقة الواقعـــة بين منابع الدجله والفرات ، فيتغير هناك اتجاهها نحو الجنوب الشرقي • وهكذا تؤلف باتجاهيها قوسا منحنيا يوازي انحناءة الصحراء السورية من الشمال والشرق ، وتتصل هذه الجبال بجبال زقروس او البختياري وتمتـد جنوبا شرقا فتلتقي بسلسلة جبال فرس الضاربة جنوبا حتى بلاد فارس شرقي منطقة شط العرب •

وبين سلاسل الجبال هذه وبين الصحراء والبحر ، تقع ارض خصبة ،كانت في القديم وفي الحديث ، امل العرب الهاجمين من الصحراء والجيليين الهابطين من الجبال • فهي ارض كثيرة الامطار والانهار خصبة التربة ، سهلة المواصلات مهمة الموقع ، لامتدادها بين المحيط الهندي والبحر المتوسط •

تتصل هذه الارض الخصبة بعضها مع بعض في قسمها الشمالي ،اي في المنطقة (٢) المشتركة الان بين الدولتين السورية والعراقيـــة وبين تركيا • وتشمل المساحة الواقعة بيـــن اواسط دجله والفرات وروافدهما • ويمكننا ان نحسب منها المنطقة الواقعة بين عطفة الفرات الكبرى وبين البحر المتوسط للشبه الكبير في التضاريس والمناخ مما يجعل نهر الفرات حدا تقليديا اكثر منه مانعا طبيعيا •

ويحد الجزيرة من الشمال جبل طور عابدين وجبال خراجه ، وهما من متفرعات طوروس اما الحد الجنوبي للجزيرة فيقع في جوار بغداد • وتقسم الجزيرة الى قسمين هما الجزيرة العليا والجزيرة السفلى للتفاوت بينهما في الخصب والمناخ او يفصل بينهما جبل سنجار ونهر الخابور

١. المصدر نفسه — ص ٦١

٢. تدعى هذه المنطقة بالجزيرة The Syrian saddle وهي الجزيرة العليا وما يحيط بها الى الخليج والبحر المتوسط .

ووضع الجزيرة الجغرافي وميزات خصبها جعل منها منذ القديم ممرا للقوافل ومركزا للحركات التجارية والحربية عظيم الاهمية وجعل منها ايضا مطمعا للشعوب الهاجمة عليها ، مما شغل الدول – السورية وقتا طويلا لرد الاقدام الشمالية الطامعة في الاستيلاء عليها ، كالحريون والمتنيون والحثيون وفي العصر اليوناني – الروماني كانت الجزيرة الميدان الرئيس للحرب بين الفرس والرومان الطامحين في الاستيلاء او المحافظة عليها • وفي العصر هذا يحتل الاتراك القسم الاخصب منها ، وهم لا يزالون يطمعون في الاستيلاء على قسمها الباقي •

وكما كانت الجزيرة في القديم حلقة الاصل بين سوريا وما بين النهرين والشريان الرئيسي للحياة المشتركة بينهما ، فهي لا تزال كذلك الى اليوم ، الرابط الاولي بين حياة البلدين اذ توصل بين الاثنين وتربط بينهما ربطا وثيقا • والخط الوهمي الذى اقامته معاهدة سيفر لا يمثل الا خط الحدود بين مصلحة بريطانيا وفرنسا وليس له اية قيمة جغرافية او تاريخية او عرقية •

واذا كانت الجزيرة هي همزة الوصل اجتماعيا وثقافيا بين طرفي الهلال الخصيب ، فيجدر بنا ان نأخذ طرفيه منفصلين ، وندرس تفاصيل كل منهما على حدة • ونقابل اوجه التلاقي والافتراق بين الاثنين ، فالعراق وسوريا ليسا بوحدة جغرافية اذا اعتبرنا الوحدة تقوم على شكل ارضي واحد معين ، فتضاريس الواحدة تفترق عن الاخرى • والخصوبة الارضية التي تفرقهما عن جزيرة العرب ليست وحدها كافية لتجعل منهما وحدة جغرافية ، فالمياه التي يتلقاها كل منهما تختلف مصادرها • فبينما تعتمد سوريا وشمالي العراق على الامطار ، يعتمد جنوبي العراق على مياه نهري الفرات والدجلة • وهذا الاعتماد على مياه الانهار وهذه وشدة الحرارة يفرق الوضع الزراعي في تلك المنطقة عن الوضع الزراعي السورى بعض الشيء • وحتى الجزيرة العليا تختلف في تقاطيعها عن الجزيرة السفلى ، اذ ان الاخيرة قاحلة حتى انها تكون تتمة للصحراء السورية (١) • وعدا هذا فهناك اختلاف في تركيب التربة ، فالسهول الواقعة بينهما والتي تؤلف الجزء الاكبر من اراضي البلدين تختلف في تركيبها الجيولوجي عن بعضها • كما ان التقاطيع الارضية في البلدين مختلفة تمام الاختلاف ، فالنتوءات في الارض السورية واضحة المعالم ووضوحها هذا كان له اثر كبير في منع وحدة البلاد السورية • فلو نظرنا الى الارض السورية

---

(١) L. P. Dana - Arab Asia ص • ٧٨

لرأينا انها مع قلة عرضها ، تقسم الى خمسة اقسام طبيعية ، تمتد من الشمال الى اليمين في خطوط شبه متعرجة . فهناك السهول الساحلية والسلسلة الغربية ومنطقة غور الانهدام – والسلسلة الشرقية ومنطقة السحراء او السهول الداخلية . وتقسم المنطقة الاولى ثلاثة اقسام مختلفة في شطوطها ، فالشاطىء الجنوبي تنقصه التعاريج ولا يصلح لقيام المرافىء الكبيرة ، والشاطىء الاوسط وهو اكثر صلاحية ولكنه مقطوع عن الداخل ، واما الشمالي فانه الاكثر صلاحية ويحتوي على اكبر عدد من الممرات الى الداخل .

وتحتوي المنطقة الثانية على سلسلة من الجبال ممتدة من طوروس هي جبال الامانوس وتمتد حتى جبال لبنان اذ يفصلها عنها ممر فسيح الى الداخل ، واما جبال لبنان فهي اكثر الجبال السورية ارتفاعا واشدها اقترابا الى البحر ، واقلها احتواء للممرات ، ويفصلها عن جبال السامرة واليهودية مرج بن عامر الممتد من الساحل الى النهر الاردن .

واما المنطقة الثالثة فهي غور الانهدام . وهذا الغور الكبير هو من اهم مميزات سوريا ، اذ انه يمتد من شمالها الى جنوبها على ارتفاعات مختلفة ، فيبتدىء بين جبال الامانوس وجبل الاكراد (٩٠مترا) ويتصل بسهل الغاب بحيرة الحولة (٢م) (٢٠٠م) وتابع انحداره حتى بحيرة لوط (٣٩٢م) (٢٠٠م) (١٩٠ م) الذي يمر فيه العاصي ، فسهل البقاع (٨٠٠– ١٠٠٠م) ، ثم ينحدر عند بحيرة الحولة (٢م) ويتابع انحداره حتى بحيرة لوط (٣٩٢م) تحت سطح البحر . ومن ثم يأخذ في الارتفاع حتى خليج العقبة ، فيتصل بالبحر الاحمر الذي يؤلف طرفه الجنوبي (١) .

واما المنطقة الرابعة ، وهي السلسلة الشرقية ، فليس لها استقامة السلسلة الغربية ولا تمتد على موازاتها تماما ، ففي الشمال جبل الاكراد ويلحقه مجموعة من الجبال المتفرقة كجبل سمعان والاربعين وتلال حمص حيث تبتدىء جبال لبنان الشرقية المنفصلة عن جبال الجولان بسهل حوران الخصب ، وتبتدىء جبال شرقي الاردن التي تشبه في تناسقها السلسلة الغربية ، وتمتد الى آخر الحدود السورية .

---

(١) Thoumin - l'Asie occ. ص ٦٦

والمنطقة الخامسة ، هي مجرد السهول الداخلية ، التي تمتد من شرقي حمص ودمشق وتؤلف الصحراء السورية .

وفي هذه اللمحة الى تركيب سوريا الجغرافي ، نلاحظ ان هناك في الوحدة الطبيعية الواضحة المعالم ، اختلافات بينة من حيث العلو والانخفاض ومن حيث اتصال داخلها بساحلها وفي اتجاه الجبال ووضعها ، وفي اتصالها وانفصالها ، ولكننا نلاحظ لو نظرنا الى سوريا من الجو او من الخارج انها تؤلف وحدة تامة ، وان هذه الاقسام ليست سوى خلايا او غرف موزعة في بيت واحد شديد التناسق تناسقا يندر ان نجد مثيله .

واما العراق ، فانه يخلو بعض الشيء ، من هذا التناسق الداخلي ، ولكنه يملك ما هو احسن ، اعني الوحدة الارضية . فعدم التناسق يظهر بجلاء في وضع الارض الطبيعي ، فبينما نرى ان اقسام سورية الخمسة تسير عاموديا متحاذية من الشمال الى الجنوب ، نرى ان اقسام العراق الطبيعية تسير افقيا من الشمال ـ الغربي الى الجنوب الشرقي . فالسواد او (السهل الدغلي) بيضاوي الشكل . وللجزيرة السفلى شكل مثلث ، رأسه الى اسفل . والجزيرة العليا مفصولة عن السفلى بجبال سنجار ، وتؤلف جانباها جبال طوروس وكردستان . وليس هناك في العراق تناسبا بين سهلها وجبلها . فالجبال تؤلف ٨ مساحة العراق الحالية ، وينقصها الشطوط البحرية الطويلة . ولكن هذا النقص في التناسق لا يمكنه ان يخفي الوحدة الارضية القائمة في السهل الكبير الواقع بين النهرين ، اعني الجزيرة ، وفي السهل الغني الخصب واعني به العراق الاصلي او السواد .

وهكذا نرى ان هناك وحدة طبيعية في هذه المنطقة تميزها عن غيرها الجبال من الشمال والشرق والبحر من الغرب والصحراء من الجنوب . وان الاختلافات في الغارس والتربة القائمة ضمن هذه المنطقة لا تخفي التجانس فيها ولا تقلل من اهميتها .

والوحدة الطبيعية ايضا لا تتوقف على الحدود فقط ، فسوريا من حيث مناخها تقسم الى مناطق ثلاثة . الساحلية والوسطى والصحراوية . وفقا لاقسامها الطبيعية . فالمنطقة الساحلية مناخها ، ومناخ البحر المتوسط ، تكثر فيه الرطوبة وهطول الامطار ، لاقترابه من منطقة تبخر المياه فيه في البحر ، ولوقوع الجبال قربها مانعة الرطوبة عن التقدم نحو الشرق لذلك نرى انه في المنطقة الوسطى تقل الامطار ويشتد التقلب في درجة الحرارة بين الليل والنهار

وكلما تقدمنا شرقا ، كلما قل هطول الامطار ، واشتد تقلب الحرارة بين الليل والنهار . وتمثل منطقة غور الانهدام مناخا خاصا لوقوعها تحت سطح البحر . واما منطقة الجزيرة فتقع في المنطقة الوسطى لاقترابها من الجبال الشمالية التي تلطف حرارتها .

واما مناخ العراق فانه معتدل الحرارة قرب الجبال الشرقية ، وتقترب احواله المناخية من مناخ الصحراء المتوسطية السورية كلما تقدمنا غربا . ويشتد فيه تقلب الحرارة حتى تبلغ الثلاثين درجة احيانا في اليوم . وتقل فيه الامطار في المنطقة الجنوبية التي تعتمد على مياه النهرين . وتكثر قليلا قرب بغداد ، ثم تزداد قلة في المنطقة الشمالية قرب الخابور (١) .

ومن هذه اللمحة نرى ان بعض مناطق العراق المناخية تقترب من المناطق السورية ، لكنها تفترق عنها في ان اكثرها صحراوي ، بينما اكثر مناخ سوريا بحري .

وكما قلنا ان الوحدة الجغرافية الطبيعية لا تتوقف على الحدود فقط ، لان وحدة الارض ليست بالامر المهم ، فهي وسيلة للوحدة الاهم ، اعني وحدة الحياة التي لا تتم بدون هذه الوسيلة والتي لا يكون بدونها وحدة مصير .

ووحدة الحياة الاجتماعية تظهر في المناطق القائمة على الانهار . واكثرية المدن السورية المطلقة تقوم على انهار تنبع وتجري في الارض السورية ، ولا يكثر انتشار القرى الا في المناطق التي تمر بها الانهار خصوصا في المناطق التي يقل فيها هطول الامطار . ومن يدرس مجاري الانهر السورية كلها ، من الدجلة الى الفرات الى العاصي الى الاردن الى الليطاني وسيحون وجيحون وروافدها كلها ، وبقية الانهار الصغيرة ، يرى انها تؤلف نوعا من الشرايين في جسم الارض السورية . وما عدا الفرات والدجلة اللذين ينبعا من الارض التركية ويسران قليلا فيها حتى يصلا الى الحدود السورية الطبيعية ، فليس هناك من نهر ينبع او يصب خارج هذه الارض بل كلها تسير فيها وتربط بينها . ومن يسير على شواطئ الفرات يرى كيف تقوم عليه المدن والقرى وكيف ان هذه المدن والقرى لا يفصلها عن بعضها شيء منذ دخول الفرات الارض السورية

---

(١) Thumin, L'aire méditerranéenne ص ٢٦٠ وما بعدها ،

حتى وصوله الى مصبه ، ولا يختلف بالامر بالنسبة للعاصي او الدجلة ولبقية الانهر »

فعندما نقول ان منطقة الهلال الخصيب وحدة جغرافية وبيئة طبيعية واحدة ، نعني ان هذا يجعل منها وحدة اقتصادية زراعية ، متشابكة بالانهر السورية • ووحدة الارض — الزراعية هي اساس وحدة الحضارة ، كما انها اساس للوحدة الحياتية وللوحدة الستراتيجية ، فمتى كانت البيئة الطبيعية واحدة ، فانماؤها تكمّل بعضها ويصبح صيانة اية جهة من جهاته امر ضروري لصيانة الجهات الاخرى ، فالحدود الشمالية تهم السوريون المقيمون في الجنوب ، كما تهم السوريون المقيمون في الشمال الحدود الجنوبية • وهكذا الامر بالنسبة للشرق وللغرب وهنالك بالواقع مراكز في هذه الحدود اذا خرجب من قبضة الجيش السوري كما يقع اكثرها اليوم تعرضت البلاد كلها لاشد الاخطار • فعبور ،، بوابات كيليكيا ،، و ،، بوابات سوريا ،، من قبل اي جيش زاحف من اسيا الصغرى يهدّد سلامة سوريا كلها • فعندما عبدت جيوش الاسكندر المكدوني هذه البوابات لم يعد باستطاعة جيش داريوس ان يقاوم في اية بقعة من البقاع السورية وكان يسهل على الفرس اجتياح البلاد حتى البحر حينما كانت تقع في قبضتهم جبال زقروس • كما كان يسهل على المصريين حال اجتيازهم الصحراء الى سينا وخليج العقبة التوغل في سورية حتى الفرات • ولولا بعدهم عن مراكز تموينهم ، لكان من الممكن لهم ان يد يستولوا على كل الهلال الخصيب حتى خليج فارس • وبالواقع لم يكن يصعب على اية دولة كبيرة ضمن هذه البقعة ان تجتاح الهلال الخصيب كله •

فالوحدة الجغرافية والبيئة الطبيعية ، يجب ان تؤلف وحدة ارض شعبية اي وحدة حياة ، ويجب ان تؤلف وحدة دفاع متراصة ، يعني التخلي عن جزء منها تعريض البلاد للخطر الاجنبي • فلو ان السوريين انتبهوا الى هذه النقطة منذ بدء تاريخهم واستولوا على مناطق الجبال والبوابات لما تعرضت ارض الهلال الخصيب كلها هذا التعرض القوي للغزو الاجنبي ، كما تتعرض اليه الان نتيجة وقوع اكثرية هذه الاماكن في ايد اجنبية •

ولكن اذا كان الامر كذلك ، وقامت هذه الوحدة منذ القديم ، فلماذا حدث هذا الابهام في تعيين الحدود السورية ، ولماذا لم يدرك القاطنون في الهلال الخصيب هذه الوحدة •

والحقيقة ان لذلك عدة اسباب ، اهمها سببان رئيسان ، الاول هو انهيار السيادة

القومية وانقطاع استمرار تاريخ سوريا القومي • فالسيادة الاجنبية على سوريا كانت طويلة ، وكان من نتيجتها انقسام البلاد السياسي الى دويلات عديدة ، كما هي الحال اليوم • فبعد ان قضت الدويلات التي قامت في الهلال الخصيب عن فرض سيادة احداها على الهلال الخصيب كما فعلت الدولة البابلية والاشورية ، وقع القسم الشرقي من الهلال في قبضة الفرس الغربي في قبضة الرومان ، فقامت حواجز سياسية عرقلت كهرا والى مدة طويلة ، عودة النمو القومي ومنعت دورة الحياة الاجتماعية والاقتصادية عن ان تيسر بانتظام ، فنتج عن ذلك ابهام في حقيقة وضع الحدود ـ السورية ، كما رأينا في درسنا لاسم سوريا الذى اقتصر على الجزء الغربي من سوريا الطبيعية •

والسبب الثاني ، هو انعدام المصادر التاريخية السورية • فالمؤرخون السوريون والاجانب اعتمدوا في فهم الامور سوريا على مؤرخين اجانب ، يونانيون ورومانيون • وتواريخ هؤلاء شوهت بالفعل حقيقة السوريين الاجتماعية والنفسية ، ولم تنظر الى سوريا سوريا الا من وجهة النظر السياسية ولم تكن تحقق في الوضع الطبيعي او الاجتماعي • لذلك لا يصح ان نعتمد عليها ولا ان نأخذ بها كمصادر الا بقدر ما لها من قيمة تاريخية بحد ذاتها ، تبين لنا وجهة نظر كما تبين لنا وجهة نظر كاتبها في الاعصر القديمة التي كتبت فيها •

وقد يكون لهذه الكتب غاية سياسية او قد لا يكون ، لكن الامر الواقع هو انها كانت تنظر الى السوريين نظرة زراية ولا تتوخى اظهار الحقيقة ، قدر ما تتوخى اظهار الغريب من الامور ، وغير المألوف في بلادها ، كما تفعل كتب الرحلات اليوم تماما ، ومما لا شك فيها انها كانت تتوخى ايضا الحط من اقدار السوريين ومن مقدرتهم العقلية والتنظيمية • ومن يراجع ما طعن به بوليبيوس حملة هاني بعل (١) الى ايطاليا لا يشك في هذه الحقيقة • فكتب التاريخ والجغرافية القديمة ليست بالكتب العلمية المجردة الخالصة من التعصب والتفهم • فعندما نأخذ بها نعتبر فيها قدمها ، ولا نعتبر المقاصد والغايات التي ورائها والعواطف التي تحركت في صدر كاتبها • وشعور اليونان والرومان نحو السوريين معروف اجمالا ، وسبب هذا الشعور نشأت

---

(١) The Histories of Polybius - Paris

بالاكثر الفلسفة الرومانية على يد سورى تقول بوحدة انسانية منعا لتمادى اليونان في احتقار ـ «البرابرة» من السوريين وغيرهم .

وثمة اسباب اخرى لعدم ادراك هذه الوحدة قديما ، وهو فقدان الوجدان القومي بمعناه الحديث ، واقتصاره على الاصل العرقي ، او على منطقة من المناطق ، او على دين او طائفة معينة فيما بعد . واثر هذا باق الى عصرنا الحاضر .

في التـــاريخ السوري

اصـول السوريـــين العرقيـــة

لا نعني بالتاريخ هنا بالتاريخ السياسي فقط ، اى مجرد قيام الدول وسقوطها او نشوب حرب بينها او عدد حكامها وغيرها من الامور التي هي نتائج عوامل طبيعيـــة واجتماعية وروحيـة وليست اسبابا لها ، بل نعني به ايضا مجرى الحضارة او تاريخ الثقافة والفن والادب والاجتماع الذى يكمن في التاريخ بحد ذاته ، والذى له النصيب الاكبر في توجيه الامور وقيامها واتخاذها اشكالها الخاصة المعينة بها ، فالمظهر السياسي من تاريخ امه ، ليس بالواقع تاريخ هذه الامة ، فكل الامم في العالم تعلو وتهبط ، تتوحد وتنقسم ، تستعمر وتستعمر ، ولكن تبقى تجاه كل الاحداث هذه ، وحدة اجتماعية ، حضارية ، وتقاس ويجب ان تقاس بما تقدمه في هذا الحقل الحضارى من تقدمات هي بالواقع التي تميزها عن غيرها ، وتضفي عليها لونها الخاص الخاص .

لذلك فلن نقتصر نحن في هذه اللمحة التاريخية ، على سرد الحوادث السياسية التي جرت في الهلال الخصيب من حروب ومنازعات وقيام دول وسقوطها ، انما سنتقصى ما هو اعمق من هذه المظاهر ، اعني روح الحضارة في هذا الهلال ونرى اذا كانت بالواقع تؤلف وحدة حضارية او لا ، فنبتدئ اولا باعطاء لمحة عن الاصول العرقيـة فيه ، لان لهذه الاصول اثر كبير في توجيه حضارته وتعيين اسبابها .

فمن اى الاصول يتألف شعب الهلال الخصيب ،

لم تتوصل الدراسات العرقيـة بعد ، الى درجة يمكن معها الجزم التام بجميع الاصول العرقيـة فيه ، لكننا نعرف ان هناك ثلاثة اجناس رئيسيـة على الاقل قد قطنته منذ اقدم العصور هي السامية والاسيوية والارية ، ونعني بالاسيوية الحوريين والميتانيين والحثيين والسوريين الذين لم نتأكد حتى الان اين كان مهدهم تماما مما دعى شبيزر على اطلاق اسم ابناء المنطقة المجهولة الهوية (١) على الشعوب الشمالية التي امتدت في يوم من الايام في كل الهلال الخصيب وانحدر منها الكلدانيون والحثيون والارمن واللبنانيون (٢) اما الساميون فيقسمون حسب ترتيب علمـاء

---

(١) Ep. speiser - Mesopotamian Origins p. 65

(٢) C.U Ariens Rappers - An Introduction to the Anthropology, P. 22-25

السامية الى ساميين شرقيين وساميين غربيين (١) يدخل في القسم الاول الاكاديون والبابليون والاشوريون والكلدانيون ، ويدخل في القسم الثاني الاموريون والكنعانيون والفينيقيون والاراميون والعبرانيون ، وهذا التقسيم لا يقوم بالواقع على اساس صحيح لان في اعطاء لقب الشرقي لساكني العراق والغربي لساكني سوريا فيه اولا افتراض خاطئ بان منطقة الجزيرة لم يقم فيها ساميون مع اننا نعرف ان الاموريون والاراميون قطنوا المنطقة الواقعة شمالي الصحراء السورية بين العراق وسوريا (٢) وثانيا ان الكثيرين من الساميين الشرقيين قد اتوا العراق من سوريا ، كالاكاديين والبابليين والاشوريين ، او انه كان لهم علاقة مع الشعوب السورية والفلسطينية وجميع الشعوب السامية فيما بين النهرين (٣) وان جميع الشعوب التي قطنت سوريا كالكنعانيين والاراميين والعبرانيين قد نتجت سوريا عن طريق ما بين النهرين ، فهذا التقسيم لا يرتكز على اساس له قوة ، وما هو سوى اصطلاح جغرافي ، تنقصه الدقة في التعبير .

والشعوب السامية التي قطنت الهلال الخصيب ، كانت طوال تاريخه الاكثرية المسيطرة وقد برهنت على قوة محافظتها على حضارتها ، وتمكنها من التغلب على غيرها من الحضارات التي امتزجت معها في البلاد ، وعلى مقدرتها على الهضم (Assimilation)

واما اصل الساميين ، فقد اختلف فيه العلماء ، اختلافا بينا . ولكن اتفق اكثرهم على ان اصلهم من الجزيرة العربية . فهناك فريق يقول ان هذا الاصل هو بابل كفون كريمر وغويدى وهومل . والبعض الآخر يقول انه ما بين النهرين ، والقسم الاكبر يقول انه الجزيرة العربية . ووجهة نظر هؤلاء هو ان سكان الجبال لا يمكن ان يأخذوا بحياة البداوة ، فلا يعقل اذا ان يكون ساميو جزيرة العرب من الهلال الخصيب . بل بالعكس اذ ان معظم سطح الجزيرة العربية صحراوى ، ولا يمكنه ان يتحمل عددا كبيرا من الناس . فكلما امتلأت بهم ، بحث الفائضون عن مدى حيوى ، يعيشون فيه ، فقدموا كموجات الى الهلال الخصيب لانه الاسهل والاقرب والاخصب ، وقد ذهب قسم منهم الى مصر عن طريق سينا (٤) في اول موجة

---

(١) ويقسمون الى شماليين وجنوبيين والشماليون يقسمون الى شرقيون وغربيون .
(٢) راجع كتاب A.T. Clay - The Empire of the amorite
(٣) - Ed. Meyer, op. cit. Vol. III p. 292
(٤) حتي ، فيليب ، تاريخ العرب ـ الترجمة العربية ص . ١٠ ـ ١١

خرجت من الجزيرة ٠

وهذه التنقلات ، حدثت دوريا ، كل الف سنة مرة ٠ ففي منتصف الالف الرابع خرجت الموجة الاولى الى مصر ، وفي منتصف الالف الثالث ، حدثت هجرة الاموريين التي حملتمعها الكنعانيين ، ومنهم الفينيقيون ٠ وهكذا نواليك الى ان حدث الفتح الاسلامي ، وهو آخر هذه الهجرات واهمها ٠ وهذه النظرية يقبلها العقل ، لكن حالة الانتقال لا يمكن ان تكون حدثت على موجات منتظمة ، بل حدثت بتشرب افراد قلائل تبعهم عدد آخر على دفعات متعددة (١) ٠ كما ان تعيين الف سنة كمعدل لكل دورة ، امر فيه شيء من التكلف او محاولة التصنع الذى لا يمكن الاقتناع به بسهولة ٠

وثمة نظرية اخرى تحتل مركزا قويا بين هذه النظريات اليوم ، هي نظرية الاصل الافريقي للساميين ٠ فقد بيّن بالغريف (٢) الى التشابه الجنسي القوى بين عرب الجزيرة والاحباش والبربر ، خصوصا في شكل الفك وربلة الرجل (٣) ، وفي العادات الاجتماعية والتشابه اللغوى يقود الى الظن ان عرب الجزيرة من اصل افريقي وليس العكس ٠ وبهذا يكون الساميون والحاميون من اصل افريقي واحد ، ولكن بينما بقي الحاميون في افريقيا ، رحل الساميون الى الجزيرة العربية بطريق باب المندب ، ومنها توزعوا على الاقطار التي سكنوها ٠ وهذه النظرية لا تتعارض مع القول بان جزيرة العرب مهد الجنس السامي ٠ وقد برهن على صحة هذه النظرية ج ٠ ١٠ بارتون في كتابه ،، الاصول السامية والحامية ،، (٤) فاعطى ادلة لغوية وجنسية واجتماعية ليدعم بها نظرته ٠ وادلته اللغوية كثيرة ومعقولة (٥) ٠

بيد ان امر اصل السامية لا يهمنا كثيرا ، قدر ما يهمنا وكان نشوء حضارتهم وكيفيته ٠ ليس لان الاصل لا اهمية له ، بل لان منشأ الحضارة له اثر كبير في تكييف هذه الحضارة وتطورها فهناك ثمة اتفاق على ان الصفات التي يمتد بها السامي ، هي خصائص جسدية معينة ، او تمكن الغريزة الدينية منه ، واتقاد المخيلة وقوة الشعور الفردى والقسوة (٦) وهناك خصائص اخرى

---

(١) المصدر نفسه — ص٠ ١٣
(٢) Enc. Brit. — الطبعة التاسعة — مادة الجزيرة العربية
(٣) small calf
(٤) G. A. Barton — Semetic & Hametic Origins, pp 16 - 32
(٥) يعطي من هذه الادلة (١) المجموعتان اللغويتان يتميزان باللفظ الغليظ — pressure Articulation
(٢) ثنائية وثلاثية الجذور (٣) نفس الضمائر وغيرها من الامور الكثيرة المتقاربة ٠
(٦) حتي — المصدر نفسه — ص٠ ١٠

يقول بها المتطرفون من اعداء السامية ، كرينان الذى يصف العقلية السامية ، بانها عقلية ينقصها الفضول الفلسفي ، وانها واضحة لا تفهم الا الوحدة ، وتقصر عن ادراك الكثرة والتنوع ، وليس عندها اساطير ، ولا تفهم معنى التسامح ، فيلازم اقتصار ادراكها الوحدة ، وعدم التسامح عندها فكرة الاله الواحد (١) التي تختصر ميزات هذه العقلية • كما ان هذه العقلية تعبر عن قضاياها الروحية بصور حسية مادية (٢) •

وهذه الصفات فيها الكثير من الصحة اذ عنينا بها الساميين الاصليين ، اى البدو او الشعب الذى ينتجع من بين الشعبين التي يتألف منهما الساميون • البدو الرحل والتجار او الحضر • فالجمع بين الدين والدولة ، وصفة التواكل اى الاستسلام الكلي الى الله الذى يقاصه يقاصص ويرهب والفناء فيه ، وانعدام الشخصية الفردية وذوبان الفرد في القبيلة ذوبان لا توافق فيه بين شخصيته الخاصة وشخصية جماعته ، وفقدانه نتيجة لذلك الصفات الخلقية السمحة ـ والمعطاءة ، وهذه ، بالواقع ، الصفات التي تلازم اكثر الساميين وتفترق بالدرجة بين الامم السامية وفقا لبعد هذه الامم عن الغرب او قربها منه ، ووفقا لطبيعة البلاد التي تعيش فيها •

وهذا يعني انه اذا افترضنا ان الساميين خرجوا من الجزيرة العربية ، وحملوا معهم بعض الصفات المميزة الاساسية المنبثقة عن طبيعتهم الخاصة ، فان حضارتهم ، لم تنشأ في الجزيرة العربية ، كذلك معطياتهم الروحية والفكرية تكيفت في ارض الهلال الخصيب نتيجة لطبيعة الارض ولاختلاطهم بشعوب غير سامية الاصل ، وهذا ما دعا رينان الى استثناء السوريين من بين الشعوب التي تتميز بصفات سامية تامة (٣) ، وما دعا حتى ان يرى ،، ان الهلال الخصيب الخصيب هو مربع الحضارة السامية ،، (٤) •

---

(١) Ernest Renan – Histoire générale des langues semetiques. p 1-18

(٢) هذه الصفة الاخيرة فيها تحامل شديد لان كل اللغات مرت في طور كانت كلماتها المطلقة لها صور حسية ، وفكرة عدم مقدرة الانسان في الاعصر الحجرية على التعبير الذهني المطلق ليست صحيحة ، كما دلت على ذلك كثير من الكلمات المكتشفة في الشرق الادنى التي تحمل معنى مصعدا راجع Albright ص• ١٢٩ •

(٣) J'aurai a m'expliquer plus tardo sur les exceptions apparentes que presente la phenicie et la syrie. Qu'il me suffise, pour le moment, de faire observer que l'esprit semetique a toujours été altéré en araméé ....
E. Renan – op. cit. p. 14

(٤) حتي ـ المصدر نفسه ـ ص• ١٤ • واما كلمة ،مربع ،، فترجمة الكلمة الانكليزية (Scene)

وهذا يثير السؤال التالي : هل كان بامكان الجنس السامي ان ينشيء الحضارة السامية لو بقي في مهده ، او ان هذه الحضارة هي نتيجة انتقال الساميين الى ارض الهلال الخصيب وبكلمة اخرى ما هي الصفات العقلية والاجتماعية التي تميز ساكن الهلال الخصيب عن ساكن الجزيرة العربية ؟

اول ما نرى ، ان طبيعة التوحيد او البساطة ، وعدم التنوع التي يتميز بها السامي الجنوبي نتيجة لبساطة الصحراء ، غير موجودة في الهلال الخصيب ، ففكرة تعدد الالهة عند الاكاديين — السومريين ، كانت عظيمة الوضوح ، متماسكة الاصول اذ ليس من يجهل ان البابليين والاغريق كانوا اكثر الشعوب تقاربا من حيث اقامة نظام «متعدد الالهة» منظم (١) وان النظام البابلي اقتبسته الشعوب الساكنة في اسيا الغربية اى في سوريا . ولا يوجد مثل هذا النظام عند البدو الذين كانت ديانتهم ترتكز على تقديس الحجارة والغدران والايمان بوجود ارواح في الاشياء المادية ، مما يرى الانسان حوله كالاشجار والرمال والحجارة ، ولم يكف البدوى عن — تقديس هذه الاشياء المادية حتى في العصور المتأخرة اى قبيل الاسلام ، ويرجع تقديس زمزم الى ذلك العصر (٢) كما انه لم يكن يقيم كثير وزن للدين وحتى اليوم ، لا يفكر البدوى بنظام كوني او يحمل الى الكون نظرة منظمة ، فالبدوى عديم التنبه للامور الدينية . فقيام وتمكن الرؤى الدينية في الهلال الخصيب ، كان يعني تقدما فعليا في حياة الانسان الروحية او انفصالا عن العالم الحسي المادى الذى يحيشه السامي في الصحراء .

واما الميزة الاساسية الثانية التي يقول رينان ، انها تنقص العقلية السامية ، اعني الفضول الفلسفي ، فامر لا يمكن انطباقه على الهلال الخصيب ايضا . فالبدوى الذى فسّر ظواهر الكون بوجود الجن ، ولم يحاول ان يستشف ما وراء الطبيعة وما وراء الموت ، يمكن تشبيهه بسكان الهلال الخصيب الذين لم يكن ينقصهم هذا الفضول ، وان كان مقيدا بافتراضهم بعض البديهات — الاساسية التي حصرت هذا الفضول حصرا كبيرا . فلم يخل نظام فلسفي واضح ، انما خلق تفكير فلسفي تجسد في الاساطير العديدة التي نشأت لتفسير ظواهر الكون . ومن يقرأ منذ اقدم العصور ملحمة جلي ميش ويرى كيف ان موت «انفيدو» جعل جلي ميش يتأمل اللغز الابدى في معنى الموت والحياة ، وجعله يسعى وراء هذا اللغز يستكشف اسراره ، لا يشك في وجود

---

(١) Albright - P. 142

(٢) حتي — المصدر نفسه — ص ١٣٤

هذا الفضول . وقيام الحركات الفلسفية والعلمية فيما بعد ، والنظرة المتقاربة التي انتهجها فلاسفة الهلال وظهور عدد كبير من الفلاسفة والعلماء يعني امرا واحدا هو ان هذا الفضول موجود وقائم في حضارة الهلال الخصيب .

واما القسوة وعدم التسامح ، فهي بطبيعة الامر مزايا صحراوية ، وقديما قال هيرودوتس . الارض القاسية تنتج رجالا قساة ، وبالقسوة (١) هنا اعني الصلابة والغلظة ، اى قساوة القلب ولا اعني القوة والمقدرة على تحمل الصعاب والجلد . فسكان الهلال الخصيب بانتقالهم من حالة البداوة الى الحضارة ، فقدوا الكثير من هذه القساوة ، وجعلت منهم الارض الخصبة المغمورة بالاشجار والمياه والاعشاب والازهار ، اكثر دماثة واشد لطفا . ولا اعتقد انه كان بامكان المسيح بفلسفته التسامحية وبروحه المحبة ، وبنفسه المعطاءة ، ان ينشأ في غير الارض السورية . وكذلك الادب العربي ، لم يصقل ولم يخرج عن خشونته وبداوته وعلى نفسيته الغليظة الجافة ، الا عندما اختلط بالروح السورية وصقلته هذه الروح .

واما عدم التسامح (Intolerance) فهو من روح الطبيعة السامية الصحراوية النشأة . وهو من هذه الناحية خروج عن النفسية السورية الاصلية . فالسامي لا ينظر الى غيره نظرة مساواة . فالتسامح عنده هو ان ينظر الى ذلك الغير كحام وكمانح له حقوقه . وليس نظرة انسان الى انسان آخر ، له نظرته في الحياة والكون او نظرة مواطن متساو في الحقوق والواجبات

وهذه الفروقات الاساسية ، بين ساميي الشمال والجنوب ، اساسية جدا ، وهي نتيجة لانفصال المجتمع والحياة بينهما ، وهي ما قدمته الارض السورية الغنية الى هؤلاء الشماليين وفرقتهم بها عن غيرهم .

وليست هذه الفروقات وحدها هي ما تفصل بين الاثنين ، فالحياة الاجتماعية منفصلة ايضا وقد اتخذت كل منها منهجا خاصا ، فحياة البداوة التي بقي عليها ساميو الجنوب والحياة الحضرية التي اخذ بها ساميو الشمال ، جعلت من كل منهما وحدة خاصة قائمة بنفسها . فطرق المعيشة والزواج والنظر الى المرأة والعلاقات الاجتماعية ، تطورت الى وضع اجتماعي مدني راقي ، لم تصل اليه الشعوب الساكنة في الجنوب . فالموضع الاجتماعي في الهلال الخصيب ، اوجد الدولة

---

(١) الكلمة الانكليزية Fierceness بمعنى الوحشية تعبّر عن هذا المعنى تعبيرا اوفى

البرية والبحرية بينما بقي اهل الجنوب الى اليوم يتبعوب نظاما اجتماعيا مخالفا ، هو النظام القبلي بكل عاداته وقواعده الابتدائيـة • فالنظام الاجتماعي في الشمال بقوانينه القائمة على قواعد من العدل وعاداته وتقاليده الاجتماعيـة وادبه الخاص الظاهر في اساطيره وكتبه الدينية، يفرقهما عن بعضهما تفريقا اساسيا حتى في الامور الاساسية المتأصلة في النفسية السامية ، — كالتمكن من الدين والاستسلام الى القوة العليا والتأمل الفكري ، فهذه موجودة عند الشماليين او معبّر عنها بالاحرى عندهم بحس اقوى وشعور اعم ، وبمؤسسات اجتماعية مما يدل على تقدم روحي عندهم • فهذه الفروقات اذا قائمة وهي نتيجة لسببين هي طبيعة الارض السورية — والامتزاج العرقي مع شعوب غير سامية •

وقبل ان ننهي كلامنا عن الساميين ، اريد ان اقول ، ان كلمة سامي ليست قضية عرقية قدر ما هي قضية لغوية ، فكثير ممن نسميهم ساميين ، قد يكونوا من اصل اري او اسيوي ، ولا يمتون الى السامية بصلة • فمنهم من غيّر لغته الى لغة سامية مع انه ليس من اصل سام كالاشوريين واللبنانيين والعلويين والدروز حسب رأي كبرس (١) فلا غرابة ان وجدنا ان الحياة في الهلال الخصيب تختلف في اصولها وطبيعتها اختلافا بينا عن الحياة في الجزيرة العربيـة •

واما الشعوب غير السامية التي قطنت الهلال الخصيب ، فمتعددة وقديمة • فقد وجـد مؤخرا انه سكن لبنان رجل انطلياس منذ زمن موغل في القدم يعود الى ٢٠ الف سنة قبل الميلاد (٢) وتدل الاكتشافات في فلسطين على انه سكنها في اماكن متعددة كجازر (Gezer)(٣) اناس من العصر الحجري المصقول لا يمتون للسامية بصلة ، يعبدون القوى الارضية ويعتقدون بالحياة الاخرى (٤) • وسكنها ايضا ،، العمالقة ،، وهم قوم انتشروا في شرقي وجنوبي اسيا وجنوبي روسيا وفرنسا وبريطانيا وسكندينافيا ، ولا تزال بقايا بيوتهم الحجريـة (Megalithes) وامكنتهم

---

(١) C. A. Rappers. op. cit. ص• ٤٣

(٢) فؤاد فرام البستاني — محاضرات الندوة — السنة الاولى — عدد اول •

(٣) تقع جازر على اربعة كيلومترات جنوبي شرقي الرملة •

(٤) A. T. Olmstead - History of Palestine & Syria ص• ١٩

المقدسة ،،على ضفاف الاردن والزرقا وفي موآب وعمان وباشان والجولان • وتدل هذه البقايا التي تعود الى ما قبل التاريخ ، انهم وصلوا الى طور الزراعة ،وهو الطور الذى يلازمه تحول في التنظيم الاجتماعي والسياسي والديني ، ففيه اخذ الانسان يلاحظ ان انثى الانسان والحيوان ليستا وحدهما مصدر الحياة ،بل الارض ايضا ، هي مصدر الحياة للنباتات • فكما يولد الطفل من بطن امه ، كذلك تولد الاشجار والاعشاب من بطن ،،امنا الارض ،، فاتخذت لذلك العقائد الدينية صبغة نسائية وعبدت ،،امنا الارض ،، كما تدل على ذلك التماثيل الصغيرة العارية التي وجدت خاصة في شمالي سوريا ووسطها والتي تمثل او ترمز الى الانتاج (١) فالطبيعة بالنسبة لهؤلاء السوريين الاولين ، هي مصدر الانتاج ، حتى وان تم ذلك على يد الذكور والاناث ، فان القوى المنتجة فيهم صادرة عن الارض • ولذلك فقد انحصرت اعيادهم تقريبا في عبادة قوى الانتاج ، اى في الاعياد الزراعية وهم لذلك لا يجدون غضاضة في عبادة عشتار الهة الانتاج التي نشأت في سومر وعمّت عبادتها الهلال الخصيب كله وتجاوزته ، واصبحت صفة ملازمة لحضارة السوريين (٢) •

وعدا هؤلاء العمالقة وسكان جازر وانطلياس ، نجد في العصور التاريخية عددا كبيرا من الشعوب غير السامية ، كالسومريين الذين قطنوا في جنوبي العراق واسسوا مدنية عريقة ، كانت في امور كثيرة الاساس الذى قامت عليه الحضارة البابلية (٣) اما من اين اتى هؤلاء السومريين فلا نعرف الا انهم قدموا من الشرق (٤) وانهم يختلفون بحضارتهم اختلافا بينا عن العيلاميين (٥) وانهم وصلوا الى درجة من الحضارة عظيمة بالنسبة لعصرهم فاوجدوا اسس التنظيم الاجتماعي ووضعوها في قوانين جمعها فيما بعد حمورابي واشتهرت باسمه • كما نشأ معهم عدد من الاساطير والاناشيد الدينية التي انتشرت في اسيا الغربية واقتبسها الساميون الذين امتزجوا بالسومريين فيما بعد • وقد تميزت الهتهم بأنها تمثل قوة الانتاج (٦) وهي نفس الفكرة التي

---

(١) المصدر نفسه – ص • ٣٢

(٢) G. W. Hegel - The philosophy of History p. 192

(٣) Barton - ص• ٣٥

(٤) C. L. Woolley - The Sumerians ص• ٧

(٥) Barton – المصدر نفسه ص• ٣٥

(٦) Dr. G. Contenau - La civilisation d'Assur et de Babylone. - ص• ٨٥

نشأت في شمالي سوريا ، وفي جنوبها نتيجة للوضع الزراعي وطبيعة الارض .

ونجد في العصور المتأخرة نسبيا في شمالي سوريا ، عددا من الشعوب المختلف في اصلها ايضا ، كالحوريين والميتانيين ،الذين كانوا خليطا من الشعوب الاسيوية والاريه ، كما تدل على ذلك اسماء الالهة الاريه كمترا واندرا وفارونا ، التي وجدت في نقوش بوغازكوى الحثية (١) . وقد قطن هؤلاء منطقة سوريا الشمالية حيث تقع حڤران . واختفوا من التاريخ بسقوط الحثيين ولم نعد نسمع عنهم شيئا بعد ذلك الحين ، فقد هضمهم الاشوريين والاموريين والفينقيون والاراميون (٢) وامتزج دمهم بدمهم . والشعب الآخر الذى بلغ شأوا عظيما في التاريخ ، هم الحثيون الذين هبطوا الى سوريا من وراء طوروس ، واسسوا دولة كبرى امتد سلطانها من بابل الى فلسطين . وهؤلاء ايضا هم مزيج من شعوب لا يمكن تحديد اصولها فلغتها هندية ـ اوربية ، ولكن يصعب تصنيفها مع اى من اللغات الهندية ـ اوربية . ومع انه كان لهولاء الحثيين ثقافة خاصة وميزات خاصة ، لكنهم لم يتمكنوا من الحفاظ عليها ، فامتصهم الساميون من جهة والهيلينوين من جهة اخرى (٣)

واخيرا هناك الكاشيون Kassites الذين هبطوا الى العراق من جبال زقروس ، ونعرف انهم من الجنس الارى ، كما تدل اسماءهم على ذلك ، فهي تنتهي بـ ash وهي os اليونانية و us اللاتينية (٤) .

فهذه الشعوب التي ذكرناها كلها ، عاشت في الهلال الخصيب وتفاعلت بعضها مع بعض منذ قبل التاريخ الجلي ، واقتصرت حتى القرن السادس ق.م على الشعوب السامية والاسيوية كما تدعى هذه الشعوب التي ليست بالارية ولا بالسامية . .

ومنذ الفتح الفارسي لسوريا ، توطنت في سوريا شعوب اربة الدم . فجاء الفرس اولا ،

---

(١) Barton - المكتب نفسه - ص ٤٤ . راجع ايضا Weill - Phonecia & Western Asia - 46

(٢) Barton - المكتب نفسه - ص ٤٦

(٣) A. Toynbee - a study of History - المجلد ٢ ص ٢٨١

(٤) Weill - op. cit. p. 85

ثم اليونان في العصر السلوقي • والرومان في العصر الروماني والصليبيون في العصر الاسلامي • ولا تعرف تماما الذين استوطنوا سوريا من هذه الشعوب ، لكن نشوء مدن يونانية كسلوفيا على الدجله ودورا وانطاكية وغيرها دليل على ان عددهم لم يكن بالقليل •

ومن هذه اللمحة عن الاصول العرقية في الهلال الخصيب ، نرى انها انفردت باصول عرقية لم يشاركها فيها غيرها • فبينما اقتصرت الاصول العرقية في الجزيرة العربية على الاصل السامي ، اقتصرت في مصر على اكثرية حاميه وقليل من الساميين وعدد من اليونان في الاسكندرية وعلى الشواطئ ، واننا لنرى ان المواد الاولية التي خزن منها الشعب في الهلال الخصيب ، تختلف عن غيرها من المواد التي تركبت منها بقية الشعوب العربية •

التفاعل الحضاري في الهلال الخصيب

الدور القديم

من العناصر الاساسية في فهم تاريخ امة من الامم ، درس حضارة هذه الامة الظاهرة في انتاجها الفكري والفني ، وفي حياتها الاجتماعية ، لانه في هذه العناصر يظهر تاريخ الامة ، اكثر من ظهوره في الحوادث السياسية التي تمضي بمضي الظروف التي اوجدتها . فالحوادث السياسية هي عوارض في تاريخ الامة لا اهمية اساسية لها سوى فيما تظهره من نتائج للاسباب الروحية والمادية التي هي الاساس في توجيه الحياة . ففهم امة من الامم ، لا يقوم بدرس تاريخ حروبها وقيام الدول العظيمة فيها ، او تفسخها وانحلالها . ووصف ما حدث لها اثر ما حدث فيها فقط ، وترك تفسير اسباب الاحداث التي وراء الظواهر السياسية . ان تواريخ الامم ليس في تاريخها السياسي وحسب ، اى تاريخ حروبها ودولها ، وحدتها وتفسخها انه في مجرى حياتها الفكرى ، اى في انتاجها الادبي والعمراني والاجتماعي منذ فجر التاريخ ، فهذا التاريخ وحده هو الذى يدل على وجود الامة ، وان كان لا يوجدها ، وليس التاريخ السياسي .

ولهذا السبب ساستعرض في هذا الفصل مظاهر هذا التاريخ الفكرى والاجتماعي في الهلال الخصيب . وابيّن انه الاساس لكثير من الاسس الفكرية والاجتماعية في البلدان المجاورة . فلقد لاحظ هذه الظاهرة الاستاذ ارنولد توينبي في كتابه ،، دراسة التاريخ ،، كما لاحظها — شبنغلر في كتابه ،، انحطاط الغرب ،، .

يقول توينبي : ،، انه في تحليلنا للثقافة الاسلامية (١) يمكننا ان نتحقق فيما اذا كانت المادة السورية اوالايرانية ، هي التي ساهمت اكثر من الثانية في تحقيق هذه الثقافة . ويمكننا ان نتجاوز مجرد التحقق او التحليل . ونحقق ايها كانت الاكثر اصالة وقدما . ان تاريخ الدين لا يعطينا ، اى اشارة ، ولكن تاريخ الاداب يوحي لنا بان سورية وليس ايران كانت الشريكة

---

(١) وهذه الثقافة منتشرة في مجتمعين ، حسب رأيه ، المجتمع الايراني ويضم تركيا وايران . والمجتمع العربي ، ويضم الشعوب المتكلمة العربية .

الغالبة • واذا مددنا نظرنا ابعد ، الى زمن نشوء الحضارات ،لا نرى اثرا لايران بينما نلمح مجتمعا في سوريا • في ايام الملك سليمان ومعاصره الملك حيرام ، يكتشف الاطلنطيكي والمحيط الهندى ، وكان قد اكتشف الحروف الهجائيـة منذ زمن •

ويتابع توينبي كلامه قائلا : ،، وهكذا نكون قد حددنا المجتمع السابق والمتبني الثقافـة الاسلامية ، والذى نبحث عنه منذ زمن بعيد • ولا يبقى الا ان نعطيه اسما مناسبا واوفق اسم له هو ،،سورى ، (Syriac) • بمعنى ان كلمة ،، سورى ،، تضم اوجه واعصر — المجتمع الذى تكلم اللغة السريانية وانشأ ادبها (١) •

وعلى ضوء هذا التحديد ، لننظر الى الاسلام ، وهو ،،الدين العالمي ،، الذى بواسطته تمكنت الحضارة السورية من ،،تبني ،، المجتمع العربي والايراني • وهنا نلاحظ فرقا بين الاسلام والمسيحية • فقد لاحظنا ان قوة الخلق والابداع في المسيحية ،لم تكن من اصل هيليني — (هذا بالنسبة للحضارة الغربيـة) انما من اصل غريب ، يمكننا ان ندعوه اليوم سورى الاصل • ولكن قوة الابداع في الاسلام ، لم تكن غربية ، انما اصيلة في المجتمع السورى • فالمؤسس محمد استوحى اولا من اليهودية التي هي سورية الاصل ، وثانيا من النسطورية ، وهي نوع من المسيحية تفوقت فيها المادة السورية • وتسطور الاسلام جرى قرب المجتمع السورى الذى ولّت على اثر دخوله سيطرة الثقافة الهيلينية الدخيلة (٢) ،،

وفي رأى شبنغلر ان الحضارة العربيـة ، او الحضارة الماجية ، التي هي حضارة الروح الشرقية ، القائمة قبالة الحضارة الفوستية او الاوروبية ، يقوم تاريخها القديم في نطاق المدنية البابليـة ، التي بقت لالفين من السنين محجة لمختلف الفاتحين • وهو يعتقد ان العلاقـة الجديدة بين الله والانسان ، التي حدثت في هذه الحضارة ، ودخلت الديانات الفارسية — والفينيقية واليهودية ، حدثت نتيجة يقظة كبرى في الشعوب المتكلمة الاراميـة بين سينا وجبال

---

(١) - A. Toynbee - a study of History Vol. I P. 82

(٢) المصدر نفسه — ص• ٨١ — ٨٣

زفروس (١) ورأى توينبي وشبينغلر في المجتمعات وتقسيمها في العالم ، لا يقوم على اسس الحدود الطبيعية والاصول العرقية او الوحدة الاجتماعية ، انما يقوم على الاختبارات الروحية التي قد تشترك بها عدة امم • وما يهمنا منهما هو ادراك الاثنين ، ان اسس هذه الحضارة التي تدعى عربية او سورية او ماجيه ، نشأت في هذه البقعة من الارض التي ندعوها بالهلال الخصيب •

ويقتصر الاستاذ توينبي تعيينه اصول حضارته السورية ، على الوقت التي تبلورت فيه الديانة اليهودية ، ولكنه لا ينفي اصول العلاقة السابقة لظهور هذه الديانات ، والتي استمدت منها اليهودية مصادرها • اعني الثقافة البابلية والثقافة الكنعانية اللتين نشأتا في قرني الهلال الخصيب الشرقي والغربي ، واللتين امتزجتا معا لتعطيا الدين اليهودي ومن بعده المسيحي ، اصولها وقواعدها •

ونشوء متحد اجتماعي واحد ، لا يتم الا في بيئة ذات امكانيات طبيعية ، يجرى فيها — تفاعل اجتماعي ، ولا يقتصر على التفاعل المادي من تعامل يومي تجاري ومصلحي ، انما يتعداه الى التعامل الروحي الذي يساعد على ايجاد الوجدان الاجتماعي والميزات الروحية والفنية • وتاريخ الهلال الخصيب يدل على الظاهرة الاولى في محاولة الشعوب التي سكنته بسط السيطرة على قرنيه الشرقي والغربي ، وعلى الظاهرة الثانية في الوحدة الروحية الدينية — والادبية التي تختلف عن غيرها من بقية الشعوب الخارجة عن نطاقه •

لقد كانت الدولة البابلية الاولى ، اول من نجح في بسط سيطرته على الهلال الخصيب باجمعه ، ثم تبعتها الدولة الاشورية ، فالبابلية الثانية فالعباسية في العصر الاسلامي • ومن الجهة الغربية سيطرت الدولة السلوقية فالاموية اما في الحياة الاجتماعية ، فقد كانت بعيدة الاثر اذ اختلطت فيها الشعوب السورية بعضها مع بعض ، اختلاطا قويا ، جعلها تذوب في وحدة خاصة ، فالعلاقات الاجتماعية تعرف مداها مثلا من نقش تركه "غوديا" Patesi اى نائب ملك لجش (٢٠٠٠ ق م) • فعندما اراد هذا ان يبني هيكلا لالهه جلب مواده من مارتو

---

(١) O. Spengler - The Decline of the West. P. 147

وامانوم وماقان وسبسالا . وكلمة مارتو تعنى سوريا وامانوم ، امانوس (١) وماقان اسم لواحه جنوبي شرق الاردن (٢) . وسبسالا اسم لجبل لبنان (٣) . ولما كان الذى احضر هذه المواد هو نائب ملك وليس ملكا ، فالامر يدل على ان المواد ، احضرت في عصر يسوده السلم والتعامل الدائم . لانه لا يعقل ان يقوم نائب ملك بتجارة برية بعيدة هذا البعد العظيم في ذلك الحين ، الا اذا كان السلم قائما ، وكانت المدنية بين البلدين عظيمة الدرجة يتمكن بها الانسان ان ينقل مواد بنائيه واحجار ثمينة ومعادن من بلدان بعيدة لارضاء غرور حاكم . فمعاملات «غوديا» هي ظاهرة على ان الحياة كانت متشابكة في العالم البابلي حينذاك (٤) ويوضح باتون ، مؤلف كتاب «سوريا وفلسطين» ان سوريا ومن الممكن فلسطين ، كانت عرقيا وسياسيا جزءا اساسيا من العالم البابلي (٥) .

والامر الظاهر هو انه منذ تبلور المدنية فيما بين النهرين ، وظهورها بشكل واضح هي منذ ابتداء العصر الفخارى في الالف الثالث ق م ، اخذت المدنية في الهلال الخصيب تفترق وتؤلف وحدة اجتماعية ثقافية اخلاقية فنية واحدة . تتميز بها عما جاورها ، الا فيما تركته هي بالاكثر من اثر في البلدان المجاورة كمصر وفارس . ففي مصر ونوبيا نرى مجرى من التقاليد والحياة مختلفا (٦) ونرى نظرة الى الكون مختلفة ايضا ، يظهر فرقها واضحا في الاساطير السورية والمصرية . فمع ان البلادين عبدا بعض الاحيان الظواهر الطبيعية ذاتها ، واستخدما الصور لوصف هذه الظواهر نفسها ، لكن نفس الاساطير ومعنى الصور كان يختلف تماما ففي كلا البلادين ، ساد الاعتقاد ان العالم خرج من مياه الغمر . ولكن كان هذا الغمر في مصر ذكرا الاله نون ، وبمعنى آخر ، كان ينظر اليه كمنتج وكدافع للانتاج ، وكان يحسب كجزء لا ينفصل عن العالم المخلوق ، يظهر في المياه تحت الارض وفي فيضان النيل السنوى . واما فيما بين

---

(١) Patton - Syria & Palestine - p. 20

(٢) ph. K. Hitti - History of the Arabs - p. 37

(٣) Patton - p. 20

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١

(٥) المصدر نفسه — ص ٢٣

(٦) Albright

النهرين ، فقد كانت قوى الخصب مجسدة في شخص الاله انكي او عيا • ولكنه لم يكن على اية علاقة مع الغمر ، فالغمر ، كان انثى ،، تيامت ،، (תהום) الام التي كانت تنتج الالهة والوحوش بكثرة بالغة ، فقتلها الاله مردوخ وصنع العالم من جسدها • وهكذا نرى ان المياه كانت تعني للمصريين والسوريين مصدرا للحياة ، ولكن كان يعبر عن كل من النظرتين تعبيرا يختلف اختلافا بينا عن الآخر •

وثمة فرق آخر يظهر في العلاقة مع الارض • فقد كان سكان ما بين النهرين يعبدون ،، الام الكبيرة ،، التي يظهر خصبها في منتجات الارض • وكانوا يقابلونها بالسماء (ولذلك هي زوجة الاله انو ،اى السماء) او القوة المماثلة للغمر • ولكن في مصر ، كانت الارض ذكرا جب بتاح او ايزيريس • ،، والام الكبيرة ،، لم تكن ذات علاقة البتة مع الارض • فصورتها ، كانت دائما تتمثل اما في شكل بقرة او تظهر معروضة على صدر السماء التي تنتج الشمس والنجوم كل يوم صباحا ، وفوق ذلك فالاموات يدخلون جسدها ليولدون ثانية خالدين • وهذا الاهتمام الزائد في الموت والحياة الثانية لم يكن له مثيل في سوريا حيث كان الموت يعني محو الشخصية فكان اهتمام الانسان الاكبر في الحياة الجيدة والتحرر من المرض والتناسل • واما السماء فلم تكن له اما حنونا تشرف على ابنائها بعين العطف والرحمة ، بل كانت اكثر الالهة اثارة للخوف • وهذه الفروقات لا تعني فقط تنوعا لا معنى له ولا قيمة ، انها تكشف لنا عن النظرة المختلفة التي ينظر بها كل منهما الى الكون الذى يعيش فيه الانسان فهذه النظرة امنت لمصر الاستقرار ،لان فرعون الملك هو احد الالهة بامكانه ان يوجد التناسب والتناسق بين الكون والمجتمع في اى وقت • ولكن الملك في سوريا ، كان مندوب جماعة الالهة لحكم الناس، ولا يملك من السلطة الا ما تعطيه اياه هذه الالهة التي قد تسحب السلطة منه في اى وقت كان • فالانسان كان تحت رحمة الاقدار ، ولذلك كان الملك ينتظر اشارة السماء او الارض التي قد تحمل اليه دلائل رضى او غضب الالهة فنشأ عن ذلك المنجمون والانبياء (١) •

---

(١) H. Frankfort - Before philosophy - P. 238-241

وقد دلت الاكتشافات الحديثة ، على انه حتى في العصر الحجرى الحديث ، وجد تقارب وتفاعل في الهلال الخصيب ، فقد اكتشفت انواع من الفخار متشابهة في سهل الجديدة قرب انطاكية ، وفي جرش في فلسطين (١) .

ولقد نشأ في هذه العصور الاولى ، عدة ثقافات ، امتدت في الهلال الخصيب امتدادا متفاوت الاثر ، اولها الحلفية ، نسبة الى تل حلف ، دامت عدة قرون قبل الالف الخامس ، وصل فيها الفن التزييني الى درجة قصوى . ،، فالصور الهندسية الرفيعة ، وصور الزهور التي زين بها الحلفيون الانية ، لم يتفوق عليها احد بنظرنا فيما تلا ذلك من التاريخ . وهذه المقدرة التزيينية ، لم تقتصر على ما بين النهرين ، انما رافقتها بذلك الثقافة القاسولية في فلسطين (٢) وقد وجد في تل حلف اقدم صورة لعربة ذات دواليب ثمانية تحمل رجلا (٣) وتلت الحضارة الحلفية العبيدية فيما بين النهرين ، وهذه تقابل بما يسمى الان بمدنية اوغاريت الثالثة التي اكتشفها انغهولت في حماه ووادى العاصي (٤) .

وتلت هذه المدنية (الوركا) ، ورافقتها ، وان لم تكن تشبهها الثقافات في في شمالي الهلال الخصيب . وفي هذا العصر ، نرى ان الكتابة اكتشفت ، وانها تخطت الكتابة التصويرية وتقدمت التجارة والاساليب التجارية ، ونرى ان الفنون الجميلة قد ترقت .

واذا قابلنا هذا العصر الفخارى في الهلال الخصيب مع نفس العصر في مصر ، نرى ان تطور مصر بقي محصورا ولا نرى فيه شيئا من الاعمال العظيمة الحلفية او الوركائيه ونرى ، ان الحضارة المصرية بقيت دون ثقافة ما بين النهرين حتى عصر العائلة الاولى ، اذ نشأت فيها حمية تحت تأثير وادى الفرات غير المباشر (٥) .

---

(١) J. Finegan – Light from the ancient past. p. 14

(٢) المصدر نفسه – ص٠ ٩٨

(٣) المصدر نفسه – ص٠ ١٠

(٤) albright - ص٠ ٩٩

(٥) المصدر نفسه – ص ٩٩ – ١٠٠

وبقدوم العصر البرونزي وقدوم الساميين الى اكاد وسومر واختلاطها مع السومريين ، نشأت المدنية البابلية ، التي هي مزيج من السومري والسامي الاكادي ، وهذه المدنية تركت اثرها الاكبر في جميع ثقافات الهلال الخصيب . فالاثر البابلي ، خصوصا في شمالي سوريا اي في منطقة حرّان والرها ، كان عظيما ، والمعتقد ان عبادة الحرانيين النجوم ودراستهم الفلك ، هو نتيجة تأثرهم الكبير بالبابليين .

وفي هذا العصر ابتدأ النزاع بين القبائل والدويلات في الهلال الخصيب للتسلط عليه ، ذلك النزاع على السلطة بين شعوب الامة الاخذة في التكون . فكان كل شعب يحاول فرض نفسه لعصور طويلة ، كما فعلت الدولة البابلية التي بقيت عدة قرون مسيطرة على القسم الشرقي والغربي من الهلال الخصيب ، وفي عصرها ساد السلام وامتدت التجارة وازدهرت بين القسمين ، امتدادا عظيما ، كما رأينا اثره في نقش غوديا . والدولة البابلية الاولى هذه ، قامت على يد الاموريين (١) وهم سكان المنطقة المتوسطة بين سوريا والعراق والذين كانوا حلقة الوصل بين الجانبين . فهؤلاء الاموريون ، سكنوا الصحراء السورية ، وامتزجوا مع شرقي وغربي الهلال الخصيب .

وبانتهاء العصر البرونزي ، حوالى القرن الثامن عشر ق م ازداد التفاعل والامتزاج مع شعوب غريبة ، كما انه ازداد داخليا . فالسالك في ذلك احدى الطرق التجارية الكبرى من سوريا الى التقاء الخابور بالفرات ، ثم الى اشعور في اعالي الدجله . ام اتجه الى مارى (تل الحريرى) ونزل مع الفرات الى موطن الحضارة السومرية يجد في اى مدينة يمر بها ان مظاهر الحضارة الاساسية واحدة . في الفن او العمارة وفي اللغة والكتابة حيث الخط المسمارى هو الخط العام في المعاملات المصالح والمعاملات التجارية والسياسية (٢) .

ومن يدرس تاريخ الديانات ، يرى تفاعلها في الهلال الخصيب . وقد قلنا في كلام سابق ان ما يميز امة عن امة ليس شكل سكانها فقط ، انما ما يشترك فيه هؤلاء السكان من مصالح مادية ومصالح روحية ، كالنظرة الى الحياة والكون ، وما يشتبك في افكارها من معان وقيم وما يظهر من

---

(١) weide ص. ٤١

(٢) طه الباقر ـ مجلة سومر ، كانون الثاني سنة ١٩٤٨ ص. ٨٩ .

هذه المعاني في الفنون الجميلة وفي الدين . ونحن لو اخذنا قصة الخليقة ، وهي قصة تظهر لنا نظرة الشعب الى الكون ، لوجدنا ان اصولها في التوراة تعود الى قصة الخليقة التي دونت في ايام البابليين والسومريين . فالقصتان تتفقان على انه في البدء كانت المياه تغمر الكون . وكلمة الغمر (תְּהוֹם) (١) الموجودة في التوراة ، يمكن ان تكون من اصل واحد مع (Tiamat) البابلية التي هي اسم الالهة التي فلقها مردوك الى نصفين ، والتي تعبر عن هذا المعنى . وكذلك تتفق القصتان في ان الله خلق اولا الفلك ، فالارض ، فالنجوم والكواكب ، واخيرا الانسان . ومع ان هناك اختلافا بينا في القصتين ، لكن علاقة الواحدة بالاخرى ظاهرة وواضحة . وكذلك قصة الطوفان ، فهي في التوراة لا تختلف في شيء اساسي مع القصة التي وردت في ملحمة جلجامش .

وفضلا عن ذلك ، فنحن نرى ان اسماء الالهة والافكار السومرية ـ الاكادية الدينية يستعملها الحرانيون والحثيون والاموريون والكنعانيون . ويقدّر ان اكثر من نصف الالهة في البانتيون الحرّاني في الالف الثاني ق م . من اصل سومري او اكادي واكثر الهة حلب وقطنا وقادش على العاصي لها اسماء الهة ما بين النهرين مكتوبة بحروف مسمارية . وقد وصلت عبادة الالهة داجون الى جنوبي فلسطين ووجد ان الهة فلسطين الكنعانية تشبه الهة ما بين النهرين . وقد حمل الحثيون والحرانيون عبادة عشتار الى اماكن بعيدة عن اشور بلغت مصر وجنوبي غربي اسيا الصغرى (٢) .

ولو تأملنا جيدا في اصول الافكار اليهودية ، لرأينا ان الشعب الكنعاني الذي سكن الشواطئ السورية من رأس شمرا الى فلسطين ، وبه امتزجت بعض القبائل الكنيه والكنيزية القادمة من صحراء سينا (٣) وتألف منها الشعب اليهودي فيما بعد ، لرأينا ان هذا الشعب الكنعاني اعطى هذه القبائل مدنيتها وشرائعها وعاداتها وطقوسها ، وهو بالاصل اخذ اكثر هذه العادات من الاساس البابلي نتيجة لتفاعله معه ، فالثقافة اليهودية التي اثرت كثيرا في العالم هي بالحقيقة الجميع ثقافة تستمد اصولها من حضارة الهلال الخصيب .

---

(١) تكوين . ١ ص . اول ـ عدد ٢

(٢) Albright ـ ص . ١٦٠

(٣) Robinson & Osterley – A History of Israel vol.1, P101

ففكرة المسيح المخلص مثلا هي فكرية بابلية ، وقد رفض اليهود فكرة قيامته بادئ الامر لان هذه الفكرة بابليـة • وقد وجد اخيرا ملحمة تدعى (عيا واتراخيسيس) تصف تدخل الالهة — اتراخسيس من اجل الانسانية المهددة بالخراب مرة من طوفان ومرة اخرى من قحط عظيم • ولقب اتراخسيس هذا ،، الحكيم الاوحد ،، وفي الاشورية ،،انسان ،، ونرى في اسطورة ثانية هي اسطورة ،،ادبا ،، التي وجدت في تل العمرنه ، ان ادبا يدعى ،، الحكيم ،، ويدعى ،،نواة الانسانية ،، او ،،عضو الجنس الانساني ،، • فلا يبعد ان يكون ادبا هو الاسم السومرى للالهة اتراخسيس • ولما كان (בן אדם) ،،ابن ادم ،،في العبرية ، او ،، ܒܪ ܐܢܫܐ ،، ابن الانسان بالسريانية تعني ،انسان ، • فهذا يظهر لنا ان اتراخسيس المخلص الانساني من الدمار ابن الاله عيا المدعو ،،بالانسان ،، لحكمته ، دخلت اسطورته في التقاليد الاراميـة اليهودية بصورة ،،المسيح ،، ابن الانسان كما وردت في العهد القديم (١)

وفكرة قيامة المسيح وبعثه مستمدة من اسطورة تموز البابلية التي اخذها الفينيقيون ايضا • واعياد ادونيس لم تكن سوى صورة طبق الاصل لما كان يجرى على ضفاف دجله من نواح وبكاء ثلاثة ايام ، ومن ثم فرح وابتهاج لقيامة ادونيس او تموز في اليوم الثالث (٢) ، ففكرة القيامة وفكرة العذراء لا يختلفان عن الفكرة التي وراء اسطورة ادونيس وعشتروت اى فكرة الانتاج والخصب التي هي ميزة من ميزات النفسية السورية •

ولا يمكننا نحن ان نتقصى هذه العلاقة الفكرية لصعوبة الموضوع ولخروجه عن غرضنا ولكن لا من يريد ان يقف على آخر ما توصلت اليه الابحاث والتنقيبات عن هذه العلاقة الفكرية في الهلال الخصيب وافتراقها عن مصر ان يراجع كتاب الاستاذ البرايت ،، من العصر الحجرى الى المسيحيـة ،، ليدرك مداها •

وعدا هذا التقارب في الفكر ، هناك تقارب شديد في بعض العادات والتقاليد الدينيـة التي يكمن وراءها اعتقادات دينية • فعدم تصوير هو تأثر ظاهر بعبادة اشور وشمش وهـدد

---

(١) Albright — ص• ٢٩١ — ٢٩٢

(٢) Syria — مجلد مقالة بقلم Montet — مجلد ٤ — ص• ١٨٥

وبعل • فالخوف من غضب هذه الالهة جعل الشعب يمتنع عن تصويرها (١) وعن ذكر اسمائها • فالاسرائيليون سكنوا مع شعب تأثروا كثيرا باعتقاداته الدينية وعاداته •

ولكن هذه النظرة الى هذه الالهة القاسية ، بسبب اصولها الصحراوية وقدرتها التي لا تقاوم ، تغيرّت وتعددت بتنوع اسباب الحياة والمعيشة في الهلال الخصيب • فلقد اخترع الشعب الهة لكل صنعة ومؤسسة نشأت في الهلال الخصيب • فالالهة الفينيقية كانت موجودة في سوريا والعراق (٢) ، ولكن كانت كل مدينة تفضل احداها ، ولكنها تؤمن مع غيرها من الشعوب القاطنة الهلال الخصيب ببقية الالهة نفسها (٣) • وهذا التنوع او التعدد في الالهة وفي النظر اليها وفي الاساطير التي نشأت حولها ، وفي صفات بعضها التي هي صفات بلاد جبلية وخصبة ، جعلت البعض كالدكتور كونتنو وغيره يعتقد ان هذه الالهة ليست سامية الاصل •

وبالنتيجة ~~اي هذه الالهة~~ فهذا التفاعل ، يظهر لنا ان حضارة الهلال الخصيب ، هي خليط من ثقافات عديدة مختلفة ، تفاعلت لدرجة مزجت بها الشعوب التي قدمت اليها وثقافاتها المستوردة والتي نشأت فيها ضمن حضاره واحدة متشابهة في خطوطها الكبرى ، ومتجانسة في نظرتها الى الكون والحياة • وبذلك اوجدت لنفسها شخصية متميزة تمام التميز عن المجتمع في ~~الجزيرة~~ الجزيرة العربية الذى بقي على حالته البدائية • وعن المجتمع في مصر • وهذه الحضارة ، تختلف وتتميز في طبيعتها عن غيرها ، تتميز في اصولها وفي مشاكلها الحضارية • فاصولها ممتدة في الثقافات القديمة التي نشأت في الهلال الخصيب ، وكل تقارب مع غيرها من الثقافات المجاورة هو نتيجة ~~ا~~ تفاعل طبيعي ، يحدث بين كل الشعوب المتجاورة ، ولكنه لا يفقد هذه البقعة من الارض مميزاتها الخاصة الفكرية والاجتماعية ولا يلغي المجتمع القائم فيها •

---

(١) St. Cook - The Relegion of ancient palestine. p. 139

(٢) Dr. G. Contenau - La civilisation phenicienne p. 98

(٣) المصدر نفسه — ص• ٨٩ •

٢ . الدور الارامي :

ان ما نعنيه بالدور الارامي لا يختص بالشعب الارامي وحده ، لانه في العصور الاولى من امتداد هذا الشعب في الهلال الخصيب ، كان هناك شعوب اخرى عديدة ، منها الاشوريون والفينيقيون والكنعانيون والبابليون ، ولكننا نعني به الدور الذى كانت فيه لغة عامة الشعب الارامية .

اما الاراميون ، فنحن نعرف ان الملوك الاشوريين قلدوهم مناصب الكتابةفي دواوين مملكتهم (١) وقد برعوا بالتجارة وقبضوا على مقاليدها . وكما كان الفنيقيون اسياد التجارة البحرية ، هكذا كان الاراميون اسياد التجارة البرية . وقد اقتبسوا عن الفنيقيين الحروف الابجدية ، ونشروا لغتهم حتى اصبحت اللغة الوحيدة لسكان الهلال الخصيب . وتغلغلت في قلب بلاد فارس وامتدت الى مصر واسيا الصغرى وشمالي جزيرة العرب (٢) . وقد بقيت اللغة السائدة من سبي بابل حتى مجيء الاسلام (٣) ولا تزال حتى اليوم لغة بعض الكنائس السورية كالنسطورية واليعاقبة والموارنة . ولا يزال " الاشوريون "(٤) يستعملون هذه اللغة في كلامهم اليومي مع بعض التغييرات في اللجهة والخط ، كما انها لا تزال تدرّس في مدارس الجزيرة في اعالي سوريا مع اللغة العربية . وبقيت هذه اللغة ، لغة الكلام في بعض الاماكن من جبال لبنان حتى القرن السابع عشر (٥) . وفي سوريا لا يزال اهالي معلولا وجبعدين يتكلمونها . ولا تزال اثارها في اللجهة العاميه المحكيه في كل سوريا ويمكننا ايراد بعض هذه الاثار في كلامنا الدارج . فمثلا اسكانهم آخر الفصل الماضي اعتباطا في الغائب والمخاطب والمتكلم طبقا للوضع السرياني . قامْ ، قَعَدْ . واسكان كاف المخاطب في الوقف ، حَبْمَكْ . واسكان هاء الغائب في الوقف نحو نعمتُهْ تكفيكْ . وقلب الميم نونا في الغائبين ، نحو ابوهم تصبح ابوهن .(٦)

---

١) مجلة سومر - تموز ١٩٤٧ ، ص. ٣٢٢

٢) اغناطيوس برحوم افرام الاول - اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية (حمص ١٩٤٣) ص ١٥٠

٣) مجلة سومر - العدد والصفحة نفسها .

٤) ليس من المؤكد ان اشوريي اليوم هم بقايا قدامى الاشوريين . وهم يتبعون الكنيسة النسطورية ويدعون بالشرقيين . راجع W.C. Emhardt- The oldest christian people ص. ٢١

٥) فيليب حتي ، اللغات السامية المحكية - ص ٣٠

٦) اسحق ارمله - الملكيون (بيروت ١٩٣٦) ص ٩٤٥ وما بعدها .

ولقد اكتسحت اللغة الارامية جميع اللغات التي ، كانت سائدة في الهلال الخصيب ، كالاكادية والعبرانية والاشورية . وفي القرن الاول ق م ، اصبحت لغة الكلام الوحيدة . ولم تتمكن اليونانية منها بالرغم من من محاولاتها القوية لانتزاعها ، بل اصبحت لغة الطبقة الراقية في المدن ولغة الادب والعلم ، كاللغة الفرنسية والانكليزية عندنا اليوم . اما العامة وهم الاغلبية الساحقة ، فقد كانت لغتهم الارامية ـ السريانية (١) . وقد حمل التساطرة هذه اللغة الى الهند والصين ولا تزال لغة مستعملة في ملبار على الساحل الغربي من بلاد الهند (٢) . ووجد في الصين مخطوطات ونقوش بهذه اللغة مما يدل على وصول اثرها الى هناك (٣) .

فهذه الحيوية في اللغة تدل على حيوية في الشعب ، ولولا حيوية الشعب وتماذجه واختلاطه وتفاعله بعضه مع بعض ، لما تمكنت من ان تعيش اكثر من عشرة قرون سيدة في بلاد تغلغلت فيها ثقافات اجنبية وحاولت فرض نفسها ولغتها . فالحضارة اليونانية من جهة والفارسية من جهة اخرى ، حاولتا ان تفرضا نفسهما ، ولكن حافظت سوريا على صبغتها الخاصة ، والسبب في ذلك يعود الى هذا التفاعل القوى الحي بين الشعب وحضارته اذ انه اصبح يحس ويشعر انه مجتمع واحد يمكنه ان يصمد وان يتفوق روحيا .

ومن الواضح انه عندما يصل الشعب الى وحدة روحية متقاربة ان ينشأ ادبه مصورا لهذه الوحدة . والادب السوري في هذه الفترة يظهر هذه الوحدة في نوعين ، الواحد نشأ في العصر الهيليني ـ الروماني ، واكثره حول قضايا اجتماعية ويتميز بطريقة التعبير السورية التي تنتقي الالفاظ وتختارها وتهتم بها اكثر من المعنى ، ويمتاز ايضا بالناحية التهكمية الساخرة ، مما اوجد اسلوبا خاصا في هذا النوع من الكتابة ، اوجده مينوس الجادارى ، وبلور اصوله لوكيان السميساطي مبتدع "المحاورة الهجائية" . وقد وضع الكتاب السوريون اصول كتابة القصص الخيالية ، التي نجدها عند لوكيان هذا وعند يامبليخوس السوري . وقصته " البابلية" المؤلفة من ٣٩ كتابا او قصة مرتبطة ببعضها ، ذات مواقف

---

١) المصدر نفسه ، ص ، ٩١

٢) اللؤلؤ المنثور ـ ص ، ١٥

٣) J.A.O.S. مجلد ٦١ عدد ٢ حزيران ١٩٤١ ، ص ـ ٩١ وراجع ايضا Sarton, vol.1 p.526

مثيرة ومتتابعة ، مما يزيد الرغبة في مطالعتها ، ويشبهها من هذه الناحية كتاب الف ليلة وليلة الذى نجد اسلوبه في هذه القصة وفي كتابات لوكيان وهيليو دوروس الحمصي (١) .

والنوع الآخر وهو فلسفي لاهوتي ، يدور حول مشاكل عامة ويعطي النظرة السورية اليها . فمن يدرس اصول الفلسفة الرواقية ، التي هي نتيجة تلاقي الجنس السورى بالجنس اليوناني ، يدرك انها ما نشأت الا بسبب الاحتكاك بين النظرة اليونانية الى غير اليونانيين ، وبين النظرة السورية الى وحدة الانسانية وهي نظرة نتجت مع فكرة الاله العالمي الواحد التي نشأت في سوريا . كما ان نظرتها الحلولية (pantheistic) التي تؤله كل شيء في الطبيعة وتقبل بالامر المفعول الذى توحي به النجوم ، مع محافظتها على الاعتقاد بتدخل الله في الامور الارضية ، تربط ربطا متينا بين الهياكل السورية والهياكل اليونانية (٢) . وفي كتاب " الجمهورية " الذى وضعه زينون السورى مؤسس هذه الفلسفة وواضع اسسها ، نرى دولة قائمة بدون مؤسسات العائلة او الحكومة او المدرسة او الهيكل ، ولا فرق فيها بين جنس وجنس ، بل نرى جميع الناس متآخين ذكرا وانثى ، يونانيا وبربريا ، السيد والعبد . فالجميع هيئة واحدة يجمع بين اعضائها العقل والانسانية .

واكثر الذين حملوا لواء هذه الفلسفة في عهدها الاول ، من السوريين . كما ان النظرة الى وحدة العالم لم تكن مقتصرة على الرواقيين ، بل كان يحملها اكثر المثقفين في سوريا (٣) . ففي كلام احد الادباء السوريين مليافر يقول + " جزيره صور كانت مربيتي ، وقادارا التي هي من اتيكا ، ولكن تقع في سوريا ، حملتني الى هذا العالم " ثم يقول " وان كنت سوريًا فما العجب في ذلك ، ايها الغريب ، اننا نعيش في بلد واحد ، العالم ، " (٤) وهذه النظرة العالمية متأتية عن فكرة الاله العالمي ، وعن الحس بالفروقات الجنسية التي كانت موجودة عند اليونان والرومان والتي جعلت الكثيرين من السوريين يسعون وراء نيل الجنسية الرومانية .

---

١) The Cambridge ancient History - مجلد ١١ - ص ٦٤٥

٢) المصدر نفسه — ص ٦٤١

٣) G. Haddad - aspects of social life in Antioch - p. 50

٤) The Greek Anthology - vol VII, p. 418

ومع ان هناك اختلافا في هذه النظرة العالمية ، حول ما يجمع بين الناس ، اذ هو عند الرواقيين العقل والانسانية وعند غيرهم من السوريين الاله القادر ولكن ، مهما لا شك فيه ان هذه الفكرة كانت تميّز الادباء السوريين ، وقد كان لامتداد الامبراطورية الرومانيه، ولانتشارهم في اكثر مدن البحر المتوسط اثر كبير في نشر هذه النظرة .

كان عدد الادباء السوريون في هذا العصر كبيرا ، وقد خرج منهم فطاحل في الادب وبقية العلوم كالهندسة والقانون ، وانتشروا في كل الامبراطورية . فعندنا في اواخر العهد السلوقي انتيباتر الصيدوني (اواخر القرن الثاني ق م) الشاعر وملياقر القادارى (ولد ١٣٥ ق م) وله من الشعر كتابين الاول (المحسنون) والثاني (الباقه) وهي مجموعة من اشعار القدماء . ولملياقر فيها قصيدة يشبّه فيها اشعار كل واحد من الذين جمع لهم ، بزهرة جميلة او شجرة غضه . وهذه التشابيه بالازهار والطبيعة والاعجاب بهما ، هما من الاشياء التي يلاحظها الانسان في الادب السورى (١) ، وفي الاساطير السورية القائمة على الانتاج والطبيعة .

وهناك من الفلاسفة بوزيدونيس الافامي (ولد ١٣٥ ق م) ، وهو من اشهر فلاسفة الرواقية والمؤرخين .ونقولا الدمشقي ، وفليريوس بروبوس البيروتي ، وغيرهم كثيرون . وفي العصر الروماني ، لوكيان السميساطي ، وهو من اشهر الادباء ومنتقدى الفلسفة ، وواضع اسس " المحاورة الهجائية " ، وعددا من القصص الخرافيه التي كانت مصدر وحي لعدد كبير من ادباء اوروبا كتوست الذى اقتبس قصته " رحلات كوليفر " عن قصة لوكيان " قصة صادقة " كما اقتبس رابليه عنه في قصته Gargantua وهناك ايضا ليبانيوس (ولد ٣١٤ ب م) وهو اشهر البلغاء واوسعهم كتابة وامانيوس مارسلينوس (٣٣٠ ب م) ، وغيرهم كثيرون ممن اهتموا بالفلسفة واللاهوت كفورفوريوس الصورى ويامبليخوس ، شارحا الافلاطونيه الحديثة ومفسراها .

وهذه المجموعة من الفلاسفة والادباء ، كانت تعرف بعقليتها السورية ، وبطريقة كتابتها التي تشدّد على اللفظ والبلاغة والكلام المهلهل . وهي في الوقت نفسه ، جمعت بين الثقافة اليونانية والثقافة السورية ، واوجدت اسس الحضارة التي دعوناها بالارامية ، لان لغة البلاد ، كانت فيها الارامية وان لم تكن لغة الكتابة الادبية .

---

(١) E.S. Bouchier - Syria aoa Roman province. ص ١٩٥ .

ونحن نرى في هذه الفترة ان العنصر الثقافي اليوناني الذى كان اساس الحضارة الرومانية ، قد امتد وتغلغل في البلاد السورية ، ولكنه لم يكتسحها انما كان له مراكز كانطاكية على العاصي وسلوقيه على الفرات ، وجرش في فلسطين . ومع ان الدراسات حول هذا الموضوع ليست بكثيرة ووافية ، لكنها تعطينا فكرة عن عملية المزج التي تمت بين الشرق والغرب في سوريا ، وعن الثورة الفكرية التي اشعلها هذا المزج .

فقد بنى سلوقس نيكاتور (المنتصر) انطاكيه وسلوقيه . فاختار لسلوقيه مركزا على الفرات قرب مركز بابل القديم ، ولم يمض خمسون سنة ، حتى اصبحت مدينة تعد ٦٠٠ الف نسمة ، ومركزا للتجارة عظيم الشأن . ثم انتقلت عاصمة المملكة الى انطاكيه ، وفي ايام انطيوخوس الرابع اضحت اعظم واغنى مدينة في المملكة مزينة بالهياكل والمسارح والملاعب والحدائق والشوارع . ولا تزال اثار هيكل " دفنه " ومكانه الى اليوم . هذا الهيكل الذى اشتهر في جميع العالم الهيليني حينذاك بفخامته وضخامته وفجوره ((١) .

وبواسطة السلوقيين قويت " هلينة " الهلال الخصيب . فنشوء دولة قوية ، اخذ الكتاب والجنود والاطباء والعلماء والفنانون ، يفدون من اليونان الى سوريا . فعجت المدن السورية بالراقصات اليونانيات ، وامتلأت المدن بالحمامات والملاعب ، واسست مجارى المياه ، وعبّدت الطرق والشوارع . واثارت المدارس والمكاتب هم الشباب للمطالعة والدراسة ، واصبح من لا يتلذذ روايات مينندار ويوريبيدس ، يعتبر غير مثقف " ولم يسبق لثقافة من الثقافات ان جمعت بين بيئات مختلفة كهذه الثقافة (٢) .

ومن الجهة الثانية ، لم تتكلم البلاد بكليتها الى هذه الحضارة الدخيلة . فالشعب العامي ، وهو المزيج والناتج عن الشعوب السورية القديمة ، بقي يتكلم الارامية وبقي متبعا عاداته الوطنية ،

---

١) W. Durant - Life of Greece ص . ٥٧٣
وصفة الفجور هذه كانت تنعت بها مدينة انطاكية دائما والمدن السورية من قبل اكثر المؤرخين نتيجة لطقوسها الدينية . وقد بيّن جورج حداد في اطروحته المذكورة آنفا المغالات في هذا النعت .

٢) المصدر نفسه - ص ٥٧٧

وبقي يعبد نفس الهة . ويمكننا ان نؤكد العكس فنقول ، ان الشعور والتفكير السوري اجمالا ، اثرّا في الثقافة اليونانية ـ الرومانية ، وانتقلا بواسطتهما الى اوروبا . فالحكم الالهي برهن على انه اقوى من الديمقراطية اليونانية ، فاصبح بعد هذا الامتزاج امبراطورية روما ملوكا على الطريقة السورية ، فانتحلوا السلطة الالهية التي بقيت اثارها الى ما بعد الثورة الفرنسية . وبواسطة الفلاسفة السوريين ، كزينون وبوزيدونيوس ، اخذت الفلسفة اليونانيه فكرة الاعتدال والتشاؤم (Fatalism) التي اثرت في النظريات الاخلاقيه فيما بعد ، ومهدّت لقدوم المسيحية واخلاقها . وبالنتيجة ، اذا كانت اليونان قد قدّمت الى البلاد السورية المنطق والفلسفة ، فان هذه البلاد قدمت لها الدين . والفلسفة غذاء عقلي لعدد ضئيل ، بينما الدين عزاء روحي للملايين .

فالعصر السلوقي اذا ، هو ابتداء الدور الارامي ، في هذا المزيج العقلي اليوناني والشعوري السوري ، الذى ظهر اثره في ما بعد ، في الفلسفة الافلاطونية الحديثة ، وفي محاولة الفلاسفة السوريين تخطي الايمان الى العقل ، والاعتماد في برهنة ايمانهم عليه . وهذا المزيج الفكري ـ الشعوري ، لم تأخذ به مصر الغارقة في نوع من الصوفية ، الا في الاسكندرية التي كان فيها الكثير من اليونانيين ، ولا الجزيرة العربية التي تمنعها طبيعتها الفيزيائيه وحياتها الاجتماعية من الاهتمام الواسع المدى بمثل هذه الامور ، بل اخذ به الهلال الخصيب ، حيث نقلت فيه والى لغته كتب الفلسفة والعلم اليونانيين ، وبواسطته انتقلت الى اللغة العربية .

ولم يكن العصر الروماني الذى تلى العصر السلوقي ، الا ميدانا لهذا التفاعل الجديد ، وقد كان لدخول المسيحية ونشوءها في الارض السورية الاثر الاكبر في تنمية هذا التفاعل وحثه على المسير . فالمسيحية القائمة على الايمان وعلى الشعور ، احتاجت لتثبيت اقدامها للاعتماد على العقل والرجوع اليه . فما كاد قرن او قرنان يمران حتى اخذت المسيحية بأساليب التحليل العقلي والمنطقي ، مما ادى الى انشقاقها على نفسها فرقا فرقا . واخذت كل فرقة تعمل على برهنة نظرتها بواسطة المنطق . وفي هذا المضمار كان عمل السوريين عظيما واثره قويا ، ان في العلم ، او في الفلسفة . وكانت اللغة الارامية هي الواسطة في هذا التفاعل واليها ترجمت الكتب اليونانية . ولا بد لنا لنفهم ميزات هذا التفاعل من ان نصف الصراع العقائدى هذا ونبيّن اسبابه وننظر الى نصيب السوريين فيه ، والحركة العلمية التي نتجت عنه وكونت الثقافة او الحضارة الارامية .

الاختلاف العقائدي في المسيحية

لم يكن الخلاف في المسيحية بالحقيقة ، مجرد خلاف حول تفسير بعض الايات او ترجمتها او حول بعض النقط الاساسية ، بل كان اعمق من هذا ، اذ ان اصوله واسبابه ، يمكننا ان نجدها في العقلية التي فسرت هذه الايات وترجمتها .

لقد ابتدأ الخلاف العقائدي في المسيحية في مجرى البحث عن طبيعة المسيح . فقد جاء في انجيل يوحنا " والكلمة صار جسدا ، وحل بيننا " (١) فكيف يمكن للمسيح اذا ان يكون الها وفي الوقت نفسه بشرا .

ان مجرد اثارة هذه المشكلة هو نتيجة الاثر الفكري اليوناني - " فالكلمة " وهي قديمة في الهلال الخصيب ، تظهر في اللفظة " 𐤌𐤋𐤑 " " memre " كلمة ". وهي صوت الاله الليل الظاهرة في البرق او الرعد الذي يوصل مشيئته الى الناس . وهذه اللفظة هي المصدر الاول لفكرة " الكلمة " " صوفيا " (٢) التي هي كلام الله او ارادة الله المرسلة بواسطة ما ، فبالمسيحية بواسطة المسيح ، وفي الاسلام بواسطة القرآن الذي هو كلام الله .

فالفكرة اذا سورية الاصل ، ناتجة عن النظرة السورية الى الاله . ولكن بينما لم يكن هناك من يتساءل عن صحتها او عن حقيقة وجودها ، بل كانت تقبل كما هي ، اخذ علماء الدين والفلاسفة يتسائلون عن كيفية حدوث مثل هذه الامور ومعناها بالنسبة للعقل والحقيقة . فانبرى الكثيرون لحل هذه المشكلة الاساسية في المسيحية والتي سببت انقسام الكنيسة على بعضها الى فرق عديدة ، وشيع عديدة .

والحل السوري للقضية ، اول ما قدمه ابوليناروس مطران اللاذقية (ت ٣٩٠) وهو من الذين عارضوا الفلسفة الاريوسية في بادئ امرهم . فعين اسقفا على اللاذقية . بيد انه ما كاد يسأل نفسه هذا السؤال " كيف يمكن " للكلمه " ان تحل في جسد بشري . حتى خرج عن

---

١) انجيل يوحنا - الاصحاح الاول - عدد ١٤

٢) albright ص . ١٤٥ - ١٤٦

الطريق الراشدة بالنسبة لرؤساء الكنيسة في القسطنطنيه . فهو حاول بسؤاله ان يحفظ وحدة المسيح ، قائلا : " ان ناسوتيه المسيح غير كاملة ، فللمسيح جسد انساني ونفس انسانية ، انما الكلمة تحتل فيه مكان العقل او الروح الحيوانية " (معتمدا في تقسيمه هذا على الافلاطونيه القائلة ان للانسان جسدا ونفسا وروحا حيوانيا) . وفي هذا القول رد على الاريوسية القائلة بعدم قدم المسيح ، اى ان المسيح ليس الها ، ولكنه مخلوق من لا شيء . وقد اعتبر مذهب ابوليناروس مذهبا هرطوقيا لأن قوله بعدم كمال ناسوتية المسيح هو كالقول بعدم تجسده (١) .

واهمية هذه النظرة بالنسبة لنا هو في العلاقة التي بين هذه النظرة وبين المذهب الانطاكي الذى هو الاساس المباشر للدعوه السورية النسطورية . فالمذهب الانطاكي او المدرسة الانطاكية كانت على طرف نقيض مع مدرسة الاسكندرية . فالمدرسة الاسكندرية ، كانت تهمها الوهية المسيح ، بينما كانت تهم المدرسة الانطاكية ناسوتيته (٢) . ففي تفسير الانجيل مثلا كان الاسكندرانيون يغرقون في التشابيه والتفاسير الصوفيه ، بينما اقتصر الانطاكيون على الامور الحسية الظاهرة ، فدرسوا الانجيل من جهة تاريخيه محضة ، ففحصوه كلمة كلمة بطريقة تقرب من الطرق العلمية الحديثة ، ولكن هذه الطريقة افقدتهم المعنى الروحي العميق في الانجيل .

والمدرسة الانطاكية التي تقول بناسوتية المسيح ، اسسها ديودوروس مطران طرسوس وتلميذه تيودوروس مطران كيليكيا . ولم تكن هذه الفكرة واضحة في كتابات ديودوروس ، انما كان يستشم منها قوله بطبيعتين في المسيح . اما تيودوروس فقد ذهب الى ابعد من معلمه حتى عدّه الكثيرون المؤسس الحقيقي للمذهب النسطورى . فقد اكد ناسوتيه المسيح وخلوه من الخطيئة نتيجة لاتحاده مع " الكلمة " الالهية . وهذا الاتحاد هو بالحقيقة مكافأة له لعدم وجود الخطيئة فيه . فالكلمة حلّت في الانسان المسيح واتحدت معه وجعلته مشاركا لها في كل ما تشترك به .

وهو يقول ان مريم العذراء هي ام المسيح الانسان جسما ونفسا وروحا . وهذا

---

١) A. Kortesene art. appolonianism مادة Encyclopaedia of Religion & Ethics

٢) المرجع نفسه - مادة A.J. Macclean art. Nestorianism

يعني ان المسيح حين ولادته كان رجلا واصبح بعدها الها حين حلّت الكلمة في جسده الانساني . وكما هو واضح ان القول بطبيعة المسيح الناسوتية هو جواب لسؤال عقلي بسيط . كيف يمكن التوفيق بين الوهية المسيح وبين ناسوتيته وولادته من امرأة .

لقد جاء نسطوروس وقدّم جوابا يرضي العقل ولا يرضي الايمان . جمع فيه خلاصة ما تقدمه من جدل فلسفي . ولو عدنا قليلا الى الوراء ، لرأينا ان اسباب ظهور الشيعة النسطورية يعود لسببين رئيسيين +

الاول + هو ان النسطورية بحد ذاتها ، كانت رد فعل المجتمع السوري ضد هجمات الحضارة اليونانية . فتدفق اليونانيين على سوريا ، وتدخل فكرهم وحضارتهم في شؤون الحضارة السورية ، جعل السوريين ، يفكّرون في مواجهة هذا الاقتحام اليوناني برد فعل ، يقوم على قواعد فكرية يمكنها مواجهة الفكر اليوناني المنظم ، فاستخدمت الديانة وسيلة له ، ونشأت بسبب ذلك النسطورية واليعقوبية .

والسبب الثاني هو ان النسطورية نتيجة حتمية للنظرة السورية الى المسيح التي حملتها المدرسة الانطاكية . فلقد رأينا كيف اضطرت الكنيسة الى مجابهة الفلسفة والفكر بالفكر . فجاءت الافلاطونية الحديثة التي اعتبرت في ذلك الحين المرجع النهائي للامور . فالميتافيزيقيا ، وعلم النفس الارسطاطالية اساس لا يجادل . ولم يكن بامكان رجال الدين الّا لاخذ هذه النظريات بعين الاعتبار . فالفلسفة الارسطوافلاطونية ، كانت تعتبر الفصل الاخير في جميع المسائل . فكثير من المسائل التي يشكك فيها العقل الحاضر ، كانت مقبولة دون ما نزاع حولها . فكان من الواضح ان على المذهب المسيحي ان يوفق نظرياته وفق تلك الفلسفة . ومشكلة اريوس ترينا اثر الفلسفة في الدين(١) . والاختلاف الذي نشأ حول طبيعة المسيح ، تمثل في المدرسة السورية والمصرية . فالمدرسة الانطاكية السورية ، كانت تقول ان الابن مخلوق من الآب قبل اى زمان ، والاب يجب ان يسبق الابن كما يسبب السبب المسبب . وهكذا يكون الابن اقل قدما من الاب . وكانت نظرة المدرسة الاسكندرانية ان الابن هو فيض من الله ومن نفس جوهره . والله لا يتغيّر ، فالابن ليس مسببا ، انما فيضا ، كما العقل يفيض من الواحد .

---

١) O'leary ص - ٢٧

وهذا الجدل مبني على نظرة ارسطو الى ان الانسان روح حيوانية (Psyche) يشارك فيها بقية الحيوانات ، وعقل ، علاوة عن الروح . وكان اسكندر الافروديسي يعتبر ما سماه " بالعقل الفعال " كغير من " الواحد " . وهو معادل للكلمة . فاعتبر المسيحيون المسيح معادلا للكلمة ، وبرهنوا على ذلك بآيات(١) .

قال المسيحيون ان المسيح هو " العقل الفعّال " او " الكلمة " . وقالوا ان فيه ايضا الروح الحيوانية . وهنا تساءلوا ما هي اذا العلاقة بين الكلمة وغيرها (اذا اعتبرنا الروح الحيوانية غير من الكلمة) حينما يجتمعان في شخص واحد . اى ما هي العلاقة بين الاله والانسان في المسيح .

تصدى للجواب الاسكندرانيون - وقالوا بما ان الكلمة والروح الحيوانية هما مسبب وسبب ، فانهما بالضرورة ، انحلا في بعضهما حينما اجتمعا في جسد واحد . فالكلمة كانت القوة الخالقة ، لان الله لا يتدخل في حدث زماني ، الا بواسطة " الكلمة " والروح الحيوانية متأتية اذا من الكلمة .

اما الجواب الثاني فقدمه الانطاكيون الذين وضعوا التشديد على " ناسوتية " المسيح ، كما اوضحنا سابقا . وقالوا لا يمكن ان يكون امتزاج بين الواحد والآخر ، لانه في حالة حدوث امتزاج من هذا النوع ، فأن الروح الحيوانية ، التي تؤلف جزءا من طبيعة المسيح ، يجب ان تعود الى مصدرها . وهذا يعني فقدان هذا الجزء من " ناسوتية " المسيح .

وقد حمل هذه النظرة " نسطورس " فطورها ، ووضع تفاصيلها . فبعد ان سيم بطريركا على القسطنطنية ، حاول القضاء على البدعة الاريوسية . وفي سياق المعركة مع الاريوسيين ، صادفته مشاكل عديدة ، منها مهاجمته تعاليم سيريل مطران الاسكندرية ، الذى كان يقول ان مريم هي " ام الله " Theotokos ، فقال نسطورس ، ان مريم هي ام المسيح ، وليس ام الله . وان المسيح مات على الصليب كأنسان . وان الوهيته لم تتألم على الصليب . فكيف يمكن لمريم ان تولد " الله"

---

١) المصدر نفسه - ص - ٢٨

الذي هو خالقها . فاذا مات الله ، من يقدر ان يرفعه من الموت . فنسطوريوس جرّب ان يقول : " ان المسيح عاش على الارض كأنسان كامل وكآله كامل (١) ". واكبر صعوبة وجدها ، كانت عندما جاء ليحدد طبيعة المسيح . فاستعمل الكلمة السريانية " صمحد " اقنوم - وهي كلمة يونانية الاصل تعني الذات قائلا : ان للمسيح طبيعتين ، شخص (persona) واحد واقنومين . وبالحقيقة لم يتمكن تماما من تحديد ثنائية المسيح ولا من تحديد معنى الاقنوم (٢) . والاسباب التي قادت الى الاختلاف حول هذه النقطة هو ترجمة كلمة " ابن " الى السريانية . فهذه الكلمة (ح) متأتية من (حزا) التي تعني خلق . فاذا قلنا ان المسيح هو ابن (ح) مريم ، فالوهية المسيح تختفي .

اما في الاسكندرية فقد كان الجو يختلف ، تمام الاختلاف ، فالاسكندرانيون ، كانوا لا يزالون في جو وثني ، وكانوا لا يزالون يتكلمون عن آلهتهم التي تولد وتموت ، وكان لا يزال حولهم صور الالهة التي تتزوج وتتخذ السراري وتلد الاولاد ، فلم يكن من الغريب عندهم ان يقولوا ان مريم والدة الاله (٣) .

ولقد تحول هذا الخلاف بالاخير الى مباراة ومنافسة بين انطاكية والاسكندرية . وكان من نتيجته انعقاد مجمع افسس الذي اعتبر فيه سيريل ونسطوريوس مخطئين ، ومن ثم مجمع خلكدونيا (Chalcedon) حيث اعلن فيه مذهب نسطوريوس بدعه ونشأ على اثره المذهب اليعقوبي ، وحكم على نسطوريوس بالنفي اولا الى انطاكية ، ثم الى مصر ، واضطهد مناصروه ، فهرب قسم منهم الى جزيرة العرب ، وبعضهم الى بلاد فارس وتجمع قسم منهم في نصيبين ، حيث كان يقيم اباس وبرصوما ، وحيث كانت اللغة المحكية والمسيطرة هي السريانية ، فتمكنت النسطورية من مد جذورها في داخل البلاد ، وكانت اساسا لحركة علمية قوية . فمع المدارس الاخرى التي نشأت في سوريا كمدارس اليعاقبة ،

---

١) Emhardt ص - ٥١

٢) المصدر نفسه - ص - ٥١

٣) " " ص - "

اسس النساطرة عددا من المدارس نقلت بواسطتها اكثر العلوم اليونانية الفلسفية والوضعية ، ووضع عدد من الكتب كانت الاساس المباشر للحركة العلمية في العصرين الاموى والعباسي . واشهر هذه المدارس نشأ في انطاكية ونصيبين والرها وقنسرين وحرّان ، وفي اكثر الاديرة التي كانت منتشرة من الموصل الى سينا ، واخرجت عددا كبيرا من الفلاسفة والعلماء والاطباء كاباس وبرصوما وسبوخت وساميروس ويعقوب الرهاوى وسرجيوس الرأس عيني واهرون القمر وغيرهم .

ومن هذه اللمحة يمكننا ان نرى كيف ان النظريات الدينية نفسها ، تتأثر بالمجتمع الذى تنشأ فيه ، وكيف ان النسطورية ، كانت رد فعل المجتمع السورى على التدخل اليوناني ، وكيف كانت تشعر بوضوح ، الفرق بينها وبين مصر .

هذا مجمل ما دعوته بالدور الارامي ، وهو عدا امتزاج الحضارة اليونانية بالسورية فيه ، اوجد لنفسه تعبيرا فنيا خاصا في البناء والفنون والاداب انتشر في الهلال الخصيب كله . كما سنرى . وقد كان اثر هذا الدور كبيرا ، لانه عيّن الى حد كبير شخصية الحضارة السورية ومميّزاتها . فكل ما دخل هذه الحضارة من حياة وفكر يونانيين ، انحلّ فيها واصبح جزءا منها ملونا بلونها الخاص ، وبمعنى آخر ، فأن هذه الحضارة لم ترفض الثقافة اليونانية ولم تأخذ بها ، انما اجتازت عليها بان اوجدت لها شكلا مناسبا مع طبيعتها وشخصيتها .

<u>الدور الاسلامي</u> :

لا شك ان هذا الدور هو اهم ادوار التاريخ السورى من حيث الاثر في الحياة الحاضرة . فهذا الدور قد اعطى للسوريين دينا جديدا ولغة جديدة ، ولكن هل جعل السوريين عربا .

ان الجواب على هذا السؤال يتطلب منا ان نعرف مدى الاثر العربي في سوريا ومدى الاثر السورى في العرب الذين دخلوا سوريا . فهل اصبح السوريون عربا ام اصبح العرب سوريين .

ان مجرد وجود هذا السؤال يعني ان هناك مشكلة ، وان هناك وجهتي نظر .

ولنتمكن من ايضاح اثر هذا التفاعل في الواحد وفي الآخر ، علينا ان نستعرض تاريخ العلاقات بين سوريا والجزيرة العربية ونوع هذه العلاقات . وتاريخ هذه العلاقات يعود الى فجر التاريخ ، الى بدء هجرة الساميين من الجزيرة العربية الى الهلال الخصيب . وقد رأينا ان مجيئهم من الجزيرة امر يقبله العقل ، ولكن حضارتهم لم تنشأ في الجزيرة العربية ، انما في الهلال الخصيب ، مع انهم قد يكونوا حملوا بعض النظرات الدينية الاساسية .

واننا لنرى ان العرب الذين كانوا يعطون دما جديدا للسوريين ، كانوا دائما يعيشون في الصحراء ، وعلى اطراف العمران لمدة يفقدون معها عاداتهم ولغتهم وحياتهم البدوية ، ويندمجون في الحياة الحضرية التي كان يقدمها قرنا الهلال الخصيب . ويتم ذلك بفصم عرى الروابط المادية والروحية التي تصلهم بالقبيلة ، ويأخذون اما في حياة الجندية النظامية او في الاعمال الزراعية او في الاعمال التجارية ، ويبنون القرى ويتركون حياة التنقل البدوي ويتركزون في نقطة واحدة معينة (١) . ولا تزال على اطراف سوريا الشرقية الى اليوم بقايا العديد من هذه القرى التي حضرت القبائل العربية ودمجتها في المجتمع السوري . ومن يطالع كتاب ديسو عن العرب في سوريا قبل الاسلام ، يرى فيه قصة عرب الصفا واللجاة الذين اندمجوا مع الزمن في هذا المجتمع ، فاخذوا الهضة ، وبنوا مدنا وقرى على طرازه ، وتكلموا لغته واصبحوا منه جزءا لا يمكن تفريقه او فصله او تمييزه . ويقول ديسو ان قصة عرب الصفا هي قصة جميع الرحل الذين هدفوا دائما الى الحط في ارض سوريا الخصبة (٢)

والدول العربية التي سبقت العصر الاسلامي في سوريا ، لم تتمكن من المحافظة على حياتها العربية ، بل اخذت بالحضارة السورية . فحضارة بترا وتدمر كانت مزيجا من اليونانية والسورية ، كما هي الحضارة الارامية التي ميزت الدور الارامي في البلاد السورية والغساسنة تنصروا واصطبغوا بالصبغة السورية واتخذوا الارامية لغة لهم (٣) ، مع احتفاظهم بلغتهم العربية ، لكنهم في تنصرهم اعتنقوا المذهب المونوفيسي اى اليعقوبي ، وهو مع النسطورية كما رأينا مذهبا وطنيا سوريا .

---

١) R. Dussaud - Les Arabes en Syrie avant l'islam ص - ٧

٢) المصدر نفسه - ص ١٧٠

٣) حتي - تاريخ العرب ص - ١٠٢ الترجمة العربية

ولم تختلف حال اللخميين عن حال الغساسنة ، وان كانوا لم يبلغوا شأوهم في الحضارة . ولو ان هذه الدول لم تنشأ على اطراف الصحراء ، لما كان بامكانها ان تحافظ لمدة طويلة نسبيا على بعض مميزاتها العربية ، بل كانت اندمجت تماما في المجتمع السوري ، كما آل اليه الامر بعد حين ، وفقدت هذه الصفات العربية مع الزمن .

فالفتح الاسلامي للهلال الخصيب ، لم يكن الا صورة مكبرة ، لما كان يحدث من اقتحام العرب للاماكن الخصيبة في قرنيه وسكناهم فيه ، ثم اندماجهم في حضارته . وحتى الدين الاسلامي نفسه الذي ساد في سوريا ، لم يكن بالغريب جدا عن العقلية السورية ، وان كان يختلف في بعض اسسه وتطبيقاته بالنسبة للنظرة الى التقدم الانساني ، وهو لم يقدر ان يمحو اصول التفكير السوري ، بل ان التفكير السوري البسه حلته . فالمسلمون العرب دخلوا البلاد السورية ، ولم يكن عندهم حضارة راسخة سوى عاداتهم القبلية ودينهم الجديد . ولم يكن العربي بطبيعته الصحراوية ليهتم بالامور الفكرية والعلمية لان معيشة الصحراء تستلزم ان يحاول الانسان التغلب على الطبيعة البالغة الصعوبة ، ليتمكن من العيش فقط مع الامكانيات العقلية لا تتقصه . فما عدا بعض المعرفة الطبية الساذجة ، ومعرفة اسماء بعض النجوم وبعض اسماء اعضاء الحيوانات ، لم يكن عندهم اى علم (١) . ولم يكن اهتمامهم بالطب الا لانه من العلوم العملية التي يحتاجها الانسان في حياته اليومية . واما اهتمامهم بالنجوم فلكي يهتدوا بها في سراهم . بيد ان معرفتهم لم تتعد سطحية الاشياء والمعرفة الاسمية فقط ، دون ان يكون هناك اى تنظيم علمي . فلا عجب اذًا عندما يقدم العربي من الصحراء ويعيش في القدس او في دمشق او في حلب او في مدن ما بين النهرين ، ان يترك حضارته البسيطة ويأخذ بالحضارة الاكثر تقدما ومعرفة .

واما الدين الاسلامي ، فقد كان دينا منزلا حسب مقدرة وطاقة الشعب العقلية الذي انزل له في بادىء الامر . ومعالجته للامور الاساسية الفكرية كانت معالجة مبنية على الامثال والعبر ، كما هي الحال في التوراة والانجيل ، وذلك لان الغاية الاولية من كتب الدين ، هي غاية اخلاقية اجتماعية وتتجه نحو الجماهير التي ليس لها المقدرة العقلية والوقت الكافي لتدخل في مجاهل

---

(١) Arnold - The legacy of Islam ص - ٣١٢

الاصطلاحات الفلسفية والتعقيدات العلمية ، بل تستوحي طريقة حياتها من الامثال الاخلاقية الموجودة في الدين والتي تكوّن فلسفة الحياة التي يتبعها الفرد والمجموع . وعندما يخرج الدين عن نطاق الحياة العملية ، يصبح فلسفة ويصبح بحاجة الى براهين منطقية وعقلية . وعندما دخل الدين الاسلامي الى سوريا ، كان الدين المسيحي قد قطع المرحلة العملية الاخلاقية ، منذ زمن طويل ، واصبح نظاما فلسفيا يقوم على المحاجات العقلية . ولا ريب ان مثل هذه المحاجات تنشّط الحركات العلمية والفلسفية ، وهذا هو سبب نشاط الدين الاسلامي حين دخوله سوريا . فقد اصطدم مع فرق دينية تقوم حججها وبراهينها على اساس منطقي وانظمة فلسفية ، لا علاقة لها مع غاية الدين الاساسية .

ولقد دخل كثير من المسيحيين السوريين الدين الاسلامي ، هاربين من الجزية التي كانت تجبى من اهل الكتاب ، فخاف رجال الدين المسيحي ، وراحوا يهاجمون قواعد الاسلام الاساسية بالجدل متسائلين عن ماهية الله ، ومعنى القول بأن الله قادر على كل شيء قبل وقوعه . فأين اختيار الانسان وتبعته (١) .

والذي قاد هذه الحملة الجدلية وتزعمها يوحنا الدمشقي الذي كان يحمل خصومه من المسلمين عند الجدل على التسليم له في هدوء ، حتى اخذوا يتعودون اسلوب التفكير الذي كان معروفا في كتابات الاغريق والسوريين (٢) . وقد عاش يوحنا في عصر اشتدت فيه خصومة المسلمين والنصارى حول القضايا العقائدية . فقد ولد سنة ٦٧٦ م. وتوفي حوالي ٧٥٢ م. وتاريخ حياته مفصل في كتابات يوحنا بطريرك القسطنطنية (٩٦٣ - ٩٦٩) فابوه كان يعمل في خدمة عبد الملك بن مروان ، كصاحب الديوان ، يعني في ادارة خزانة الدولة . ويقال ان يوحنا تعلم على يد راهب صقلي ، اسمه كوسماس ، اخذ اسيرا فاشتراه والده وجعله يعلم يوحنا البلاغة والجدل الفلسفي والتاريخ الطبيعي والفلك والفقه (٣) . وقد كتب يوحنا كتابا

---

١) ارنولد وغيره - تراث الاسلام ، الترجمة العربية ، ج ١ ، ص - ٢٤٦

٢) المصدر نفسه - ص - ٢٤٨

٣) John Damascene - Barlaam & Joseph. p. XVII

يعلم فيه النصارى كيفية مجادلة المسلمين . ومن امثال ما جاء فيه ((اذا قال لك العربي ، ما تقوله في المسيح . فقل له . انه كلمة الله . ثم ليسأل النصراني المسلم . بم سمى المسيح في القرآن ، وليرفض ان يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم . فانه سيضطر الى ان يقول " كلمة الله القاها الى مريم وروح منه " . فأن اجاب بذلك ،فاسأله ، هل كلمة الله وروحه مخلوقة ، او غير مخلوقة ، فأن قال مخلوقة ، فليرد عليه بأن الله اذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح . فأن قلت ذلك فسيفحم العربي ، لان من يرى هذا الرأى زنديق في نظر المسلمين (١) " .

فكان من اثر هذه المجادلات ان تأثر بها المسلمون كثيرا . والتناسب او التوافق الذى نجده بين بعض المشاكل الفلسفية كالقدريه والمرجئة ، تظهر لنا هذا الاثر . فرفض المرجئه للقصاص الابدى وتشديدها على محبة الله وعنايته بمخلوقاته ، ونظرية القدريه (اى المعتزله) في الاختيار والمسؤولية للانسانية تدل على اثر هذه المحادثات ، وتدل على انها اخذت منها (٢)

وليس اوضح من قضية خلق القرآن . فالقرآن اصبح بالنسبة للمسلمين هو الكلمة التي كانت مع الله منذ الازل ، وتعادل عند المسيحيين المسيح . فقضية خلقه وعدم خلقه ، اثارت نفس المشكلة التي اثارتها علاقة المسيح بالله .

فالاثر السورى هنا يظهر في اثارته المشاكل الفلسفية الاساسية تجاه القضايا التي كان يقبلها العربي المسلم بدون سؤال . فالمدارس الفلسفية في الاسلام كالمعتزله والمرجئه والاشعرية ، كانت نتيجة احتكاك المسلمين بالافكار اليونانية ـ السورية المنتشرة في الهلال الخصيب .

الاثر الاجتماعي +

ولم يقتصر الاثر السورى على الفلسفة ، وهو اثر اساسي ، انما تعداه الى الاجتماع الانساني . فعندما دخل العربي الى سوريا وجد نفسه امام عادات اجتماعية جديدة ،ومثل اخلاقية

---

١) تراث الاسلام - ج ١ ،ص - ٢٤٧ - ٢٤٨

٢) Macdonald p.

غريبة عنه ، ووجد انه اذا بقي متمسكا بعاداته القديمة البدوية الصالحة للصحراء فقط ، فأنه لن يتمكن من الحياة في الجو الحضري المدني . فبالرغم من محاولته الابتعاد عن هذا الجو المدني في بادىء الامر ، واستبقائه الجندية القبلية مثلا اعلى . فانه لم يمض زمن قصير حتى انحل هذا البدوي في الحياة الاجتماعية السورية ، واقتبس العادات السورية ، كما فعل قبله العرب الذين أمّوا سوريا . ونحن نعرف ان معاويه الاول كان " اول من اقام الحرس والشرط والبوابين في الاسلام ، وارخى الستور ، واستكتب النصارى ، ومشى بين يديه بالحراب ، واخذ الزكات من الاعطيه ، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم ، وبنى وشيد البناء ، وكان سعيد بن المسيب يقول ، فعل الله بمعاوية وفعل ، فانه اول من افاد هذا الامر ملكا . وكان معاوية يقول . انا اول الملوك (١) . وكما يظهر من هذه الامور ان معاويه لم يستحدثها بل اخذ بها عن الحياة السورية والبيزنطيه .

ولم يقتصر الاخذ بالحياة السورية على الخليفة او الخلفاء ، فأنه حينما كثرت الاموال بين ايدى الاغنياء من العرب ، اخذوا ينزعون للترف ولتقليد السوريين في لبس الحرير واتخاذ الاثاث الغالي . وكان من نتيجة هذا ان ازدادت التجارة مع العالم الخارجي وازدهرت الصناعات في سوريا . فكانت تصدر الزيت والصابون والفواكه والحبوب والكاغد والثياب والسكر والزجاج والقطن والحديد والحوارة والحجارة البيضاء والرخام . وقد ذكر المقدسي ما تصدره كل بلد من الشام من المزروعات والمصنوعات ، وعددها كبير جدا (٢) .

ونرى ايضا الاثر الاجتماعي السوري في الحياة البيتية الجديدة ، وفي فنون اللهو والطرب من رقص وغناء ، وفي تزايد عدد الحمامات في المدن ، وفي قصور الاغنياء والخلفاء ، وفي غيرها من مظاهر الحياة كاللباس والركوب وغيرها من الامور .

---

١) اليعقوبي - تاريخ ، طبعة هوتسما (ليدن ، ١٨١٣) ص - ٢٧٦ ، ج ٢

٢) المقدسي - احسن التقاسيم (ليدن ، ١٨٧٧) ص - ١٨٠ - ١٨١

بيد اننا لن نقول ان العرب الفاتحين لم يتركوا اثرا ، فأن وجودهم وعصبيتهم العربية في العصر الاموي اوجدت مشكلة اجتماعية كبرى ، هي مشكلة الموالي ومشكلة اهل الذمة . واما مشكلة الموالي فقد انتهت مع الزمن بانحلال العنصر العربي في الحياة السورية ، لكن مشكلة اهل الذمة لا تزال قائمة الى الان ولا تزال تفعل فعلها .

الاثر الفني :

الفنون الجميلة من تصوير ونحت وموسيقى وبناء ، لا قيمة فنية لها الا في مجتمعات متقدمة في الحضارة . ولقد كانت الفنون الجميلة هذه منتشرة في سوريا ، ونشأت فيها منذ القديم ، بنشوء الديانات ، فكان لها اسلوبها الخاص وتعبيرها الخاص في الفنون ، ليس فقط في الوسائل المستعملة والاشكال المأخوذة ، انما في الفكرة . فالواقعية السورية ، كانت تختلف عن المثالية اليونانية (١) ، واصول المدرسة السورية واضحة مما جعل بعض العلماء يعتقد انها سوريا متقدمة على روما في هذه الناحية ، وان روما اخذت عنها وتقدمت عليها (٢) .

فالمسلم العربي الذى دخل سوريا ، كان تأثيره في هذه الناحية بسيطا . خصوصا وهو يبعد بطبيعته عن انواع الترف هذه ، ولكنه لم يتمكن الا ان يتأثر بها وان يأخذ باسبابها ، وان يعتمد على السوريين في تزيين قصوره وجوامعه ، احيانا بالصور على الرغم من ورود الحديث القائل " ان اشد الناس عذابا يوم القيامة ، عند الله المصورون "(٣) . ولكن السوريين اجمالا قصّروا فنهم التزييني على اشكال هندسية ونباتية ارضاء لذوق المسلمين الديني ، وفي احيان قليلة ، تابعوا التقليد السورى في تصوير الاشخاص . فبعد الاكتشافات الحديثة ، في " قصر عميرة " مثلا ، وهو القصر الذى اكتشفه موزل في غور الاردن على خط مستقيم من طرف البحر الميت الشمالي ، والذى بناه الوليد (٤) بين سنة ٧١٢ - ٧١٥ ، نرى صور ستة اشخاص ملكيه بينها الخليفة

---

١) C. A. H. ج ـ ص - ٦٣٦

٢) المصدر نفسه - ص - ٦٣٧

٣) البخارى - ج ٧ + ص - ٦١

٤) فيليب حتي - تاريخ العرب - الطبعة الانكليزية الثالثة - ص - ٢٦٩

وعدوه " رودريك " ملك الاسبان . . وهناك صور تمثل النصر ، الفلسفة ، الشعر ، التاريخ . ومشهد صيد يصور اسدا يهاجم حمارا . وهناك ايضا صور عاريات تمثل راقصات وموسيقيين وجماعة من الناس تتلهى (١) .

واكتشف في قصر الحير الغربي ، صورا يظهر فيها الاثر السوري واضحا . وقد نقلت هذه الى متحف دمشق ، حيث يتم اعادة ترميم المدخل الى القصر .

وكان الفن السوري قبل دخول العرب فنا مميّزا خالصا في الرسم والنحت والتزيين ، كما قلنا ، متحررا من الفن اليوناني او الروماني الذي كان يسيطر على الفنون في البحر المتوسط (٢) . فالفن السوري في البناء مثلا كان يمتنع عن استعمال الطين ، فيحقل الحجارة صقلا كبيرا حتى تتراص ، ويستعمل الحجر بدل الفخار الروماني او البيزنطي . وكان اول من استعمل القباب في الكنائس التي اوحت للرومان باستعمالها ، فسهّل الطريق للفن المسيحي في اوروبا .

والفن السوري هذا ، لم يكن مقتصرا على سوريا الجغرافية ، بل كان منتشرا في الهلال الخصيب ، كما نعرف من كتابات S. Guyer في مجلة (Syria) . ففي مقال له تحت عنوان " دور الفن في الشام وما بين النهرين في العصر البيزنطي " (٣) يدعو الفن السوري بالشرقي تمييزا له عن الفن الغربي اى الاوروبي في نفس العصر . ويقول ان هذا الفن واضح ومعروف ، فهو يتبع الطريقة الكلاسيكية بالتشديد على تجميل البناء الخارجي الذى يجب ان يؤلف شكلا متناسقا . فالمدافن السورية مثلا تظهر اثرها التجميلي في الاعمدة والقبب الاهرامية والاقواس والافرزة التي تحيط وتحدّد الواجهات الخارجية ، ولا نرى فيها اثرا لذلك

---

١) المصدر نفسه

٢) Ramsay - La Syrie - ج ١ ، ص - ١٦ . راجع ايضا Creswell - Early muslim architecture ص - ١٣٢

٣) Syria مجلد ١٤ ، سنة ١٩٣٣ ، ص ٥٦-٧٠ ، راجع ايضا Creswell ج ١ ص ١٧

الخيال الغيبي الكثير في الامكنة البزنطية ، ولا نرى ذلك الميل الخاص بالفن البيزنطي لتكبير الكنائس في قاعات واسعة متوجة بقبة ذات تأثير عميق . ثم يقول ان الفن نفسه فيما بين النهرين يشبه شبها كبيرا الفن السوري المعاصر ، ويتفوق عليه في كثير من الاحيان في العظمة والجمال . وينتهي بالقول ان دراسة اوسع للفن السوري هي من اهم الضروريات الاساسية في دراسة الفن المسيحي ، لانه بواسطتها فقط ، يمكننا ان نكتشف الطريق التي قادت من الهيكل القديم ، الى الفن الاسلامي ، الى الكتدرائيات العظيمة في القرون الوسطى .

وثمة قضية هامة ، يجب النظر فيها ، وهي الخطأ الذي يقع فيه الكثيرون من تسمية الفن السوري بالبيزنطي والادعاء بان مسجد قبة الصخرة مثلا هو من صنع البزنطيين . فهذه افكار شائعة عاميه غير مبنية على دراسة صحيحة . وقد قام بدراسة واعية وافية لقبة الصخرة كرزول ، واعطانا نتيجة دراسته بالارقام . فبعد ان درس تصميم البناء وقابله مع كثير من الابنية المسيحية في روما والاناضول ، وجد ان تصميم القبة الصخرة هو سوري ، وهو تتميم لسلسلة من الابنية السورية نشأت منذ القرن الاول المسيحي . ومع ان هناك اثرا رومانيا وبيزنطيا كوضع الاعمدة في غلافات من رصاص وتطويق القبة ، فالاثر السوري في مجموع البناء بعد عملية حسابية هو ٥٥ ٪ . بينما الاثر الروماني ٢٢ ٪ . والاثر البزنطي ٢٢ ٪ . ايضا (١) .

واما الجامع الاموي في دمشق ، فقد وضع تصميمه على قواعد غير سورية ، انما كان تزيينه الفني على يد فنانيين سوريين ، كما برهنت على ذلك مرغريت فان برشم في موضوعها " الموزاييك في قبة الصخرة والجامع الكبير في دمشق " في كتاب كرزيول نفسه ، فبعد ان راجعت جميع المصادر العربية التي اتت على ذكر الجامع من القرن الثامن حتى القرن السادس عشر م . وكذلك المراجع اللاتينية ، درست التزاييين نفسها وتكنيتها واسبابها وحالتها الحاضرة واستنتجت اولا ان ما تبقى من هذه الفنون في العصر الاموي ، يلقي ضوءا ليس فقط على الخطط التزيينية

---

١) Creswell ج ١ - ص - ٨٩-٩٠

الاسلامية ، انما يظهر لنا الميول الفنية السورية حين دخول العرب ، ومع ان هذه التزاويق وضعت في اوائل العهد الاسلامي ، فانها صنعت بيد مسيحيين وهي خالصة من ميزات الفن الاسلامي ، اى من الصور الهندسية والاشكال المتعاقدة . والميزة الخاصة في هذه الصور ، انها متعددة المواضيع غنيتها وتدل دلالة واضحة على التقاء مدرستين فنيتين الشرقية والكلاسيكية . وتتعجب السيدة فان برشم كيف ان المدرسة الكلاسيكية بقيت فعّاله وقادرة في سوريا ، بينما اضمحلت في موطنها الاصلي . ففي نهاية القرن السابع ، لم يعد بامكاننا ان نجد خارج سوريا ، لا صورا ولا تماثيلا يمكن مقابلتها مع التزاويق الطبيعية الفخمة الموجودة في قبة الصخرة وفي الجامع الاموى . ففي الوقت نفسه الذى وضعت فيه هذه التزاويق الطبيعية في سوريا ، نرى ان الفن في ايطاليا لا يهتم بالصور الطبيعية البتة ، مما يجعلنا نعتقد ان مدرسة فنية خاصة ممتازة ، كانت منتشرة في سوريا ، لا تزال تجهل تشعباتها ، كان لها ميزاتها الخاصة ، اذ نشأت ، وترعرعت مستقلة عن المدرسة البزنطية ، وهذه المدرسة لا تقتصر على الفن التزييني ، انما على فن البناء المتميّز تمام التمييز عن الفن البيزنطي المعمارى (١) . فالابنية السورية حرة التعبير ، واسعة الخيال في اختيار التفاصيل ، وهذه الحرية والغنى في الخيال هما من ميزاتها الخاصة .

ونحن نجد في الابنية التي كانت قائمة في دمشق ، جميع ميزات فن البناء السورى وقت دخول المسلمين العرب ، ولذلك لا بد من الاستنتاج ان تزاويق الجامع الاموى وقبة الصخرة محلية الاصل والمنبع ، اى انه لم يكن للعرب الداخلين اى اثر في وضعها ، وان كان لهم بعض الاثر في تكييفها لترضي الاعتقاد الديني .

وهذه النتيجة لا تعني استبعاد المساعدة الخارجية ، فسوريا كانت تعج دائما بالاجانب ولكن البناء والفن اجمالا ، كانا مستوحيين من الطبيعة السورية . فالفنانون الذين وضعوا تصاوير

---

١) Creswell - ص ٢٦٦ ، ج ١ -

الجامع الاموى ، لم يستوحوا اشكالا غريبة عن البلاد ، انما انتجوا اشياء كانوا يجدونها امامهم . ولا يبعد ابدا ان تكون هذه القرى الجميلة في الاطار الكبير ببيوتها البيضاء المصفوفة على شاطيء النهر ، منقولة عن منظر القرى التي كانت موجودة في ضواحي دمشق في العصر الاموى (١) ،

وهكذا نرى الفن السورى اكثر من غيره يعبّر عن شخصية الامة ، والفن هو من الامور الاساسية التي نستدل بها على هذه الشخصية .

الاثر الادارى :

ذكرنا حتى الان بايجاز الاثر السورى في حياة العرب الداخلين في الفلسفة الدينية وفي الاجتماع ، وفي الفن ، ولا بد لنا من القاء نظرة عجلى على هذا الاثر في الادارة والعلوم ، لان الادارة والتنظيم هما من صفات الحياة المتقدمة الراقية . فالادارة عند العربي قبل دخوله سوريا ، كانت قضية قبلية يقوم بها شيخ القبيلة الذى هو القول الفصل ، ولا تتعدى تدبير امر المنازعات التي تقوم في القبيلة او خارجها . والقانون في نظر القبيلة لم يكن يقوم على اساس اخلاقي (moral) ، بمعنى فهم القيم الاخلاقية كالحق والعدل التي يرتكز عليها المجتمع ، بل على الثأر والقوة التي هي شريعة بدائية . والاسلام من هذه الناحية كان له فضل ايجاد اساسي اخلاقي اقوى ، لكن هذا الاساس لا يمكن تطبيقه في نظام قبلي ، يكون ولاء الشخص فيه الى قبيلته قبل كل شيء . فتحضر العرب وامتزاجهم في المجتمع السورى والمصرى ، مكّن الاساس الاخلاقي الاسلامي من تجسيم مبادئه .

واثر التنظيمات الادارية في نظام الحكم الاسلامي الجديد واضح وظاهر . فعند دخول العرب الى البلاد السورية ، لم يغيّروا شيئا من اساليبها الادارية لانه لم يكن عندهم منلها .

---

١) Creswell ج ١ - ص ٢٥١ ،

فاتخذوا الاساليب المتبعة في الشام والعراق اساسا لتنظيم ادارتهم . فبقي السوريون هم متسلمو الادارة في اكثر الوظائف وفي اهمها . وقد كان صاحب الديوان سرجون الدمشقي ، وهو كان يشغل الوظيفة نفسها في زمن هرقل . فلما دخل العرب الشام ، رأى معاوية (الوظيفة نفسها في ~~xxxxxxxx~~) مقدرته وحكمته ، فسلمه ديوان الخراج ومحاسبة الجند . وترك لاهل الشام صنع السلام وبناء السفن (١) .

واعتمد معاوية ايضا على السوريين في صقل العرب البدو سياسيا ، وتقليم اظافر فرديتهم ، وجعلهم يعتبرون روح النظام العسكرية . وبذلك جعل منهم جيشا منظما قويا على طريقة " النظام السوري " المشهور (٢) . وكان من اثر هذه الحياة الجديدة ان نشأت في العرب الذين دخلوا سوريا عصبية شامية ، نرى اثرها في عدم اتفاق جيوشهم المحاصرة لابن الزبير ، معه ، على اثر موت يزيد الا اذا نقل ملكه الى دمشق (٣) ، وفي نشوء اسطورة السفياني الذى سيظهر ليخلص اهل الشام (٤) ، وفي افتخار العرب الداخلين بتسمية انفسهم بأهل الشام ، وعدم رضاء العرب الذين كانوا في سوريا قبل الاسلام ، والذين تولوا مناصب عالية في الدولة بأن تنقل عاصمة الملك الى مكه (٥) ، وحتى النساء العربيات لم تعد ترغب الا في شباب الشام ، فنظمت احداهن وهي حميدة ابنة النعمان بن بشير الصحابي تقول :

كهول دمشق وشبانها ... احب الينا من الجالية

صنان لهم كصنان التيوس ... اعيا على المسك والغاليه (٦)

---

١) البلاذرى - فتوح البلدان - دى غويه (ليدن ١٨٦٦) ص - ١١٨

٢) Lammens - La Syrie ج ١ - ص ٦٤٥

٣) كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمه العربية الدكتور فارس ومنير بعلبكي - ج ١ ص - ١٥٥ - ١٥٦

٤) Lammens - La Syrie - ص - ١٠٦ - ١٠٧ ، ج ١

٥) Lammens - المجلة الفنيقية ، عدد كانون اول ١٩١٩

٦) ابوفرج الاصبهاني ، الاغاني الجزء الثامن ، طبعة مطبعة التقدم بمصر ، ص - ١٣٢

وفي هذا لا نرى فقط مدى الامتزاج بالمجتمع السوري ، بل نرى نشوء العصبية لهذا المجتمع

الاثر العلمي

والاثر العلمي السوري يظهر في ناحيتين + ناحية اللغة العربية ، وفي ناحية العلوم الوضعية . فاللغة العربية التي هي لغة القرآن لم تتمكن ان تفرض نفسها على كل السوريين بسهولة ، وان تقتلع اللغة الارامية الا تدريجيا وبعد وقت طويل . وانه ليجوز لنا القول ان فوز العربيه في المدن والسواحل السورية تم في خلال القرن العاشر والحادى عشر ، وفي الداخليه بعد ذلك بقرنين (١) ، اما في لبنان فتأخر حتى اواخر القرن السابع عشر واوائل الثامن عشر (٢) . ومن يتابع تاريخ الصراع بين العربية والسريانية في الهلال الخصيب ، يرى ان العربية لم تتمكن من التغلب التام على السريانيه في القرى والمدن الا في القرن الرابع عشر مسيحي ، اى بعد ثمانية قرون تقريبا من دخول العرب (٣) .

واثر اللغة السريانية ، ظاهر في النحو العربي وفي الخط العربي . فالحركات المستعملة في العربية ، هي اقتباس عن السريان الذين كان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه ، او تعيين الكلمة الواقع فيها اللفظ ، أأسم هي ام فعل او حرف . فمثلا كلمة " كتب " يمكن ان تكون اسما ، جمع كتاب ، او فعلا ماضيا معلوما او مجهولا . وكان عند السريان ايضا نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوى وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حسب الحروف ، ثم تحولت الى نقطة مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث . فلا يبعد ان يكون ابو الاسود الدؤلي اقتبس الحركات عنهم (٤) ، ورسم الخط العربي تأثر بالرسم النبطي الذى هو نوع من انواع الرسم الارامي . وقد قضى هذا على الخط المسند الذى استعمله العرب قديما (٥) . واقدم اثر وصل الينا في هذا الخط ، هو نقش النمارة الذى تتصل فيه الحروف بعضها ببعض . وكان تأثر الخط العربي بالخط السرياني ، واضحا ، فقد دخلت عليه اصلاحات كثيرة من جراء ذلك ، فتحول الى خط سريع

---

١) نعتقد ان اللغة العربية انتشرت في الداخل قبل الساحل لوجود عدد كبير من متكلمي اليونانية وغير السريانية في المدن الساحلية .

٢) فيليب حتي - اللغات السامية ، ص ٢٨

٣) Renan ، ج ٤ ص - ٢٦٦ - ٢٦٩ وراجع كتاب حتي المذكور اعلاه

٤) جرجي زيدان - تاريخ الاداب اللغة العربية ، ج ، ص ٥٤

٥) الدكتور علي عبد الواحد وافي - فقه اللغة (مصر ، ١٩٤٤) ص - ١٣٠

تدون به المكاتبات العادية لا النقوش فقط ، كما كان شأن الرسم سابقا .

ومن الطبيعي ان تتأثر اللغة العربية باللغة الارامية ، لقدم الارامية ونشوءها في بلاد مدنية راقية ، ولانه كان هناك علاقات ثقافية وتجارية قديمة بين الاراميين والقبائل العربية . وقد ظهر لكثير من المحققين ان معظم الكلمات العربية الداله على مظاهر الحياة الحضريه وما اليها من الامور التي لم تكن مألوفة في البيئة العربية ، ومعظم الكلمات المتعلقة بمنتجات الصناعة وشؤون التفكير الفلسفي المتعلقة بما وراء الطبيعة ، وقد انتقلت الى العربية من الارامية ويبدو هذا التأثر في اوضح صوره في اللهجات العربية البائدة (١) ، اى لهجات النقوش الموجودة في شمالي جزيرة العرب وفي الصحراء السورية .

واما من الناحية العلمية ، فليس هناك ، ما يمكننا ان ننعته بأنه من اكتشاف عرب الجزيرة او اهتمامهم . فالسوريون في العصر الارامي ، كانوا قد ترجموا الكثير من كتب جالينوس وابيقراط ، وانه كان بينهم عدد من مشاهير الاطباء ، او بالاحرى انهم احتكروا هذه المهنة مدة مدة طويلة في البلاد السورية . وبعد الفتح العربي تابعوا ترجماتهم وابحاثهم العلمية والفلسفية باللغة السريانية والعربية . وقد اشتهر من الاطباء في العصر الاموى ، ابن اثال وابو الحكم وولده الحكم وثيادوق . واما في العصر العباسي ، فاصبح عددهم كبيرا جدا .

وبحثنا عن الاثر السوري العلمي ، يقودنا بطبيعة الحال الى السؤال ، عن الحضارة التي تسمى بالحضارة العربيه والتي بلغت اوجها في العصر العباسي الذهبي وما بعده . فهل كانت هذه الحضارة حقا عربيه بمعنى ، ان العرب القادمين من الجزيرة وضعوا اصولها وتفاصيلها ام انها كانت حضارة اسلامية بمعنى ان دافعها الاساسي هو الاسلام ، واشترك فيها علماء من كل الامم الاسلامية . لقد كان من اثر الحياة الجديدة في الهلال الخصيب ، انتقال العرب القادمين اليه من حياة البداوة الى حياة الاستقرار وصقلهم مدنيا ، ووضع دينهم على محك الجدل العقلي ،

---

١) المصدر نفسه - ص - ٩٨

وغلب عاداتهم الصحراوية الى عادات مدنية ، وبكلمة اخرى فصلهم ثقافيا واجتماعيا عن الحياة البدوية القائمة في جزيرة العرب . والاسلام الرابطة الوحيدة التي نشأت بين سكان الهلال الخصيب وبين العرب و وكل الشعوب التي اعتنقته ، فرض عددا من العادات الجديدة بطبيعة الحال ، كأركان الاسلام الخمسة ، التي فيها مظاهر اجتماعية ، واثر في الذوق الفني وفي اللباس واوجد مواضيع فكرية جديدة ، ولكن الاسلام العربي اقتصر اثره على اعطاء صبغة جديدة او لون جديد للمجتمع السوري ، ولكنه لم يتمكن من الغائه وازالته او دمجه مع المجتمع القائم في الجزيرة العربية .

فمع ان المجتمع في الجزيرة ، اخذ ببعض اسباب الحياة المدنية الراقية ، فنشأت فيه بعض فنون الغناء والرقص وحياة الترف ، لكنه بقي بطبيعته صحراويا قبليا ، ولم تنشأ فيه نهضة علمية او مشاكل فلسفية معقدة ، ولم يقم فيه علماء ، حتى ولم يقم منه علماء الا ابو يعقوب الكندي ، الساكن العراق منذ زمن طويل . فاذا لم يكن للجزيرة العربية نصيب كبير في النهضة التي حدثت ، فهل يجوز ان ندعو هذه الحضارة بالعربية الا على اساس لغوي .

ويمكننا من مراجعة تاريخ هذه النهضة او الحركة العلمية التي اثارها الاسلام ، ان نعرف نصيب اشتراك العرب في هذه الحركة . فلقد اقتصرت في العصر الاموي على سوريا ، لقصر زمن انتشار الاسلام ، وكانت بالواقع تتميما للحركة السورية الارامية ، ولكن في العصر العباسي ، توسعت وضمت عناصر غربية وبعيدة من فارسية وهندية وتركيه .

واثر السوريين في العصر العباسي لا يمكن اغفاله ، لان السوريين والفرس هم وحدهم الذين تابعوا ترجمة الكتب اليونانية واشتركوا اشتراكا فعليا في حركة التأليف والتجارب العلمية التي اوجدت الحضارة الاسلامية المعروفة ، وسنتكلم باختصار كلي عن حركة الترجمة والتأليف التي حدثت في هذا العصر ، فسنرى ان اكثرها قام على يد السوريين في الهلال الخصيب ، الذين كان لهم النصيب الاكبر في تبلور وتوجيه الحضارة الاسلامية من نواحيها العلمية والفلسفية .

ابتدأ عصر الترجمة عن اليونانية ، منذ زمن بعيد في سوريا . ففي اواخر الدور الارامي ، ترجم الكثير من كتب الطب والفلسفة وغيرها من العلوم . وقد تابع العلماء السوريون ترجمة هذه الكتب في العصر الاموى ايضا . اما في العصر العباسي ، فأن هذه الحركة ، لم تعد افرادية ، يقوم على امرها احد العلماء مدفوعا بغريزته وبحبه للعلم ، بل اهتم الخلفاء العباسيون بأمر العلماء اهتماما زائدا ، وسهلوا لهم سبل العمل المنظم ، كما ان الشعوب الاسلامية في العصر العباسي ، وصلت الى درجة من الحضارة نتيجة الاحتكاك بالثقافتين السورية والفارسية ، جعلتها تمعن في طلب العلم والزيادة منه .

وقد كان السوريون في هذه الحركة اكثر المترجمين عددا ، وكانوا ، لذلك ، يترجمون اولا الى اللغة السريانية ، ثم الى اللغة العربية . ومن يراجع كتاب اوليرى الاخير " كيف وصلت العلوم اليونانية الى العرب " (١) يدرك مدى اثر السوريين في هذا المضمار . ويعرف نوع عقليتهم اذ انهم ** فكروا بنقل الاداب اليونانية الى اللغة السريانية ، فترجم توفيل الرهاوى (ت . ٧٨٥ م) وهو من الطائفة المارونية كتاب " اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر " وقد نقله من اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة " . (٢)

ويمكننا قسمة عصر الترجمة العلمية في العصر العباسي الى ادوار ثلاثة +

الدور الاول + من خلافة المنصور الى آخر عهد الرشيد (٧٥٣ - ٨٠٨ م) ،

ونرى في هذا العصر كثير من الفرس يترجمون وبينهم سريان فارسيون ، كجورجيس بن بختيشوع وماسويه وولداه يوحنا واسحق .

الدور الثاني + من عهد المأمون الى نهايه ٣٠٠ هـ . وقد غلبت في هذا العصر ترجمات الكتب الفلسفية على الكتب الطبية والعلمية . وذلك لاهتمام المأمون بالفلسفة وللاختلاف العقائدى

---

١) راجع : O' Leary - How Greek science passed to the arabs

٢) ابن العبرى - مختصر تاريخ الدول (بيروت ١٨٩٠) ص - ٢٢٠

الذى نشأ . وهذا العصر هو عهد النهضة الكبرى ، ففيه اخذت بوادر التأليف تظهر بوضوح ، ونرى في هذا الدور ان السوريين هم السبّاقون كقسطا بن لوقا البعلبكي ، وعبد المسيح بن ناعمه الحمصي ، وحنين بن اسحق ووالده ، وثابت بن قره وولده ، وحبيش الدمشقي ابن اخت حنين .

الدور الثالث : ٣٠٠ هـ . وما بعدها . وفي هذا الدور نرى السوريين ايضا سبّاقون في الطب والعلوم الوضعية ، فمنهم البتّاني واولاد ثابت بن قره واحفاده ، ويحيى بن عدى وابن زرعه وغيرهم كثيرون ، ويكفي ان تراجع قائمة اسمائهم في كتاب ليكليرك ، لتدرك اهميتهم (١) .

وعدا هؤلاء الذين ذكرنا ، هناك علماء كبار يجدر بنا ذكر اسمائهم كجابر بن حيان وعيسى بن الحكم وابن البطريق وابي عثمان الدمشقي ، وكل هؤلاء ممن حملوا مشعل النهضة العلمية واشتركوا فيها ، فهم مع الاسماء التي ذكرنا اعلاه يؤلفون العدد الاكبر بين كل الذين اشتركوا في العلوم الوضعية والفلسفية والتي هي الاهم في الحضارة ، وليس العلوم اللغوية والفقهيه التي اهتم بها في الواقع علماء من اصل عربي كالاصمعي والقاضي ابو يوسف ومالك بن انس وابن اسحق وهشام بن الكلبي والخليل بن احمد الفراهيدى ، ولكنهم ايضا اهتموا بها في مجتمع الهلال الخصيب ، وبعد احتكاكهم ونشوءهم فيه ، وليس في جزيرة العرب او في مصر التي كان حظها قليلا جدا في هذه الحضارة من ناحيتها العلمية والفلسفية .

بيد ان هذه الحركة العلمية المختلفة المنابع ، كانت لغتها العربية ، ودافعها القوى ، الاسلام ، وهذا لا ننكره ، لكننا لن ندعوها عربيه لان لغتها عربيه كما اننا لا ندعو الحركة المسيحية في اوروبا في القرون الوسطى لاتينية لان لغتها لاتينية ، فالصفة او الاسم يجب ان يتبع الشعب او المجتمع الذى اوجده فلا يصح ان ندعوها عربية اذا ، لان سكان الجزيرة العربيه لم يشتركوا بها الا اشتراكا جزئيا ، فهي حركة اسلامية ، اشترك فيها شعوب عدة تحت تأثير الاسلام ، وان لم يكن بوحيه ، اى ان غير المسلمين اشتركوا بها ، وهي لم تبتدئ الا عندما خرج نطاقها عن جزيرة العرب وانتقلت الى الهلال الخصيب .

---

١) راجع : Leclerc - Histoire de la medecine arabe

وهكذا لو راجعنا تاريخ الهلال الخصيب الحضاري ، في ادواره القديمة والارامية والاسلامية ، لرأينا انه يشترك مع بعضه بشعوبه التي امتزجت فيه وبحضارته التي نشأت فيه كحضارة متميّزة باصولها وبصفاتها عن غيره من الامم ، وبوحدة مجتمعه نتيجة لوحدة ارضه ، ولرأينا ان حضارة الجزيرة العربية ومجتمعها ، لم يكن ذا علاقة فعالة مع المجتمع السوري في دوريه الاولين ، وعلاقته في الدور الاسلامي ، لم تكن من القوة والاتساع بحيث الغت المجتمع السوري او جمعته مع المجتمع العربي ، ولرأينا ايضا ان حضارة مصر تختلف في امور اساسية عن حضارة الهلال الخصيب ، فالمجتمع المصري هو مجتمع منعزل على نفسه منذ فجر التاريخ الى اليوم .

ولكننا من ناحية اخرى نرى هناك علاقات بين هذه المجتمعات ، هي نتيجة حتمية للجوار ، ولكنها ليست من القوة بحيث تجعل من شخصيات هذه المجتمعات شخصية واحدة او امة واحدة .

تاريخ سوريا السياسي :

يجدر بنا الان بعد ان رأينا وحدة المجتمع السوري الحضارية ، ان نراجع باختصار كلي ، تاريخ سوريا السياسي ، لأن هناك من يرى ان الوحدة الحضارية ليست بكافيه ، ان لم يرافقها وحدة سياسيه . فهناك ظاهرة اساسية في تاريخ سوريا الطبيعية خلال تاريخها الطويل ، هي انها لم تتوحد في دولة سياسية واحدة ، بسطت سلطانها على سوريا الطبيعية كلها ، بل انها بقيت مقسمة الى دويلات كما هي اليوم ، وانها بقيت اليوم ايضا طوال تاريخها تحت حكم اجنبي ولم تستقل مطلقا الا في فترات قصيرة . فما مبلغ هذا من الصحة . وما معناه .

منذ بدء التاريخ نرى في سوريا الطبيعيه كثيرها من الامم ، شعوبا مختلفة . ففي جنوبي العراق ، نرى السومريين يؤسسون حكومات مستقلة في مدنهم ، وتجتاح ثقافتهم الى درجة كبيرة الساميين الذين سكنوا معهم ، وتمتد هذه الثقافة في كل سوريا حتى

مصر (١) . ولم يقتصر الاجتياح على الناحية الثقافية ، فقد اجتاح (لوقلزاكزى) ملك اوروك ، سوريا حتى البحر المتوسط (٢) . وتبعه سرجون الاول ملك اكاد الذى يذكر في نقوشه الاماكن التي وصل اليها حتى غابة الارز اى لبنان (٣) . واهمية هذه الفتوحات هو في تسهيلها الاتصال بين قرني الهلال الخصيب ، فكان من اثرها انشاء العلاقات السلميه والتجاريه التي مكنت اميرا كخوديا من نقل خشب الارز الى لِخش . وخلف سرجون الاول ابنه (؟) نارام سن ، واستولى على ما كان فتحه ابوه من البلدان واضاف اليها فتوحات جديدة . وقد بقيت سيطرة الامبراطورية التي انشأها حوالى المائة سنة ، وامتدت من الخليج الفارسي الى البحر المتوسط ، ومن الجزيرة العربية الى جبال كردستان (٤) . فالامبراطورية الاكاديه ، كما كانت تدعى ، كانت اول امبراطورية بسطت سيطرتها على الهلال الخصيب كله ، وفي نظرها على العالم كله ، كما يدل اللقب الذى اطلقه على نفسه نارام سن - ملك اربعه اقطار العالم ، وكان اتجاهها نحو البحر المتوسط واحتذاء بقية الدول التي نشأت في العراق هذا الاتجاه ، الدليل على قوة العلاقة بين قرني الهلال الخصيب .

والامبراطورية الثانية التي سيطرت على الهلال الخصيب كله ، هي الامبراطورية البابلية ، وعلى رأسها حمور ابي ، جامع القوانين الاول . وهذه الامبراطورية قامت على سواعد الاموريين او سكان الغرب . فالاموريون كانوا يقطنون منطقة ماري (تل الحريري) بقرب دير الزور اليوم . وهم مزيج من الساميين والارمنويد (٥) . فلغتهم كانت من اللغات السامية الغربية القريبة من الفينيقية والكنعانية

---

١) Olmstead - ص - ٧٩

٢) Au levant au couchant, il faits des conquêtes, de la mer inferieur au Tigre, et de L'Euphrate jusqu'a la mer superieur, Ellil lui a applani les sentiers. Ed. Meyer v. III p. 176

٣) Olmstead ص - ٧٩

٤) L. A. King - History of Sumer & Akkad - ص - ٢٥١

٥) Olmstead ص - ٨١

والعبرانية الحديثة . وقاعدة ابدال حروفها الشفاهية تشبه العربية والجنوبيه (١) . وقد كانوا على اتصال مع ملوك بابل منذ عصر سرجون ، فقد رحلوا جماعات جماعات الى ما بين النهرين ، وعملوا كمرتزقه وتجار ومزارعين ، حتى استقر بهم المقام واسسوا المملكة البابلية التي طردت العيلاميين من جنوبي العراق ، ونشرت اعلام الامن في كل البلاد ، فنشطت التجارة بين قرني الهلال الخصيب ، مما ساعد على انتشار الكتابه المسماريه فيه حتى صار التجار السوريون ، بعد امد يسير ، يكتبون رسائلهم وقوائمهم التجارية على الاجر كتجار بابل انفسهم (٢) ، كما اخذوا يستعملون القياسات والموازين البابلية . ولكن ليس عندنا اى دليل حسي على ان حمورابي نفسه احتل سوريا الجغرافية مع ان بعض العلماء يرجح ذلك بالنسبة لاصله السوري .

وبين الامبراطورية البابلية والامبراطورية الاشوريه نشأت عدة دويلات في اماكن مختلفة من سوريا الشمالية ، كالحوريين والميتانيين والاموريين الذين حافظوا على استقلالهم اكثر الوقت بالتحالف مع القوى من الدول المتحاربة والطامعة في سوريا فيما بين القرن الثامن عشر والحادى عشر . خصوصا بين مصر والحثيين .

وعلاقة مصر بسوريا قديمة ، قدم العلاقات مع ما بين النهرين . فالمصريون كانوا دائما يطمعون بسوريا لسببين رئيسيين + الاول خوف المصريين من بقاء سوريا معرضه للفتح ، مما يعرض مصر لخطر الغزو والثاني هو حاجة المصريين للاخشاب السورية التي كانوا يستخدمونها في بناء معابدهم وقصورهم . ومع ان العلاقات السوريه ـ المصرية قديمة ، فقد دلت الاكتشافات الحديثة على اثر الاسيويين الساميين في مصر (٣) ، وليس العكس في اول عصور التاريخ ، اى في الالف الثالث وما قبله . ولكن منذ ظهور العائلة المالكة الاولى اخذ المصريون يغزون

---

١) المصدر نفسه ص - ٨١

٢) هنري جايمس برستد العصور القديمة ـ الترجمة العربية (بيروت ١٩٣٠) ص ١١٣

٣) Contenau - La Civilisation phénicienne ص - ٤٢

فلسطين والشواطىء السورية غزوات متقطعة ، تارة من البر وطورا من البحر (١) ولم يقوموا بحملات منظمة لاحتلال سوريا الا بعد ظهور العائلة الثامنة عشرة . وبعد ان طردوا الهكسوس السوريين من مصر . ودخول الهكسوس الى مصر ، كان نتيجة لاقتحام العديد من الشعوب الجبلية كالحوريين والكاشيين الهلال الخصيب . فهؤلاء الغزاة ضموا اليهم الاموريين والكنعانيين والعبرانيين وحلوا في الاراضي السورية حتى الحدود المصرية ، كما يدل على ذلك اسماء بعض الامراء الفلسطينيين (٢) ، ويجب ان يكون دخولهم مصر منظما ، اذ لا يعقل ان يؤسسوا ملكا ، وان يخضعوا المصريين زمنا طويلا الا اذا كانوامنظمين وعريقين في الحياة الحضارية ، وليس كما يريد المصريون تصويرهم بأنهم رعاة حقيرين لانظام عندهم ولا رحمة . فالمصريون القدماء من طبيعتهم ان ينظروا الى غيرهم هذه النظرة . فغير المصريين ليسوا ب " ناس " فالمصريون وحدهم هم " الناس " (٣) فالاحتلال المصري لسوريا حدث بعد اخراج الهكسوس من مصر ، وقد تم احتلالها في زمن تحوتمس الاول (١٥٣٧ - ١٥٢٩ ق م) فقد ادّعى هذا بأن حدوده بلغت الفرات " تلك المياه التي تجرى جنوبا في سيرها شمالا " (٤) ولم تثبت دعائم الحكم المصرى الا في زمن تحوتمس الثالث . فالدويلات السورية لم تكن تتوانى اغتنام الفرص للثورة والاستقلال . فما كادت ترى من الملكة حتشبسون تهاونا ، حتى اعلنت اكثرها استقلالها مما اضطر تحوتمس الثالث الذى اغتصب الملك من اخته ،ان يزحف على سوريا يقابل الحلف السورى في ماجدو . وهذه المعركة تعني لنا امرا خطيرا هو انه بالرغم من النزاعات الداخلية بين هذه الدويلات ، فانها كانت تجتمع عند الخطر الخارجي . وقد اضطر تحوتمس الثالث للزحف على سوريا ثماني عشر مرة .

وتدلنا رسائل تل العمرنه ، على النزاعات الداخلية في سوريا بين دويلاتها الصغيرة ، كما تدل على ان ملوك بعض الدويلات ، كان يميل دائما مع مصر . فهو من حزبها وطبيعها ضد

---

١) weill ص - ٥٨/٥٩

٢) Ed. meyer ص - ٣٦٤ ،راجع ايضا Contenau ص ٤٧

٣) Frankfort - Before philosophy ص ٤٠

٤) Smotead ص ١٣٠. النيل يجرى من الجنوب الى الشمال بعكس الفرات والدجلة . والمصريون الذين تركزت حياتهم حول النيل ، لم يكن باستطاعتهم تصور مياه تجرى مخالفة للنيل .

بقية الملوك السوريين ، كما كان ملك جبيل مثلا (١) ، وهذه النزاعات الداخلية هي امر طبيعي بين شعوب من اصول مختلفة لم تكن قد توحدت وتفاعلت تمام التفاعل بعد ، فكان الاقوى يحاول بسط سيطرته ونفوذه . وقد بقي حكم المصريين في سوريا يتراوح بين التوسع والانكماش ، حتى منتصف القرن الحادي عشر ، اذ ضعفت مصر وضعفت بابل ، فاستقلت اكثر الشعوب السورية من فينيقيين ، وفلسطينيين ، وارامين وعبران وموآبين وادوميين ، حتى تاريخ سيطرة الدولة الاشورية وبسطها سلطانها على الهلال الخصيب كله . وفي بعض الاحيان ، على مصر او بعض منها . وقد بقي سلطان الاشوريين اكثر من قرنين ، وتلاه عصر الدولة البابلية الحديثة التي لم تعمّر طويلا ايضا ، انما امتد سلطانها ايضا على الهلال الخصيب ، وبقيت حتى الفتح الفارسي لسوريا .

والفتح الفارسي تجاوز الهلال الخصيب الى مصر ، والى اليونان ، وبقي حتى عصر الاسكندر الذي تغلّب على داريوس الثالث ، وقتله في معركة اربيلا . وفي هذا العصر الفارسي لم يفصل الهلال الخصيب عن بعضه ، انما قسّم الى ولايات (satrapies) كبقية اجزاء الامبراطورية الفارسية .

وتلي العصر الفارسي ، العصر السلوقي ، وسمي هذا العصر ، عصر ملوك سوريا (٢) . فقد تراوح فيه امتداد سلطانهم من الهند الى اسيا الصغرى ، ولكنه تقلص في آخر عهدهم الى حدود سوريا الجغرافية ما عدا فلسطين التي استقلت على اثر ثورة الكابيين لزمن . وكانت عاصمة السلوقيين في بادىء امرها سلوقيا على الدجله وانطاكية .(٣) ومع ان الملوك السلوقيين كانوا من اصل يوناني ، لكن ملكهم كان سوريا ، لانه قام على يد السوريين . واحتل انطيوخوس الثالث في اوائل القرن الثاني ق.م جميع سوريا الجغرافية ، وكان يحكم فلسطين المصريون سابقا ، فبقي الهلال الخصيب موحدا تحت حكمهم اكثر من قرن . وقد اهتموا في بناء المدن ، فبنوا انطاكية

---

١) المصدر نفسه - ص - ١٥٩

٢) G. Haddad - ص - ١١

٣) Thaumin - la Syrie ص - ٩٢ وقد انتقلت العاصمة الى انطاكية تماما سنة ٢٤٠ قبل المسيح .

واللاذقية والسويدية على الشاطئ ، وبنوا على الفرات مدينة زيحالة (Zeugma) قرب بيره جك ، وكان اسمها الرسمي سلوقيا على الفرات (١) (Seleucia ad Euphatum) وبيره جك وكان اسمها بلقيس . ومدينة قيصرية الجديدة جنوبي شرقي دير الزور اليوم . كما بنوا سلوقيه على الدجلة التي كانت العاصمه ، وهذه المدن كانت مراكز ثقافية لليونانيين وسهّلت تركيب المزيج الثقافي الذى دعوناه بالارامي ، مما جعل هذه الثقافة تستقبل بحسن وفادة فيما بين النهرين ، كما استقبلت في سوريا ، حتى وصلت الى درجه روحية اصبح معها من الحق في تلك الحقبة ان يتوحّد الهلال الخصيب في دولة (٢) .

وبعد انحلال الدولة السلوقية ، احتل الرومانيون سوريا ، وجعلوا منها ولاية واحدة ، هي ولاية سوريا (Provincia Syria) . وفي هذا العصر ، اكثر من غيره ،عرفت سوريا الجغرافية بهذا الاسم ، بعد ان كان يطلق احيانا على كل الامبراطورية الاشورية ، واحيانا على القسم الشمالي من سوريا ، ولكنه اقتصر في هذا العصار الروماني على القرن الغربي من الهلال الخصيب ، بعد ان اصبح القرن الشرقي تحت الحكم الفارسي ، وبقى القرنان مفصولان حتى الفتح العربي الذى جمع بينهما مرة اخرى .

والفتح العربي لسوريا ، هو اهم هذه الفتوحات بالواقع ، لان اثره لا يزال فاعلا في الهلال الخصيب ، ولانه حمل معه دينا جديدا ولغة جديدة . ولكن هذا الفتح كان كغيره ، له غاية دينية وغاية اقتصادية ، ولم يستقبله السوريون الاستقبال الذى يريد بعض المؤرخون المعاصرون تصويره به ، من ان الشعب السورى استقبل الداخلين كأنهم اهله وشعبه . ومن الممكن جدا ان يكونوا قد استقبلوهم كمخلّصين واحبوهم لهذا السبب ، لان السوريين كانوا قد ضاقوا ذرعا بالبيزنطيين ، وبحكمهم خصوصا ،وانهم جعلوا من سوريا مسرحا لحرب دامت من سنة ٦١٤ الى ٦٢٨ (٣) . حتى تم لهرقل ملك الروم طرد الفرس . وهذه الحرب كلفته غاليا وادّت الى خراب

---

١) C. Huart - Histoire des Arabes — ص - ١٧
L. Cuenot - Etudes syriennes

٢) Thaumin ص ١٠٥ - ١٠٦

٣) C. Huart - Histoire des arabes ج ١ - ص ٢٣٣

خزينته ، فجرّب ان يسد العجز بجباية الضرائب من السوريين ، وبأيقاف ما كان يعطيه من مكافأة لقبائل قضاعه وجذم ، وهم عرب الحدود الذين كانوا يزودون عن طريق غزة (١) . كما ان السوريين كانوا على اختلاف ديني مع البيزنطيين ، ونشأت الديانات السورية النسطورية واليعقوبية والمارونية ، وكلها كرد فعل للتدخل البيزنطي ، فلا يبعد ان يستقبل السوريون العرب بفرح . ولكن المهم في الامر ، هو ان العرب افتتحوا سوريا عنوة ، وعاملوا مدنها معاملة البلدان المفتوحة ، وحتى القبائل العربية نفسها كعاملة ولخم وجذم وغسان ، وهم المنتصرون من هذه القبائل ، لم تساير العرب في اول امر الفتح (٢) ، وحتى تمكن الديانه الاسلاميه منها وانتقال الخلافه اليها لم تكن سوريا تعامل معاملة البلد الواحد ، كما نعرف من الشروط والجزيه التي فرضت على المدن السورية من مراجعتنا لكتب الفتوحات كالبلاذري والواقدي وغيرهم .

والعرب بالواقع لم يدخلوا في التاريخ العالمي ، الا عندما خرجوا من الصحراء ودخلوا في حوض البحر المتوسط وساروا في مجرى حضارته (٣) . ولكن من من العرب سار في مجرى هذه الحضارة . هل هم سكان الجزيرة العربية ، ام سكان ليبيا ، . ان التحدي الذي اوجدته الحضارة الغربية الحديثة ، بفنون وباساليب تفوقها لم يأخذ بها هؤلاء في نهضتهم . وان ما اعتبره هؤلاء نهضه ليس مجابهة الغرب باساليبه الحديثة وايجاد نظرة تقدميه الى الكون ، انما العودة الى اصول الدين البعيدة ، العودة الى طريقة حياة قديمة يعتقدون ان فيها خلاصهم ، فظهرت الوهابيه والسنوسيه وغيرها من الطرق التي تجسّد فكرة النظر الى الوراء . وما حدث اليوم هو ما حدث عند ظهور الاسلام . فالاسلام كان تحدّ للمجتمع العربي في الجزيرة وللمجتمع السوري . ولكن بينما مزج المجتمع السوري الاسلام مع حضارته الارامية ، لم يقبل المجتمع العربي في الجزيرة اي مزيج ، بل رفض الخروج عن حالته ، وبقي على حاله من البداوة والقبلية .

---

١) M. J. De Goje - Mémoire sur la conquête de la syrie

٢) المصدر نفسه - ص ٩٥

٣) الدكتور نبيه فارس - العرب الاحياء (بيروت ، ١٩٤٧) ص - ٣٢

فالمجتمع العربي في الجزيرة يمثل لنا دائما الحياة الصحراوية المعاكسة لحضارة البحر المتوسط ، ويمثل تلك النظرة التي ترفض التجدّد والسير في مضمار الحضارة الحديثة . فمشكلة التقدم هذه ، لم تظهر في المجتمع العربي بمعناها التكي والروحي ، فالعربي من الجزيرة لم تظهر امامه هذه المشكلة وان ظهرت ، فاثرها كان ضئيلا جدا لا يذكر . اما هنا فقد اوجد هذه المشكلة نوع الحياة ونوع النظرة الى الكون . فحياة المدنيه والترف والرفاهية والنظرة الى مشكلة خلق القرآن ، كانت تحديا لحياة الصحراء ، وللثقة في القوى الغيبية .

فالحياة التي اخذ بها الامويون والعباسيون ، لم تكن حياة الصحراء ، وانتصار النظرة الغيبية الاتكاليه الى الكون ، نظرة قبول الامر المفعول ، كان من اثرها البعيد موت الحضارة الاسلامية وموت المجتمع السوري ، ولا اعتقد ان نفاذ قوى هذه الحضارة ولا الانحطاط الداخلي الاخلاقي ، حتى ولا الانقسامات الداخلية والاسباب الاقتصادية ، كانت من الاسباب ، بل هي نتائج للتفسخ الروحي الذي يحدث عندما ننظر الى الوراء ونترك ما امامنا ، اي نترك الاخذ بالنظرة التقدمية التي هي الدافع الروحي لكل خلق وابداع ، ولكل اتحاد واندفاع ، وننتظر من السماء ان تحلّ لنا امورنا بدون ان نشاركها في هذا الحل ونبادلها المعونة .

ان الفتح العربي لسوريا ، لم يوجد مجتمعا واحدا من الامبراطورية العربية ، انما اوجد دولة واحدة ، والدولة هي مجتمع اصطناعي ، وليس طبيعي ، ولا يمكن لامة ان تنشأ في مجتمع اصطناعي . ولذلك نرى انه منذ حانت الفرصة لبقية المجتمعات التي فرض عليها السلام العربي ، اخذت تحاول التخلص منه بالعودة الى طبيعتها . فاستقلت تونس تحت حكم الاغالبة ومصر تحت حكم ابن طولون ومن خلفه ، وبلاد فارس عادت الى اصحابها ، وتقسّم الهلال الخصيب بين الامراء والدويلات ، واستقل قسمة الشمالي تحت حكم الحمدانيين لمدة من الزمن ، ولم يعد هناك من الامبراطورية العربية الا اسمها بعد اقل من ثلاثة قرون من نشوئها .

وحكم سوريا بعد العصر العربي ، المماليك ، وكانت تتنازع فيه السيادة مع مصر ،

ثم وقعت كل اقسام الامبراطورية العربيه تحت الحكم العثماني . ولكن تمكن هذا الحكم من السيطرة على مقدرات البلدان العربيه ، كان يتراوح بين الضعف والقوة حسب بعد البلاد وقربها من البلاد التركية ، وكان الهلال الخصيب لذلك اهم ما في الامبراطورية . وفي القرون الخمسة التي حكم فيها العثمانيون ، لم يكن الهلال منفصلا عن بعضه ، انما كان يحكم من الخارج . وكان العصر العثماني اجمالا عصر ظلم وجهل وغباوة ، لم تستيقظ منه البلاد السوريه الا في اوائل القرن الماضي ، حيث اخذت تعمل مجتمعه على زحزحة النير التركي ، فلم تكد تتوفق الى ذلك ، حتى وقعت من جديد تحت النير البريطاني - الفرنسي ، ولم تتخلص منه الا بعض اقسامها .

ومن هذه اللمحة في التاريخ السوري السياسي ، نلاحظ امرين : الاول ان القرن الغربي من الهلال الخصيب اى سوريا الجغرافية ، كان اكثر اوقاته مغلوبا على امره ، ولم يكن الامر كذلك بالنسبة للشرقي الذى كان تاريخه يتجه دائما نحو محوره الطبيعي اى الغرب ، ونحن اذا رأينا في هيمنة القرن الشرقي الطويلة الامد ، وفي هذه الحروب الداخلية بين الدول السورية ، محاولة الدولة الاقوى ، بسط سيطرتها على الارض الواحدة والمجتمع الواحد الطبيعي ، لوضح لنا ان زمن السيطرة البابلية والاشورية او السلوقية او الاموية او العباسية ، ليس زمن استعمار ، بل زمن استقلال بالنسبة للبلاد كوحدة . وكل الشعوب القوية القديمة ، ان في الشرق او في الغرب ، كانت تحاول بسط نفوذها على ارض امة واحدة ، وتاريخ اليونان وايطاليا والمانيا وروسيا يدلنا على ذلك ، فقد نشأت هذه الامم من شعوب عديدة ، تنازعت السلطة على ارضها ، حتى تمكنت احدى هذه الشعوب من الغلبة والسيطرة . ولكن في سوريا لم تتمكن احداها من ان تبسط هذه السيطرة الى زمن طويل دون ان يعيقها اجتياح اجنبي يؤخر تحقيق الوحدة السياسية . فمركز سوريا الجغرافي وهو الامر الثاني المهم في تاريخها ، جعل منها بالواقع مركزا ستراتيجيا ممتازا في العصور القديمة . فهي مركز حضارة ومركز ثروة وممر تجارى لا غنى عنه لكل من يريد السيطرة على العالم القديم ، ولم يدرك السوريون هذه النقطة الحساسة ليسيطروا على الجبال المحيطة بهم لمنح غزو الدول القوية ، كالفرس واليونان والرومان الذين اتوا البلاد من الجبال الشرقية والشمالية .

النظرية العربية في قومية سوريا +

بعد ان انهينا النظر في التاريخ السوري ومظاهره سنتقدم الى النظر في مشكله تحديد قومية البلاد السورية من نظرتها العربية . وبالحقيقة ان هذه المشكلة من اصعب المشاكل واشدها تعقدا وخطورة ، لانه على هذا التحديد يتوقف الحل السياسي والاقتصادي الذي يقرّر مصير الامم وحياتها . وبطبيعة الشعور الذي يولده حب الوطن او القوميه ، والذي يمنع في احيان كثيرة حكم العقل ، وحكم المصلحة العامة الحقيقية . فأن الدخول في مثل هذا التحديد من اعسر الامور واشدها صعوبة ، وقد اضطررت في الفصول السابقة التي كتبتها الى الدخول في تفاصيل عديدة لاظهر بعض النواحي الاساسية المطمورة ، كما وان مثل هذه الدراسة تستلزم التجرد التام والاخلاص والتفهم الواعي لمشكلة القومية من اساسها .

والصعوبة الخاصة التي لسوريا ، لم تواجهها اية امة في العالم . فالوضع العقلي فيها يختلف عن غيرها من الامم ، فهي تجمع القديم والحديث على صعيد واحد . ففي اول ظهور امر القوميات في اوروبا ، كانت المشكلة بالنسبة للفرد ، هي ان يسأل نفسه ، هل انا مسيحي . او فرنسي او الماني . . ولكن السؤال عندنا ليس بين الديني والقومي ، انما بين اعتبار الديني قومي وبين الفصل بينهما . فنحن نسأل هل انا عربي او سوري ، والبعض يسأل هل انا لبناني . فالسؤال هل انا عربي لا يعني ان سائله تجاوز الشعور الطائفي ، انما يسأله من ناحية قومية مجردة . فالكلمة بحد ذاتها تعني امورا ثلاثة . انها تعني انا مسلم او عربي من الجزيرة العربية او تعني كل من يتكلم العربية . فالتسمية الاولى هي نتيجة انكماش قضية الجامعة الاسلامية الى الجامعة العربية الاسلامية العربية ، والثاني هي نتيجة منطقية لكون العربي من الجزيرة العربية ، والثالثة وهي مفهوم حديث اطلقه القائلون بالقومية العربية على المتكلمين باللغة العربية من الشعوب .

فما معنى كلمة عرب ومن اين اتت .

لقد ذكر الباحثون اراء كثيرة متضاربة حول اشتقاق كلمة "عرب" وابرز وجوه المشكلة هو +

هل ان هذه الكلمة اسم حوّل الى صفة وفعل ، او انها فعل حوّل الى اسم مكان واسم قوم .

ان استعمال الكلمة القديم ، قد يشير لنا السبيل الى الجواب . فقد وردت هذه الكلمة لاول مرة في نقش للملك الاشوري شلمناصر الثالث الذي قاد حملة على ملك دمشق وحليفة آخاب ملك اسرائيل ، وجندب احد مشايخ العرب سنة ٨٥٤ ق.م واليك ما جاء في النقش " قرقر عاصمته الملكية ، انا خربتها ، انا دمرتها ، انا احرقتها بالنار ، ١٢٠٠ مركبة ، ١٢٠٠ ، فارس ، ٢٠٠٠٠ جندي لهدد عازر ، صاحب ارام ... الف جمل لجندب العربي ، هؤلاء الملوك الاثنا عشر الذين استقدمهم لمعونته برزوا الى المعركة والقتال وتألبوا عليّ " (١)

وقد وردت الكلمة كثيرا في النقوش المسمارية ، لكن كان جل العرب المذكورين باسم "عرب" في هذه النقوش من سكان الصحراء السوريه ، مع ان هذا لا يعني ان الكلمة اقتصرت على سكان هذه الصحراء .

وجاءت كلمة "عرب" في مواضع عديدة من العهد القديم (٢) . وهي تعنى فيه اكثر الاحيان قطرا وشعبا ، ولم تستعمل اسما علما قبل زمن ارميا . حيث جاءت هذه العبارة "جميع ملوك العرب" (٣) ومن المرجح ان يكون الملوك المشار اليهم من شيوخ البادية الشمالية وبادية الشام ، لانه لم يتصل احد حتى ذلك التاريخ بعرب وسط الجزيرة او جنوبها . ومع ان هذه الاستعمالات لا توضح الغموض الملازم للكلمة تماما ، لكنها تشير على الاغلب الى البدو المتنقلين ، سكان البداوى والصحارى ، اى ان الاسم صفة او لقب مشتق من البادية او الصحراء . ويرجح هذا الاعتقاد ان الاقوام المستحضرة ان في // جزيرة العرب او في الهلال الخصيب قد اطلقت لقب "عرب" على البدو . فقد ورد في النقوش الحميرية ان ملوك الحميريين كانوا

---

١) O. Luckenbill - Ancient Records of Assyria & Babylonia

ترجمة الجملة عن حتي - تاريخ العرب ص ٤٥/

٢) حزقيا ٢٧ ÷ ٢١ . ارميا ٢٥ ÷ ٢٤ ، ٣٥ ÷ ٢ . اشعيا ٢١ ÷ ١٣ ، ١٣ ÷ ٢٠

٣) ارميا ٢٥ ÷ ٢٤ . وتاريخ ارميا بين ٦٢٦ - ٥٨٦ ق.م

يطلقون على انفسهم لقب ملوك " سبأ وريدان وحضموت واليمن وعربهم " (١) مما يدل على انهم كانوا يعنون بالعرب القبائل البدوية التي كانت تقتحم مدنهم وقراهم .

وردت كلمة " عرب " في اللغة العبرية " ערב " بمعنى خرب ومحل وجدب . والعربه " ערבת " تعني الارض المجدبة او البادية (٢) . وقد تعني الارض المنبسطة او السهل . وهذه الكلمة " عربه " اطلقت على الوادى المقفر جنوبي بحر الميت المعروف " بوادى عربه " نظرا لجدبه وخرابه .

ويعتقد ماير ان كلمة " عرب " واردة من الشمال وانها مأخوذة من " العربه " التي تعني الصحراء (٣)

وقد اطلق هذا الاسم على العرب " ابن خلدون " في مقدمته . وقد عنى في كل مقدمته " بالعرب " البدو . فقال عنهم " ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب " ومن الشرح نفهم انه يعني بهم البدو لانه يقول + " فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران " (٤) . وليس ابن خلدون وحده من بين كتاب العرب ، من كان يستعمل كلمة " عرب " بهذا المعنى . بل ان اكثر الكتاب كانوا يعنون بها ذلك . واليك مثالين فقط من بين الامثال الكثيرة التي يمكننا الحصول عليها من الكتب الادبية + فقد جاء في كتاب المثل السائر لابن الاثير .

" فأن قيل + ان ذلك البدوى كان له ذلك طبعا وخليقة ، والله فطره عليه ، كما فطر نوع الادمي على فطر مختلفة هي لهم في نفس الخلقة . فالجواب على ذلك اني اقول + ان سلمت اليك ان الشعر والخطابه كانا للعرب بالطبع والفطرة ، فماذا نقول في من جاء بعدهم من شاعر وخطيب ، وتحضروا وسكنوا البلاد ، ولم يروا البادية ، ولا خلقوا بها ، وقد اجادوا في تأليف النظم والشعر ، وجاءوا بمعان كثيرة في شعر العرب ، ولا نطقوا بها " (٥)

---

١) Dussaud ص - ٣

٢) راجع قاموس Gesenius تحت مادة " ערב " .

٣) Ed. Meyer . ج ٢ + ص ٦٢

٤) ابن خلدون - المقدمه (طبعة بيروت ١٨٩٠) ص - ١٤٩

٥) ابن الاثير - المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ص - ٢١٠ ج ١

وهذا التمييز بين شعر العرب وشعر الحضر يوضح لنا ان كلمة عرب تعني البدوي . وجاء في تاج العروس ان " العربي " هو من كان نسبه في العرب ثابتا ، وان لم يكن فصيحا . واما الاعرابي فهو البدوي صاحب النجعة سواء كان من العرب او من مواليهم . ويفرق صاحب تاج العروس بين العربي والاعرابي . فيقول ان العربي من نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي الى العرب . اما الاعرابي فهو من نزل البادية او جاور البادين (١) واعتقد ان هذا التفريق هو نتيجة للآية القائلة " الاعراب اشد كفرا ونفاقا " (٢) فالعربي كان يغضب عندما يدعى بالاعرابي ، وما ذلك الا لان الاعرابي منعوت بالنفاق والكفر . ومن هذا التحديد نعرف ان العربي والاعرابي اطلق على سكان جزيرة العرب الصحراويين والحضريين منهم بعد الاسلام خصوصا لانه ليس هناك دلائل كثيرة على ان العرب في الجاهلية ، كانوا يدعون انفسهم عربا ، مع ان اللفظة وردت في عدد من الاشعار . ومن ذلك ما رواه الطبري الى " بكير " احد بني الحارث بن عباد يمدح بني شيبان في موقعة ذي قار :

عربا ثلاثة الف كتيبه القين اعجم من بني الغدام (٣) . فكلمة عربي عمّ استعمالها وامتد بعد ظهور الاسلام ، ولكنه لا يبعد ان تكون كانت مستعملة ، ولكن ليس بكثرة قبله ، لان الكلمة اطلقت عليهم من الخارج .

والامثال على الكلمة بمعنى بدوي كثيرة ويكفي ان تفتح اي كتاب ادب حتى تقرأ فيه " قالت العرب " حتى يتوضح لك هذا الامر .

وثمة نظريه اخرى في اصل كلمة "عرب" اذ انها قد تكون مقلوبة عن "عبر" وهي قد اطلقت على القبائل العبرية لانها عبرت نهر الاردن او لانها قدمت من الغرب . وكلمة الغرب والعرب تكتب بنفس الشكل في العبرية (ע ר ב) . والكلمة "عبر" هذه تتفق مع اسم القبائل الوارد

---

١) احمد مرتضى الزبيدي - تاج العروس في جواهر القاموس ، بولاق - مادة عرب

٢) سورة ٩ : ٩٨

٣) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - الطبعة الاوروبية الكتاب الاول ص ١٠٣٦ / راجع ايضا : الاغاني طبعة بولاق ج ٩ ، ص ٥ و ج ١٠ : ص ١٤٩

ذكرها في رسائل تل العمرنه (Habiru) ، ويؤكد وايل ان بني اسرايل والاراميين هم نفس القبائل هذه (١) . ويعتقد ان معنى الكلمة (א ב ר) - هبر - بمعنى قطع. ولكن يشك في صحة هذا . لان كلمة (عبرى) (ע ב ר י) One from Beyond اى امرء من عبر النهر اقرب الى الصواب .

فهذه الكلمة - عبر - قلبت الى عرب ע ר ב اى ارض الغرب او ارض الظلام والغروب لان العرب هم من الساميين الذين ذهبوا غربا من رأس خليج العجم مهد الساميين (٢) . وهذه النظريه تفترض اصل العرب الساميين من العراق ، الامر الذى لا يقره اكثر العلماء اليوم .

وعلى كل ، فأن صحت هذه النظريه او لم تصح فكلمة "عرب" كانت تطلق اما على البدو او على سكان جزيرة العرب ، ولم تطلق على غيرهم الا مؤخرا وبنشوء النظريات الجديدة في القومية .

ولذلك فأن تحديد " كلمة عرب " يتوقف الان على صحة تحديد مفهوم الامة العربية . فيجب ان نعرض اذا لاحسن النظريات وادقها القائلة بوجود امه عربية ونرى ارتكازاتها وماهيتها .

وبالواقع ليس هناك دراسة علمية واسعة لمفهوم الامة العربية . انما هناك نظريات متعددة قد تتفق في اشياء وتختلف في غيرها . فمفهوم الامة العربية نفسه هو مفهوم حديث جدا ، لان العاملين في حقل القضية العربية كانوا يسعون لايجاد " الوحدة العربية " . وهناك فرق بين امه ووحدة لان الوحدة قد تتم بالاعمال السياسية بينما الامة هي واقع طبيعي اجتماعي .

وقد رأينا في الجزء الاول ان الوحدة العربية التي كان يبغيها رجال القضية العربية هي وحدة بين سوريا والعراق او بينهما وبين الجزيرة العربية ، ولم تكن مصر او غيرها لتدخل ضمن هذا المفهوم . واول ما نرى فكرة الوحدة العربية تتجاوز هذا المفهوم هو في سنة ١٩٣١

---

١) Weill - ص ١٢٢ - ١٢٣

٢) جرجي زيدان - فلسفة اللغة العربية (مصر ، ١٩٠٤) ص ٥

في " المؤتمر العربي " الذى عقد في القدس وحضره مندوبون عن اكثر البلدان من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، ومصر وسوريا وفلسطين والعراق والجزيرة العربية واعلنوا فيه :

١ - ان البلدان العربية وحدة لا تتجزأ ، ولا تسلم الامة العربية ابدا بتجزئتها .

٢ - انه يجب على ابناء البلدان العربية ان يوحدوا جهودهم لنيل الاستقلال التام ولمضادة الحركات الاقليمية .

٣ - ان الاستعمار في كل اشكاله معاد لآمال العرب ومطامحهم ، ويجب مكافحته بكل ما اوتوه من قوة (١) .

ومع ان الذين حضروا المؤتمر من البلدان العربية ، يوحي بماذا يعنون بالامة العربية ، لكن المؤتمر كان سياسيا . ولم تعيّن حدود البلدان العربية لاول مرة بانها تمتد من جبال الاطلس في الغرب حتى الخليج الفارسي في الشرق ومن تركيا في الشمال الى المحيط الهندى في الجنوب الا في المؤتمر العربي الثاني المنعقد في بلودان سنة ١٩٣٧ (٢) . فنرى في الخطب التي القيت في هذا المؤتمر بعض المحاولات لتحديد الامة العربية . فقد جاء في الفصل الاول من الكتاب الذى جمعت فيه دقائق المؤتمر ما يلي :

" لقد اتسعت الافاق التي يعيش فيها العرب ، واصبح السواد الاعظم منهم يشعر ان له " فوق وطنه القطري الصغير " وطنا عربيا شاملا يجمع بين ابنائه روابط اللغة الواحدة والجهاد والتاريخ والالام والامال والمصالح المادية والمعنوية المشتركة لتكون منهم جميعا امة تامة تطمح ان تعيش في ظل دولة متحدة تحفظ كيانها وتؤمن مصالحها وتحقق لها ما تطلبه من أمن ورفاء وطمأنينه " (٣)

وقد اعطى الدكتور زريق في كتابه " الوعي القومي " العوامل الاساسية التي يقوم عليها هذا الوعي وهي " التاريخ والثقافة واللغة "(٤) ، وفي مقدمة الطبقة الثانية ، يرد على سؤال وجهه اليه احد المصريين ، عن تحديد " الوحدة العربية " اى عن حدود الامة العربية قائلا انه يحسن

---

١) حتي - الاتحاد العربي ، الهلال سنة ١٩٤ ص ٥٤٣

٢) المؤتمر العربي القومي في بلودان سنة ١٩٣٧ . عني بجمعه وتدقيقه فؤاد خليل مفرج ، دمشق ، ١٩٣٧

٣) المصدر نفسه - ص ١٠-٢

٤) الدكتور قسطنطين زريق - الوعي القومي (بيروت ١٩٤٠) الطبعة الثانية ص ٤٠

بنا ان نعمل الان لامة التحديد لن يفيدنا كثيرا ان لم نعمل . ومن ثم ينتقد الدكتور عدد " العرب والاسلام " الذى اصدرته مجلة الهلال (١) ، لانه فيه الكثير من التقارب في استعمال الاصطلاحات القومية ، ولكنه لا يرى غضاضة في ان يعمل دون تحديد للامة العربية . وفي نظرى ، ان العمل ليس مهما في حد ذاته ، انما نوع العمل وغايته . فاذا لم نحدّد لاى بلاد نريد ان نعمل ، فلا يمكننا ان نعين غاية العمل ولا كيفيته .

واحب ان اعرض هنا قليلا لعدد الهلال الخاص عن " العرب والاسلام " . فالعدد هذا يمثل الواقع ، وليس تشويه الواقع . اذ انه يبيّن بالفعل التضارب حول تحديد العروبة او الوحدة العربية او الامة العربية الموجود في العالم العربي .

ومن يطالع المواضيع المختلفة يرى بالفعل خليطا من الاصطلاحات . فالامم العربية والامة العربية والعالم العربي والعروبة والوحدة العربية والقومية العربيه كلها كلمات مستعملة لتعني امرا واحدا .

ويمكنني ان اعطي مثالين من المقالات العديدة لنرى كيف تختلف النظرات وتتباين تباينا شاسعا . فهناك من يحدد عروبة " الاقطار العربية " كفؤاد حمزه في موضوع عنوانه "الروابط السياسية بين الاقطار العربية " يعتبر فيه مقياس العروبة في وقتنا الحاضر اساسين + اولهما وحدة اللغة والعادات والنشوء التاريخي ، وثانيهما الماضي المشترك والمستقبل الباسم .

وبعد ان يراجع ما كان من تداخل العروبة والاسلام ، وما اوجده ذلك من انسجام سائغ في تاريخ العرب ، يحدّد الاقطار العربية بأنها " هي مجموعة البلاد التي تمثل فيها نشاط العرب في نواحيه العديدة ، السياسية والعرقية والثقافية والاجتماعية واللغوية ، وتنتظمها وحدة في اللغة والدين - حاشا الاقليه غير الاسلامية - والعادات ، والتاريخ الجامع ، والشعور المشترك بالمثل العليا ، والمصالح والمنافع المتبادلة . وتمتد رقعتها من خليج فارس شرقا الى الاطلانطيكي غربا ومن جبال طوروس والاناضول وشواطيء البحر المتوسط شمالا الى المحيط الهندى وصحارى افريقيا جنوبا "(٢) فهو لا يدعو هذه البلاد التي يحددها امة ، بل اقطارا ،

---

١) اصدرت دار الهلال في نيسان ١٩٣٩ عددا ممتازا عن العرب والاسلام ، حرره نخبة من مفكرى العالم العربي .

٢) المصدر نفسه ص ٣٩

كما انه يرى الجامع بينها الدين واللغة ، باعتبار العادات والاعراف والطبائع هو ما فرضته العروبة والاسلام ، (١) .

وفي العدد نفسه مقالة للدكتور طه حسين عن " العقل العربي الحديث " يصور فيه الصراع بين القديم والحديث وانتصار الحديث دائما . ثم ينظر في مسألة الوحدة العربيه او الاسلاميه فيرى ان " اصحاب القديم يفهمون هذه الوحده كما فهمها القدماء في ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه ويحوطها بقوته وبأسه " و " اما اصحاب العقل الحديث فيفهمون هذه الوحدة على نحو لم تفهم عليه في البلاد المستحضرة بالحضارات الاروبية الحديثة . يفهمونها على انها لا تنفع ولا تفيد الا اذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لاعضائها والسيادة العامة لهم في حياتهم الداخلية والخارجية ، وقامت على الحلف الذى لا يغني امة في امة ولا يخضع شعبا لشعب ، وانما يمكن الامم ان تتعاون على اساس ما يكون بين الانداد من المساواة" ويرى في الاخير ان كثرة الناس في الشعوب العربية ما زالت قديمة العقل ولم تتعلم بعد (٢) .

وهذان الموقفان المتضاربان المختلفان يمثلان بالواقع نقطة الخلاف بين القول بقومية عربية وقوميات عربية .

وقد ظهر في المدة الاخيرة من يحاول ان يوفق بين القومية العربية والعقل الحديث ، اى ان يحدّ العروبة تحديدا جديدا وفق الاتجاهات الحديثة في تحديد القوميات والحياة القومية . وهذا التحديد هو بمثابة رد على الذين يرون في الوحدة العربية خطوة اولى لوحدة اسلامية ، وان هذه الوحدة الاسلامية هي غاية الجامعة العربية المحتومة (٣) ، او من يرون ان العروبة والاسلام مسميان لشيء واحد او انهما متلازمان على الاقل ، كما ان هذا التحديد بطبيعته ايضا رد على الذين يرون ان هناك قوميات مصرية او سورية ، وليس هناك من قومية عربية لامة عربية واحدة

---

١) المصدر نفسه - ص ٣٩

٢) المصدر نفسه - ص ٤٥-٤٩

٣) الرسالة - عدد ٣٠ حزيران ١٩٤٧ - بقلم احمد حسن الزيات . راجع الهلال ايضا عدد اكتوبر سنة ١٩٤٣ ، كيف يحدد فيها عبد الرحمن عزام اسس الجامعة العربية

وسنتكلم عن هؤلاء لانهم يمثلون الفكر الحديث والاتجاهات العلمية الحديثة التي قد تؤدي الى ايجاد حل مرض لهذه المسألة الصعبة الحل .

وبالحقيقة تقوم القومية العربية بالنسبة للمجموع الاكبر من القائلين بها على مجموعة من الاحاسيس الفطرية اهمها :

١ . الفخر برسالة الاسلام

٢ . الفخر بما تمتعه الامبراطورية العربية .

٣ . الفخر بالحضارة العربيه وبالادب العربي . ويرافق هذا الشعور غبطة لما حققته الحضارة الغربية ولتزعمها العالم (١) .

ويجب ان نعرف هنا ان الوطن بالنسبة للمسلم هو بالدين وباللغة التي هي مقدسة ايضا ، فكلمة وطن بعد انتشار الدعوة الاسلامية اصبحت تعني " دار الاسلام " وما عداه دار الحرب . وجامعة الوطن ، جامعة الاسلام (٢) . فالقومية في العالم الاسلامي هي دينية قبل كل شيء . فغايتها من الاستقلال طرد الاجانب المسيحيين ، او الاستغناء عنهم ، من دار الاسلام ، وتثبيت القيم الاسلامية . فحركة الجامعة الاسلامية قامت على هذه القواعد ، والحركة هذه هي اول حركة وطنية ظهرت في الشرق المسلم ، ولكنها لم تتمكن من الثبات عندما ظهرت القومية التركية والايرانية ، فتقلصت هي بدورها على قومية عربيه اسلامية غايتها اعادة مجد الامبراطورية العربية (٣) .

ومشكلة الدين والقومية هذه ، اتت بنتيجة طبيعة الاسلام ونظرته الخاصة ، كما نعرف ، لرسالة الدين الى المجتمع وعلاقته بهذا المجتمع . وشرط النظرة القومية الى هذه العلاقة الفصل بين الاثنين ، اي فصل الدين عن الدولة او اخضاع الدين في الشؤون الاجتماعية لسيطرة الدولة . ولكن الفكرة العربية لا تريد ان تبني قوميتها على الفخر بالاسلام وما حققه الاسلام فقط ، وتترك امره الى الفرد كفرد ، بل تريد من الاسلام ان يكون عنصرا من هذه القومية ، اي ان يكون عاملا اساسيا في

١) H. A. Gibb - The Arabs. p. 28

٢) الهلال - عدد العرب والاسلام - بقلم محمد كرد علي ص ٧٤

٣) Gibb - op. cit. - ص ، ٢٨ - ٢٩

تكوين الامة .

والذين يمثلون الفكرة الجديده في النظرة العربية قليلو العدد جدا . واحسن من يمثلهم الدكتور نبيه فارس والاستاذ نقولا زيادة ، وكلا الاستاذين نشآ في سوريا وعاشا مدة من الزمن في الغرب.

وتتلخص نظرة الدكتور فارس الى هذه القضية، في " ان العرب لم يدخلوا في التاريخ العالمي الا عندما خرجوا من الصحراء ، ودخلوا في حوض البحر المتوسط وساروا في مجرى حضارته "(١) وهو لا يرى " ان هناك فرقا اساسيا بين حضارة العرب وغيرهم من شعوب حضارة البحر المتوسط ، ولا فرق اساسيا بين قطر وقطر من الاقطار العربيه . وجل ما هنالك فروق اقليميه وتفاوت عارض لا يمت الى الجوهر بصلة "(٢) ويقترح لذلك ان يسلك العرب طريق الوحدة الى ان ينتهوا الى ولايات عربية متحدة تضم خمسين مليونا من العرب في سبع ولايات على الاقل (٣) . وهو يعتقد ان العروبة " هي اساس صالح للتقدم البشري قادر على خلق جزء من حضارة العالم (٤) " كما و" انها اسلوب من اساليب التطور والنمو وطريق من طرق الحياة تسير دوما نحو الرشد والرشاد ، وعقيده في العلاقات الانسانية متأصلة في قيمة الفرد وكرامته وتستوحي فكرة الحرية المتطورة " (٥) .

وفي بحثه عن العوامل التي تكّون الوحدة ينفي ان تكون العنصرية احدى هذه العوامل لانه ليس هناك من امه ذات اصل واحد . وينفي كذلك جعل الرقعه الجغرافيه اساسا لهذه الوحدة لان الاجنبي الذي عاش بين ظهراني العرب قرونا واجيالا يصبح عربيا ، كما ينفي الاساس الديني لان الحضارة العربيه لم تقم على سواعد وعقول المسلمين وحدهم . ويعتقد ان اللغه والتربيه التاريخية هما دعائم الوحدة .

ويمكننا ان نرد على الدكتور من ناحيتي الموضوع ، الناحية الاولى المتعلقة بتحديد القومية او الوحدة كما يدعوها . والناحية الثانية المتعلقة باسلوب الحياه العربية او بنوعية العروبة .

---

١) الدكتور نبيه امين فارس - العرب الاحياء (بيروت ، ١٩٤٧) ص ٣٢
٢) المصدر نفسه - ص ٣٥
٣) " " ص ٥٨
٤) " " ص ٩٤ و ١٠١
٥) الدكتور نبيه فارس - فيوم عربيه (بيروت ، ١٩٥٠) ص ١٥

فالدكتور يعطي مثلا على ان الملك جورج البريطاني هو بريطاني من جهه اللغة والتربيه التاريخيه ، ولكن اللغة ليست عنصرا اساسيا مكونا للامة . هي رابط تربط بين مجموع الامة ، وتستخدم كأداة لاظهار فكر الامة . لكن وجود الامة لا يتوقف على اللغة ، بل اللغة على وجود الامة . فالملك جورج لو تعلم الانكليزية في فرنسا ولم يتكلم غيرها ، وتربى تربيه انكليزية في فرنسا ايضا ، لن يكون انكليزيا ، بل عليه ان يعيش على ارض انكليزية وان يتفاعل مع المجتمع الانكليزي ، اي ان يصبح جزءا متفاعلا فيه ، لا جزءا منعزلا فيه ، ليصبح انكليزيا . ان شرط اللغة والتربيه التاريخية لتكونا جزءا من العوامل الرابطة للامة لا المكونة لها ، ان يكون الفرد الذي يحملها فردا في المجتمع ومن المجتمع .

واما الرقعه الجغرافيه فليست مهمه بالفعل اذا كنا نعني بها الحدود فقط ، فالحدود في كل العالم ليست من الوضوح بحيث تؤلف حاجزا تمنع كل امة عن غيرها من الامم . فالحدود تظل فقط التفاعل الاجتماعي بين امة واخرى ، ولكن المهم في امرها هي الارض بحد ذاتها ، فتفاعل المجتمع مع ارض معينه يجعل منها البيت القومي . فالمجتمع على ارض ذات حدود طبيعية هو العامل الاول في وجود الامة .

ومن الناحية الثانيه ، يرى الدكتور ان فصل الدين عن الدولة من واجبات الحربي ، اذا اراد ان يجمع الكلمة ويوحد الصفوف ويجاري العصر (١) ، وان تزول الطائفية من الحياه السياسية وان يثبت الحكم البلدي في جميع مدن الاقطار العربيه وقراها وان يشترك الشعب في الانتخابات الحرة وتدبير الحكم ، وتأسيس احزاب تقوم على المبادىء لا على الشخصيات والعائلات والاقطاع ، والعمل على وضع منهاج الزامي للتهذيب الوطني ومحو الاميه ، وترك حرية الصحافة . وبكلمة فأن المجتمع الذي يريده الدكتور هو مجتمع ديمقراطي سليم بكل معنى الكلمة . ومن طبيعه الديمقراطية المساواة في الحقوق السياسية على الاقل . ويعتقد الدكتور ان العروبة التي هي عقيده

---

١) الدكتور فارس - العرب الاحياء - ص ١٠٦

متأصلة في قيمة الفرد وكرامته وتستوحي فكرة الحرية المتطورة ، تؤمن لهذا المجتمع الحريات الديمقراطية . وفي نظري انها لا تقدر لان المجتمع السوري والمصري الذي قد يقبل بهذه الامور ، لا يمكن ان يقبلها المجتمع العربي في الجزيرة . فالجزيرة العربيه لن تقبل المسيحي كمواطن وسيبقى دائما كأقليه لا يستمتع بحق المواطن ولا يمكنه ان يؤدي نفس الواجبات طالما هو غير مسلم .

فالعروبة المنطلقة التي يريدها الدكتور ، ليست من نتاج الجزيرة العربية ، ولا يمكن للجزيرة ان تأخذ بها ، لان الجزيرة مجتمع قائم بنفسه ، وله طبيعته الخاصة ونفسيته الخاصة التي لا تتفق مع نفسية المجتمع المصري او السوري ، التي برهنت على انها تقدر ان تفهم وتأخذ بالفكر الحديث ، وبالنظرات الاجتماعية الحديثة .

وممثل النظرة العروبية الاخر ، الاستاذ زيادة في كتابه " العروبة والقومية " وفي طبعة هذا الكتاب المنقحة " العروبة في ميزان القومية " يقول بأن اللغة والتاريخ هما العاملان الاساسيان في القوميه . ويقول ان الامة هي نتيجة هذا الشعور . وهذا الشعور لا يوجد " الا متى توفرت الصفات المشتركة التي تمكن الافراد بأن يدركوا بأنهم يختلفون عن غيرهم . وهذه الصفات المشتركة تبدأ بسكناهم بقعة من بقاع الارض يتمتعون بخيرها على نظام مشترك "(١) . ويرافق ذلك فلسفة في الحياة عامة اساسها التاريخ والتقاليد والاختبارات والافكار واللغة والاداب المنتزعة من صميم حياتهم الماضية والحاضرة والتي تحدّد لهم اهدافهم المستقبله وتقيم لهم خطتهم في الحياة .

وهو يعتقد ان العرب امة انتجتها ثلاثة عوامل " هي العنصر والرقعة والتاريخ " ، ويسمي الاستاذ هنا احد العوامل الرئيسية التي يقول انها تؤلف القومية وبالتالي الامه ، اعني اللغة . وقوله ان الامة نتيجة القومية يعني جعل السبب مسببا . فالقوميه سببها وجود امة معينة تعي وجودها وتتنبه لوحدة حياتها ولشخصيتها ومميزاتها ولوحدة مصيرها . فهي منبثقة من الامة وليست الامة منبثقة عنها .

---

١) نقولا زيادة ـ العروبة في ميزان القومية (بيروت ، ١٩٥٠) ص ٦٦ ، ٦٧

واما ان تكون الرقعة او الوحدة الجغرافية ، هي من عوامل تكوين الامة العربية فأمر يحتاج الى اظهار هذه الوحدة الجغرافية . فبين الهلال الخصيب والجزيرة العربية صحراء واسعة كبيره ، وبينه وبين مصر صحراء اخرى ، وليس هناك من رابط جغرافي بينه وبين ليبيا او المغرب . فالوحدة الجغرافية تقوم على حدود معينة اما جبال او صحراء او غيرها من الحواجز المانعة كالبحر . ويجب ان تكون الرقعة التي ضمن هذه الحدود مترابطة ، كأن تقوم فيها سلسلة جبال واحدة او سهول واحدة او انهار متشابكة ضمنها فقط . والرقعة العربية تخلو من هذه الشروط . واذا كانت الصحراء موجودة على حدود العالم العربي ، وبها كان يخرج دفعات من الدم الجديد ، فليس هذا بدليل على وجود هذه الوحدة الجغرافية لان البحر كالصحراء موجود من الجهة المقابلة .

واما العنصر فيقول عنه الاستاذ ، ان انتشار العرب في هذه الديار كان مستمرا ومتتابعا . والديار هنا يجب ان تكون الهلال الخصيب . لان انتشار العرب لم يحدث الا فيه . واما الموجات السامية التي قد يعني بها الاستاذ العرب فلم تنتشر الا فيه ايضا وقليلا في مصر . والعدد القليل من الفينقيين في قرطاجه لم يكن له اثر كبير ولم يختلط مع السكان هناك . والعرب الذين دخلوا الغرب بعد الفتح الاسلامي انحطوا الى درجة البربر القاطنين تلك الديار .

والعناصر التي يتألف منها الهلال الخصيب ، لا تتألف منها مصر ولا ليبيا ولا المغرب ولا الجزيرة العربية . فكل بلد من هذه البلدان مؤلف من عناصر متباينة لم تمتزج مع بعضها ولم تتفاعل في حياتها تفاعلا يجعلها مجتمعا واحدا حتى في عصر الدولة الاموية والعباسية . ووحدة العنصر الذى ينشأ عن التفاعل الطويل الامد بين عدة شعوب على ارض واحدة ، ليس موجودا في العالم العربي .

واما وحدة التاريخ في العالم العربي فمفقودة ايضا . ولا يمكن كتابة تاريخ مشترك لامم العالم العربي الا بعد الفتح الاسلامي ولمدة قصيرة . فتاريخ الامم هو تاريخ ارضها وشعوبها وفكرها منذ فجر التاريخ . فالتاريخ ابتدأ يفعل في الشعوب منذ عصوره الغامضة ،

واثره لا يكف عن الفعالية ابدا . فالاثر السوري مثلا في الحضارة الاسلاميه لم يكن له وجود لولا ان الحضاره السورية ، كانت قد تبلورت وفعلت فعلها في تلك الحضارة . فلا يصح ان ننظر الى التاريخ على انه يبتدىء من فترة معينة ، في العصور الجليه ، ونترك ما قبلها على انه لا اهمية لها . فهذه النظرة وليدة عصبية دينية نشأت بعد ظهور الاسلام واعتبرت كل ما هو جاهلي كفرا . ان وحدة التاريخ هي وحدة لا تتجزأ اى " كل " ولتكون " كلا " يجب ان ننظر اليها من بدايتها الى نهايتها نظرة موحدة كلية .

وهكذا نرى ان شروط القول بأمة عربية غير وافية ، وانه يجب ان لا تعني كلمة عرب امة عربية واحدة ، فالقومية العربية لا تقوم على عناصر قوميه خالصة ، او ان العناصر التي تتألف منها ليست كافية لان تجعل من العالم العربي امة واحدة ذات ارض واحدة ومجتمع من الناس واحد ، بل ان العناصر هذه تجعل من هذا العالم اما يدين اكثرها بالاسلام ويتكلم العربيه ، ولكنه ليس مجتمعا واحدا مترابطا في الحياة ، فهو مجتمعات متباينة وذات نفسيات متباينة ، مطامحهم مختلفة واهدافهم السياسية متوزعة .

وقبل ان اختم هذه الاطروحة اريد ان اقول ان النتائج التي يؤدى اليها مثل هذا القول هي نتائج نافعة لهذا العالم . فالذين يعتبرون ان القول بحركات قومية سورية ومصرية ، هي حركات اقليمية او شعوبية ، وان مثل هذه الحركات تؤدى الى التنافر والخصام والى الانشقاق بين العرب ، لا ينصفون هذه الحركات . فهم يرون ان على العرب جميعا ان يتحدوا ويلتفوا حول فكرة تقيهم الغوائل ، وهذه الفكرة تعتبر ان العرب وحدة ، وان كل حركة لا تدور حول هذه الوحدة تعود بالضرر على الجميع . وفي رأى ان العرب وحدات ، وانه اذا قامت دولة عربية موحدة في العالم العربي فسيكون ذلك ببسط احدى الدول الكبرى العربية سيطرتها على هذا العالم وفرضها على الجميع سلامها ، كما ان دوله موحدة تعني اعطاء الشعوب العربيه في حضرموت ومسقط وعمان والبحرين او في مراكش وليبيا والسودان حق تقرير مصير سوريا او مصر ، الامر الذى لا يرضى به السورى الواعي ولا المصرى الواعي .

والقضية في نظري تختلف في جوهرها . فالتعاون بين الامم العربية شيء وكون هذه الامم وحدة اى امة شيء آخر . فهذه يمكنها ان تتعاون معا بمحافظة كل وحدة من وحداتها على شخصيتها وقوميتها وتقوية نفسها لتتمكن ان تخدم المجموع العربي خدمات جلى وفعّالة ، الامر الذى لا يمكن ان تعمله الا اذا قوّت نفسها قوميا . وتعاونها يكون بأن تتحالف وان تقوّى روابطها الثقافية ، ولكن لا يمكن لها ان تكون وحدة لانها ليست وحدة بالطبيعة ، وقيام دولة واحدة الان لن يجعل منها امة الا اذا زالت الاسباب الطبيعية ، واصبح العمران قائما بين هذه الامم وجعلها مجتمعا واحدا ، وقد يأتي هذا في السياق الطويل ولكن لا نعرف متى واذا كان سيأتي .

فتعاون هذه الامم مع المحافظة على قومياتها وعزتها القومية يعطيها بأسا وقوة . لان مجموعة من الامم قوية في نفسها وفي فكرها وفي مثلها العليا ، حرة بأن يكون لها مكان تحت الشمس وان تساهم في الابداع الحضارى وفي كتابة التاريخ .

نشوء فكرة سوريا الكبرى وتطورهـــا

١ــ اثر في بدء الوعي القومي في البلاد السورية ، حادثان اساسيان : الفتح المصري وما حمله معه من اثر في التنظيم الاداري وفي اعطاء الحقوق الدستورية للطوائف المسيحية وكانت محرومة منها . وفي اثارته الروح القومية في عصر لم يكن قد فقه معنى هذه الروح بعد . والحادث الثاني هو قدوم الارساليات التبشيرية وفتحها المدارس في مختلف مناطق البلاد .

ولكن هذه النهضة اتخذت طريقا مخالفا لطبيعتها تحت تاثير الحركة الادبيه الجديده . فناصيف اليازجي واهتمامه باللغة والادب العربي اهتماما زائدا واعتباره هذا الادب هو ادب سوريا الوحيد ، جعل البلبله تسود في فهم قومية هذه البلاد . ونرى هذه البلبله ظاهرة في كتابات بطرس البستاني .

وقد اثرت كذلك الجمعيات العلمية التي ظهرت في الفترة الاولى من النهضة ، كالجمعية السورية والجمعية العلمية السورية والجمعية المشرقيـــــه .

وفي الفترة الثانية من هذه النهضة وكانت البلاد قد تقدمت في العلم ، ابتداء الصراع من اجل الاستقلال فظهر عدة رجال تولوا مناصب عاليه في الدولـــه . وناهضوا الاستعباد الحميدي . وظهرت جمعية سرية هي الاولى من نوعها في عصر النهضة وكانت غايتها توحيد سوريا وفصلها عن السلطنه العثمانية .

كما ان هذا الصراع جاراه صراع فكري حول قومية هذه البلاد . وظهرت فكرة العثمانية التي كانت ترمي الى جعل السرلطنه العثمانية امة واحدة . ثم ظهرت الجامعة الاسلامية التي استغلها عبد الحميد لتدعيم سلطنة ، وطوال هذا الصراع كان هناك خلاف حول قومية الشعب هنا ، فمنهم من ينظر الى الجزيرة العربية كمصدر وحيه ويدعو نفسه عربيا ، ومنهم من ينظر الى سوريا كمصدر وحيه ويدعو نفسه سوريا .

وخلال العصر الحميدي ظهرت عدة جمعيات سرية خارج سوريا وضمنها . وفي اواخر عهده ظهرت خصوصا جمعيات عديده كجمعية الاخاء العربي العثماني وكانت غايتها توطيد الصداقة بين العـــرب والعثمانيين . والمنتدى الادبي الذي نشاء كاد ادبي ثم ظهرت له فروع في مختلف انحاء سوريا . والجمعية القحطانية وجمعية العهد والعربية الفتاة وكلها كانت جمعيات سرية ترمي الى فصل سوريا والعراق عن الحكم العثماني . وظهرت ايضا جمعية النهضة اللبنانية التي كانت ترمي الى استقلال لبنان وتكبيره ، وكان لها فروع في المهجر وفي مصر ولبنان .

وعلى اثر انتهاء الحرب العالمية الاولى ، والثورة العربية الكبرى ، احتلت سوريا جيوش افرنسية وانكليزية وعربية على راسها الامير فيصل بن الحسين ، الذى انتخبه الشعب ليمثله في مؤتمر الصلح . وقد قامت حركات ومساعي عديده في تلك المدة لبقاء وحدة سوريا بعد ان قرر الحلفاء تقسيمها بينهم . ومن هذه المحاولات قيام المؤتمر السورى العام لمواجهة لجنة الاستفتاء الاميركية التي كانت قد حضرت الى سوريا لمعرفة وجهة نظرالشعب مباشرة . وقد كانت قرارات المؤتمر وتقرير لجنة الاستفتاء يؤيدان وحدة البلاد السورية . ولكن انتصار السياسات الاجنبية قسم البلاد الى دويلات عديده واتجه العمل في هذه البلاد الى العمل من اجل الوحدة السياسية فقط والغاء الانتداب ، فقامت عدة مؤتمرات كالمؤتمر السورى الفلسطيني في جنيف ، وقامت الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ وقامت مؤتمر الوحدة السوريه سنة ١٩٢٨ ولكن كل هذه الامور لم تؤد الى نتيجة ايجابية بل بقيت البلاد مقسمة الى دويلات وقبل بالامر الواقع كأنه امر نهائـــــي .

الجزء الثانـــي

١ــ نشأت في البلاد حركات ثلاث لتوحيدها ثانية بعد ان فشلت بقية الحركات . واول هذه الحركات ، حركة الحزب السورى القومي الاجتماعي الذى ظهر للوجود سنة ١٩٣٥ وكان قد تاسس سرا سنة ١٩٣٢ . وهذا الحزب له نظرته الخاصة الى سوريا فهو يرى فيها انها امه تامه ولها قضية خاصة بنفسها لا علاقة لها مع غيرها من القضايا . فهو يحدد القوميه تحديدا خاصا وعلى ضوء هذا التحديد يبنـــي نظريته في القومية السورية . وهذه القومية لا تقتصر على الناحية السياسية ، بل هي بالنسبة له نظرة جديده الى الحياة وموقف معين من الشرق والغرب ، ومن الادب . وللحزب مبادئ اصلاحية تقوم على فصل الدين عن الدولة ورفع الحواجز بين مختلف الطوائف ومنع رجال الدين من التدخل في شؤون القضـــاء القومي .

ولحزب برنامجه السياسي الخاص وطريقة معالجته الامور تختلف عن غيرها . وموقفه من قضية الاسكندرون ثم عدم اشتراكه في حرب فلسطين ونظرته الى قضيتها كقضية سورية خالصة ، جعل من الحزب شيئا فريدا في نوعه .

٢ــ واما الحركة الثانية التي نشأت لتوحيد سوريا فهي حركة الملك عبد الله بن الحسين الذى اخذ يفكر بامر توحيد سوريا منذ سنة ١٩٤٠ ولم يظهر تفكيره في شكل رسمي وجدى الا سنة ١٩٤٣ على اثر تقديم

بعض المجاهدين القدماء تصميمين لمشروع وحدة واتحاد . يقوم المشروع الاول على قيام دولة سورية كبرى يكلها الملك عبد الله . ويقوم المشروع الثاني على اساس اتحاد بين الدويلات السورية تحتفظ فيه كل دولة باستقلال اداري ولكن يكون الملك عبد الله هو ملك هذا الإتحاد . ويرتكز الملك في مطالبته بالوحدة على قرارات المؤتمر السوري العام سنة ١٩٢٠ وعلى انه وريث والده في قيادة الثورة العربية التي كانت غايتها تحرير سوريا وعلى وعود الحلفاء في تحرير سوريا وحفظ وحدتها .

ولكن المشروع لاقى صعوبات جمة من قبل الحكومات العربية التي لا تثق بالملك عبد الله والتي بين بعضها وبينه عداوات شخصية . ورفضت سوريا المشروع على اساس انها جمهورية ، وان الشعب اختار الجمهورية وان الاردن جزء من سوريا فيجب هي ان تعود الى سوريا لا ان تعود سوريا الى الاردن .

ويختلف هذا المشروع عن مشروع الحزب السوري القومي الاجتماعي في انه يقتصر على الناحية السياسية اي ان غرضه الاساسي هو الوحدة السياسية بينما غرض الحزب ايجاد نهضة قومية وبعث الامة السورية .

٣ — واما المشروع الثالث فهو مشروع الهلال الخصيب ، وقد ظهر لاول مرة مع ظهور مشروع سوريا الكبرى في كتاب ازرق اصدره نوري السعيد ، لا يختلف عن التصميم الذي قدمه المجاهدون القدماء . وفكرة توحيد سوريا والعراق فكرة قديمة ، فكر فيها العازوري وقررها المؤتمر السوري العام والمؤتمر العراقي وكانت تسعى اليها جمعية العهد السرية . ولا يختلف المشروع هذا في ارتكازاته عن مشروع سوريا الكبرى ، لكنه تطور بعد حرب فلسطين تطورا جديا فبحث في امره في عهد حسني الزعيم ، ثم تحدثت عنه الحكومتين السورية والعراقية حديثا جديا قبل انتهابات الجمعية التاسيسية وترك امره للجمعية لتبت فيه ولم يحدث حواليه اي شيء جديد .

الجزء الثالث

هنالك نظريتان مختلفتان حول اسم سوريا واصله ومدلوله . احداهما تقول ان اصله من (صور) والاخرى تقول انه اختصار اسم اشور . ويظهر ان النظرية الثانية مع بعض التحوير هي الاصح ، لان المنطقة التي كانت تقع فيها اشور اطلق عليها اسم (سورى) الذي امتد وعم سوريا كلها .

وقد اختلف العلماء حول الحدود السورية . فكثير من قدماء العلماء ادخل فيها الهلال الخصيب كله ، اي انها كانت تطلق على كل الامبراطورية الاشورية ، ثم اقتصرت على حدود سوريا الجغرافية المعروفة . واكثر هؤلاء العلماء من يونان ورومان وعرب يحددون سوريا من طوروس الى سينا ومن البحر الى الصحراء ، مع ان الكثيرين منهم يعتقد انها كانت تضم العراق ايضا .

واما حدود سوريا الحديثة فتختلف عن القديمة جدا اذ ان سوريا الان مقسمة الى دويلات عديده منها العراق والجمهورية السورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن .

واما حدود سوريا الطبيعية فظاهرة في تكوين الهلال الخصيب فجبال طوروس من الشمال وجبال البختياري المتصلة بطوروس من الشرق والصحراء من الجنوب ، والبحر من الغرب . وتظهر وحدة سوريا الطبيعية في تقسيمها الداخلي ، وفي انهارها الواحدة ، وفي وحدتها . الاستراتيجية . واذا كانت لم تعرف عند الكثيرين بانها مؤلفة من الهلال الخصيب ، فمن ذلك الا لان المؤرخين الاجانب وفقدان السيطرة القومية طمست هذه الحقيقة .

وتاريخ سوريا يدل في اتجاه هذه الوحدة . فاصول السوريين مختلفة ، منها السامي ومنها الاري ومنها الاسيوي الذي هو قريب من الاري ، ولذلك فالعقلية التي تتميز بها سوريا تختلف عن عقلية الساميين البحته الجزيرة العربية .

وقد قام في سوريا نتيجة لوحدتها تفاعل حضاري قديم وارامي واسلامي . فالتفاعل القديم نراه في العلاقات التجارية السلمية بين قرني الهلال الخصيب ، وفي العلاقات الروحية الدينية ايضا ، ونراه كذلك في اتجاه الدول العراقية نحو سوريا دائما . واما الدور الارامي فقد توحدت فيه لغة البلاد كلها فاصبحت الارامية ونشأ فيه تفاعل مع الحضارة اليونانية والرومانية وكان موقف السوريين من هذه الحضارة موقف الشعب الواحد الواعي لحقيقته . واما الدور الاسلامي فكان اهم هذه الادوار لانه لا يزال فاعلا فينا وقد اثر السوريون في العرب في نواح عديده منها فليسفي واجتماعي وفني واداري وعلمي ، مما يجعل القول ، بان العرب الذين دخلوا سوريا اصبحوا سوريين ، سهلا .

وتاريخ سوريا السياسي يدل على ان القرن الغربي من الهلال الخصيب كان دائما مغلوبا على امره . ولم يكن الامر كذلك بالنسبة للشرقي . ويدل كذلك على ان مركز سوريا الجغرافية جعل منها مطمعا للفاتحين ، ومن اخر وحدتها السياسية وعدم وعيها لحقيقتها .

: : : : : : : :

فلهذا السبب يختلف الكثيرون حول قومية سورية ، فمنهم من يقول انها جزء من امة عربية اكبر ولكن دراسة كلمة عرب تدلنا على ان هذه الكلمة تعني البدو والرحل وانه يجب اثبات فكرة الامة العربية لنتمكن من تسميتها بعربية . وفكرة الامة العربية حديثة اذ ان العمل حولها كان يقوم على اساس طائفي ديني ، اي مواجهة العالم الاسلامي للعالم المسيحي ، ولم تظهر فكرة القومية المجردة عن الدين ،

الا حديثا ولم تكن تضم كل الدول التي يقصد بها مفهوم الامة العربية . وفكرة القومية العربية المجردة هذه حديثة واحسن من يمثلها الدكتور نبيه فارس والاستاذ نقولا زياده . وكلا الاستاذين قد بحثاها من ناحية علمية الاول في كتابه "العرب الاحياء" و "غيوم عربية" والثاني في كتابه "العروبه في ميزان القومية" ولكن نظرتهما الى ان الامة تقوم على اللغة والتاريخ فقط غير صحيحة بالنسبة لمفهوم معنى الامة. فالامة واقع اجتماعي يتم مهما كان نوع اللغة والتاريخ . فاللغة والتاريخ هما نتائج وليس باسباب .

وفي النتيجة فان القول بقوميات عربية لا يحدث الضرر الذي يتوهمه القائلون بقومية عربية ، لان مجموعة امم صغيرة قوية في نفسها وفي قوميتها تقدر ان تساعد على خلق الحضارة ، كما لا تقدر عليه امه كبيرة متفككه الاوصال .

مجلات ودائرات معارف

Z.D.M.G. -	Vol. 25	
Hermes -	Vol. 3	
Syria -	Vol. 4	
J.A.O.S.	Vol. 61	
Isis	Vol. 27	
La Revue Phenicienne		Dec. 1919
Oriente Moderno		Vol. I
The Syrian World		Vol. III
Encyclopedia Brittanica		9th & 11th Eds.
Encyclopedia of Religion & Ethics		
Gesenius' Hebrew Dictionary		

Lammens,H.	La Syrie	Beyrouth, 1921
Leclerc	Histoire de la Medecine Arabe	Paris, 1876
Leonard, W.	The Epic of Gilgamish	Princeton, 1934
Luckenbill,D.D.	Ancient Records of Assyria & Babylonia	Chicago, 1927
McCalum,E.P.	The Nationalist Crusade in Syria	New York,1928
McDonald,D.B.	Development of Muslim Theology,Jurisprudence and Constitutional Theory	New York, 1903
Maspero	The Struggle of Nations	London, 1896
Meyer,Ed.	Histoire de l'Antiquité,tr.by Et. Combe	Paris, 1926
Moutran,N.	La Syrie de Demain	Paris, 1916
Naim, Elie	La Syrie, Ses Frontières	Paris, 1924
O'Leary,De.	Arabic Thought & its Place in History	London, 1930
O'Leary,De.	How Greek Science passed to the Arabs	London, 1949
Olmstead,A.T.	History of Syria & Palestine	New York, 1931
Paton,L.W.	The Early History of Syria & Palestine	New York, 1901
Paton,W.R.Ed.	The Greek Anthology, Loeb Chemical Lib.	London,1916-18
Perrier	La Syrie sous le Gouvernement de Mehemet Ali	Paris, 1840
Philippe,D.	Un Gouvernement Arabe à Damas	Paris, 1923
Pliny C.S.	Natural History	London,Bohn, 1857
Poincaré,R.	Au Service de la France	Paris, 1924
Polybius	The Histories.tr.by E.S. Shuckburg	London, 1889
Rabbath,Ed.	Les Etats Unis de Syrie	Alep, 1925
Ragozin,Z.A.	Assyria	London, 1891
Renan, Er.	Histoire Generale et systéme comparé des Langues Semétiques	Paris, 1863
Ristelhueber, R.	Les Traditions Françaises au Liban	Paris, 1819
Robinson & Osterly	A History of Israel	Oxford, 1934
Sarton, G.	An Introduction to the History of Science	Baltimore, 1927
Sfer, Abdallah	Traditions Françaises au Syrie et Liban	Paris, 1922
Smith, G.A.	The Historical Geography of the Holy Land	New York, 1896
Speiser,Eph.	Mesopotamian Origins	London, 1930
Spengler, O.S.	The Decline of the West.tr.by C.Atkinson	New York, 1947
Thoumin, R.	L'Asie Occidentale	Damas, 1928
Thoumin, R.	Histoire de Syrie	Paris, 1929
Tritton,A.S.	The Caliphs and their non-Muslim Subjects	London, 1930
Toynbee,Ar.	A Study of History. ah. by D.C.Somervell	Oxford, 1947
Volney, F.	Travels in Syria & Egypt	London, 1801
Xenophon	The March of the Ten Thousands, Tr. by G.H.Dakyns	London, 1901
Weil, R.	Phoenicia & Western Asia.Tr.by Er. Low	London, 1940
Woolley,C.L.	The Sumerians	Oxford, 1929
Wright,W.	Lectures on the Comparative Grammar of the Semetic Languages.	Cambridge, 1890

المراجع الاجنبية

Albright,W.F.	From the Stone Age to Christianity	Baltimore,1940
Arnold & others	The Legacy of Islam	London, 1931
Azouri,N.	Le reveil de la Nation Arabe	Paris, 1905
Antonius,G.	The Arab Awakening	London, 1938
Barton, G.A.	Semetic and Hametic Origins	Philadelphia,1934
Bliss,D.	Reminescences	New York, 1920
Bauchier,E.S.	Syria as a Roman Province	Oxford, 1916
Breasted,J.H.	Ancient Times	Boston, 1910
Brugsh	History of Egypt under the Pharoes	London,1879
Chapot,V.	La Frontière de l'Euphrate,de Pompée à la conquète Arabe	Paris, 1902
Clay,A.T.	The Empire of the Amorites	Yale Un. Press,1919
Conder,R.E.	Syrian Stone Lore	London, 1886
Conteneau,G.	La Civilisation D'Assur et de Babylone	Paris, 1937
Conteneau,G.	La Civilisation Phenicienne	Paris, 1949
Cook,Ste.	The Religion of Palestine in the Light of Archeology	London, 1930
Cook, S.A. & other Editors	The Cambridge Ancient History Vol. XI	Cambridge, 1936
Creswell,R.C.	Early Muslim Architecture	Oxford, 1932
Cumont, F.	Etudes Syriennes	Paris, 1917
Damascene,John	Barlaam & Joseph	Harvard Un.Press, 1937
Dana, L.P.	Arab Asia	Beirut, 1928
De Goje,M.J.	Mémoire sur la Conquête de la Syrie	Leiden, 1900
De Gontent-Biron, Comte R.	Comment la France s'est installé en Syrie,	Paris, 1922
Durant, W.	Life of Greece	New York, 1939
Dussaud,R.	Les Arabes en Syrie avant l'Islam	Paris, 1907
Embardt, W.C.	The Oldest Christian People	New York, 1926
Finegan J.	Light from the ancient past	Princeton, 1946
Faster,H.	The Making of Modern Iraq	London, 1935
Frankfort,H.A. & Others	Before Philosophy	London, 1947
Gibb, H.A.	The Arabs	Oxford, 1940
Haddad,G.	Aspects of Social Life in Antioch in the Hellenistic Roman Period	Chicago, 1949
Hegel,G.W.	The Philosophy of History,Tr. by J.Sibree	New York, 1944
Herodotus	Histories Ed. by Rawlinson	New York, 1864
Hitti,Ph.K.	History of the Arabs	London, 1943
Hitti,PH.K.	The Syrians in America	New York, 1924
Hourani,A.	Syria and Lebanon	London, 1946
Huart, Cl.	Histoires des Arabes	Paris, 1913
Jastraw, M;	The Civilization of Babylonia & Assyria	Philadelphia,1915
Jauplain,M.	La Question du Liban	Paris, 1908
Jung,Eugène	La Revolte Arabe	Paris, 1924
Kappers,Ariens C.U.	An Introduction to the Anthropology of the Near East in Ancient & Recent times,	Amesterdam,1934
Khairallah,K.	La Syrie	Paris, 1912
King,L.A.	History of Sumer and Akkad	London, 1910
Kohn,H.	A History of Nationalism in the East	New York, 1929